
اعيل العربي
دن المغربية
المؤسسة الوطنية للكتاب

إسماعيل العربي

المدن المغربية

المؤسسة الوطنية للكتاب
3 ، شارع زيروت يوسف
ـ الجزائر ـ













افريقية فقبالتها صقلية والارض الكبير (ايطاليا) ولايعدّى منها الى الاندلس ، فليست من بر العدوة . وقال ابن حوقل ان تونس يعدّى منها الى الاندلس ، وهي من افريقية ، فتكون من بر العدوة أيضا » (1)

قيمـــة مساهمـــات الجغرافييـن العـــرب

تمثل هذه النصوص التي نضعها بين يدي القارئي محققة مرتبة عن المغرب ومدنه ، حصيلة ماسجله الجغرافيون العرب في وصف هذه البلاد ، خلال الفترة بين القرن الثالث والقرن الثامن الهجري . وأما الفترة السابقة لهذه الحقبة ، فان الجغرافيين والرحالة العرب لم يكونوا قد اكتشفوا خلالها بعد جزيرة المغرب (أوبعبارة أدق ، تعوزنا الادلة التي تشير إلى أنهم استكشفوها) . وأما الفترة اللاحقة ، فهي ، في الحقيقة ، فترة خاوية توقف فيها مد الفكر العربي في شتى النواحي وأخذت اعراض الوهن والضعف تبدو عليه ، وهذا يصدق بصفة خاصة على الاستكشاف والوصف الجغرافي .

وفيما يتعلق بالفترة التي تهمنا ، فسيلاحظ القارئى في الصفحات التالية أن مساهمات الجغرافيين العرب في التعريف بالمغرب ومدنه ، ليست كلها في مستوى واحد من حيث عمق النظرة ودقة التحليل واصابة الحقيقة ، وأن بعض المتاخرين ينقلون كثيرا عن بعض المتقدمين (كما هي الحالة في التاريخ) وفي بعض الحالات ، دون اشارة الى المصادر التي نقلوا عنها ، وأن بعض الناقلين يصادفه التوفيق في اختيار ما ينقله ، والبعض الآخر لم يصادفه التوفيق .

ولقراءة هذه النصوص بطريقة مجدية وممتعة في نفس الوقت ، يقتضي الامر أن يكون القارئي على علم بالفترة التي كتب فيها كل قسم منها ، وبالظروف التي كتبت فيها ، وعلى معرفة بشخصية الكاتب الذي خطها . ولكن المعلومات المتوفرة في الكتب المتداولة في الوقت الحاضر ، نزرة يسيرة ، بل هي شبه منعدمة . فان من أعسر الامور أن يكون المثقف العادي لنفسه فكرة في هذا الموضوع دون أن يرجع الى عشرات الكتب المطبوعة النادرة والمخطوطات التي لايمكن الوصول اليها الا بعد جهد جهيد .

ولهذه الاعتبارات ، راينا تقديم فقرة وجيزة تلقي الضوء على شخصية الكاتب الذي اقتبسنا من عمله هذه النصوص ، وعلى الظروف التي احاطت بكتابتها ، ثم نردف ذلك بثبت

---

(1) تقويم البلدان (ص 121) .

بالمراجع التي يمكن للباحث الذي يريد التوسع أن يعتمد عليها ، ثم نقدم رأينا ، صراحة أو ضمنيا في قيمة المساهمة التي قدمها كل واحد من هؤلاء الكتاب للتعريف بمختلف نواحي حضارة المغرب العربي .

ومحاولتنا لتقدير قيمة هذه المساهمات ، لا تُعْفى القارئ ، بطبيعة الحال ، من بذل مجهود شخصي للمقارنة النقدية بين النصوص التي نقدمها اليه كاملة وحرفيا ، والخروج من هذه المقارنة بنتائجه الشخصية . على العكس ، فان الفائدة من هذه الآثار القيمة لا يمكن أن تكمل ، في رأينا ، الا اذا كانت قراءتها واعية ومركزة ومنهجية وهادفة .

اليعقوبي

اسمه الكامل ، هو أحمد بن يعقوب بن جعفر بن وهب ابن واضح (ابو العباس) ولكنه اشتهر باسم اليعقوبي (1) . كان جده الاعلى من موالي الخليفة المنصور ، وقد شغل في عهده خلال فترة معينة ، منصب حاكم ارمينيا ومنصب حاكم مصر ، ولكنه دفع حياته ثمنا لميوله الشيعية التي ورثها عنه حفيده ، أحمد ، مؤلفنا . وأما والد اليعقوبي ، فقد كان من كبار عمال البريد في العهد العباسي .

ولد اليعقوبي ببغداد ، ولكنه غادر هذه العاصمة مبكرا في بداية حياته ، فعاش مدة طويلة بارمينيا وخراسان ثم زار الهند وفلسطين ثم أقام بمصر مدة طويلة تمتع خلالها برعاية بني طولون . ومن مصر اتجه لزيارة المغرب .

وقد عرف اليعقوبي ، كما اشرنا ، بميوله الشيعية ، ومن ثم ، فقد كان من المؤرخين الاوائل القلائل الذين لم يكونوا يتحرَّجون في رواية الحقيقة كاملة وفي أن يقولوا في بني العبَّاس كثيرا مما كان يتحاشاه غيرهم .

لليعقوبي كتاب مشهور في التاريخ يحمل اسمه ، في جزئين يتناول الجزء الأول منهما تاريخ ما قبل الاسلام ويعالج الثاني التاريخ الاسلامي حتى سنة 202 هـ . وهذا الكتاب ، قام المستشرق هوتسما (Hotsma) بنشره في ليدن ، سنة 1883 ، ثم أعيد طبعهُ مؤخرا في بيروت.

---

(1) راجع : (Brock. GAL (SB, I/405 N° 3) ، معجم الادباء لياقوت (2/ 156) ، معجم المطبوعات (1948) تاريخ الاداب لجرجي زيدان (2/196) ، أكراتشكوفسكي : تاريخ الادب الجغرافي العربي (1/158) ، Reinaud, Introduction (I/LX1).

ولكن الكتاب الذي يهمنا والذي نقلنا عنه وصفه للمدن المغربية ، هوكتاب البلدان الذي وضعه في حدود سنة 278 هـ (و 905 م) ، أي قبل وفاته بقليل (في سنة 284 هـ) . وهذا الكتاب قام بتحقيقه المستشرق العلامة دوخويه ونشره في ليدن في سنة 1892 ، مع كتاب الاعلاق النفسية لابن رسته (1) في سفر يشكل الجزء السابع من مكتبة الجغرافيا العربية .

يبدأ كتاب البلدان بالديباجه المعتادة ثم يقول المؤلف - :

«إنني عنيت في عنفوان شبابي وعند احتيال سني وحدة ذهني بعلم أخبار البلدان . ومسافة ما بين كل بلد وبلد ، لانى سافرت حديث السن ، واتصلت اسفارى ودام تغربي ، فكنت متى لقيت رجلا من تلك البلدان ، سألته عن وطنه ومصره . فاذا ذكر لي محلة داره وموضح قراره ، سألته عن بلده ذلك ... وزرعه وما هو وساكنيه من هم من عرب أو عجم ... ودياناتهم ومقالاتهم ...» (2) .

وبعد هذه المقدمة ، يشرع المؤلف في وصف البلدان وفقا للمنهج الذي التزم به ويبدأ بوصف بغداد وصفا مستفيضا بحيث يستغرق ربع الكتاب (من ص 233 الى ص 369) . ثم يمضى فيصف بقية البلدان مقسما اياها الى اربعة أقسام : المشرق والمغرب والجنوب والشمال

وفي القسم الاول ، يصف ايران وتركستان وأفغانستان ، وفي القسم الثاني غربي العراق وجنوبي الجزيرة العربية ، وفي القسم الثالث يتحدث عن العراق الجنوبية والشرقية وشرقي الجزيرة العربية والهند والصين ، ويصف في القسم الرابع بيزنطة ومصر والمغرب .

يبدأ وصف اليعقوبي للمغرب من برقة ، كما سبق أن ذكرنا ، ثم يعرج نحو الجنوب ليخصص فقرات لكل من ودَّان وزويله وفزان ، ثم يعود الى الشمال ليتحدث عن طرابلس الغرب ، ثم يكرس صفحة مهمة للقيروان وتونس ، ليخرج بعد ذلك في اتجاه الزاب ويصف مدنه وصفا مخيبا للامل باقتضابه ، ولكنه مع ذلك يشتمل على ملاحظات قيمة للغاية ، ولا سيما ما يتصل منه بوصفه لا مارات أبناء سليمان بن عبد الله ابن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب (ص . 4 .) المنتشرة هنا وهناك في غرب الجزائر ، وهو ، فيما يخص هذه النقطة بالذات أهم مرجع لدينا .

---

(1) يبدأ كتاب البلدان عند صفحة 230 من هذا السفر .
(2) كتاب البلدان (ص 232) .

وبعد ما يستطرد ليصف الاندلس وصفا موجزا (في نحو صفحتين) يعود اليعقوبي ليلتقي بنا في تيهرت الرستمية التي كان عليها ابن أفلح ، ثم يصف تلمسان والبلاد المجاورة لها ويتجه نحو الجنوب ليقدم لنا وصفا يتسم بالاصاله والثراء لمدينة سجلماسة العتيدة التي كانت مدينة مزدهرة الحضارة في عهده ، والسوس الاقصى ، ثم يعود الى الشمال ليتحدث في ايجاز بالغ عن السوس الادنى وعن جبال الريف .

وهذا التقسيم للبلدان الذي يقوم على اساس الولايات ، بدلا من التقسيم المتعارف الذي يقوم على أساس الاقاليم ، تقسيم عملي سمح للمؤلف بوضع معلوماته التي تتسم بالاصالة والامانة في اطار سليم . وعلى الرغم مما يشوب وصف اليعقوبي من قلة التوازن ، ومن اهماله لكثير من مراكز العمران المعروفة في عهده في المغرب ، فان عناية المؤلف بمسائل جوهرية ، مثل الطبوغرافيا والصناعة والتجارة والفنون ، تجعل من هذا الكتاب أداة ثمينة للعمل ولايمكن لباحث في تاريخ المغرب ان يستغني عنه .

والمعلومات القليلة التي أوردها عن ابناء سليمان (شقيق) ادريس الاول وعن أماراتهم بالجزائر ، ينفرد بها اليعقوبي ، وهي على قلتها ، ذات قيمة عظيمة .

ومما يزيد من قيمة وصف اليعقوبي للمغرب ، أن هذا الوصف هو آخر ماوصل الينا عن الفترة التي سبقت انفصال المغرب عن الدولة العباسية ، بعد ما استقر العبيديون في شرقه ، والادارسه في غربه .

ووصف اليعقوبي للاندلس وصف مقتضب ، كما ذكرنا ، ولكنه ، مع ذلك قدم للبحث العلمي مساهمة قيمة ، خصوصا ، بتفرده بذكر خبر اغارة المجوس (النورمان) على قرطبة في سنة 225هـ (844م) (1) . وهذا الخبر هو الذي كان له الفضل الاكبر في الفات نظر الدوائر العلمية في أروبا الى أهمية آثار اليعقوبي ، وضمن له بعد ذلك شهرة واسعة بين الباحثين المهتمين بتاريخ الاسلام . ومنذ اكتشاف افرين frahn لهذه الرواية في عام 1838 ، ظهرت عدة أبحاث عن غارات النورمان في غربي البحر الابيض المتوسط (2) .

---

(1) راجع كتاب البلدان (ص 354) .
(2) راجع الأدب الجغرافي العربي لاكراتشكوفسكي (160/1) .

ظهرت في أواخر القرن الثالث الهجري أنماط متنوعة من الادب الجغرافي . فالى جانب المصنفات التي وضعت لاغراض عملية لسد حاجات الاداريين وعمال الدواوين والبريد ، صدر كتاب يستجيب لحاجة الاديب والمثقف لمعرفة أطراف المملكة الاسلامية وللاطلاع على ماينتشر فيها من انواع المنتجات وما تملكه من الموارد . وهذا الكتاب هو (كتاب البلدان) لابن الفقية الهمذاني الذي قام بوضعه في سنة 290هـ .

وفيما يخص شخصية ابن الفقيه ، فنحن لانعرف عنها شيئا ، فيما عدا ماذكره صاحب الفهرست ، من أن اسمه أحمد . والمرجح انه من ايران وينتمي الى مدينة همذان (1) .

وكتاب البلدان الذي كان يتكون في الاصل من عدة أجزاء ويبلغ مجموع صفحاته نحو الألف ، لم يصلنا منه سوى مختصر قام بوضعه رجل يدعى الشيرازي في حدود سنة 413 هـ (1022 م) (2) . وهذا الملخص هو الذي قام بتحقيقه المستشرق دوخويه ونشره في ليدن في سنة 1906 .

على أن المستشرق الروسي ، اكراتشكوفسكى ، يفيدنا بانه قد عثر منذ وقت على الجزء الثالث من كتاب البلدان الاصلي الذي يعتبر ضائعا (3) .

واذا حكمنا على ابن الفقيه على ضوء ملخص كتابه الذي بين أيدينا ، فاننا لا نتردد في القول بأن الرجل أعلم بالرواية والشعر ، منه بعلم المسالك والبلدان . فان كتابة يزخر بالشعر والقصص والحكم والامثال ولا يذكرنا بالجغرافيا ، سواء منها الوصفية أو الفلكية ، الا من بعيد .

وهذا الاتجاه الذي سيتحقق منه القارئى عندما يتصفح الفقرات التي اقتبسناها من الكتاب ، يبدو لنا واضحا منذ اللحظة الأولى التي نفتحه فيها ، ولا سيما إذ يقول :

---

(1) لم يذكره ياقوت ضمن الشخصيات التي ذكرها في معرض الحديث عن مدينة همذان في معجم البلدان (410/5) ، مع أن هذا المؤلف ينقل كثيراً عن كتاب إبن الفقيه . وذكره كشف الظنون (62/5) باسم الهمداني (بالدال المهملة) وقال أنه توفي سنة 340 هـ . وأن له ذكرا للشعراء المحدثين والبلغاء منهم والمفخمين .

(2) راجع مقدمتنا لجغرافية إبن سعيد المغربي (ص 35) .

(3) الأدب الجغرافي العربي (163/1) .

«فكتابي هذا يشتمل على ضروب من اخبار البلدان ، وعجائب الكور والبنيان . فمن نظر فيه من أهل الادب والمعرفة ، فليتأمله بعين الانصاف وليعرنا فيه حسن محضره وجميل رأيه ... فإني انما الحقت في هذا الكتاب ما أدركه حفظي وحصره سمعي من الأخبار والأشعار والشواهد والامثال» (1)

وانطلاقا من هذا الاتجاه الادبي الذي يمنح الاولوية للنقل والسماع ، فان حظ الكتاب من المشاهدات قليل . وهو . كذلك يعوزه التنظيم والتخطيط . وذلك الى جانب ضئالة مادته الجغرافية ، وهذا يصدق بالخصوص على وصفه لاقطار المغرب

وترتيب ابوابه يجري على النحو التالي :

يبدا الكتاب بالحديث عن خلق الارض والبحار المحيطة بها وما فيها من العجائب ، ثم يتعرض للفرق بين الصين والهند ، ثم يصف مكة والمدينة ، ثم يفرق بين تهامه والحجاز واليمامة والبحرين واليمن ، ثم يعقد فصلا لتصريف الجد إلى الهزل ، والهزل إلى الجد ، ويمدح الغربة والاغتراب .

وبعد ما يتعرض لوصف مصر والنيل والبلاد التي بجنوبها ، يصل الى المغرب عن طريق برقة ليصف هذه البلاد في نحو 12 صفحة ، ثم يعود الى الشرق ليتحدث عن الشام والعراق وبلاد الروم وفارس واذ ربيجان وارمينية ونهاوند والري الى آخره ، وكل ذلك في اضطراب في الترتيب واستطراد وحشو في القول بالشعر ، مما لايمكن وصفه .

الاصطخرى

وفي أواخر النصف الاول من القرن الرابع الهجري ، كان كاتب فارسي يتجول في مختلف الولايات الاسلامية ، اسمه ابراهيم بن محمد الفارسي الاصطخري ، ويعرف أيضا بالكرخي . نشأ باصطخر (2) في ايران الوسطى وطلب العلم وعني باخبار البلاد وما يتعلق بها ، ثم ابتعد عن بلدته لاسباب سياسية .

---

(1) كتان البلدان (ص 2 — 3) .

(2) راجع مقالة أشتريك ((Streck)) عن مدينة أصطخر في دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة العربية 244/2 ـ 252) . وكذلك معجم البلدان (211/1 — 212) .

وقد بدأ الاصطخري رحلته في المنطقة التي تمتد بين الخليج العربي وبحر قزوين والمحيط الأطلسي في سنة 289ـــ290 هـ . وكذلك زار الهند حيث اجتمع بالرحالة والجغرافي المعروف، ابن حوقل، الذي كان يسافر حاملا معه (المسودة) الاولى لكتاب الاصطخري . ولما عرض ابن حوقل بعض ملاحظاته على الكاتب ، كلف الاصطخري رفيقه في السفر بتنقيحه. (1)

ومهما يكن من أمر ، فقد تجول الاصطخري ببلاد العرب والشام ثم طاف ببلاد ماوراء النهر ، قبل ان يبلغ به الترحال شواطئي المحيط الاطلسي (2)

وفي كتاب مسالك الممالك الذي حققه ونشره دوخوية ضمن سلسلة المكتبة الجغرافية العربية في سنة 1871 ، يقدم لنا الاصطخري وصفا للممالك والمدن والبحار والانهار ويحدد المسافات بين المدن.

وقد ذكر دوخوية في مقدمة الطبعة التي قام بتحقيقها ان الاصطخري قد اعتمد كثيرا في هذا الكتاب على أبي زيد البلخي (3).

ووصف الاصطخري يقوم على أساس المناطق والولايات وليس على أساس الا قاليم الاصطلاحية المعروفة ، ولو انه يسمى الولايات أقاليم . والوصف يقتصر على البلدان الاسلامية دون سواها . وفي هذا السياق ، يقول المؤلف في مقدمته كتابه - :

فاني ذكرت في كتابي هذا أقاليم الارض . . . وقصدت منها بلاد الاسلام بتفصيل مدنها وتقسيم ما يعود بالاعمال المجموعة اليها ، ولم أقصد الاقاليم السبعة التي عليها قسمة الارض ، بل جعلت كل قطعة افردتها مصورة يحكى موضع ذلك الاقاليم ، ثم ذكرت ما يحيط به من الاماكن وما في اضعافه من المدن والبقاع المشهورة والبحار والانهار ، ففصلت بلاد الاسلام عشرين اقليما وابتدأت بديار العرب ، فجعلتها اقليما ، لان فيها الكعبة . ومكة أم القرى ، واسطة هذه الاقاليم (4)

---

(1) راجع مقدمتنا لجغرافية ابن سعيد (ص 38) .

(2) لم تسعفني المصادر التي رجعت إليها بأية معلومات عن سيرة الأصطخري . والنبذة التي أوردها هنا ، سيجدها القارىء موزعة في الفقرة التي خصصها أسترك في دائرة المعارف الإسلامية (المصدر المذكور) للحديث عن الأصطخري ، وفي دائرة معارف البستاني (744/3) ، ومعجم المطبوعات (453ـــ454) ، واكراتشكوفسكي (199/1) .

(3) قام المستشرق مولر (Moeller) بترجمة كتاب مسالك الممالك إلى اللغة الألمانية ونشر هذه الترجمة في هامبورج في سنة 1845 .

(4) مسالك الممالك (ص 2ـــ3) .

وبعد الجزيرة العربية يصف الاصطخرى بحر فارس (مع المحيط الهندي) ، ثم ديار المغرب التي يقسمها الى قسمين : الشرقي ، وهو المغرب الذي يمتد من برقة الى طنجة ، والغربـي ، وهو الاندلس . وبعد ذلك ، يصف مصر والشام وبحر الروم (البحر الابيض) ثم الجزيرة ثم العـراق ثم خوزستـان ثم فـارس كرمـان ثم بـلاد السنـد والهند ثم أذربيجـان ثم الجبال ثم الديلم ثم بحـر الخزر ثم بـلاد السنـد والهنـد ثم أذربيجـان ، ثم الجبـــال ثم الديلم ثم بحر الخزر ثم المفازة التي بين فارس وخراسان . واخيرا ، خراسان وما وراء النهر

على الرغم من أن الاصطخرى قد زار بلاد المغرب ، كما قلنا ، فان وصفه لهذه الولايات يتسم بالاختصار والاقتضاب كما سنرى في الصفحات التالية ، بحيث ان مجموع الصفحات التي خصصها للمغرب لا تتجاوز أربع صفحات (واكثر من هذا العدد قليلا للاندلس) .

ووصف الاصطخري للمغرب بالاضافة الى قصره ، فهو قليل القيمة ، حيث أنه لا يكاد يتجاوز دكر المدن والمسافات التي تفصل بينها ،مع ملاحظات عامة عن حجمها وموقعها ، وأهم الخصائص التي تميزها . وهو أيضا ، خال من كل اهمية تاريخية . فهو حينما يذكر الا دارسة الذين كانوا سادة المغرب ، يقتصر على القول بانهم «ملوك طنجة ، وبينهم وبين افريقية. تاهرت » (1) وهو كذلك حين يتحدث عن الاغالبة حيث لايزيد على القول بأنهم : «أولاد الاغلب الذي كان قد انفذ في أول أيام بني العباس ليكون في وجه ادريس بن ادريس » (2) .

وفيما يتعلق بقيمة المعلومات التي أوردها الاصطخري عن مناطق أخرى ، مثل جزر البحر الابيض وبلاد الصقالية ، فنحن نحيـل القارئـى الذي يرغب في معرفة ذلك الى كتـاب اكراتشكوفسكي العظيم القيمة « الادب الجغرافي العربي » (3) .

ولكنه بالرغم من النقص الذي يشوب هذا العمل ، بالقياس الى الكتب الاخرى المماثلة ، فان ممالا شك فيه ان كتاب « مسالك الممالك » قد ترك أثرا لم يقف عند حد الادب العربي وحده ، بل تجاوزه ، بواسطة الترجمة ، الى الادب الفارسي والادب التركي حيث ترجم الى اللغة التركية في عهد السلطان محمد الثالث ، في أواخر القرن السادس عشر (4) .

---

(1) نفس المصدر (ص 45) .

(2) نفس المصدر .

(3) (200/1) .

(4) نفس المصدر .

ابن حوقل النصيبي

لا نكاد نعرف شيئا عن أبي القاسم محمد بن حوقل ، اذا استثنينا الاستنتاج من اسمه بانه ينتمي الى مدينة نصيبين ، وما يخبرنا به هو في مقدمة كتابه من أنه غادر مدينة السلام للقيام برحلته في 7 رمضان سنة 331هـ من أجل الدرس والتجارة والكسب «لاستيفاء الرزق والاثر ، والشهوة لبلوغ الوطر» (1) .

ونحن لاندري بالضبط ما هي البلاد التي زارها ، وان كان مؤلفنا يخبرنا بانه سلك «وجه الارض باجمعة في طولها وقطعت وتر الشمس على ظهرها» (2) . ولكن المؤكد لدينا انه زار المغرب وتجول فيه من الشرق الى اقصى الغرب ، ومن الشمال الى أقصى الجنوب ، وان هذه الزيارة لم تكن زيارة عابر سبيل ، بل كانت مناسبة للدرس والتامل المتمهل ، سمحت له بارضاء رغبته في المعرفة وبممارسة أعماله التجارية . وكذلك تجول ابن حوقل في الاندلس وفي فارس والهند حيث التقى ، كما أشرنا ، بالاصطخري في سنة 340 هـ (3) . وهناك كلف الاصطخري زميله الاصغر منه سنا بتنقيح كتابه « مسالك » . وقد استجاب ابن حوقل لهذه الرغبة وقام بالمهمة ولكنه ادخل تعديلات جوهرية على الكتاب ، ولاسيما الاقسام التي تتعلى بمصر والمغرب والاندلس وصقلية والعراق وارمينيا وما وراء النهر . وبذلك ظهرت المسودة الاول التي اهداها الكاتب لسيف الدولة الحمداني ، وكأنها مسودة كتاب جديد اطلق عليه عنوان «المسالك والممالك» . وقد أتم ابن حوقل كتابه قبل سنة 367 ، وهي السنة التي توفي فيها . وهذا الكتاب هو الذي قام دوخوية بتحقيقه ونشره ضمن المكتبة الجغرافية العربية (ج 2) في ليدن في سنة 1873 ، واعاد تحقيقه المستشرف كرامرز (Kramers) على أساس أقدم المخطوطات (مخطوطه استنبول) ونشره في سنة 1938 ـ 1939 .

---

(1) صورة الأرض (ص 10) .

(2) نفس المصدر (ص 11) .

(3) راجع بشان رحلات إبن حوقل وأعماله : مقالة أرندنك (Arendonk) في دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة العربية (1/145—146) ، العقود اللؤلؤية (1/110) ، مقدمة كتاب الجغرافيا لابن سعيد (ص 38—39) ، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى (ص 39—42) ، الأدب الجغرافي العربي لكراتشكوفسكي (1/200—201) ، دوزي 3/181) Dozy, Hist. des Musulmans d'Espagne معجم المطبوعات العربية (1/90—91) .

وقبل ذلك ، نشر عدد من الباحثين شذارت من الكتاب تعالج بالوصف مناطق معية ، فنشر أماري قسما منه يتعلق بصقلية مع ترجمة فرنسية ، في باريس في سنة 1845 ، كما نشر القسم الذي يتعلق بعراق العجم مع ترجمة لاتنية في سنة 1822 .

والكتاب يقتصر على وصف البلاد الاسلامية أو البلاد التي يشكل المسلمون فيها اغلبية ، هذا اذا استثنينا حالات معينة ، مثل حديثه عن هزيمة الروس للبلغاروالخزر .

وأما الطريقة التي اعتمدها المؤلف لتقديم معلوماته في هذا الكتاب ، فهو يصفها (1) بقوله :

« وقد عملت له كتابي هذا بصفة أشكال الأرض ومقدارها في الطول والعرض ، وأقاليم البلدان ومحل الغامر منها والعمران من جميع بلاد الاسلام ، بتفصيل مدنها وتقسيم ماتفرد بالاعمال المجموعة اليها . لم أقصد الاقاليم السبعة التي عليها قسمة الارض ، لان الصورة الهندية التي بالقوذيان ، وان كانت صحيحة ، فكثيرة الخلط . وقد جعلت لكل قطعة أفردتها تصويرا وشكلا يحكى موضع ذلك الاقليم ، ثم ذكرت ما يحيط به من الاماكن والبقاع ، وما في أضعافها من المدن والاصقاع ، ومالها من القوانين والارتفاع ، وما فيها من الانهاروالبحار . »

والناحية التي لابد لنا من ابرازها بصفة خاصة في هذا العمل ، هي عناية ابن حوقل واهتمامه بالناحية الاقتصادية والتجارية . فهو يحدثنا عن انتاج كل بلد وكل مدينة ويذكر لنا ما اختصت كل منطقة من الانتاج الزراعي ، وطرق والقوافل التي تنقل المنتجات . بل ان ابن حوقل يذهب به الحرص على هذه الناحية حتى أنه يقدر دخل بيت المال في المغرب في عهد الزيريين ، من خراج وعشر وصدقات الخ . فيقول انه بلغ في سنة 336 ما يتراوح بين 700 و800 الف دينار (2) .

وقد عالج ابن حوقل بالوصف تجارة المغرب الخارجية فافاض في الحديث عن القوافل التي تاتي من مختلف بلاد المشرق ، وقدم لنا صورة تفصيلية لصادرات المغرب الى بلاد المشرق (3) .

---

(1) مقدمة صورة الأرض (ص 10)

(2) نفس المصدر (ص 94) .

(3) نفس المصدر (ص 42) .

ومعلومات ابن حوقل عن المغرب تدعمها وتكملها المعلومات التي يقدمها عن الاندلس ، حيث عاش فترة من الزمن في عهد عبد الرحمن الثالث ، أي في عهد ازدهار الحضارة الاموية في الأندلس . وهو إذ يورد معلومات قيمة عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الأندلس ويذكر قائمة للمحاصيل التي تصدرها الاندلس الى المغرب ، يبين لنا أيضا كيف كان المغرب والاندلس كلاهما مَعْبراً لطرق التجارة في الرقيق وغيره في اتجاه قصور الخلفاء والامراء في مصر والعراق والشام .

ولهذه الاعتبارات وغيرها ، فقد كان من الطبيعي أن يكتسب كتاب ابن حوقل صيتا وشهرة في المغرب وخاصة في الاندلس أوسع من الشهرة التي اكتسبها في المشرق . صحيح أن ابن سعيد المغربي قد هاجم بعض آراء ابن حوقل وملاحظاته هجوما عنيفا (1) ولكن هذا الهجوم انما يتناول ما قاله ابن حوقل عن الحالة الاخلاقية وتدهور روح الفروسية في الأندلس ، ولا يمس النواحي الأخرى ، كما أنه لا يمس ما ذكره عن المغرب .

المقدسي

سجلت الجغرافيا الوصفية تقدما عظيما في نهاية القرن الرابع الهجري ، بظهور كتاب «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» الذي وضعه محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء المقدسي (2) الشامي (شمس الدين ، أبو عبد الله) .

ولد المقدسي في بيت المقدس في سنة 335 هـ . ، وكان حفيدا لبناء اكتسب شهرة في فن البناء بحيث انه عهد اليه ببناء ميناء عكة في عهد أحمد بن طولون . وأما أمه ، فتنتمي الى اسرة تقيم في عمل قومس على حدود خراسان . هذا كل ما نعرفه تقريبا عن حياة هذا الجغرافي الذي لم يتردد باحث كبير في العصر الحديث وهو (sprenger) في أن يخلع عليه وصف «أعظم جغرافي في العالم قاطبة» . بل أننا لا نعرف حتى تاريخ وفاته على وجه

---

(1) انظر ما نقله عنه المقري في نفح الطيب (طبعة إحسان عباس — 211/1 وما يليها) من كتاب «الشهب الثاقبة في الانصاف بين المشارقة والمغاربة» حول تفنيد ابن سعيد لملاحظات ابن حوقل عن الأندلس والأندلسيين .

(2) نسبة إلى بيت المقدس ، هكذا ضبطه ياقوت الذي يسميه أيضا البشاري ، أو ابن البناء . ولكن بعض المؤلفين المحدثين وفي مقدمتهم أشبرينجر ((A. Sprenger)) الذي عني كثيرا بمؤلفنا ، يكتب الإسم بضم الميم وتشديد الدال .

التدقيق (1) . ولكن الذين كتبوا عن المقدسي يجمعون على القول بانه مارس التجارة واحترفها وطاف في كثير من البلدان الإسلامية ووصل إلى صقلية ، ولكنه لم يزر الأندلس .

وكثمرة لجولاته واستفساراته ، صنف المقدسي كتاب «احسن التقاسيم في معرفة (Sprenger) الذي لفت أنظار الدوائر العلمية في أروبا إلى قيمة هذا الأثر الجليل ، في دراسة خاصة عنه (2) سبقت الإشارة اليها .

وفي سنة 1877 ، قام المستشرق الهولندي ، دوخوية ، بتحقيق كتاب أحسن التقاسيم معتمدا على المخطوط الذي حمله معه اشبرينجر من الهند والذي أصبح يعرف فيما بعد باسم مخطوط برلين ، ومخطوط القسطنطنية ، ونشره في ليدن ضمن سلسلة المكتبة الجغرافية العربية (ج 2) ، كما قام بترجمته الى اللغة اللاتينية .

وبعد ذلك ، قام دوخوية بتعاون مع دوزي باصدار طبعة ثانية للكتاب ، مع تعليقات نشرت في باريس في سنة 1906 .

وأما المنهج الذي سار عليه المؤلف في وصف البلدان ، فان المقدسي نفسه ، هو أفضل من يشرحه حين يقول في مقدمة كتابه — :

«انني أسست هذا الكتاب على قواعد محكمة واسندته بدعائم قوية ، وتحريت جهدى الصواب واستعنت بفهم أولى الا لباب ، وسألت الله عز وجل ان يجنبني الخطأ والزلل ويبلغنى البنيان ، وعملت الدعائم والاركان . . . وما استعنت به على تبيانه سؤال ذوى العقول من الناس ومن لم اعرفهم بالغفلة والالتباس عن الكور والاعمار التي بعدت عنها ولم يقدَّر الى الوصول اليها الرجاء والامل ، فاعلي قواعده وارصف بنيانه : ما شهدته وعقلته وعرفته وعلقته ، وعليه رفعت

---

(1) راجع (581/410 Brock. GAL (SB مجلة المشرق (683/10) معجم المطبوعات (1773) ، مقدمة جغرافية إبن سعيد (39—40) ، كشف الظنون (62/6—63) ، اكراتشكوفسكي (209/1) ، وانظر أيضا :

Fischer (A), Al-Muqaddasi, Morgenlandischen Ges, Leipzig, 1906, p. 404 410 ; Amari (M) (Nallino), Storia dei Musulmani di Sicilia (II/354 – 363) ; Dozy (R), Recherches sur l'Histoire et la Litterature de l'Espagne (II/313).

وذلك إلى جانب المراجع المتقدمة .

(2) Sprenger, Dies Post und Reisen Routen des Orients (p. XVIII).

فما وقع عليه اتفاقهم اثبته ، وما اختلفوا فيه نبذته ، وما لم يكن بُدٌّ من الوصول اليه والوقوف عليه قصدته وما لم يقر في قلبي ولم يقبله عقلي ، اسندته الى الذي ذكره ، وقلت «زعموا» (1) .

ولكن الميزة الاساسية التي تميز عمل المقدسي ، ليست هذه الضوابط والقواعد المنهجية التي الزم نفسه بالاخذبها لنقد الروايات وللتحرى في الاقوال . فحسب ، بل ان الخاصة التي تجعل هذا الكتاب فريدا ، هي مادته الجغرافية الغزيرة التي جردها من الاساطير والخرفات التي جمعها كثير من الكتاب السابقين لاثارة شعور الدهشة والاستغراب .

وشعور المقدسي باصالة عمله وجدة مادته ، هو الذي جعله ينحى باللائمة على الجغرافيين السابقين ، لان المتاخر منهم ياخذ كتاب المتقدم فيعَدِّله و يحذف فيه ويضيف اليه ثم ينسبه الى نفسه وكأنه يقدم عملا من تأليفه . وفي ذلك يقول (2) : «واذا نظرت إلى كتاب الجيهاني وجدته قد احتوى على جميع أصل ابن حرداذبه وبناه عليه واذا نظرت في كتاب ابن الفقيه ، فكانما أنت ناظر في كتاب الجاحظ والزيـج الاعظم» (3) .

وازاء المجهود العظيم الذي بذله المقدسي لجمع معلومات أصلية وللتحرى عن مصادرها ، قد يجد البعض في الفخر الذي يساور المؤلف والذي يقرب من الغرور ، ما يبرره ، ولكن المرء ، مع ذلك ، لا يسعه إلا أن يبتسم حين يقرؤ مثل الجملة الآتية :

«واذا نظرت في كتابنا ، وجدته نسيـج وحده ويتيما في نظمه . ولو وجدنا رخصة في ترك جمع هذا الاصل ما اشتغلنا به . ولكن لما بلغنا الله تعالى أقاصى الاسلام وأرانا اسبابه والهمنا قسمته ، وجب أن ننهي ذلك إلى كافة المسلمين» (4) .

وطبقا للمخطط الذي رسمه ، فان المؤلف يقصر الحديث عن بلاد الاسلام ويهمل وصف ممالك الكفار ، وذلك لأنه لم يزرها ، حسب قوله ، ولانه لا يجد فائدة في ذلك !

---

(1) أحسن التقاسيم (ص 5—6) .

(2) نفس المصدر .

(3) يشير الى رسالة صغيرة الحجم ولكنها عظيمة القيمة للجاحظ بعنوان « التبصرة بالتجارة » كانت تعتبر ضائعة حتى عثر عليها المرحوم حسن حسني عبد الوهاب ونشرها في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق (المجلد 12 ص 323) .

(4) مقدمة أحسن التقاسيم .

ومن ثم ، فنحن لا نجد في الكتاب ذكرا لاروبا الغربية ولا لاروبا الشرقية . واذا تناول بالحديث مملكتي البلغار والخزر ، فذلك لان هذه البلدان كانت تضم عددا كبيرا من المسلمين.

ونظرا لأن المقدسي قد نقل وصفه للاندلس عن بعض الحجاج ، حيث لم يتمكن من زيارة شبه جزيرة ايبريا ، فان معلوماته عن هذه البلاد ، يشوبها بعض النقص والاضطراب .

ومعلوماته عن المغرب أحسن قيمة ، ولكنها هي الاخرى مشوشة وناقصة . واذا استثنينا المدن الرئسية التونسية والليبية ، وبعض المراكز الحضارية الكبيرة في المغرب . مثل فاس وسجلماسة وتيهرت والقيروان ، فسنبحث عبثا في كتاب «أحسن التقاسيم» عن اسماء مدن كانت مراكز للاشعاع الثقافي وللازدهار الاقتصادي ، مثل تلمسان والبصرة ، (المغربية) وأودغست وطبنه ، وغيرها . والمدن التي وصفها قد خلط في ترتيبها ، كما نلاحظ أن المعلومات التي قدمها عنها ثانوية ، والسجع والمحسنات اللفظية التي تميز أسلوبه لا تغني شيئا عن نقص المعلومات . ونحن لكى ندرك مدى قصور وصف المقدسي للمغرب يكفي أن نقارن هذا الوصف بوصف سابقه ، ابن حوقل ، أو لاحقه البكري ، لأية مدينة كبيرة في المغرب .

وفيما يتعلق بتسلسل وصف البلاد الاسلامية ، فان المؤلف ، بعدما يعرض علينا المعطيات الجغرافية العامة ، يتحدث عن اسماء الا ماكن المشتركة ، ثم يدخل في صلب موضوعه ويقدم وصفا لكل قطر . وهو يقسم القطر الى ثلاثة اقسام غير متساوية الحجم ، يورد الكلام في القسم الاول عن مدنه والاماكن العامرة فيه ، ثم يتحدث عن المناخ والزرع والتجارة والاوزان والنقود والمياه والمعادن واخلاق السكان والشؤون السياسية والخراج . وفي القسم الثالث ،يذكر المسافات والطرق .

ويبدأ المقدسي وصفه بجزيرة العرب ثم يعرج على العراق ثم يتجه إلى مصر والمغرب . وبعد ذلك ، يعالج بالوصف المناطق الشرقية التي يقسمها الى بلاد الهباطله وخراسان والديلم وارمينيا ومعها اذربيجان والجبل وخوزستان وفارس وكرمان والسند ومفازة فارس .

البكرى .

وفي النصف الثاني من القرن الخامس الهجري ، كان يعيش جغرافي أندلسي وهو



عبد الله بن عبد العزيز بن أيوب (أبوب عبيد الله البكري) (1) .

ينحدر البكرى الذي نجهل تاريخ ميلاده من أسرة من الأمراء تنتسب الى بكر بن وائل ، كانت تتوارث الملك خلال فترة قصيرة ، في عهد ملوك الطوائف ، على ولبة (2) Huelva وشلطيس Saltès (3) وما بينهما . ولكن والده ، عبد العزيز ، عجز عن الاحتفاظ بإمارته ازاء ضغط المعتضد بن عباد ، ملك اشبيلية ، الذي كان يحاول بسط سلطانه على الأندلس كلها ، فسلمها اليه وخرج بأمواله ، هو وولده سرا الى قرطبة .

ولما أتم البكرى دراسته على عدد من كبار العلماء ، وفي مقدمتهم العذرى وابن عبد البر ، التحق بخدمة محمدبن معن ، صاحب المرية الذي اصطفاه لصحبته ورفع مرتبته ثم بعث به في مهمة ديبلوماسية إلى باديس بن حبّوس ، صاحب غرناطه ، حيث استمر على ممارسة نشاطه العلمي حتى توفي في سنة 487 هـ (1094 م) (4) بعد حياة رخية عرف فيها ملذات الحياة وتذوق منها كثيرا .

---

(1) راجع عن أبي عبيد الله البكري : الصلة لابن بشكوال (ص 282) ؛ طبقات الأطباء (52/3) ؛ بغية الوعاة (ص 282) آداب اللغة العربية (84/3) مقالة كور(A. Cour) في دائرة المعارف الإسلامية ، مقدمتنا لكتاب الجغرافيا لابن سعيد (ص 43 ـ 44) ، مقدمة البارون دوسلان (الترجمة الفرنسية) للنص العربي لكتاب المغرب (ص 2 ـ 20) ، والحلة السيراء لابن الأبار (2 / 80ك) و (I/282) Dozy (R) Recherches Brock. GAL (1/627 S. 1/875) (1282 /) القلائد للفتح بن خاقان (ص 191) . الذخيرة لابن بسام (راجع فهرس القسم الثاني) المغرب لابن سعيد المغربي (1 / 347 348) الأدب الجغرافي العربي لكراتشكوفسي (274/1 278) ، كشف الظنون (453/5) . نفح الطيب (ط . ليدن) (134/2 – و160) . .Pons Boigues Enssayo Bibligrafico – Espagoles (p. 160)

(2) يطلق إسم حاليا في إسبانيا على ولاية كبيرة تبلغ مساحتها 10085 كيلو مترا . مربعا ، تتاخم مديرية اشبيلية وقادس من الشرق ، وحدود البرتغال من الغرب ، ومديرية بطليوس من الشمال .

(3) تقع جزيرة شلطيس عند مصب النهر الأحمر Rio Tinto ونهر أوديل odiel في خليج واسع وتحيط بها جزر أصغر منها . ويبلغ طول الجزيرة نحو ميل أو أزيد . والمدينة منها تقع في جهة الجنوب راجع : صفة الأندلس من الروض المعطار (ص 110 ـ 111) .

(4) هذه رواية حاجي خليفة التي اعتمدها دوسلان ودوزي واكراتشكوفسكي وكورت وسركيس في المصادر المذكورة . وأما إبن بشكوال (طبعة كوديرا (Codera) 1883ج 2 ص 282) وابن الأبار (الحلة 186/2) ، فيذكر كل منهما أن البكري توفي سنة 480 هـ .

والكتب التي خلفها البكرى كثيرة وكلها عظيمة القيمة وقد ذكر له حاجي خليفة المؤلفات التالية : أعلام النبوة . شرح النوادر لأبي علي القالي . شفاء عليل العربية . فصل المقال في شرح الامثال . اللالى على كتاب الامالى . المسالك والممالك . ومعجم ما استعجم (1) .

وكتاب المسالك والممالك الذي نشر البارون دوسلان منه القسم الذي يتصل بالمغرب ، يقوم أساسا على مجهود المؤلف الشخصي وعلى المعلومات التي استقاها من معاصريه من العلماء والمسافرين ولكن البكرى استفاد أيضا من الكتاب السابقين مثل ابن الوراق والجيهاني والمسعودي وابن رسته . على أن المؤلف ينقصه عنصر المشاهدة الشخصية فيما كتبه عن المغرب ، حيث أنه لم يتح له قط أن يجتاز مضيق جبل طارق . ومع ذلك فإن القسم الذي يتصل بشمال افريقية من الكتاب هو أغنى أقسامه .

والكتاب لا يقتصر في وصفه على المناطق الشمالية التي يتردد عليها التجار والمسافرون الأندلسيون ، بل هو يوغل في الجنوب فيقدم لنا تفاصيل عن جزء مهم من القارة السوداء تتسم بالدقة والاصالة . ومعرفة البكري بالمدن والموانئ والطرق البحرية والقبائل ، هي أيضا معرفة لا يمكن مقارنتها بمعرفة غيره . ومما يزيد من قيمة وصف البكرى ، طلاوة أسلوبه وعدم التكلف .

والكتاب أيضا منجم ثمين المعدن غزير بالمعلومات والتطورات التاريخية وبسلالات الملوك ، كما يزخر باقتباسات وشذرات من التقارير والوثائق الرسمية التي كانت لا تزال في حوزة الأمراء وارشفيات الدولة حينما كان يشغل منصبه الديبلوماسي الخطير الشأن .

صحيح ان معلومات البكرى عن بعض التطورات السياسية التي وقعت في المغرب بعدما ارتخت العلاقات بين هذا البلد وبين الأندلس ، لم تكن في مستوى المعلومات التي جمعها قبل ذلك . ومن هذا القبيل ، المعلومات التي يقدمها عن المرابطين . وفي المكان الأولى ، سيلاحظ القارىء أنه لا يوجد بين النصوص التي نقلناها عن مدينة مراكش نص للبكري ، وذلك لسبب واضح ، وهو أن هذا الكاتب لا يذكر في كتابه تلك المدينة التي أسسها يوسف بن تاشفين في سنة 465 هـ . بل أن البكري ليجهل اسم يوسف بن تاشفين نفسه ، وذلك على

(1) قيل أن البكري أخذ كثيرا مما تضمنه هذا الكتاب من رحلة تاجر يهودي اسمه ابراهيم بن يعقوب من أهل الأندلس . انظر معجم المطبوعات العربية (580/1) . وقد طبع الكتاب لأول مرة بتحقيق العلامة وستنفلد في جزئين في غوطه ، 1876 ـ 1877 ، ثم طبعه مصطفى السقا في أربعة أجزاء في مجلدين ، القاهرة ، 1949 .

وذلك على الرغم من أن المغرب كان قد أسلم اليه مقاليده في السنة السابقة وأنه استولى على مدينة فاس بعد ذلك بسنة واحدة .

وهذا الجهل والعجز عن متابعة تطور الأحداث في المغرب لا يرجع ، في اعتقادنا الى قلة اكتراث المؤلف ، أو الى النسيان ، أو الى استخفافه بحركة المرابطين ، كما ذهب دوسلان (1) فان البكرى قد عني عناية تشرفه بظهور دولة المرابطين التي خصص لها منذ بدايتها ما يقرب من سبع صفحات من كتابه ، أختتمها بقوله« وامير المرابطين اليوم ، وذلك في سنة ستين وأربعمائة ، أبو بكر بن عمر» (2) .

وعلى الرغم من ان حركة المرابطين كانت في جدالة ، بين قبائل صنهاجة ، في اقصى الجنوب ، وكانت حوادثها في البداية كلها تدور حول سجلماسة واغمات والسوس الأقصى ، وهي مناطق بعيدة ، فانه لا بد من الاعتراف بان البكرى كان دقيقا كعادته ، على الأقل من الناحية الشكلية ، فان يوسف بن تاشفين لم يبايع أميرا للمسلمين الا بعد وفاة أبي بكر بن عمر .

ومن جهة أخرى ، فقد كان اضطراب الحالة السياسية في الأندلس ، مثل اضطرابها في المغرب ، يمثل عائقا كبيرا للحصول على آخر المعلومات . وأزمنة الحرب والقلاقل لم تكن في يوم من الأيام من الأزمنة المفضلة للسفر ولجمع أخبار دقيقة .

وخلاصة القول ، أن القارىء الذي يقرأ كتاب البكري بما يستحق من العناية والدرس ، سوف لا يسعه ان يتشكك في وصف ابن سعيد المغربي لهذا العالم حين يقول «انه آخر علماء الجزيرة بالزمان وأجلهم في البراعة والاحسان ، كأن العرب استخلفته على لسانها والأيام ولته زمام حدثانها» (3) .

الشريف الادريسي

وفي القرن السادس الهجرى ، بلغت الدراسات الجغرافية العربية أوجها كما اتسعت

(1) راجع المقدمة الفرنسية لكتاب المغرب في ذكر أفريقية وبلاد المغرب .

(2) توفي أبوبكر بن عمر في سنة 462 هـ . قارن ما ذكره البكري عن دولة المرابطين بالعبر (182/2 — 189) والكامل (619/9 — 623) .

(3) المغرب (348/1) .

الرقعة المعمورة من الأرض المعروفة لدى العرب بصورة ملحوظة ، بفضل مساهمة عالم عربي كبير وهو الشريف الادريسي .

ينحدر أبوعبد الله محمد بن عبد الله ادريس الحمودي ، أمير المؤمنين العالي بأمر الله (1) ، من سلالة ادريس الأكبر الذي أقام دعائم دولة الأدارسة في أوليلي ، ثم بفاس ، الدولة التي دامت نحو قرنين من الزمن . وبعدما سقطت هذه الدولة تحت هجمات الأمويين المتوالية من الأندلس ، وهجمات العبيديين من الشرق ، قامت للادارسة دولة أخرى في الاندلس ، باسم الدولة الحمودية ، في عهد ملوك الطوائف كانت مالقة Malaga مقرا لها في المرحلة الأولى ثم قرطبة ، حيث استحوذ علي بن حمود على الخلافة في مرحلة تالية . ولكن الأدارسة سيأفل نجمهم في الاندلس ويعودون الى سبتة ، القاعدة التي انطلقوا منها للاستيلاً على الحكم في شبه جزيرة ايبيريا .

وفي سبتة ولد أبو عبد الله في سنة 493 هـ وأخذ علومـه الأولى . ومـن هناك انتقل إلى قرطبة حيث أتم دراسته (2) ، قبل أن يقوم بعدة رحلات حملته بعدما تجول في الأندلس نفسها ، حيث أنه لم يتح له قط أن يجتاز مضيق جبل طارق . ومع ذلك فإن القسم الذي يتصل

---

(1) هكذا ورد نسبه في مخطوط اكسفورد لنزهة المشتاق وهذا التسلسل تؤكده شجرة النسب التي أوردها له الصفدي وهي كما يلي : محمد أبي محمد بن عبد الله بن إدريس بن يحي بن علي بن حمود بن ميمون بن أحمد بن عبد الله بن عمر بن إدريس (بن إدريس) بن عبد الله بن الحسن بن علي إبن أبي طالب (ض) راجع الوافي بالوفيات (1/163—164) .

وانظر كذلك :

Reinaud Introduction (p. CXIII - CXXIV) : Amari. Storia Dei Musulmani di Sicilia (3 452 - 460) : Blochet. Contribution à l'étude de la Cartographie chez les Musulmans (Bult. de l'Académie d'Hipone. 1898) : Seybod. adrisiana I. Triest. Zeitsch. D. Deutsch. Morg. Ges. (63/19) : Krumbacher. Gesch. der. Byzantin litterture (p. 411) : Leclerc. Histoire de la Médecine Arabe (2/65 - 70) : Lelwel. Géographie du Moyen Age - Dozy R. Histoire des Musulmans d'Espagne (IV 60 - 67). De Slane. Journal Asiatique (April. 1843). quatremère. Journal des Savants (1843 p. 206 et suivant).

(2) راجع عن سيرة الادريسي ومساهمته في تنمية الجغرافيا العربية : الوافي بالوفيات (1/163) ، 164) آداب اللغة (3/84) ؛ مجلة المشرق (11/320) مجلة المقتطف (عدد مارس 1912) ؛ مقالة سيبولد (Seybold C.F.) في دائرة المعارف الإسلامية (مادة الادريسي) ؛ مقدمة الترجمة الفرنسية لكتاب «أرض المغرب والسودان ومصر» للإدريسي ؛ النبوع المغربي » (1/88) ؛ الرحالة المسلمون في العصور الوسطى (ص 44—47) ؛ مقدمتنا لجغرافية إبن سعيد المغربي (ص 44—47) ؛ اكراتشكوفسكي الأدب الجغرافي العربي (1/279—294) ؛ مقدمة كتابنا القارة الافريقية وجزيرة الأندلس (مقتبس من كتاب نزهة المشتاق ، نشر ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر 1983 .

الى شواطيء فرنسا وانجلترا والى آسيا الصغرى ، ثم ألقى عصا الترحال أخيرا في سنة 1138م في بلرم ، في بلاط روجر الثاني النورمندى ، بناء على دعوة من هذا الملك (1) .

وهناك في بلرم صنف الادريسي كتابه المشهور نزهة المشتاق في اختراق الآفاق الذي أهداء إلى روجر الثاني ، فكان بسبب ذلك يعرف في المكاتب العربية باسم الكتاب الرجري .

وبعد ذلك صنف الادريسي كتابا آخر كبير الحجم في الجغرافيا لغليوم الاول (1154 - 1166) بعنوان روض الأنس ونزهة النفس أو كتاب الممالك والمسالك ، وهذا الكتاب يعتبر مفقودا فلم يبق منه سوى ملخص لا يزال مخطوطا في مكتبات اسطنبول .

وقد قام الادريسي بتأليف كتاب نزهة المشتاق بتكليف من رجر الصقلي الذي كان قد وجه بعثات من الرجال الأذكياء والرسامين وارسلهم الى مختلف الاصقاع لجمع المعلومات ولرسم الخرائط . وكلما عادت جماعة منهم بحملها من المعلومات والبيانات ، أخذها الادريسي منهم وعمل لصياغتها وترتيبها ، ثم يضيف اليها ما استخلصه من المؤلفين السابقين ويضعها في مكانها . والمؤلفون الذين استعان بهم الادريسي يذكر لنا أسماؤهم في خاتمة كتابه . وفي مقدمة هؤلاء المسعودي والجيهاني وابن خرداذبه والعذرى وابن حوقل واليعقوبي وقدامة البصري وبطليموس وارسيوس الانطاكي وغيراهم .

وكتاب نزهة المشتاق نشر له ملخص في روما في سنة 1592 م ، وترجم إلى اللاتينية فيما بعد ثم قام بترجمة الكتاب الى اللغة الفرنسية على أساس مخطوطي المكتبة الأهلية بباريس ترجمة رديئة آمدي جوبر Amédée Jaubert (في سنة 1836) وقد اقتبس العالمان دوزى ودوخويه القسم الذي يتعلق بالمغرب ومصر والأندلس منه ووضعا له ترجمة فرنسية مع ثبت بالمصطلحات ونشراه في ليدن في سنة 1864 .

وفي الوقت الحاضر يقوم جماعة من العلماء بتحقيق النص الكامل لنزهة المشتاق ويجري نشره في كراريس متتابعة في روما . ولكن هذا العمل طويل النفس وقد يستغرق اخراجه كاملا بالحواشي والتعليقات نيفا وعشر سنوات . ومن العوامل التي تقلل من قيمة هذا العمل ان الحواشي ستكون باللغة الايطالية ، وهذه الاعتبارات وغيرها هي التي حملتني على القيام

---

(1) ولد روجر الثاني (Roger II) في سنة 1095 وتوفي في سنة 1154 م وهو إبن روجر الأول كونت صقلية . وقد توّج ملكا على صقلية في سنة 1130 واحتفظ بعرشه حتى تاريخ وفاته .

بتحقيق القسم الذي يهم المغرب والأندلس من الكتاب ، وهذا العمل قد تم تحت عنوان «القارة الافريقية وجزيرة الأندلس» (1) .

وهذا الكتاب الذي لا مثيل له فيما كتبه العرب قبل الادريسي وبعده ، يمتاز بميزات أساسية .

— وضوح التقسيم للكرة الأرضية
— غزارة المادة
— دقة الوصف
— اتساع رقعة المعمورة التي شملها الوصف .

والكاتب يبدأ بوصف موجز للأرضي التي يتصورها المؤلف كروية الشكل ثم يصف الأقاليم السبعة التي يتخذها اطارا لتقديم معلوماته .

وبعد ذلك ينتقل الى سطح الارض بالتفصيل على أساس أشرطة الاقاليم التي ينقسم كلا منها الى عشرة اقسام رأسية يصفها واحد بعد واحد مبتدئا من الغرب متجها الى الشرق . وكل قسم من هذه الأقسام مرسوم على خريطة منفردة بحيث اذا جمعنا الخرائط السبعين التي يحتوي عليها الكتاب ، تتكون لدينا بذلك خريطة كاملة للعالم .

وأهم أقسام الكتاب ، هو الذي يتناول بالوصف المغرب والأندلس وصقلية وايطاليا الجنوبية ، ويلي ذلك من حيث القيمة ، وصف الادريسي لأروبا الغربية حتى شواطيء بحر الشمال ، وايراندا واسكونلاندا . وكذلك يشمل وصف الكتاب البلدان الواقعة على شواطيء بحر البلطيق والبلقان وضفاف نهر الدنوب والمجر ورومانيا وبولندا وروسيا . وهذا الوصف يتناول الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعادات والتقاليد والمدن والطرق والمسافات .

وفيما يتعلق بافريقية السوداء فقد اختلف الباحثون في قيمته ، ولكن ما قاله الادريسي عن مجرى نهر النيجر قد أكدته استكشافات الرحالة الأروبيين ، في القرن التاسع عشر . وهذا في حد ذاته ذوأهمية رمزية بالغة ، ودليل على أن هذا الكاتب لم يكتف بترديد أقوال بطليموس - كما زعم البعض - عن هذه المنطقة ، بل هواعتمد على مادة حديثة مستقاة من مصادر مباشرة .

(1) طبع ديوان المطبوعات الجامعية الجزائرية ، 1983 .

وأما مساهمة الادريسي في التعريف بمختلف نواحي الحضارة المغربية ، فهي مساهمة جوهرية ، وتمثل ، مع وصف البكري وابن حوقل ، الرصيد الأساسي الذي تقوم عليه معرفتنا الجغرافية للمغرب خلال الفترة التي تفصل بين عصر بن حوقل وعصر الادريسي .

ووصف الادريسي ، كما سيلاحظ القارئـي ذلك من خلال الشذرات التي اقتبسناها عن المدن المغربية ، مصاغ في أسلوب علمي مباشر خال من التنميق والصنعة اللفظية ولا مكان فيه للاساطير والقصص الأدبية ، ولكنه مع ذلك ، لايتسم بالجفاف ولا يهمل اختيار الكلمات الصحيحة وذات المدلول الدقيق . والوصف شامل من حيث الامتداد الجغرافي بحيث لا يغادر مراكزاً أو أثر اذا قيمة عمرانية دون أن يذكره ، ومحيطا بحيث لايدع مجالا من مجالات النشاط الإنساني الخلاق دون أن يتعرض له بالحديث .

ياقوت الحموى

ولد أبو الدر ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي الملقب مهذب الدين ، في سنة 574 هـ (1178م) ببلاد الروم وأسر في بلاده صغيرا وابتاعه تاجر ببغداد ووضعه على دفاتر تجارته . والتاجر يسمى عسكر بن ابراهيم الحموي ، ومن هنا لصقت به هذه التسمية . وعلى الرغم من محاولته تسمية نفسه عبد الرحمن ، بدلا من ياقوت الذي هومن أسماء العبيد ، فان هذا الاسم قد لازمه وقد أرخ له به القدماء والمحدثون (1) .

عاش ياقوت بعد عتقه في سنة 596 هـ . من نسخ الكتب بالأجرة حتى عطف عليه مولاه واستخدمه في بعض أعماله التجارية . ولما توفـي مولاه قام برحلات انتهت به الى مرو وخوارزم . ولياقوت ديوان شعر يقع في عشرة كراريس اطلع عليه ابن خلكان .

وفي سنة 613 هـ توجه إلى دمشق ودخل في مناقشات ومناظرات مع بعض الخوارج وكان متعصبا لعلي (ض) ووقع في ورطة واجتمع عليه العامة وكادوا يقتلونه ، ولكنه نجا بنفسه وقصد

(1) راجع عن حياة ياقوت وآثاره : وافيات الاعيان (122/6 - 126) ، آداب اللغة (88/2) ، معجم الادباء (311/19) النحوم الزاهرة (283/5) الرحالة المسلمون (102) ، مرآة الجنان (59/4 - 63) ، البدر السافر ، لجعفر بن ثعلب الأدفوي (مخطوط في مكتبة الفاتح — ج 2 ورقة 221) ؛ عقود الجمان للزركشي (مخطوط) بمكتبة الفاتح رقم 4434 ج 9 ورقة 347) كشف الظنون (513/6) معجم المطبوعات (1941) ، (880/ مقدمتنا لكتاب الجغرافيا لابن سعيد (ص 47 — 48) : مقدمة معجم البلدان (1/1) .

Amari (M) Storia dei Musulmani (Nallino) (II/491). Reinaud, Introduction (I/CXXXII - CXXXV)
Brock. Gal (I/630

إلى حلب ، ومنها خرج إلى الموصل ثم إلى أربل . ومنها سلك طريق خراسان واستوطن مَرْو وبقي يتاجر هناك مدة من الزمن ، في الوقت الذي كان يواصل فيه أبحاثه في مكتباتها .

وبينما كان ياقوت في خوارزم ، صادف خروج التتر في سنة 616 هـ ، فاضطر إلى الهروب والنجاة بنفسه أمام زحفهم ، تاركا وراءه كل ما يملكه من متاع الدنيا ، وعاد إلى الموصل حيث أصبح لا يملك قوت يومه . وبعد اقامة قصيرة بالموصل انتقل إلى سنجار وهو في حالة من الضيق والضنك ثم قصد إلى حلب وأقام بظاهرها إلى أن مات في داره في سنة 626 هـ (1229 م) .

وأهم مؤلفات ياقوت بدون شك ، هما المعجمان : معجم البلدان الذي قام بتحقيقه ونشره لأول مرة العلامة وستنفلد (F. Wüstenfeld) في ليبزيج في ستة أجزاء خلال الفترة 1866 ـ 1873 ، ومعجم الأدباء (ارشاد الاريب) الذي عني بتحقيقه ونشره في سبعة أجزاء في القاهرة مرغليوث (Marglіouth) خلال الفترة 1907 ـ 1925 .

فرغ ياقوت من تأليف معجم البلدان في العشرين من صفر سنة 621 هـ . بثغر حلب ، وقدم هذا الكتاب هدية الى خزانة الوزير والعالم جمال الدين بن القفطي ، وزير الظاهر بن صلاح الدين الآيوبي ، صاحب حلب . وكان ابن القفطي قد أسبغ عليه رعايته وامدة بمساعدة مكنت ياقوت من مواصلة عمله في تحرير معجمه الكبير. ولكن هذه النسخة لم تكن سوى مسودة في ذهن المؤلف حيث أنه استمر على جمع المعلومات بعد انتهائه من تأليف الكتاب أراد أن يضيفها اليه وأخذ في تنقيح المعجم واثرائه بالمادة الجديدة في سنة 1625 هـ . ولكن المنية عاجلته فلم يحقق هذه الرغبة .

وأول من حاول تقويم المعجم هو ياقوت نفسه . فقد جاء في مقدمة الكتاب ما يلي : « وعلى ذلك ، فانـي اقول ولا أحتشم وادعـو الى النزال كـل علم ولا انهزم ، ان كتابي هذا أوحد بابه ، مؤمر على أضرابه لا يقوم بابراز مثله إلا من أيّد بالتوفيق وركب في طلب فوائده كل طريق ، فغار تارة وانجد ، وطوح بنفسه فأبعد ، وتفرغ له في عصر الشبيبة وحرارته وساعده العمر بامتداده وكفايته وظهرت منه أمارات الحرص وحركته» (1) .

وقبل ذلك صرح المؤلف مخاطبا القارئي بقوله : «واستقصيت لك الفوائد جلها ، أوكلها ، وملّكتك عفوا صفوا عقدها وحلها» (2)

---

(1) معجم البلدان (13/1) .

(2) نفس المصدر (12/1) .

وفي معرض تحليله لمصادر معجمة ، ذكر ياقوت في مقدمة الكتاب ان الكتب التي صنفت في أسماء الأماكن صنفان . «منها ما قصد بتصنيفه ذكر المدن المعمورة والبلدان المسكونة المشهورة ، ومنها ما قصد به البوادي والقفار واقتصر على منازل العرب الواردة في أخبارهم والأشعار» (1) . والنوع الثاني من واضعي المعاجم ينسبهم ياقوت الى طبقة أهل الأدب» ، وبالتالي فهم ليسوا من الجغرافيين في رأيه .

والمعجم يبدأ بمدخل يتكون من خمسة أبواب . ففي الباب الأولى ، يعرض المؤلف للنظريات المختلفة التي تتصل بصورة الأرض معتمدا على المعطيات الجغرافية والرياضية المعروفة في عصره .

ويبحث الباب الثاني في نظام تقسيم الأقاليم ويورد قائمة البروج الاثني عشر ويعين البلدان التي تقع تحت تأثير كل منها . وفي الباب الثالث يعني المؤلف بتفسير المصطلحات التي يذكرها الكتاب الجغرافيون مثل الميل والفرسخ والاقليم والكورة والطول والعرض الخ .

وأما الباب الرابع ، فيقدم تصنيفا قصيرا للبلدان المختلفة التي فتحها المسلمون وذلك وفقا للخراج الذي يجني من كل منها .

وفي الباب الخامس ، يورد ياقوت اخبار البلاد وسكان النواحي المختلفة وتوزيع الممالك بحسب مكانتها وعراقتها بحيث يبدا ببابل فالهند ، فالصين ، فالترك ، فالروم .

وبعد هذه المقدمة التي تشتمل على نحو 50 صفحة ، يدخل المؤلف في صلب موضوعه ويبدأ المعجم المرتب حسب الحروف الهجائية على الطريقة الشرقية في وصف البلدان .

ومادة المعجم متنوعة للغاية . فهو لا يقتصر على ذكر ولايات الامبراطوية الاسلامية كما فعل عدد من الجغرافيين السابقين ، كما أنه لم يول الجزيرة العربية أهمية خاصة ، بل هو يعالج مختلف المناطق بالتساوي حسب أهمية كل منها الذاتية ويمتد وصفه ليشمل ، إلى جانب العالم الاسلامي ، الشرق الاقصى وأروبا الشرقية والشمالية . واذا كانت المعلومات التي يقدمها الينا ياقوت عن الشرق أوفر من غيرها ، فإن ذلك لا يرجع إلى منهجية مختارة مسبقا ، أو إلى قصد لتفضيل المشرق على المغرب وأروبا ، وانما هو يعود الى كون رصيده العلمي عن بلدان هذه المنطقة أكبر ، وذلك بحكم اتصاله الوثيق بها .

والحق أن مادة ياقوت عن التاريخ والحضارة الاسلامية لا يمكن مقارنتها بالمادة التي يقدمها الينا غيره من الجغرافيين ، مثل البكرى والادريسي ، ولو أنه لايمكن اعتباره في نفس

(1) نفس المصدر (11/1) .

المرتبة مع البيروني والمسعودي . وعمل ياقوت يمتاز بمنهجيته المستقلة وبحسن تنظيم المادة . وهذه الخصائص ، تبرر وصف اكراتشكوفسكي له حين يقول :

وأهمية معجم البلدان تتجاوز كثيرا الأهداف الجغرافية الضيقة ، فهو ، فوق ذلك يمثل آخر انعكاس لتلك الوحدة المثالية للعالم الاسلامي ، تحت حكم العباسيين ، وهو أوسع وأهم بل وأكاد أقول ، أفضل مصنف من نوعه لمؤلف عربي في العصور الوسطى » (1) .

ومعجم البلدان لم يكتشف العالم الغربي قيمته الا في وقت متأخر نسبيا ، وبعد اكتشاف مساهمات الادريسي والبكري وغيرهما بوقت قصير . وقد كان المستشرقون الهولنديون أول من انتبه إلى قيمة المعجم في القرن السابع عشر . ولكن هذا الاهتمام لم يتخذ سوى شكل ملاحظات عامة ، وسوف لا يأخذ الدارسون الأوربيون ياقوت بعين الجد الا في أوائل القرن التاسع عشر ، عقب تسرب عدد من مخطوطات المعجم إلى أوروبا حين نقل كل من راسموسن (Rassmusen) وفرين (Frähn) بعضها . ومهما يكن من أمر ، فان النص الكامل لمعجم البلدان سوف لا يظهر إلا في سنة 1863 .

وقبل هذا التاريخ ، لم يكن معروفا من مخطوطات المعجم سوى ثلاث نسخ (كوبنهاجن ويترسبوغ واكسفوردا) وهي كلها ذات عيوب ، وذلك بالاضافة الى حجم الكتاب الذي لا شك أن منظره افزع أكثر من دارس متطلع لتحقيقه .

على ان فحص مخطوطات أخرى (باريس وبرلين ولندن) سمح لفرديناند وستنفلد أن يأخذ على عاتقه مهمة تحقيق الكتاب خلال الفترة بين 1866 - 1873 ويقدم بذلك خدمة كبيرة للعلم العربي .

وقد ظهرت طبعة وستنفلد كاملة في ستة أجزاء ، خصص المحقق الجزء السادس منها لأسماء الاعلام والشخصيات التاريخية ، وهو عمل يمثل في حد ذاته مساهمة علميه بالنظر الى العدد الهائل من الكتب العلمية التي استقى منها مادته .

وبعد ذلك ، ظهرت طبعة ثانية في القاهرة وأخرى في بيروت في خمسة أجزاء ولكن هذه كلها طبعات تجارية هي عالة على عمل وستنفيلد العلمي .

القزوينـي

ولد أبو عبد الله زكارياء بن محمود بن محمود القزويني بقزوين (بين رشت وطهران في

(1) الادب الجغرافي العربي (334/1) :

سنة 600 هـ (1203 م) ، وينحدر من أسرة عربية يرقي نسبها الى مالك بن آنس (ض) استقر بها المقام في العراق العجمي (1) .

وفي سن مبكرة رحل القزويني الى دمشق حيث لقي أبن العربي والأديب ضياء الدين بن الأثير (شقيق المؤرخ الشهير) . والى جانب اهتمامه بالتاريخ والجغرافيا كان القزويني متضلعا في الفقه بحيث أنه شغل منصب القاضي في واسط بالعراق ، في عهد الخليفة المستعصم العباسي .

وقد توفي القزويني في سن متقدمة في سنة 682 هـ .

والقزويني كاتب ناقل في المكان الأول . وعلى الرغم من اطلاعه الواسع ومعلوماته الغزيرة فهو لايأتي بجديد ولا يقدم نظرية أصيلة . وقد اشتهر القزويني في الاوساط الشعبية بميله الى منح أهميةخاصة للعجيب والمستغرب الذي يثير النفوس ويبعث الانفعالات . وهذا الاتجاه الذي يعتبر القزويني من رواده ، سيسير عليه عدد من المؤلفين فيما بعد ، وفي مقدمتهم الدمشقي وابن الوردى .

على أن الشيء الذي لا سبيل الى انكاره والذي لا شك أنه كان من العوامل التي حببت القزويني للجماهير ، هو أسلوبه الأدبي الذي يتسم بالوضوح وعدم التعقيد ، على الرغم من أنه لا يخلو من الدخيل .

وكذلك كانت ثقافة القزويني الواسعة ، التي هي ثمرة الاطلاع أكثر مما كانت نتيجة للمشاهدة ، سببا في الشهرة خاصة بين المشتسرقين في القرن الماضي بحيث أن بعضهم يشبهه بهيرودوت ويرون ان كتابه « عجائب المخلوقات » هو « أهم أثر انتجه عربي في العصور الوسطى » (2) وهي نظرية لا تخلو من المبالغة .

ومن هنا ، فلا عجب أن يترجم هذا الكاتب الى عدد من اللغات منها الألمانية والفارسية والتركية . وكتاب «آثار البلاد وأخبارا العباد » هو الآخر ، كان يتمتع بشهرة عالمية ، ولو أن حظه لم يبلغ حظ «عجائب المخلوقات» . وقد ترجم هو الآخر الى اللغة الفارسية واللغة التركية .

---

(1) راجع عن القزويني وآثاره ، كشف الظنون (9/1) آداب اللغة (222/3) مقالة أشتريك Strech (M) في دائرة المعارف الإسلامية ، مجلة الشرق (926/8) ، اكراتشكوفسكي (361/1) ، معجم المطبوعات (1507) ، مقدمة كتاب الجغرافيا لإبن سعيد ص 49 - 50 . Reinaud, Introduction (I/CXLIV),

(2) دائرة المعارف الإسلامية وكذلك (904—900/11) Brown (E), literary History of Peria from Ferdawsi to saadi (11(483)

على أن هذا الكتاب لم يتلق مجهودا كبيرا للدرس والتحليل ، ولربما كان ذلك لان القزويني ينقل كثيرا (1) ولأنه ينزل بموضوعات متخصصة الى مستوى الجماهير.

ومع ذلك فقد قام كل من وستفليد وولر بمحاولات مثمرة لابراز أثر القزويني في التاريخ والجغرافيا ، وكذلك اتضح فيما بعد ، أن نقل القزويني بافراط لا يخلو هو الآخر من مزية ، حيث أنه حفظ لنا نصوصا من بعض الآثار التي ضاعت . ومن هذا النوع تلك الاقتباسات التي أخذها ونقلها عن هارون بن يحي بشأن بيزنطة ، والشذرات التي أخذها من أبي دلف مسعر وابن فضلان . وكذلك ينقل القزويني عن كاتب يسمى أبا الربيع الملتاني (2) لا نعرف عنه شيئا ولم يرد اسمه في غير ما كتبه ، ويذكرنا بابن فاطمة الذي انفرد ابن سعيد بنقل روايته ، حيث أن الملتاني قام هو الآخر برحلة داخل افريقية .

وفي كتاب عجائب المخلوقات ، يستعرض القزويني المعلومات الشائعة في عصره عن الاجرام السماوية ، ويتحدث عن الملائكة والأرض وما يوجد على ظهرها مثل الماء والنار والرياح والشهب وغير ذلك من الظواهر الطبيعية (3).

ولكن الكتاب الذي يهمنا هنا ، هو آثار البلاد الذي ننقل منه فقرات عن المدن المغربية . والكتاب ظهر في روايتين (4) مختلفتين ، تحمل احداهما عنوان «عجائب المخلوقات» حيث اختلط أمره بالكتاب الذي يحمل أصليا نفس العنوان . والأخرى بعنوان آثار البلاد وأخبار العباد» وهذه الرواية الأخيرة هي التي تقوم عليها الطبعة الأولى التي حققها وستنفلد .

وفي هذا الكتاب يصف القزويني الأرض على أساس الترتيب المعروف للأقاليم السبعة . وفي داخل كل اقليم يصف مختلف البلاد والمدن والجبال والأنهار ويرتبها على الحروف الهجائية .

ووصف القزويني كثيرا ما يتجاوز الجغرافيا ليقدم لنا المؤلف تفاصيل تاريخية عن أسماء الاعلام والرجال .

---

(1) تعرف وستنفلد على خمسين كاتبا نقل عنهم القزويني ، وذلك في النصف الأول من القرن الماضي حينما كان عدد المؤلفات الجغرافية المكتشفة صغيرا .

(2) ربما كان هذا الإسم محرفا عن الملياني الذي ينقل عنه ياقوت أيضا كما سبقت الإشارة أعلاه (انظر ص 18 هامش 1) .

(3) راجع بشأن مخطوطات هذا الكتاب وترجماته ، دائرة المعارف الإسلامية مادة «القزويني» والأدب الجغرافي العربي المصدر المذكور (362/1) .

(4) الأدب الجغرافي العربي (189/1) .

ومن هذه الزاوية نجد آثار البلاد وأخبار العباد قريب الشبه بمعجم البلدان الذي يأخذ القزويني كثيرا من مادته ، ولو أن محصول القزويني في الجغرافيا لا يمكن مقارنته بمحصول معاصره ، ياقوت ، أو حتى بمادة غيره من الجغرافين السابقين .

ابن سعـيد المغربي

ولد ابو الحسن علي بن موسى بن سعيد بن عبد الملك بن سعيد المعروف بابن سعيد المغربي في الثاني والعشرين من شهر رمضان سنة 610 هـ (فبراير 1204 م) في قلعة يحصب . (alcalaa la real) من اعمال غرناطة ، القلعة التي كانت مقرا لأمارة بني سعيد والتي تحمل اسم الاسرة في بعض الكتب وتسمى ايضا : قلعة بني سعيد (1) .

كان أبوه (موسى) وجده ، عبد الملك ، كلاهما عالما بالتاريخ الادبي والسياسي لشبه جزيرة الاندلس ومولعا بجميع نوادر الشعر والنثر ، وهو ميل سيرثه عنهما علي الذي سيكمل كتابا ضخما بعنوان «المغرب في حلى المغرب» . ولكنه يمتاز عنهما بولعه واهتمامه بالجغرافيا الوصفية والفلكية .

---

(1) راجع عن سيرة إبن سعيد وأسرته وآثاره الأدبية : المقري ، نفح الطيب (ط ليدن 1855—640/10 ، 645) ، شكيب أرسلان ، الحلل السندسية (369/1) ، المنهل الصافي لإبن تغريبردي (مخطوط بالمكتبة الأهلية بالقاهرة تحت رقم 113 — مجلد 3 ، ورقة 453) ، فوات الوفيات للكتبي (ط بولاق — 112/2) بغية الوعاة للسيوطي (ص 357) ، الإحاطة في أخبار غرناطة لإبن الخطيب (222/3) ، الديباج المذهب لإبن فرحون (ص ، 308) حسن المحاضرة للسيوطي (320/1 و 244) ، مسالك الأبصار للعمري (مخطوط محفوظ بالمكتبة الأهلية بالقاهرة —ج 8 ورقة 382) ، مقدمة كتاب المغرب في حلي المغرب لإبن سعيد ، تحقيق شوقي ضيف (1/1—9) ، كشف الظنون (ط القاهرة ، رقم 1823 و 1248) محمد ابن شنب ، مادة إبن سعيد في دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة العربية — 190/1 — 200) ، مقدمتنا لكتاب الجغرافيا للمترجم له ، وكذلك :

Kramers, The Legacy of Islam (edited by : Sir Thomas Armold and Alfred Gaillaum, Oxford, 1931 (p. 102) Blachère (R), Extraits des Principaux Géographes Arabes du Moyen Age ; Publication de l'Ecole des Lettres d'Alger, 1932 (p. 276 - 277) ; Pons Boigue (F) Ensayo Bibliografico-Arabigo Espagnoles ; الأدب الجغرافي العربي (ترجمة صلاح هاشم) (356/1 ، 359) و (35 — 1/356) ، (357 — 1/356) ;

Wûstemfeld (F), die Geschichreiber des Araber und ehre Werke (p. 136) ; Reinaud, la Géographie d'Aboûlfedâ, Introduction (I/CXLII ; Brock. GAL (I/373-BSI/576) ; Amari (M) (Nallino), Storia *dei Musulmani di Sicilia (Secondo Edizione)* (I/41-42) ; Moriz (B), *Ibn Saïd's Reschreibung Von Sicilien* ; Centrenario ; Palermo ; 1910 (I/292 - 305) ; Barthold, Géografia Ibn Saïda ; (p. 226-241) ; Catalogue des Manuscrits de la Bib. d'Oxford ; (II/231) ; Catalogue des Manuscrits de la Bib. Nationale de Paris ; (A.F. N° 2234) ; Lexicon Bibliographicum et Encyclopadicum, ed., Flugel ; (V/647 - note 1248 et p. 499 note 11832) ; Iben Khaldoun, Hist des Dynasties Musulmanes (II/369).

وبعد ما اتم علي تعلميه الاولي في حضن الاسرة ، أرسله والده الى اشبيلية حيث قضى ردحا من شبابه يتلقى العلم على اعلام زمانه ، مثل الشلوبيني والاعلم البطليوسي وابن عصفور وغيرهم .

ولما عاد الى مسقط رأسه بقي فترة من الزمن يتعاون خلالها مع والده في اعماله الادبية ، ولما قرر الاخير السفر الى الاماكن المقدسة لادائر فريضة الحج (سنة 638 هـ) رافقه ابنه في هذه الرحيلة ، ولكن عليا لما وصل الى مصر ، قرر الاستقرار في مصر القديمة حيث لقى استقبالا طيبا في الاوساط الادبية ، شجعه بدون شك على تأجيل تأديه فريضة الحج الى ما بعد .

وبعد اقامة بضع سنوات ، واصل ابن سعيد سفره الى بغداد ، ووصل الى هذه المدينة ، وهي في أوج ازدهارها الثقافي ، وقبل ان تكتسحها جيوش التتر ، وهناك أتيح له ان يلتقي برجال العلم ، والادب وان يغترف من مكتباتها الزاخرة التي يبلغ عددها 33 مكتبة عمومية .

ومن بغداد ، اتجه ابن سعيد الى حلب عاصمة الناصر ، حفيذ صلاح الدين الايوبي ، في رفقة المؤرخ الشهير ابن النديم .

وفي حلب ، أقام مدة في قصر الناصر حيت كان محل الحظوة والتقدير ، قبل ان ينتقل الى دمشق ، ثم الى البصرة ، ثم الى حدود الفرس .

وفي سنة 652 هـ ، أدى علي بن سعيد فريضة الحج ثم قفل راجعا إلىتونس حيث التحقَ ببلاط ابي عبد الله المستنصر واقام هناك قرابة عشر سنوات .

وفي سنة 666 هـ ، عاد ابن سعيد ادراجه الى المشرق فزار بين مازاره من البلاد ، ارمينيا ، حيث أقام ردحاً من الزمن في ضيافة هولاكو ، أمبراطور التتر ، الذي كان صدى فتوحاته لا يزال يدوى في المشرق والغرب .

وأما الفترة التالية من حياة ابن سعيد ، فيحيط بها ستار من الضباب ، حيث لانعرف شيئا عن اعماله وتحركاته ، بل اننا لانعرف على وجه التدقيق ، حتى تاريخ وفاته . فبينما يقرر الكتبي (1) وابن تغريبردى (2) انه توفي في تونس في سنة 673 هـ (1274م) ، يروي

---

(1) فوات الوفيات (321/2) .

(2) المصدر المذكور (453/2) .

المقرى نقلا عن ابن الخطيب (1) وابن فرحون (2) انه مات في دمشق في سنة 685 هـ (1286 م) ، واما السيوطي ، فقد أورد التارخيين في كتابين مختلفين ، فبينما يفيدنا في حسن المحاضرة (3) انه توفي في سنة 685 هـ . فاذا هو يخبرنا في بغية الوعاة (4) انه مات في سنة 673 هـ . وكذلك وقع حاجي خليفة في نفس الاضطراب فأورد التاريخين في مكانين مختلفين (5) .

ونحن نرجح الرواية التي تقول بأنه مات في سنة 685هـ (6) ، لأن نسخة وصلت الينا من كتاب الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة (تحتفظ المكتبة الاهلية المصرية بنسخة مصورة منها) ، مكتوبة بخط المؤلف ، وفي نهايتها انها كتبـــب في سنـــة 683 هـ .

من بين الكتب العديدة التي وضعها ابن سعيد ، كتابان في الجغرافيا ، أحدهما بعنوان كتاب البديع وهو لا يزال مخطوطا وتحتفظ مكتبة أكسفور بنسخة منه (7) ، وكتاب الجغرافيا الذي قمت بتحقيقه ونشره . والكتاب الاول غير معروف لدى الاوساط العلميه ، بحيث انني لا أعرف أحدا من الباحثين أستفاد منه أو أشار اليه فيما عدا الاقتباس الذي أخذه منه فنيان (Fagnan) والذي أشرت اليه ، ورأى هذا العالم في الكتاب مشوب بتحفظ ، وأما فقد كان موضع دراسات عديدة بمختلف اللغات ، منذ أن أعلن عن قيمته رينو في مقدمة ترجمته لتقويم البلدان لابي الفدا .

ومساهمة كتاب الجغرافيا في تقدم الجغرافية العربية ، وفي تاريخ الشرق الاقصى خصوصا. مساهمة كبيرة سبق أن نوهت بها وحلّلتها ، ولا سيما في مقدمتي لهذا الكتاب ، فان ابن سعيد قد وسع في هذا الكتاب رقعة القسم المعمور من الارض في اتجاه الجنوب حتى أقترب

---

(1) نفح الطيب (642/1) .

(2) الديباج (ص ، 208) .

(3) حسن المحاضرة (320/1)

(4) بغية الوعاة (ص 357) .

(5) المصدر المذكور (رقم 11822 ورقم 1248)

(6) مقدمتنا لكتاب الجغرافيا . ب

(7) راجع مقتبسات منه في : Fagnan (F), Extraits Inédits Rolatifs au Maghreb (p. 6 - 26).

من اكتشاف رأس الرجاء الصالح من البرّ ، كما مدد رقعة القسم المعمور في اتجاه الشمال بصفة معبرة .

والمساهمة العظمى التي قدمها ابن سعيد للتاريخ والتي انفرد بها ، وهي تلك الرواية التي تتعلق باستيطان شعب خمير لجزيرة مدغشقر والتي نوه بقيمتها البحاثة فران (Ferrand (G)) في مقال خاص في المجلة الاسيوية (1) وقد تعرض المستشرق الروسي بارثولد (Barthold) لتقويم كتاب الجغرافيا في بحث قدمه ضمن مجموعة بحوث لأحياء ذكرى العالم دنيال شولصن (Chwolson (D)) (2) ، فقال ما نصه :

« ويمثل هذا المنصف بمقارنته بالادريسي وأبي الفدا مساهمة قائمة بنفسها ... ولم يستطع أبو الفدا والمترجمون والناشرون المتعاقبون استيعاب مادته » (3)

وفيما يتعلق بمساهمة ابن سعيد في التعريف بأروبا الغربية عامة . وفرنسا وهنغاريا خاصة ، فقد وصف العلامة أكراتشكو فسكيي ما جاء في كتاب الجغرافيا عنها بأنه « غني حافل ولا يخلو من طرافه ، كما لا يخلو منها أيضا وصفه لآسيا الصغرى ولمنطقة قسطمونيا بالذات التي كانت آنئذ مركزا للتركمان » (4)

وكذلك وصف بارثولد المعلومات التي يقدمها ابن سعيد عن أوربا الشرقية وآسيا الداخلية بأنها معلومات ممتازة ، ثم يمضي ويفصل قائلا : «انه على معرفة بالروس على سواحل بحر آزوف (AZOV) ونهر الدون ، كما وانه يورد تفاصيل عن جبال القوقاز والشعوب القاطنة الى الشمال والشرق ، كالبرطاس والغز والكومان والقبجاق » (5) .

وأما مساهمة ابن سعيد في التعريف بالمغرب فهي قد تبدو للناظر لأول وهلة صغيرة الحجم ، ولكنه متى تصفحها بعناية ، وجد أن ذلك مرجعه الى عدم رغبة المؤلف في

---

(1) راجع (1/11) 1907 ، Ferrand ; Journal Asiatique, وكذلك تعليقنا في كتاب الجغرافيا ، (ص 222—223)، ومقال آخر لفران في نفس المجلة عن شعب الكوان بعنوان : Le Kouen – Lowen et Les Anciens (14/201) 1919 Navigations Interoceaniques dans les Mers du Sud

(2) نشر في برلين في سنة 1899 (- Journal Asiatique) ، وهذا البحث يشغل الصفحات 226—241 .

(3) نفس المصدر (ص 227) .

(4) المصدر المذكور (358/1) .

(5) المصدر المذكور (235—236) .

الاقتباس وترديد ما قاله السابقون ، حيث انه أراد أن يقتصر على تقديم عصارة معرفته الشخصية ، وهي بالتأكيد غنية وتمثل ما يمكن أن يصيفه كاتب في القرن السابع بالقياس الى مساهمات كتاب القرن الخامس والسادس الهجري ، ويكفي للتدليل على قيمة هذه المساهمة أن الملك اسماعيل أبا الفدا الذي كان يملك النسخة الخطية المحفوظة في المكتبة الأهلية بباريس والتي تحمل تعليقات بقلمه على هامشها ، قد أعتمد رواية ابن سعيد عن المغرب اعتماد كليا ، في تقويم البلدان (1) ، كما سنرى في الشذرات التي اقتبسناها من هذا الكتا.

وكذلك أماط البحث الحديث اللثام عن دقة معرفته أبن سعيد وجودة معلوماته عن جنوب أروبا وايطاليا وصقيلية (2) .

وقد أشار أكرا تشكوفسكي الى مساهمة ابن سعيد في التعريف بمدن مثل سالرنو ورومة وبيزه وجنوه وبجزر البحر الابيض ، مثل قور سيقا وسردينيا فقال ، « انه أورد بشانها عددا من المعطيات الجديدة مما لم يعرفه الآخرون ، ولعله استقاها من التجار الاندلسيين والافارقة »(3) .

وهذا الحكم يشبه الحكم الذي أصدره ذلك المؤرخ الروسي الكبير للجغرافيا العربية بشأن مساهمة ابن سعيد في التعريف بشواطئي افريقية الغربية والشرقية التي لم يزرها بنفسه ولكنه أستقى مادته عنها من ملاح عربي لانعرف عنه شيئا الاعن طريق ابن سعيد ، اسمه ابن فاطمة ، عاش في العصر السابق وتجول في افريقية الغربية حتى بلغ نهر السنيغال ، وفي افريقية ، وكان أول مشتكشف عربي بلغتنا أخباره لجزيرة مدغشقر (4)

---

(1) راجع : Reinaud المقدمة (CXL / 1)

(2) راجع : Amari (M), Storia dei Musulmani di Sicilia

(3) المصدر المذكور (359/1) .

(4) إن مسألة استكشاف ابن فاطمة لجزيرة مدغشقر وتجواله في شواطيء افريقيا الغربية حتى نهر السنيغال (وابن سعيد يورد تفاصيل لاتترك مجالا للشك) تطرح سؤالا ذا اهمية قصوى في علم الجغرافيا . وقد خطر ببالي منذ سنين حينما كنت اعمل لتحقيق كتاب الجغرافيا ، ، ولكنني لم أجرؤ حينئذ على إعلانه : كيف وصل ابن فاطمة من جزيرة مدغشقر في المحيط الهندي الى جداله ونولمطه ومصب نهر السنيغال ؟ فان السفر بطريق البر عبر افريقية الشرقية وافريقيا الوسطى والصحراء الى شواطيء افريقية الغربية على المحيط الاطلسى ، يمثل مغامرة مستحيلة ولا سيما بالنسبة الى بحار وهي ، فضلا عن ذلك لا معنى لها . ويبقى الفرض النظري الوحيد الذي لا اتردد الآن في تسجيله ليتاملة الاختصاصيون . هو أن ابن فاطمة قد دار براس الرجاء الصالح ، فيكون بذلك قد اكتشف هذه الطريق البحرية قبل البرتغاليين بعدة قرون .

وكتاب الجغرافيا يسير على نمط تقسيم المعمور من الارض الى سبعة أقاليم ، مضافا اليها منطقتان سمى المؤلف أولاهما « المعمور خلف خط الاستواء » والثانية « المعمورة في شمال الأقاليم السبعة » .

وبعد مقدمة وجيزة يعرفنا فيها المؤلف بالمعطيات الاساسية للجغرافيا ، مثل كروية الأرض التي يحيط بها الماء ، وسرعة دورانها بين الأفلاك الخ ، يمضي فيقدم لنا وصفه من الغرب إلى الشرق مع ذكر طول المكان وعرضه .

* * *

أبـو الفـدا

ولد اسماعيل بن علي بن محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه ابن أيوب بن عماد الدّين الأيوبي سنة 672 هـ (1273 م) بدمشق التي فر اليها أبوه الملك الأفضل وأسرته في وجه التتر - وكان أمير حماة في ذلك الحين (1) .

نشأ أبو الفدا في عاصمة الامويين وتربى فيها ، قبل أن يبدأ حياته العسكرية ويلتحق بعمه أثناء حروبه ضد الصليبيين . ولما مات محمود الثاني الذي لا عقب له في 21 من ذي القعدة عام 698 هـ ، إلتحق بخدمة السلطان الملك الناصر الذي أصطفاه مدة أثني عشر عاما قبل أن يوليه على حماه التي استقبل بها ، ثم يخلع عليه لقب الملك . وبعد ذلك أصبحت السلطنة وراثية في بيتــه .

وفي حماة فتح الملك المؤيد ، الذي كان متضلعا في العلوم والرواية وا لادب وكان يقرض الشعر ، بلاطه للقاصدين اليه من رجال العلم وا لادب الذين كان يقربهم ويحسن

---

(1) راجع سيرة أبي الفدا في الدرر الكامنة (371/1) ؛ البداية والنهاية (158/4) ؛ فوات الوفيات (16/1) ؛ النجوم الزاهرة (292/9) ؛ طبقات السبكي (84/6) ؛ المحيط للبستاني (298/2) كتاب الإعتبار ، نشر قليب حتى (جامعة بريسطون سنة 1930) ؛ آداب اللغة العربية (177/31) ؛ معجم المطبوعات (333 — 335) ؛ مقالة بروكلمان في دائرة المعارف الإسلامية (مادة أبو الفدا) ؛ تاريخ أبي الفدا : المختصر في الأخبار البشر (المقدمة) وكذا (60/4 — 62 و104)
وكذلك كشف الظنون (114/5) . وانظر أيضا : Carra de Vaux, Les Penseurs de l'Islam ; (1/139 – 146); Kramars, The Legacy of Islam (p. 91) ;
Blachère (R), Extraits des Principaux Géographes Arabes (p. 291) ; Amari (M) (Nallino) Storia dei Musulmani (I/58. N° 24) Brock, GAL (I/485 N° 8 SB 1/887–888) Reinhaud, Introduction (I/XXXVIII).
وكذلك ترجمة أبي الفدا التي كتبها بنفسه ونشرها بالفرنسية De Slane
Reinaud, Recueil des Historien des croisade (1/106)
Wüstenfeld Die Gesch. Der Araber (p. 398) Leclerc, Histoire de la Médecine Arabe (2/277) (390-389/1).
وكذلك : الأدب الجغرافي العربي لاكراتشكوفسكي (127/1 — 133) . Reinaud. Recueil des historiens des croisades (1 / 106)

اليهم . وقد توفي أبو الفدا ، في المحرم سنــة 732 ﻫ (أكتوبر 1331 م) بمـدينـة حمـاه .

وضع الملك المؤيد عددا من الكتب أهمها وأشهرها كتاب « المختصر في أخبار البشر » الذي يعرف أيضا بتاريخ أبي الفدا ، صنف حسب نظام تاريخ ابن الاثير وأنتهى فيه الى سنة 721 ﻫ . وأما تتمه المختصر الى سنة 749 فهو من تذييل ابن الوردي (توفي سنة 750) ، وقد طبع هذا الكتاب وترجم الى اللاتينية في كوبنها جن في فترة 1789 – 1794 م ، ثم طبع مرة أخرى ، ومعه تتمه ابن الوردي في الاستانة في سنــة 1286 ﻫ في مجلدين ، ثم في القاهرة في سنة 1325 ﻫ . وكذلك ترجمت أقسام منه الى اللغة الفرنسية والانجليزية . والكتاب الاخر الذي نال شهرة كبيرة لابي الفدا ، هو كتاب تقويم البلدان « الذي نشره المستشرق رينو(Reinaud (J.) بتعاون مع دوسلان وترجمه إلى اللغة الفرنسية عظيمة القائدة تقع في سفر مستقل عن النص

صمم ابو الفدا على تصنيف كتاب «تقويم البلدان» ، لأنه كان يرى أن ما ألف في الجغرافيا حتى عهده لا يفي يغرض الطالب . فابن حوقل لم يضبط الأسماء ولم يذكر العروض والأطوال . وكتب الشريف الادريسي وابن خرداذبه عرية عن تحقيق الاسامي . والكتب التي وضعت لتصحيح الأسماء ككتاب الانساب للمسعاني ، والمشترك لياقوت وغيرهما ، اشتملت على تحقيق الأسماء وضبطها دون أن تتعرض للأطوال والعروض . وبعض البلاد ظلت مجهولة على الرغم من كثرة الكتب التي وضعت في الجغرافيا . . . فان «اقليم الصين ، مثلا ، مع كثرة مدنه لم يقع الينا من اخباره سنوى الشاذ والنادر وهو غير محقق .»

والأمر كذلك بالنسبة إلى الهند وبلاد البلغار والجركس والروس والسرب والقولق والتكرور الخ (1) .

وكتاب تقويم البلدان الذي وضع لسد هذا النقص ، خطط على نمط «تقويم الأبدان في تدبير الانسان» لأبي حسن علي بن جزله (2) ، ورتب على أساس الأقاليم المعروفة مع عناية بالأطوال والعروض . وقد ذكر ابو الفدا في كتابه هذا ما لا يقل عن 623 بلدا عدا ما ذكره في الهوامش (3) .

(1) كشف الظنون (468/1) .

(2) راجع وصفه في نفس المصدر (467/1) .

(3) راجع Blachère المصدر المذكور (ص 291) .

وقد وقع كتاب تقويم البلدان في يد المولى محمد على (الشهير بسياهي زادة سنة 997) فقام بترتيبه على الحروف الهجائية وأضاف اليه ما التقطه من الكتب وسماه «أوضح المسالك الى معرفة البلدان والممالك» واهداه في سنة 980 هـ ، إلى السلطان مراد خان .

وكتاب تقويم البلدان ينقسم الى قسمين متساويين أحدهما أكثر اصالة من الاخر (1) . ففي القسم الأول ، يقدم المؤلف المعلومات الأساسية المعروفة في عهده عن تقسيم الأرض وعلى خط الاستواء والأقاليم السبعة والقسم المعمور من الأرض الخ .

وأما القسم الثاني ، وهو الأكبر فينقسم الى 27 قسما فرعيا كرسها المؤلف للكلام عن المناطق الجغرافية ، وبعض البلاد التي تسمى الأقاليم . ويجرى وصف هذه البلاد حسب الترتيب التالي :

بلاد العرب ، مصر ، المغرب ، السودان (اى بلاد السود) ، الأندلس ، جزر البحر الأبيض المتوسط وجزر المحيط الأطلسي ، بلاد الفرنجة ، والترك والشام والعراق خوزستان ، فارس ، كرمان ، سجستان ، السند ، البنجاب ، الهند ، الصين ، جزر الشرقي ، الروم ، آسيا الصغرى ، أرمينيا ، العراق العجمي ، الديلم ، طبرستان ، خراسان ، الغور ، طخارستان ، خوارزم ، ما وراء النهر .

وبهذا التقسيم الأصيل الذي لم يسبق اليه ابو الفدا ، حاد هذا المؤلف عن منهج الأدريسي وعن تقسيم مؤلفه المفضل ابن سعد المغربي ، الذي سار ، كما رأينا على نمط الأقاليم الفلكية ، وفضل عنه تقسيم المعمور من الأرض الى أقاليم جغرافية .

وفي داخل هذه الاقسام ، يرتب المؤلف معلوماته عن البلاد وسكانها ومنتجاتها وعاداتها الخ ، ترتيبا حسنا ، هو بدون شك ، افضل من ترتيب الأقاليم الفلكية الذي يجزئي بلدا واحدا الى عدة قطع . وهذه الأقسام تتفاوت من حيث الحجم بتفاوت مساحة كل بلد وأهميته الجغرافية وتبعا للمادة المتوفرة لدى المؤلف .

والنقطة الأخرى التي تميز بها أبو الفدا ، هي أنه يذكر المصادر التي استقى منها معلومات في كل مكان . ومن هنا فان مراجع أبي الفدا معروفة لدينا بدقة : الاصطخرى وابن حوقل والادريسي ومعجم البلدان لياقوت ، وخصوصا ، كتاب الجغرافيا لأبن سعيد المغربي الذي ينقل عنه الى جانب المادة الوصفية ، الاطوال والعروض .

---

(1) الأدب الجغرافي العربي (128/1) .

وكذلك ينقل ابو الفدا عن بعض المؤلفين الذين لم تصلنا مصنفاتهم مثل المهلبي . وهو من جغرافي العهد الفاطمي .

وقد وجه أبو الفدا اهتمامه الى الجغرافيا الفلكية ، ولكن الجغرافيا الوصفية حظيت عنده أيضا بمكانه خاصة . وهو في هذه الناحية يعتمد على القانون المسعودي للبيروني ، وكتاب الجغرافيا ، لابن سعيد ، كما قلنا .

وبلاد الشام هي التي تحتل - بطبيعة الحال - المكانة الأولى من الأهمية في وصف أبي الفدا وتليها ، الجزيرة العربية ومصر .

وفيما يتعلق باروبا ، فان وصف أبي الفدا يعتمد على بعد المصادر المعروفة ولكن وصفه للمناطق الجنوبية في افريقية يقصر على ما سجله بعض المتقدمين .

وفيما يتصل بالصين التي اراد ان يوضح معالمها ويكشف غوامضها ، فان المعلومات التي أضافها تتسم ببعض الخلط والاضطراب ، وربما كان مرجع ذلك الى المصادر التي أخذ عنها (1) .

وأما المعلومات التي يقدمها عن المغرب فهي تتسم كما سينضح لنا من الاقتباسات التي أخذناها من تقويم البلدان ، بحسن التنظيم والتركيب ، ولكنها لا تكاد تضيف شيئا يذكر الى وصف البكرى والادريسي وابن سعيد . ولربما كان ذلك مرجعه أن هؤلاء المؤلفين قد قدموا كل ما يستحق التقديم ، وذلك من ناحية الوصف والمعطيات الفلكية معا ، مع العلم بان الفترة التي كانت تفصل بين أبي الفدا وابن سعيد ، كانت فترة قصيرة نسبيا .

التجـــانـــي

هو ابو محمد عبد الله بن أحمد التجاني الذي ينحدر من أسره من بني تجان (بكسر

(1) راجع . Kimble (G.H.T.) Géography in the Middle Ages (p. 60–62).

التاء) ، من قبائل المغرب الاقصى (1) ، رحل جده ابو القاسم ، مع جيش الموحدين الفاتح لتونس (2) .

ولد أحمد التجاني ، أبوالرحالة ، بتونس في تاريخ لا يمكن تحديده على ضوء المصادر التي بين أيدينا ، وتربى في عاصمة الدولة الحفصية التي تولى وظيفة الإنشاء في أحد دواوينها ، قبل أن ينتقل الى مدينة بجاية ، أستجابة لدعوة أميرها أبي زكرياء سنة 684 هـ .

وقد بقي التجاني يتردد بين بجاية وقسنطينة حتى ولاية الامير أبي يحي زكرياء اللحاني مشيخة الموحدين ، بتونس وأسند اليه منصبا عاليا ، فيما يبدو ، في ديوان الرسائل بتونس .

وفي هذه البيئة الادارية والعلمية ولد صاحب الرحلة ، عبد الله ، بتونس ما بين سنتي 670 و 675 هـ (1272 — 1276 م) .

وبعدما قرأ على عدد من كبار العلماء الذين من بينهم ابوبكر العوفي ، وأجازوه في مختلف العلوم والآدب ، انخرط في سلك الكتاب في ديوان الانشاء ، مثل ابيه ، في عهد السلطان محمد المعروف بابي عصيدة ، في بداية القرن الثامن ، ثم اصطفاه السلطان ابو يحي ، شيخ الموحدين ، وقربه .

وعندما عزم السلطان على السير لمحاربة الاسبان المغتصبين لجزيرة جربة في منتصف سنة 708 هـ ، عين عبد الله لمرافقته وكلفه بمهمة الاشراف على رسائله .

والرواية التي تتصل بسيرة التجاني في المرحلة التالية يشوبها الاضطراب ، قبل ان تختفي اخباره تماما ، عقب الاضطرابات الدموية التي وقعت في سنة 707 هـ ، اثر خروج السلطان ابن الليحاني من تونس ، وهزيمة خليفته ، محمد ابي ضربة ، على يد الامير ابن يحي ، بل ان اخبار اسرة التجاني العريقة ، كلها ستختفي بعد هذه الاحداث . والمؤرخون يفترضون ان يكون جميع افراد الاسرة قتلوا أوفروا من تونس وبقوا متسترين بعد ذلك .

---

(1) يجب عدم الخلط بين التجاني صاحب الرحلة وأحمد بن محمد بن المختارالتجاني (1150—1223 هـ) شيخ الطريقة التجانية بالمغرب ، وصاحب قصرعين ماضي الذي خربه الأمير عبد القادر .

(2) راجع عن التجاني ، الضوء الله مع ، للسخاوي (126/2) ؛ مقالة التجاني في دائرة المعارف الإسلامية بقلم بليسر Plesser (E) ؛ كشف الظنـون (2623) ؛ تـاريـخ الدولتـين الموحديـة والحفصـيـة (ص 51) ؛ نفح الطيب (20/4—21) نيل الابتهاج بتطريز الديباج (ص 81) ؛ درة الحجال في أسماء الرجال لابن الفرضي (ص 1—41) ؛ وخصوصا ، مقدمة حسن حسني عبد الوهاب لطبعة الرحلة التي نشرتها كتابة الدولة للتربية القومية والشباب التونسية في سنة 1958 ، وكذلك : Amari. (M) (Nallino), Storia dei Musulmani (I/80-81), Brock., GAL (II/257, N° 1 ; SB II/368). والأدب الجغرافي العربي (383/1—384) .

وقد ترك عبد الله التجاني عددا من المؤلفات في النحو والصرف والحديث والتراجم والادب ، أورد المرحوم حسن حسني عبد الوهاب قائمة لها في مقدمته التي سبقت الاشارة اليها للرحلة (1) .

والرحلة نفسها تذكرنا من حيث المحتوى والأسلوب أيضا ، إلى حد ما ، برحلة العبدري التي سنتحدث عنها في الصفحات التالية ، وذلك لأن الرحالة التونسي يعني هو ايضا ، عناية كبيرة برواية الشعر والتعريف بالنا بغين من الفقهاء والادباء والقواد والصلحاء من معاصريه من ابناء البلاد التي زارها ، ولكن التجاني يتجاوز اهتمامه الادب والرواية الى الوصف الجغرافي الدقيق ، فيتحدث عن المدن وما فيها من العمر ان وعن القبائل ومواقعها واراضيها وعاداتها وتقاليدها .

وهذا التنوع والتدقيق في الوصف يجعل الرحلة طريفة ومفيدة في نفس الوقت ، والرحلة فيما يتعلق بوصف تونس ، والتعريف بعمرانها وبحياتها الاجتماعية في أوائل القرن الثامن الهجري ، تبدو ، كما قال حسن حسني عبد الوهاب ، «وكأنها فريدة من نوعها» (2) .

خرج التجاني في رحلته هذه في رفقة مخدومة ، ابي يحي زكرياء بن الليحاني ، من تونس لأداء فريطة الحج في سنة 708 هـ (1309 م) وسار على الساحل التونسي الى صفاقس ، ثم نزل ناحية قابس وجزيرة جربة ، ثم دخل الواحات الجنوبية بقسميها الشرقي (مطماطة ونفزاوة) ، والغربي (بلاد الجريد) ، وقطع سبخة تاكمرت ، ثم دخل الاراضي الطرابلسية ومر بزوارة زواغة واقام مدة بمدينة طرابلس حيث فارق التجاني الامير الموحدي لأسباب صحية وسياسية معا ، وبعد ذلك عاد الى تونس ، سالكا ، طريقا غير الطريق التي سلكها من قبل .

والى جانب المعلومات الادبية والتاريخية والوصف الجغرافي الذي يعرضه ، يقدم لنا التجاني وثائق تاريخية ورسائل معاصرة مهمة بنصوصها الاصلية ، وهو الامر الذي تفرد به هذا الرحالة عن جميع المعاصرين والسابقين له .

انه لمن المؤسف حقا ان نجد ان رحلة التجاني لا تتناول بالوصف سوى المناطق التي تمتد في جنوب مدينة تونس وشرقها على طول الساحل ، حتى مسراته ، ولكن ضيق الرقعة

---

(1) المصدر المذكور (ص 32—33) .
(2) المصدر المذكور (ص 41) .

التي شملها الوصف وبطء سير الرحلة ، كانت من العوامل التي ساعدت التجاني على التركيز وعلى اثراء وصفه بالتفاصيل ، حيث تمكن من زيارة الاثار المعالم والتجول في المدن ودرس الحياة الاجتماعية والوقوف عند كل ما يمكن ملاحظته موقف الباحث ، وليس موقف السائح المعجل .

واسلوب التجاني ادبي صرف ، ولكنه لايثقل على القارىء ، مثل العبدرى ، بانطباعاته الشخصية وبمحاولة ابراز تضلعه في الادب ومهارته في قرض الشعر .

وهذه الخصائص هي التي حببت التجاني الى ابن خلدون الذي ينقل عنه في عدة اجزاء من كتاب العبر،والى غيره من القراء والكتاب (1) .

وكذلك حظي ماكتبه التجاني عن جزيرة جربة وصقلية بعناية وتقدير عالم حديث متخصص في النصوص التي تتصل بصقلية ، ونعني بذلك العلامة آمارى ، الذي اورد في كتابه ، «المكتبة العربية الصقلية» اقتباسات أُخذها من مختلف اقسام مخطوطة رحلة التجاني (2) .

العبــدري

ينحدر محمد بن محمد العبدري ، أبو عبد الله ، من سلالة بني عبد الدار بن قصي وينتمي إلى مدينة بلنسية بالأندلس (3) ، ولكنه أقام مدة خلال الفترة التي سبقت رحلته في الصويرة (موجدور) حيث ترك أسرته عند قبيلة حاحاه عند الشروع في رحلته . وكذلك أقام مدة من الزمن ، في قرية تقع على الطريق بين بسكرة وتوزر .

---

(1) راجع ، الأدب الجغرافي العربي (383/1) ومقالة بلسنر في دائرة المعارف الإسلامية (مادة التجاني) .

(2) المكتبة العربية الصقلية (ص 375—403) .

(3) راجع عن العبدوي ورحلته : المؤنس لابن أبي دينار (ص 18) مقدمة أحمد بن جدو لطبعته لرحلة العبدوي ، وكذلك الرحلة نفسها في عدة أماكن ؛ جذوة الإقتباس (ص 179) ؛ الرحالة المسلمون (ص 132) الحلل السندسية لشكيب أرسلان (128/3) ؛ الرحلة الورتلانية (في عدة مواضع) ؛ مقالة محمد بن شنب في دائرة المعارف الإسلامية (مادة العبدوي) ؛ شجرة النور (ص 217) ؛ استشهد به المقري في نفح الطيب في عدة أماكن (راجع فهرست طبعة إحسان عباس) الأدب الجغرافي العربي (367/1 — 368) ، وكذلك :

Reinaud, *introduction* (I/XXX VI) ; Pons Boigues (F), *Enssayo Bibliografica Arabigo - Espanoles ;* Sarton (G), *Introduction to the History of Science* from Homer to Omar el Khayam (2/1065-66) ; Mieli (A), *La Science Arabe et son Role dans l'Evolution Scientifique Mondiale* (p. 111 et 112, note 6) ; Gonzales Palencéa (A), *Historia de la Literature Arabigo-Espanoles* (p. 201 ; Amari (M) (Nallino), *Storia dei Muslmani* (I/56, N° 261) Brock., GAL (II/83, N° 1, SB/95).

بدأ العبدري في رحلته في رفقة ابنه لاداء فريضة الحج في سنة 688 ه ، (1289 م (1) عن طريق الولايات الشرقية للمعرب الاقصى ثم الجزائر وتونس ، ثم نزل بمصر ، ومن هناك رافق قافلة الحجاج الى مكة المكرمة .

وبعد أداء فريضة الحج رجع العبدري الى مصر عن طريق فلسطين ، فاقام بها وقتا كما أقام في القاهرة والاسكندرية ، ثم قفل راجعا الى بلده عن طريق الجزائر وتلمسان وفاس ومكناس ، حتى بلغ أزمور التي تقع على شاطىء المحيط الأطلسي ، حيث لحقت به أسرته .

اكتشفت الأوساط العلمية قيمة رحلة العبدري في وقت مبكر نسبيا ، حيث قام العالم شاربونو بنشر شذرات منها في سنة 1854 م (2) . ولكن العبدري أهمل بعد ذلك قرابة قرن من الزمن ، وكان حظه في ذلك حظ معاصرة التجاني الذي سبق الحديث عنه . وعندما انتعش الاهتمام به في سنة 1940 م على يد هونرباخ (Hoenerbach) لم تكن الدراسة التي اسفر عنها في متناول جمهرة الباحثين بحيث ترفع من ستار الجهل الذي يحيط بالرحلة في العالم العربي ، وإنما هي ظهرت في دورية متخصصة تصدر في همبورج (3) على أن طبعة ظهرت مؤخرا بالجزائر لرحلة العبدري سدت هذا النقص . وذلك على الرغم من أن هذا العمل كان يمكن أن يتم بعناية أكبر وبطريقة علمية أوفى (4) .

والنص المطبوع لا يشتمل الا على وصف شمال افريقية ولكن المفروض أن رحلة العبدوي تتناول مصر وغيرها من البلدان الشرقية ، ولو أن وصفه للبلدان الشرقية هو ، فيما يبدو ، أقل أهمية من وصف المغرب (5) ، والمحقق للنص المطبوع لا ينير الطريق أمامنا لحل هذه المعضلة .

ومهما يكن من أمر ، فان الرحلة التي بين أيدينا ، هي أقرب الى المؤلفات الأدبية منها الى المصنفات الجغرافية ، وذلك على الرغم من أن المؤلف يزودنا بالمعلومات الحيوية العامة

---

(1) هذه هي الروية التي اعتمدها عدد من الكتاب وفي مقدمتهم شاربونو واكراتشكوفسكي،وأما بن جدو فقد ذكر في مقدمة طبعته للرحلة أن العبدوي ترك ولده بالمغرب .

(2) Cherbonneau Notices et Extraits du Voyage d'El Abdery à Travers l'Afrique Septententerionale au VII Siècle de l'Hégir, Journal Asiatique, 5e serie 1854, p. 144 – 176.

(3) Hoemerbach (W) Das Nordafricainische Stenerar des Abari ZDMG ; 94, 3, 1940.

(4) نشر وتحقيق إبن جدو . وقد بلغني أن طبعة أخرى أكبر حجما وأدق تحقيقا ظهرت في المغرب الأقصى ،ولكنني لم أوفق للحصول على نسخة منها .

(5) راجع ما قاله إبن شنب في دائرة المعارف الإسلامية . الطبعة الأولى (مادة عبدري) .

عن الأماكن والمدن التي أقام بها أو مر بها ، والآثار التي شاهدها . ونظرة عابرة إلى هذا النص تقنعنا بان اهتمام الكاتب لا يتجه الى الانتاج الاقتصادى والتجارة والسياسة وغير ذلك من الوان النشاط الحضاري ، وانما هو يتجه الى الرواية وتراجم العلماء والأدباء والى الشعر بصفة خاصة . والحق ان الرحلة أقرب الى أن تكون تقريرا نقديا يعكس الى حد ما الحركة الأدبية والعلمية في البلدان التي مر بها ، منها الى عمل من النوع الذي عودنا عليه الجغرافيون والرحالون العرب .

والشيء الأساسي الذي يميز رحلة العبدري هو الأسلوب الأدبي الرشيق والشيق والملاحظة الدقيقة والمعرفة بسير الرجال . ومن هذه الزاوية ، يمكن أن نعتبر من أهم جوانب الرحلة كونها مصدرا لعدد من التراجم المغربية من العلماء والأدباء ، مما يكمل طبقات أبي العرب ورياض النفوس للقيرواني . ومن ضمن التراجم التي تقدمها الرحلة ، ولا توجد فيما نعرف في غيرها ، ترجمة أبي الحسن بن القاسم بن باديس القسنطيني الذي تباحث معه المؤلف وقيد اسمه (1)

ولربما كان هذا الميل الى الناحية الأدبية في وقت كانت الحركة الادبية فيه خامدة في المغرب ، هوسبب اهمال الباحثين لرحلة العبدري طيلة هذه الاجيال . والمؤلف بعد ، لا يحاول أن يخفي شخصيته فيما يرويه وينقله ، بل أن هذه الشخصية تبدولنا بارزة لأول وهلة ، وهي تستلف النظر أكثر من الرواية المنقولة نفسها . والرحلة تزخر بالأبيات الشعرية والقصائد التي نظمها رحالتنا والتي يسجلها بمناسبة وفي غير مناسبة .

القلقشندي

هو شهاب الدين أبو العباس أحمد بن علي ، صاحب صبح الاعشاء (2) ، مؤرخ وبحاثة ، ولد بمصر سنة 756 ه (1355 م) (2) وتوفي في سنة 821 ه (1418 م) ، وهو ينتمي الى بيت يتوارث افراده العلم ابا عن جد .

---

(1) الرحلة (ص 29)

(2) راجع عن القلقشندي ، الضوء اللامع (8/2)؛ آداب اللغة (133/3) ؛ الفهرس التمهيدي (ص 417) ؛ كشف الظنون (122/5) ؛ معجم المطبوعات (1521—1522) ؛ مجلة المشرق (516/9) ؛ شذرات الذهب (163/4) ؛ مفتاح السعادة (78/2) ؛ وكذلك Brock., GAL (SB 11/165) الأدب الجغرافي العربي (415/1 — 421) ؛ فهارس كتاب صبح الأعشى (مقدمة سعيد عبد الفتاح عاشور) كحالة ؛ معجمم المؤلفين (317/1) Gaudefroy – Demombynes, *La Syrie à l'eproque des mamelouks d'apres les auteurs arabes.*

اشتهر القلقشندى منذ القديم بعدد من الكتب المهمة في التاريخ والادب والانساب ، ولكنه لم يعرف حقيقة في الدوائر العلمية في اروبا الا منذ القرن التاسع عشر. ولربما كان مرجع تأخر شهرته الى ضخامة موسوعته ، صبح الاعشى ، التي هي اهم مؤلفاته . فان العلماء المهتمين بالعلوم العربية لم يتمكنوا من تكوين فكرة اجمالية عن هذا الكتاب. الا بعد نشره كاملا بعناية العالم المصري البحاثة ، احمد زكي باشا في سنة 1913 (1) .

تلقى القلقشندى علومه الاولى بالاسكندرية ، وبعد اتمام تعليمه تولى تدريس الحديث والفقة في سن مبكرة (178 هـ.) ، ولكن اهتمامه كان يتجه بصفة خاصة ، الى درس نسب القبائل العربية ، فوضع كتابا في ذلك بعنوان ، «نهاية الارب في معرفة قبائل العرب» (2) .

وهذا الكتاب ، اكمله وزاد عليه ونشره العلامة العراقي ، السويدي ، في أوائل القرن التاسع عشر (3) .

وفي عام 791 هـ ، التحق القلقشندي بديوان الانشاء وظل مرتبطا به بعد ذلك حتى وفاته .

بدأ القلقشندي العمل في موسوعته الكبيرة بعد دخوله ديوان الانشاء ، وكانت نيته الاصلية وضع كتاب يستعين به موظفو الدواوين ، فسماه «صبح الاعشى في صناعة الانشاء» وقد استمر يضيف اليه وينقحه حتى وفاته .

ولما رأى ضخامة حجم هذا الكتاب وادرك صعوبة تداوله ، وضع له مختصرا بعنوان : «ضوء الصبح المسفر وجني الدوح المثمر» (4) .

وهذا الكتاب (الاصلي) يتميز بضبط المادة وحسن تبويبها ويشتمل على ملخص للمعارف الاساسية كما كانت في عصر المؤلف ، مما يحتاج اليه المثقفون ، وكتاب الدواوين . فهو يقدم وصفا كاملا لمصر والشام ولجميع الدول التي تربطها علاقة بمصر ، ويشمل النظم السياسية والادارية واساليب المعاملات ونماذج للمكاتبات الديبلوماسية ، بل ان المؤلف لا يفوته كذلك ان يتحدث عن انواع المداد والقرطاس والقلم الخ .

---

(1) أعيد طبعه في سنة 1963 ، كما قام بوضع فهرس له مؤخرا محمد قنديل البقلي .

(2) وهوغير نهاية الارب في فنون الادب ، للنويري .

(3) معجم المطبوعاب (1523 ـــ هامش) .

(4) الأدب الجغرافي العربي (419/2)

وينقسم « صبح الأعشى » من حيث التبويب الى عشرة أقسام كبيرة غير متساوية الحجم . وفي الأجزاء الأول حتى الثالث ، يعالج ما يحتاج اليه الكاتب مما يتعلق بالخط والنحو والصرف والبلاغة الخ ، ويتناول المؤلف في الجزء الثالث الى الخامس المعلومات التي تتصل بالجغرافيا والتاريخ . وفي الجزء الخامس والسادس يتعرض للناحية الشكلية في الكتابة وللكنى والألقاب والصيغ الخ . وفي الجزء السادس حتى الجزء التاسع يعرض أنماط المكاتبات وأنواع الرسائل والوثائق .

وفي الجزء التاسع حتى الثاني عشر يقدم لنا المعلومات النظرية ونماذج للولايات والعهود والبعثات وغير ذلك من الشئون الادارية العليا ، وفي بقية الاجزاء يعرض الكتاب ماده متنوعة من عقود الصلح واليمين والاقطاعات الخ .

وفي الخاتمة يبحث المؤلف في شئون المواصلات والنقل (مثل نقل الثلج المجمد من الشام الى مصر على ظهر الجمال)واستعمال الاشارات النارية الخ .

والكتاب يغلب عليه النقل من الجغرافيين والكتاب السابقين ، وخصوصا عن العمري ، مع ذكر اسماء المؤلفين والمراجع في الاغلب ، وهو يحتوى على رصيد ثمين من المعلومات المتنوعة في مختلف الموضوعات ، كما اشرنا . ولكن عرضه الجغرافي يتركز بصفة خاصة في مصر ، ويلي هذا الوصف من حيث الاهمية ، وصف الشام ، ثم وصف الحجاز الذي كان يقع تحت نفوذ مصر في عهد المؤلف .

وبعد ما يتناول بالوصف المفصل ايضا ، ايران واليمن وعمان والهند ، يعود الى الحديث عن البلاد الواقعة في غرب مصر وفي جنوبيها وشماليها .

ويبدأ القلقشندي وصفه لشمال افريقية بطرابلس وتونس ويليها المغرب الاوسط وقصبته ، تلمسان ، ثم المغرب الاقصى أو بر العدوة .

وبعد ذلك ينتقل الى اروبا ليصف الاندلس وبلاد الفرنجة (فرنسا) وغاليسيا ولومبارديا وشعوب الجركس والقوقاز الخ .

وفيما يتعلق بالمغرب فان وصف الكاتب لا يكاد يضيف شيئا يذكر الى ما نقله عن الجغرافيين اذا استثنينا ملاحظات تفصيلية هنا وهنالك ، ولكن الكتاب في مجموعه يضم ماده تجعله خليقا بالوصف الذي اطلقه عليه اكراتشكوفسكي حين يقول : «فهو بهذا يعد مصنفا فريدا» وانه « يمثل ظاهرة مبرزة فريدة في نوعها في مجال الادب الجغرافي » (1) .

(1) الأدب الجغرافي العربي (420/1) .

البـاب الأول

مـدن المغـرب الأقصـى

سبتــة (1)

ابن خــــرداذبـــــة :

ومدينة سبتة الى جانب الخضراء . وملك سبتة اليــان *

الهمذاني :

ومدينة سبتة الى جانب الخضراء . وملك سبتة اليان .

ابن حوقــل :

ومنها إلى مدينة سبتة ، وهي لطيفة على نحر البحر ، وبها بساتين وأجنة تقوم باهلها . ماؤها من داخلها يستخرج من آبار بها معين ، ومن خارجها أيضا من الآبار شيء كثير عذب . مرسي قريب ا لامر، وقدتقدم أن بها معدنا للمرجان صالحا يعمل فيه قوبيرات لطاف . وهي وقتنا هذا لبني أمية ولم يكن لهم في عدوة المغرب غيرها . ولها من ظاهرها بربر يأخذ صداقتهم ولوازمهم وخراجهم من كان واليا عليها ، وكذلك من كان بمرسى موسى في ضمنهم ، وكأني بها راجعة الى مولانا عليه الســلام .

---

(1) راجع إلى جانب المراجع العربية المقتبس منها والمراجع الأجنبية التي ورد ذكرها عند الحديث على مدينة فاس ومراكش :
Elie de la Primendie, Villes maritime du Maroc; Badgett Maekin, The Land of the Moors;
وكذلك وصف الحسن بن محمد الوزان في «وصف افريقيا»، ج 1 ، ابن زمبيل ، تحفة الملوك (مخطوط في مكتبة اكسفورد) ورقة 108 ـــ 111 .

(*) في طبعة ليدن : ليمان .



المقدسي

وسبتة على زقاق بحر الاندلس ترى منها البرين ، وهي أحد المعابر المشهوره .

البكـــري

وهي (سبتة) على ضفة البحر الرومي ، وهو بحر الزقاق الداخل من البحر المحيط وهي في طرف من الارض داخل من المغرب الى الشرق ضيق جدا . والبحر محيط بها شرقا وشمالا وقبلة . ولوشاء ساكنوها أن يوصلوه من ناحيه الشمال لوصلوه ، فتكون (المدينـة) جزيره منقطعة . وقد حفر من تقدم في ذلك الموضع نحو غلوتين . وهي مدينة كبيرة مسورة بسور صخر محكم البناء ، بناه عبد الرحمن الناصر لدين الله . وحماماتها يجلب اليها الماء على الظهر من البحر . وبمدينتها حمام قديم يعرف بحمام خالد ، ولها ربض من جانب الشرق فيه ثلاث حمامات . وجامعها على البحر القبلي المعروف ببحر بسول له خمسة بلاطات ، وفي صحنه جبان ولها مقبرة في الجبل ، ومقبرة أخرى بجوفيها على بحر والرملة ، وأهلها عرب وبربر . فعربها تنسب الى صدف وبربرها من ناحية أصيلة والبصرة ، ولم تزل دارعلم . وفي شرقيها جبل منيف كان محمد بن أبي عامر ابتدأ فيه بناء سورلم يتم . وهذا الجبل مطل على الربض المذكور الذي فيه الحمامات ، وما بينها كروم . ودار الامارة في جوفي المدينة . وطولها من السور الغربي الذي يدخل منه المدينة قاطعا الى آخر الجزيرة خمسة أميال . والمدينة في الجانب الغربي منها . ولسورها الغربي تسعة أبراج . والباب في البرج الاوسط . وبين يدي هذا السور سور لطيف يستر الرجل ويتصل بيه خندق عميق عريض عليه قنطرة خشب أمامها بستان وآبار ومقبرة . والسور القبلي على أجراف عالية والشرقي والجوفي فيه تطامن . ولها باب ثاني مما يلي الجوف في برج يعرف ببرج سابق يدخل منه الى دار الامارة وذرع المدينة من السور الغربي الى الشرقي الفان وخمسمائة ذراع . وهي مدينة قديمة سكنها الاول . وبها آثار بقايا كنائس وحمامات وماؤها مجلوب من نهر أويات مع خفة البحر القبلي في فنا الى الكنيسة التي هي اليوم الجامع . وكان صاحبها اليان هو الذي أجاز طارق بن زياد واصحابه الى الأندلس . فلما غزا عقبة بن نافع الفرشي أرض المغرب وصار الى سبتة خرج اليه اليان بهدايا وتحف ورغب اليه في الاءيمان فأمّنه واقرّه في موضعه ، ثم دخلها العرب بعد ذلك بالصلح وعمّروها ، ثم قام عليهم بربر طنجة فأخرجوهم منها واقفروها وبقيت خرابا يعمرها الوحش مدة ثم دخلها رجل من غمارة يسمى ماجكن وكان

مشركا فعمّرها وأسلم ورأس فيها ، ثم وليها بعد هلاكه ابنه عصام ، ثم ابن ابنه مجبر بن عصام . وفي دولته دخلها قوم كثيرون من أهل كلشانه (1) أيام المحمل فاشتروا من البربر وبنوا فيها واستوطنوها وكانوا مع ذلك يؤدون الطاعة الى قريش العدوة من الحسنيين حتى افتتحها عبد الرحمن النّاصر لدين الله وواليها الرّضى بن عصام بعد موت أخيه مجبر ودخلها عامله وقائده فرج بن عفير يوم الجمعة في صدر ربيع الأول في سنة تسع عشرة . والمسلك من سبتة الى طنجة على طرف وهي مساكن قبائل مصمودة كلها .

الادريسي

فأما مدينة سبتة فهي تقابل الجزيرة الحضراء ، وهي من سبعة أجبل صغار متّصلة بعضها ببعض معمورة طولها من المغرب الى المشرق نحو ميل . ويتصل بها من جهة المغرب وعلى ميلين منها جبل موسى . وهذا الجبل منسوب لموسى ابن نصير ، وهو الذي كان على يديه افتتاح الأندلس في صدر الاسلام . ويجاوره جنان وبساتين واشجار فواكه كثيرة وقصب سكّر واترج ويتجهز به الى ما جاور سبتة من البلاد لكثرة الفواكه بها ويسمى هذا المكان الذي جمع هذا كله بلبونش . وبهذا الموضع مياه جارية وعيون مطردة وخصب زائد . ويلي المدينة من من جهة المشرق جبل عال يسمى جبل المينة ، وأعلاه بسيط . وعلى أعلاه سور بناه محمد بن أبي عامر (2) عندما جاز اليها من الاندلس وأراد أن ينقل المدينة الى أعلى هذا الجبل ، فمات عند فراغه من

---

(1) في النص العربي فلسانه (ولكن النص الفرنسي في ترجمة دوسلان يحمل : Calchana كلشانة) وهو تحريف واضح وكان البكري قد سبق أن تحدث عن مدينة أخرى باسم كلشانة تقع على مسافة 12 ميل من القيروان . وكلشانة المغرب ورد ذكرها في نفح الطيب وغيره (راجع تعليق دوسلان — الترجمة (205—هامش 1) .

(2) هو محمد بن عبد الله بن أبي عامر المعافري ، الملقب بالمنصور . دخل جده ، عبد الملك الأندلس في أوائل الفتح وسكن بنو عامر الجزيرة الخضراء حيث ولد محمد . ولما بلغ سن الصبا رحل إلى قرطبة وتقرب من الحكم المستنصر الذي ولاه عدة مناصب . وقد أبدأ كثيرا من البراعة والحصافة واستمر نجمه في صعود حتى أصبح من أعظم رجالات الدولة . ولدى وفاة الخليفة الحكم في 2 صفر ، 366 هـ (سبتمبر 976 م) . استولى المنصور بن أبي عامر على زمام

راجع : إبن الأبار ، الحلة السيراء ، 268/1 — 277 ؛ عبد الله عنان ، دولة الإسلام 470/2 ؛ سالم عبد العزيز ، تاريخ المسلمين ، ص ، 324 ؛ فيليب حتى ؛ تاريخ العرب ، 643/3 ؛ المقري ، نفح الطيب ، (طبعة ليدن) ، 375/1 وما بعدها ، إبن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص 27 ، إبن سعيد المغربي ، المغرب في حلي المغرب ، تحقيق شوقي ضيف ، دار المعارف ، 1955 ؛ ابن عذارى ، في أماكن مختلفة من البيان المغرب ج 3 ؛ ابن حيان القرطبي ، المقتبس في أخبار بلد الأندلس تحقيق الحجي ، في أماكن منفرقة ولا سيما ص 41—43 و 49—52 .

بنيان أسوارها وعجز أهل سبتة عن الانتقال الى هذه المدينة المسماة بالمينة ، فمكثوا في مدينتهم وبقيت المينة خالية وأسوارها قائمة وقد نبت حطب الشعراء فيها. وفي وسط المدينة بأعلى الجبل عين ماء لطيفه لاكنها لاتجف البتة .وهذه الاسوار التي تحيط بمدينة المينة تظهر من عدوة الاندلس لشدة بياضها . ومدينة سبتة سميت بهذا الاسم لانها جزيرة منقطعة والبحر يحيط بها من جميع جهاتها الا من ناحية المغرب ، فان البحر يكاد يلتقي بعضه ببعض هناك ولا يبقى بينهما الا أقل من رمية سهم . واسم البحر الذي يليها شمالا بحر الزقاق والبحر الآخر الذي يليها من جهة الجنوب يقال له بحر بسول ، وهو مرسى حسن يرسى به فيكنٌ من كل ريح . وبمدينة سبتة مصايد للحوت ولا يعد لها بلد في اصابة الحوت وجلبه . ويصاد بها من السمك نحو مائة نوع . ويصطاد بها السمك المسمى التُّن الكبير الكثير . وصيدهم له يكون زرقا بالرماح . وهذه الرماح لها في اسنتها اجنحة بارزة تنشب في الحوت ولا تخرج . وفي أطراف عصيها شرائط القنب الطوال ، ولهم في ذلك دربة وحكمة سبقوا فيها جميع الصيادين لذلك . ويصاد بمدينة سبتة شجر المرجان الذي لايعد له صنف من صنوف المرجان المستخرج بجميع أقطار البحار . وبمدينة سبتة سوق لتفضيله وحكه وصنعة خرزا وثقبه وتنظيمه . ومنها يتجه الى سائر البلاد . واكثر ما يحمل الى غانة وجميع بلاد السودان لانه في تلك البلاد يستعمل كثيرا . ومن مدينة سبتة الى قصر مصمودة في الغرب ميل .

ياقوت

سبتة : بلفظ الفعلة الواحدة من الاسبات ، أعني التزام اليهود بفريضة السبت المشهور ، بفتح أوله . وضبطه الحزام بكسر أوله . وهي بلدة مشهورة من قواعد بلاد المغرب ، مرساها أجود مرسى على البحر . وهي على برّ البربر ، تقابل جزيرة الاندلس على طرف الزقاق الذي هو أقرب الى مابين البر والجزيرة . وهي مدينة حصينة تشبه المهدية التي بافريقية ، على ماقيل ، لانها ضاربة في البحر داخلة كدخول كف على زند . وهي ذات أخياف (1) وخمس ثنايا مستقبلة الشمال وبحر زقاق . وفي جنوبيها بحر ينعطف اليها من بحر الزقاق ، وبينها وبين فاس عشرة أيام . وقد نسب اليها جماعة من أعيان العلم ، منهم ابن مرانه السّبتي ، كان من أعلم الناس بالحساب والفرائض والهندسة والفقه ، وله تلامذة وتآليف .

(1) جمع خيف ، هبوط وارتفاع في سفح جبل (راجع معاني أخرى للكلمة في تاج العروس (6/106—107) .

من تلاميذة ابن العربي الفرضي الحاسب ، يقولون انه من أهل بلده . وكان اسماعيل ابن عباد (1) يقول : اشتهيت أن يكون عندي من أهل سبتة ثلاثة نفر : ابن غازي الخطيب وابن عطاء المكاتب وابن مرانة الفرضي .

القزويني

سبْتَة – بلدة مشهورة من قواعد بلاد المغرب على ساحل البحر في برّ البربر . وهي ضاربة في البحر داخلة فيه . قال أبو حامد الأندلسي : عندها الصّخرة التي وصل اليها موسى وفتاه يوشع عليه السلام ، فنسي الحوت المشوي وكانا قد أكلا نصفه فاحيا الله تعالى النصف الآخر فاتّخذ سبيله الى البحر عجبا . وله نسل الى الآن في ذلك الموضع ، وهي سمكة طولها أكثر من ذراع وعرضها شبر واحد جانبيها صحيح والجانب الآخر شوكة وعظام وغشاء رقيق على أحشائها . وعينها واحدة ، ورأسها نصف رأس . فمن رآها من هذا الجانب استقذرها ويحسب أنها مأكولة ميّتة . والنّاس يتبركون بها ويهدونها الى المحتشمين . واليهود يقددونها ويحملونها الى البلاد البعيدة للهدايا .

ابن سعيد

والسفر بين طرفيه (بحر الزقاق) اربعون ميلا من ازيلا الى طرف استريال ثم يضيق الزقاق بين عدوتين وبين بحر الاندلس ، فيكون قدره ثمانية عشر ميلا . وطوله الى جبل الميناء الذي على سبتة اربعة وأربعون ميلا ، وهي على البحر المحيط . قال البكري : ان اتّساع البحر عندها ثلث مجرى ، وهو أضيق بقليل عندما يشرق عنها الى أن يكون عند قصر المجاز ثمانية عشر ميلا . وبينه وبين طنجة ثمان درجات واحدى وثلاثون دقيقة ، وعرضها خمس وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة . وتكون سبتة المشهورة حيث الطول تسع درجات والعرض خمس وثلاثون درجة ونصف .

(1) هو إسماعيل بن عباد الطالقاني (أبو القاسم) . ولد في شهر ذي القعدة سنة 326 هـ . (938 م) وتوفي في الري في سنة 385 هـ (995 م) . أديب كبير استوزره مؤيّد الدولة بن بوية الديلمي . وقد لقب بالصاحب ، لأنه كان يصحب مؤيد الدولة . ولما توفي مؤيد الدولة في سنة 373 هـ (984 م) ، وانتقل الحكم إلى فخر الدولة ، أقره في الوزارة ، وظل يشغل منصبه إلى أن توفي . ولابن عباد عدد من الكتب ، من أهمهما «المحيط» في اللغة ، في سبع مجلدات . راجع : ياقوت ، إرشاد الأديب ، ط مرغليوت 2/273—343) ؛ وابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ط إحسان عباس ، رقم 96 ، 1/228 ؛ وابن خلدون ، العبر ، 4/466 ؛ وابن الأثير ، الكامل ، 9/37 ؛ ولسان الميزان ، 1/413 ؛ مجلة المجمع العلمي العربي ، 19/73 وكذلك :
الفصل الثاني Wilken, Gesch der Sultane aus dem Geschletchte Buyeh Nach Mirchond

وهذه المدينة بين بحرين ، وهي ركاب البرّين ، شبه الاسكندريّة في كثرة الحطّ والاقلاع ، وفيها التجار الأغنياء الذين يبتاعون المركب بما فيه من بضائع الهند وغيرها في صفقة واحدة ولا يحوجون صاحبها الى تقاض . وهي [الآن] غير راجعة الى سلطان ، بل يديرها الفقيه العرفي . وعسكرها في أسطولها في المراكب التي ترد عليها من البحر المحيط ومن ريف غمارة .

أبو الفدا

سبته ، مدينة بين بحرين : المحيط وبحر الروم . وهي مورد البرّين ، برّ العدوة وبرّ الاندلس. وهي مدينة حط واقلاع ، وهي في دخلة من البر في البحر ، ومدخلها من جهة الغرب ، وهو ضيق ، والبحر محيط باكثرها . ولو شاء أهلها لوصلوا البحر حولها وجعلوها جزيرة . وأسوارها عظيمة من صخر ، وميناؤها بشرقيها ، والبحر عندها ضيق . واذا كان الصحو بصرت منها الجزيرة الخضراء (1) من برّ الاندلس وماؤها مجلوب لها صهاريج من المطر.

القلقشندي

بعدما نقل ما ذكره أبو الفدا ، أضاف قائلا : ويقال أنها أول مابني ببر العدوة . قال في الروض المعطار : وهي سبعة أجبل صغار متصلة بعضها ببعض معمورة ، طولها من المغرب الى الشرق نحو ميل . وقال في « مسالك الابصار » : طولها من السور الغربي المحيط بربضها الى آخر الجزيرة خمسة أميال . قال في « الروض المعطار » : ولها بابان من جهة

---

(1) Algeziras ، ويقال لها أيضا جزيرة أم حكيم ، نسبة إلى جارية لطارق بن زياد كانت تسمى بذلك خلفها في الجزيرة . استولى المسلمون على الجزيرة الخضراء في شهر رمضان سنة 91 هـ (يوليو 710 م) . وهي مرفأ ومرسى يقع على ربوة مشرفة على جون جبل طارق . وقد تعاقب الولاة عليها من بني أمية ثم ملوك الطوائف والمرابطون فالموحدون وظلت في يد المسلمين حتى استولى عليها ألاذفش « الفونس » الحادي عشر صاحب قشتالة في سنة 743) 1342 م . بعد موقعة نهر طريف وقد كانت الجزيرة الخضراء معقلا لأبناء القاسم بن حمود مدة من الزمن قبل أن تسقط في يد بني عباد أمراء اشبيلية في 450 هـ (1058 م) . والجزيرة الخضراء في الوقت الحاضر مركز إداري في مديرية قادس . (راجع مقالة سيبولد (مادة الجزيرة الخضراء) في دائرة المعارف الإسلامية ، والمراجع التي أحال عليها ، وكذلك الحلة السيراء لإبن الأبار (199/2) ؛ صفة الأندلس للحميري (ص 73—75) ؛ معجم البلدان (136/2—137) صبح الأعشى (220/5) ؛ الأدريسي (ص 176—177) .

البر ويتصل بها على ميلين من جهة الغرب جبل يعرف بجبل موسى ، وهو موسى بن نصير الذي فتح الاندلس ، وبجواره بساتين وأشجار وقرى كثيرة . وهناك يزرع قصب السكر ويحمل الى ماجورها من المدن . ولهانهر عذب (ينصب) في البحر . ولها كنيسة جعلت جامعا . وبها يستخرج من البحر شجر المرجان الذي لايعد له مرجان . ويقابلها من الجزيرة الخضراء ، وبحر الروم بينهما ضيق ، حتىأنه اذا كان الصحو رأيت احداهما من الاخرى ، ولذلك يسمى بحرها بحر الزقاق ، وميناؤها شرقيها . وغالب طَرف الدنيا موجودة فيها . والحنطة مجلوبة اليها ، اذا لايزكو نباتها فيها . ويصاد بها أسماك مختلفة على مائة نوع .

وكانتهذه المدينة قاعدة لهذا القطر قبل الإسلام ، وهي يومئذ ديار غمارة من المصادمة ، والحاكم عليها ملك ا لاندلس من القوط ، وكان ملك غمارة بها في زمن الفتح يقال له يليان . ولما زحف اليه موسى ابن نصير المذكور (1) ، أمير أفريقية ، في زمن الفتح . جاء معه بالهدايا ، وأذعن لأداء الجزية ، فأقره عليها ، وأسترهن ابنه وأبناء قومه ، كما سيأتي الكلام على مكاتبة صاحب الأندلس . ولما هلك يُولْيَانْ ، أستولى المسلمون العرب على مدينة

---

(1) موسى بن نصير (19—97 هـ = 640— 715 م) بن عبد الرحمن بن يزيد اللخمي بالولاء ، أبو عبد الرحمن : فاتح الأندلس . أصله من الحجاز ونشأ في دمشق وولّي غزو البحر في عهد معاوية ، فغزا قبرص وبنى بها حصونا . وقد غزا أفريقية في عهد عبد العزيز بن مروان . ولما آلت الخلافة إلى الوليد إبن عبد الملك ، ولاه على أفريقية وما وراءها من المغرب (سنة 88) ، فأقام بالقيروان . وقد استعمل مولاه طارق بن زياد على طنجة وأمره بغزو أوروبا . وفي سنة 92 ، فتح طارق جبل كلبي Kalpé الذي يحمل إسمه حاليا . وبعد ذلك واصل التوغل في إسبانيا على الرغم من أوامر موسى بن نصير الذي منعه من ذلك . وقد استخلف موسى إبنه على القيروان واتجه إلى إسبانيا التي دخلها في رمضان سنة 93 ، فاحتل قرمونة وأشبيلية وعدد آمن المدن الأخرى ثم ماردة ، ومضى حتى بلغ طليطلة ، حيث اجتمع بطارق ووجهه إلى الشرق فافتتح برشلونة وبلنسية ودانية . وفي أقل من سنة ، تمّ لطارق وموسى فتح ما بين جبل طارق وجبل البرانس . وبأمر من الخليفة ، الوليد بن عبد الملك ، عاد موسى بن نصير إلى القيروان في سنة 95 ، ثم سار إلى المشرق ومعه غنائمه ، فدخل مصر ومعه مائة وعشرون من الملوك وأولادهم . وفي سنة 96 ، دخل إلى دمشق والخليفة على فراش موته ، وبعد وفاة الخليفة ، تختلف الرواية في مصير موسى . راجع نفح الطيب (332/2) ، وفيات الأعيان (318/8) جذوة المقتبس (ص 317) تراجم علماء الأندلس ، (ط . مدريد 18/2) بغية الملتمس (ط . مدريد ، ص 442) الحلة السيراء (64/1 و 332/2—334) .

سبتة بالصلح من أهلها فعمروها إلى أن كانت فتنة ميسرة الحقير (1) وما دعا اليه من مذهب الخوارج وأخذ به الكثيرون من البربر من غمارة وغيرهم ، زحف برابرة طنجة إلى سبتة فأخرجوا العرب منها وخربوها وبقيت خالية الى أن عمرها ماجكسن من وجوه غماره من البربر وبناها واسلم وصحب أهل العلم ورجع الناس اليها ومات .

فقام بالامر من بعده ابنه عصام ، فاقام بها زمنا الى أن مات فولي بعده ابنه محير ، فأقام بها الى أن مات ، فوليها أخوه الرضي ، ويقال ابنه ، وكانوا يعطون الطاعة لبني ادريس من العلوية ملوك فاس . ولما سما الناصر الاموي صاحب الاندلس الى ملك المغرب وتناول اكثره من يد الادارسة ببلاد غماره وغيرها حين أخرجوا من فاس وقاموا بدعوة الناصر في جميع أعمالهم ، نزلوا للناصر عن سبتة ، فبعث اليها العساكر فانتزعها من يد الرضي بن عصام سنة تسع عشرة وثلاثمائة ، وأنقرض أمر بني عصام وصارت سبتة للناصر ومن بعده من بني أمية خلفاء الاندلس .

وكان علي والقاسم ابنا حمود بن ميمون بن أحمد بن علي ابن عبيد الله بن عمر بن ادريس العلوي ، لحقا بالاندلس لما أخرج المستنصر الاموي الادارسة من المغرب وبقيا بالاندلس الى ان كانت أيام المستعين سليمان بن الحاكم ، فاختص بقاسم وعلي ابني حمود ، وعقد لعلي بن حمود على طنجة وأعمال غمارة فنزلها ، ثم خرج على طاعته ودعا لنفسه وعاد الى الاندلس وولي الخلافة بقرطبة وولي على عمله ابنه يحي بن علي .

---

(1) كانت ثورة ميسرة بداية ثورات الخوارج التي انبثقت عنها عدة إمارات في شمال افريقية . وكان سببها ان عبيد الله بن الحبحاب ، عامل عبد الملك ابن مروان على افريقية والمغرب ، قد استعمل على طنجة ابنه اسماعيل وجعل معه عبد الله المرادي ، فأساء السيرة وأراد أن يخمس البربر وزعم أنهم فيء للمسلمين ، فانتقص البربر على ابن الحبحاب وتداعت عليه باسرها ، مسلمها وكافرها بقيادة ميسره الخفير الذي يدعى أيضا السقاء ، وكان صفريا خارجيا ، وقصدوا الى طنجة فاستولوا عليها وبايعوا السقاء بالخلافة وخوطب بأمير المؤمنين ، وكان ذلك في سنة 122 هـ (39—740 م) . قارن الكامل (190/5—193) والبيان (54852/1) .

طنجـة (1)

الهـمـذانـي

وطنجة خلف تاهرت بأربع وعشرين ليلة . قالوا : الغالب عليها المعتزلة وعميدهم اليوم اسحاق بن محمد بن عبد الحميد : وهوصاحب ادريس بن ادريس (2) .

(1) يسميها الحسن بن محمد الوزان طانجيه (Tangia) ، ويسميها البرتغاليون طنجر (tangar) . راجع عن مدينة طنجه : الوثائق التي نشرت في مختلف أعداد مجلة Archieves marocaines خلال الفترة بين 1904 — 1920 ، وفيما يتعلق باحتلال البرتغال لهذه المدينة يعتبر كتاب Fernando de Menzes المعنون : Histoire de Tanger (لشبونه 1762) أهم مرجع عن تلك الفترة . انظر كذلك : Playfair, Bibliography of Marocco (لندن 1892) ، والتعليق الذي وضعه المرحوم محمد بن تاويت الطنجي عن التعريف بابن خلدون (القاهرة 1951 ص 220 هامش 2) .

(2) هوإدريس بن ادريس بن عبد الله بن عبد الله بن الحسن المثنى ، أبوالقاسم ، ثاني ملوك الأدارسة في المغرب الأقصى ، ولد في سنة 177 هـ (793 م) في وليلي وتوفي في سنة 213 هـ (828 م) بمدينة فاس . هوباني المدينة ، وقد توفي والده وهو جنين ، فقام بشؤون البربر بعده راشد ، مولى أبيه . وقتل راشد في سنة 186 هـ . ، وقام بكفالة إدريس أبو خالد العبدي ، حتى بلغ الحادية عشر وبايعه البربر وقد اختط مدينة فاس ، كما سنرى ، في سنة 192 ، وانتقل إليها ، واقتطع المغربين الأقصى والأوسط عن دعوة العباسيين فأمتد حكمهُ من السوس الأقصى إلى وادي شلف . ويلاحظ ان المؤلف وقع في اضطراب فخلط بين ادريس الثاني وادريس الأول الذي هو صاحب اسحاق بن محمد . راجع : الاستقصا (1/70—75) ، العبر (13/4) ؛ البيان المغرب (103/1) ؛ جذوة الاقتباس (ص 95) ؛ الحلة السيراء (131/1) ؛ الكامل (93/6 ، 124) ؛ النجوم الزاهرة لإبن تغريبردي (433/1—452) ؛ جمع تواريخ مدينة فاس المؤلف مجهول (نشر (Storia di Fas - Cusa)) (ص 13—15) ؛ إبن أبي دينار ، المؤنس (ص 86) ؛ تاريخ اليعقوبي (405/2) ؛ مروج الذهب (193/6) ؛ تاريخ الطبري (560/3) ؛ بغية الرواد ليحيى بن خلـدون (تحقيق حاجيات ، طبع المكتبة الوطنية ، الجزائر 1980 ، ص 166 — 167 78/1) إدريس بن أحمد ، الدرر البهية (7/2) ، أحمد الحلبي ، الدر النفيس (ص 79 - 109 و 121 - 141 و 144 - 149) ، إسماعيل العربي ، دولة الأدارسة ملوك فاس وقرطبة وتلمسان ، نشر دار الغرب الاسلامي بيروت 1983 Despergers, Hist.de l'Afrique et de la Sicile (p. 89–91 note 97) ; Fournel, Les Berbers (I/295-400 et 447-449).

ابن حوقـل

طنجة مدينة أزلية آثارها بينه وأبنيتها بالحجارة قائمة على وجه البحر . سكنها أهلها قديما سنين في صدر الاسلام ثم استحدثوا لهم مدينة على مسيرة ميل منها على ظهر جبل . والذي أوجب استحداثها ، خوف آل ادريس عليها عند استحواذهم على سبتة في وقتهم . واكثر اموال اهلها من الزرع ، حنطة وشعير وحبوب . وماؤها مجلوب اليها في قنّى من مكان بعيد لا يعلم أصله ولا يعرف من أين مجيئه ، وانما يظنون جهاته . وهي خصبة صالحة الاسعار وليس عليها سور .

البكـري

فأما كرة طنجة فهي مساكن صنهاجة . وطريق السّاحل من مدينة سبتة الى طنجة تخرج من المدينة في بسيط تعمره نحو ميل ثم تدخل في حد بني سمغرة ، وهم أهل جبل مرسى ثم تخرج الى وادي اليَّم والقصر الأول وبطون مصموده تتشعب من اربع قبائل دغاغ وأصادة بني صمغرة وكتامة وبطون صنهاجة تفترق من قبيلتين من فار بن صنهاج وحزمار بن صنهاج . وفي القصر الأول سكنى بني طريف وحوله غراسات كثيرة وتدخل المراكب في هذا الوادي الى حائط القصر . وبين هذا الوادي وموقعه في البحر نحو سكتين . ومن سبتة الى هذا القصر مرحله . ومن القصر الى طنجة مرحلة . قال محمد بن يوسف : اذا خرج الخارج من طنجة الى سبتة في البحر فانّه يأخذ الى جانب الشرق . وأول ما يلقى جبل المنارة ثم مرسى باب اليوم ، وهو غير مُكَنّ وفيه سكنى ورباط وواد لطيف يريق في البحر ، وبينه وبين طنجة ثلاثون ميلا في البرّ وفي البحر نصف مجرى . ويقابل باب اليمّ من جزيرة الأندلس مرسى جزيرة طريف ، وبينهما ثلث مجرى :

« ومدينة طنجة تعرف بالبربريّة وليلى ، افتتحها عقبة بن نافع وقتل رجالها وسبا من بها وهي على شاطىء البحر المعروف بالزقاق مسورة متقنة البناء ، وهي محط للسفن اللطاف ، لأنّ الرّيح الشّرقيّة تؤذي فيه . وهي طنجة البيضاء القديمة المذكورة في التواريخ ، وفيها آثار للأول كثيرة ، قصور وأقباء وغيران وحمام وماء مجلوب في قنا ورخام كثير وصخر منجور وتحتفر خرايبها فيوجد فيها اصناف الجواهر في قبور أوليّة وغيرها من المواضع ، وهي آخر حدود اءفريقيّة في الغرب .

وقيل ان عمل طنجة مسيرة شهر في مثله وأن ملوك المغرب كانت دار مملكتهم طنجة ، وأن ملكا من ملوكهم كان في عسكره ثلاثون فيلا . ومسافة ما بين مدينة القيروان وطنجة الف ميل . وقد غلب على مدينة طنجة القديمة الرمل ، والعمارة اليوم فوقها . وهناك جامع حسن وسوق عامرة. وبازاء طنجة في البحر المحيط وآزاء جبل ادلنت الجزائر المسماة فرطناتش ، أي السعيدة . سميت بذلك ، لان شعراءها وغياضها كلها أصناف الفواكه الطيبة العجيبة دون غراسة ولا عمارة ، وأن أرضها تحمل الزرع مكان العشب وأصناف الرياحين العطرة ، يدل الشوك وهي بغربي بلاد البربر ، مفترقة متقاربة في البحر المذكور.

الادريسي

ومدينة طنجة قديمة أزلية وأرضها منسوبة اليها ، وهي على جبل عال مطل على البحر وسكنى أهلها منه في مسند الجبل الى ضفة البحر. وهي مدينة حسنة لها أسواق وصناعة وقلعة . وبها انشاء المراكب وبها اقلاع وحط . وهي على أرض متصلة بالبرّ فيها مزارع وغلات وسكانها برابر ينسبون الى صنهاجه . ومن مدينة طنجة ينعطف البحر المحيط الاعظم آخذا في جهة الجنوب الى أرض تشمّس . وتشمّس كانت مدينة كبيرة ذات سور من حجارة تشرف على نهر سقدد . وبينها وبين البحر نحو ميل ولها قرى عامرة بأصناف من البربر وقد أفنتهم الفتنة وأبادتهم الحروب المتوالية عليهم . ومن تشمّس الى قصر عبد الكريم ، وهو على مقربة من البحر ، وبينه وبين طنجة يومان . وقصر عبد الكريم (1) مدينة صغيرة على ضفة نهر لكس وبها أسواق على قدرها يباع فيها ويشتري . وا لارزاق بها كثيرة والرخاء بها شامل . ومن مدينة طنجة الى مدينة أزيلا مرحلة خفيفة جدا .

ياقوت :

طنجة ، مدينة في الاقليم الرابع ، طولها من جهة الغرب ثمانون درجة وعرضها خمس وثلاثون درجة ونصف من جهة الجنوب . بلد على ساحل بحر المغرب مقابل الجزيرة ، الخضراء ، وهو من البرّ الاعظم وبلاد البربر . قال ابن حوقل . طنجة مدينة أزليه آثارها ظاهرة بناؤها بالحجارة قائمة على البحر . والمدينة العامرة الآن على ميل من البحر وليس لها

(1) يقع قصر عبد الكريم الذي يسمى أيضا القصر الكبير في منطقة الريف على ساحل المحيط الأطلسي ، ويبعد عن البحر بنحو 36 كيلومترا .

سور ، وهي على ظهر جبل ، وماؤها في قناة يجري اليهم في موضع لايعرفون منبعه على الحقيقة . وهي خصبة وبين طنجة وسبتة مسيرة يوم واحد . وقيل أن عمل طنجة مسيرة شهر في مثله . وهي آخر حدود افريقية وبينها وبين القيروان ألف ميل . وينسب اليها أبوعبد الملك بن مروان بن سمجون ، (1) اللواتي الطنجي ، روي عن أبي محمد عبد الله بن الوليد الحجازي وطبقته ، ورحل الى المشرق فاقام به سبع عشرة سنة يقرأ الحديث ويتردد فيه . ومن جملة مشائخه طاهر بن بابشاذ النحوي ، وكان له شعر ، وانما قرأ المسائل والوافي بعد رجوعه الى المغرب . وكان يقول : لم أدخل الى الشرق حتى حفظت أربعة وثلاثين الف بيت من أشعار الجاهلية . وله خطب ، وهو من الفصحاء الكبار بطنجة . وينسب إليها أيضا أبو محمد عبدون بن علي بن أبي عزيز الطنجي الصنهاجي . روي عن الاصبغ بن سهل ومروان بن سمجون وغيرهما ، وولي القضاء ببلده . وطنجة أيضا متنزه برأس عين على العين التي بني الملك الاشرف بها دارا وقصرا .

أبو الفدا

طنجة ، على فم بحر الزقاق . واتساع البحر عندهاثلث مجرى ، فاذا شرق عنها اتسع . وهي مدينة أولية . وقد أستحدث أهلها لهم مدينة على ميل منها على ظهر جبل ليمتنعوا بها . وماء طنجة مجلوب من قني اليها من بعيد . وطنجة كثيرة الفواكه ، ولا سيما العنب والكمثري . وأهلها مشهورون بقلة العقل . وأضيق ما يكون البحر من طنجة الى سبتة ، وقدره ثلاثة عشر ميلا . وهناك موضع يقال له قصر المجاز. ومن طنجة الى قصر المجاز مرحلة لطيفة . ومن قصر المجازكذلك .

القلقشندي

طنجة ، مدينة من أقصي المغرب واقعة في الاقليم الرابع ، قال بن سعيد : حيث الطول ثمان درجات واحدى وثلاثون دقيقة والعرض خمس وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة . وهي مدينة على بحر الزقاق ، واتساع البحر عندها ثلث مجرى . فاذا شرق عنها ، اتسع عن ذلك .

---

(1) ترجم له إبن الأبار في التكملة (رقم 1816 ص 653) وفي الحلة السيراء (211/2) باسم عبد المنعم بن مروان بن عبد الملك بن سمجون اللواتي ، وقال أنه نشأ بغرناطة وتفقه على عدد من العلماء وفي مقدمتهم أبو علي سكرة الغساني الصدفي ، وولى القضاء في أشبيلية بعد صرف أبي مروان الباجي ، ثم نقل إلى قضاء غرناطة . توفي سنة 534 هـ .

واستحدث أهلها لهم مدينة على ميل منها على ظهر جبل يمتنعون بها . والماء ينساق اليها في قني . قال في « مسالك الابصار » : وكانت دار ملك قديم ، وهي التي كانت قاعدة تلك الجهات قبل الاسلام الى حين فتح الاندلس . وهي محط السفن . وهي كثيرة الفواكه ، لاسيما العنب والكمثري . وأهلها مشهورون بقلة العقل وضعف الراي ، على أن منها أبا الحسن الصنهاجي الطنجي ، ترجم له في قلائد العقيان وأثنى عليه وأنشد له أبياتا منها :

وقد تحمي الدروع من العوالي
ولا تحمي من الحدق الدروع

وكذا أبومحمد بن أحمد الحضرمي هو القائل :

وضنوا بتوديع وجادوا بتركه
ورب دواء مثل منه عليل!

* *
*

أصيلة (أزيلي) (1)

ابن حوقل

وأزيلي مدينة عليها سور متعلقّة على رأس جرف خارج من البحر المحيط الى أرض المغرب. لطيفة، وسورها من حجاره، وبعضها على البحر. وحظهم من الزروع والحنطة والشعير وافر. وماؤها من آبار فيها معين لذيذ. واذا أخذ منها الآخذ يريد الجنوب على سيف البحر المحيط، لقيه وادي سَفْدَدْ، وهو واد كبير عظيم غزير الماء يحمل المراكب، عذب ومنه شرب أهل تشمس.

البكري

ومدينة أصيلة أوّل مدن العدوة من جانب الغرب وهي في سهل من الأرض حولها رواب لطاف، والبحر بغربيها وجوفيها، وكان عليها سور له خمسة أبواب. وجامعها خمسة بلاطات. واذا ارتج البحر بلغ الموج الى حائط الجامع. وسوقها حافلة يوم الجمعة. وماء آبار المدينة شريب

---

(1) أصيلة، أوأزيلة، هو الإسم المعرّب من البربرية أصيلت (كما هوعند بطليموس). وكذلك يذكرها بعض الجغرافيين اليونان باسم زيليس Zillis ويسميها الحسن بن محمد الوزان أرزيلا. وقد وصفها هذا الرحالة بالعبارات التالية: «إنها مدينة كبيرة بناها الرومان على البحر المحيط على مسافة 70 ميلا من مضيق جبل طارق. وقد فتحها المسلمون في سنة 94 هـ (713 م) واحتفظوا بها قرنين من الزمن، قبل أن يهاجمها الأسطول الأنجليزي وينهبها. ولكن المسلمين استرجعوها وعادت إلى حالتها، بل وأفضل مما كانت عليه» وصف أفريقية (1/260—261). راجع أيضا L. Massignon Le, Maroc (p. 241). وكذلك أحمد المكناسي، خريطة المغرب الأركيولوجية (ص 11) والسلاوي الإستقصا (1/172). وهذا الإستمرار في التسمية، هونفسه، دليل على قدم هذه المدينة. وقول البكري في الفقرة التالية إنها محدثة يعتبر غلطة من الكاتب الأندلسي الكبير.

وبخارجها آبار عذبة ، بير عدل وبير السّانية وآبار كثيرة . ومقبرتها في شرقيها ومرساها مأمون . والمدخل اليها من شرق . ويستدير بالمرسى من ناحية الجوف جسر من حجارة مخلوقة تكن عن السفن المرفأة فيها من هيجان البحر . ومدينة أصيلة محدثة . وكان سبب بنيانها أن المجوس خرجوا في مرساها مرّتين : فأمّا الأولى ، فاتوا قاصدين وزعموا أنّ لهم بها أموالا وكنوزا فاجتمع البربر لقتالهم ، فقالوا لم نأت للحرب وإنما لنا كنوز في هذا الموضع ، فكونوا ناحية حتى نستخرجها ونشاطركم فيها ، فرضي البربر بذلك واعتزلوا وحفر المجوس موضعا فاستخرجوا دخنا كثيرًا عفنًا ، فنظر البربر الى سفرته فظنوه ذهبا فبدروا اليه وهرب المجوس الى مراكبهم وأصاب البربر الدّخن فندموا ورغّبوا المجوس في الخروج واستخراج المال فأبوا وقالوا قد نقضتم عهدكم ، فلا نثق بغدركم،وساروا الى الأندلس فحينئذ خرجوا باشبيلية ، وذلك سنة تسع وعشرين ومائتين ، في أيام الامام عبد الرحمن ابن الحكم . وأما خروجهم الثّاني هناك ، فان الرّيح قذفتهم في ذلك المرسى من الأندلس وعطبت لهم على باب المرسى من ناحية الغرب مراكب كثيرة . ويعرف ذلك الموضع ببات المجوس إلى اليوم ، فاتخذ الناس موضع أصيلة رباطا فانتابوه من جميع الأمصار ، وكانت تقوم فيه سوق جامعة ثلاث مرات في السنة ، وهو وقت اجتماعهم ، وذلك في شهر رمضان وفي عشر ذي الحجة وفي عاشوراء . وكان الموضع ملكا للواتة ، فابتني فيه قوم من كتامة وأتخذوه جامعا ، وتسامع الناس أمرها من الاندلس وأهل الامصار فقصدوها في الاوقات المذكورة بضروب السلع وخيموا فيها ، ثم بنوا شيئا بعد شيء فعمرت ، فقدمها القاسم ابن ادريس بن ادريس فملكها وبني سورها وقصرها ، وبها قبره ، ووليها ابراهيم ابنه ، ثم حسن بن ابراهيم ، ثم القاسم بن حسين ، ثم صار أمرها إلى حسن الحجام (1) منهم ، حتى استولى عليهم ابن أبي العافية ، على ما تقدم .

---

(1) هو الحسن بن محمد بن القاسم بن ادريس بن إدريس ، آخر ملوك الأدارسة بفاس . وقد اشتهر بالحجام لطعنه عددا من مبارزيه في موضع المحاجم ، وفيه يقول الشاعر :

وسميت حجّاما ولست بحاجم
ولكن لطعن في مكان المحاجم

وقد عاصر ظهور العبديين في افريقية . وكان حسن الحجام هو الذي استرجع فاس منهم بعدما قتل ريحان الكتامي ، وقد استقام له الملك حتى تغلب عليه موسى بن أبي العافية بعد حروب طويلة . وقد أخرجه حامد بن حمدان الهمداني من فاس بحيلة فتدلى من سور المدينة وسقط فانكسرت ساقه ومات في عدوة الأندلس في سنة 313 هـ (944 م) . راجع : الاستقصا ؛ (80/1) والبيان (313/1) .

وكان الحجام يستعمل عليها الولاة . قالوا وتفسير أصيلة : جيدة . وبقبلي أصيلة قبائل لواته وبنو زياد من هوارة زلول ، وبغربها هوارة الساحل وغار كبير على البحر اذا مدّ وصل اليه . وبين القبلة والغرب منها عين تعرف بين الخشب ثرة وبقبليها خندق يعرف بخندق المعزه . وخندق آخر يعرف بخندق السرادق ، وبغربها خندق يعرف بتاشت فيه مراعي مواشي أهلها . وكيلهم يسمي مدا ، وهو عشرون مدّا بمد النبي صل الله عليه وسلم ، مثل الفنفة القرطبية . وكيل الزيت يسمونه فليلة ، وهي مائة واثنتا عشر أوقيه . ففي القنطار عشر فليلة . وأصيله بغربي طنجة . وأول مايلقي الخارج من أصيلة واديها ، وهو يخاض ، ثم مسجد عن يمين الطريق ثم وادي نبرش يخاض أيضا ، وهي قرية آهله عامرة .

الادريسي

ومن مدينة طنجة الى مدينة أزيلا مرحلة حقفيقةجدا . وهي مدينة صغيرة جدا ومابقي منها الآن الانزريسير . وفي أرضها أسواق قريبة . وأزيلا هذه ، ويقال لها أصيلة ، عليها سور وهي معلقة على رأس الخليج المسمّى بالزقاق . وشرب أهلها من مياه الأبار . وعلى مقربة منها في طريق القصر ، مصبّ نهر سفْدَدْ ، وهو نهر كبير عذب تدخله المراكب ، ومنه يشرب أهل تشمس التي تقدّم ذكرها . وهذا الوادي ، أصله من مائين يخرج أحدهما من بلد دَنهاجَة من جبلي البصرة ، والماء الثَّاني من بلد كتامة ، ثم يلتقيان فيكون منها نهر كبير .

يــاقــوت

أزيلي ، مدينة بالمغرب في بلاد البربر ، بعد طنجة في زاوية الخليج المادّ الى الشّام ، عليها سور ، منغلقة على رأس جرف خارج البحر ، وهي لطيفة . وشربهم من آبار عذبة . قال ابن حوقل : الطريق من برقة الى أزيلي على ساحل بحر الخليج ثم تعطف على البحر المحيط يسارا .

ابــن عــذاري (*)

بعدما ينقل ما ذكره البكري عن استيطان المجوس لاصيلة ، يمضي يقــول :

(*) نتقل هذا النص بصفة استثنائية لأن ابن عذاري مؤرخ وليس بجغرافي وهو يمثل أهم رواية مسلسلة بين ايدينا عن تاريخ اصيلة التي انمحت وانفرضت في عهد هذا المؤرخ المغربي .

ومما قيدته واختصرته من كتاب المسالك والممالك لمحمد بن يوسف القَرْوي ، رحمه الله . قـــــال :

ومن المدن القديمة على ساحل بحر المغرب أصيلة . وهي في سهل من الأرض ، كانت مدينة للأول ، ثم تغلّب عليها البحر ، ثم بنيت بعد ذلك . وكان سبب بنائها أن المجوس خرجوا في مرساها مرتين : أما الاولى ، فأنهم قصدوا اليها زاعمين آن لهم بها أموالا وكنوزا

فاجتمع البربر لقتالهم ، حسبما ذكرت ذلك . وأما خروجهم الثاني ، فان الريح قذفت بهم اليها وعطبت لهم أجفان كثيرة عليها ، حتى كان يعرف ذلك الموضع بباب المجوس (1) وكان موضعها ملكا لقبائل لواته ، فابتناها قوم من كتامه . فأول ما أبتدأوا به المسجد . ثم بنى لواته مسجدا ثانيا ، وشاع أمرها . فبنى الناس شيئا فشيئا ، فقصدها التجار من الأمصار بضروب من المتاجر في أوقات معلومات لأسواق الغبار .

فأول من قدم عليها من الملوك ، القاسم بن ادريس ، فانه ملكها وقامت دعوته الى أن توفي رحمه الله . ثم وليها ابنه ابراهيم بن قاسم فجرت بينه وبين عمر بن حفصون (2) الثائر ببشتر من الأندلس مراسلات ومكاتبات بشأن النفاقِ على الخليفة الأموي بقرطبة ، إلى أن هلــك .

ثم وليها ابنه ، حسن بن ابراهيم بن القاسم ، فاضطرب أمره وضعفت طاعته . وكانت مدته خمسا وعشرين سنة في قبائل لواته . وكان أخوه أحمد المتولي لامر كتامه ، وكان يعرف

---

(1) يسميهم بعض المؤرخين العرب الروس . وهذه الحوادثِ يؤرخها اليعقوبي في سنة 229 هـ (844 م) . وأما ابن الأثير ، فيذكر خروج المجوس وغاراتهم على اشبيلية ولبْلة وشذونة وباجة في نفس السنة ، ولكنه لا يتعرض لقصة نزولم على الشواطيء الافريقية (راجع : الكامل 16/7 ـ 18) ولكن ابن عذارى الذي لا يشير هو الآخر لتعرض المجوس لشواطيء افريقية ، يذكر وقوع الغارة على اشبيلية ضمن حوادث سنة 230 هـ . (المغرب 130/2 ـ 132) .

(2) عمر بن حفصون بن اذفونش ، ثار على محمد بن عبد الرحمن سنة 270 هـ واعتصم بحصن بُبشتر ، غير بعيد من قرطبة واستفحل أمره فقاتله الأمراء ودانت له حصون الأندلس كلها ، بحيث كان في بعض غزواته يقود جيشا تعداده 30 ألف . وعلى الرغم من أن بعض المؤرخين يصفونه باللعين والخبيث ورأس الفتنة ، فإن بعض الكتاب ، مثل ابن عذارى ، لا يبخل عليه بأوصاف مشرفة مثل كونه متواضعا وحافظا للحرمة وبارا وشجاعا وعادلا راجع : العبر 134/4 ؛ التعريف بإبن خلدون ، ص 6 هامش 1 ؛ بغية الملتمس ، ص 393 ؛ الحلة السيراء 149/1 ـ 155 و 241/2 ـ 367 ـ 376 ـ 378 ، جذوة المقتبس 282 ؛ البيان المغرب 256/2 .

بابن الاذنين . وكان صاحب البصرة (بصرة المغرب) حينئذ أخوهما عيسى بن ابراهيم بن القاسم الى أن قتله أبو العيش حنون من بني ادريس ، رحمه الله ، فتزوج أخوه أحمد الملقب بأبي الاذنين زوجته وملك مكانه . وقيل ان زوجته سمَّته فقتلته . فصار أمر كتامه وأمر البصرة الى يحي ابن ابراهيم بن القاسم المعروف بابن برهويه ، فأختلفت عليه كتامه . وكان ذلك سبب دخول بني محمد بلد كتامة وهواره وتلك الناحية واستجاشوا بحسن بن محمد المعروف بالحجام ، فقام بأمرهم ، وهلك القاسم بن حسن بن القاسم بن ادريس صاحب أصيلا .

ودخل بنو محمد من بني ادريس مدينة أصيلا ، فاستأثر بها حسن الحجام دون بني عمه ، فولى عليها رجلا من خاصته يقال له الحجاج بن يوسف ، فأحسن السيرة فيهم إلى أن هلك ، فطلب ولايتها رجل من أهلها يقال له عبد الوارث ، فعدا طوره فيها . ويقال انه أصاب كنزا باصيلا بداره ، ونهى ذلك الى حسن المعروف بالحجام ، فطمع في ذلك المال وعزله عن أصيلا .

ثم وليها ابراهيم بن الغل المكناسي ، وكان ساكنا بها ، بعد ما أعطى مالا لحجام . فلما وصل الى أصيله ، صار محمد بن عبد الوارث الى حسن بمال كثير ، فعزل ابراهيم وأعاد ابن عبد الوارث ، فسار ابراهيم بهدية الى حسن ، فعزل محمدا وولاه عليها. ثم عزل ابراهيم وولي محمدبن عبد الوارث .

وكانت عزلتهما وولايتهما نحو سنتين إلى أن استقر فيها محمد هذا وسمي فأر الصهريج ، يعنون الكنز الذي أصاب فيه . وتبين لابن عبد الوارث رغبة حسن في ماله ، فأعطاه وأستقامت له معه جميع أحواله مدة . ثم عزل وولي ابراهيم بن الغل المذكور ، فبقي بها الى أن حضر ابن أبي العافية ، فأتاه أهل أصيلا ، وطلبوا منه واليا من قبله ، فولاها سعيد بن بن الشيخ الاشبيلي . وهرب ابراهيم بن الغل الى مدين بن موسى بن أبي العافية ، فوفد عليه وهاداه وأنقطع اليه ، فولاه أصيلا ، فأحسن السيرة ورفق بالرعية ، وأنصرف الى تسول ، بعدما استخلف على حرب بني محمد رجلا من أصحابه يعرف بأبي قمح ، فحاصرهم حصارا شديدا . فلما ضاق عليهم الامر هجموا عليه ليلا ، فهرب أبو قمح ، وملك بنو محمد محلته . واجمعت قبائل كتامة بقلعة هناك ، فزحف اليهم بنو محمد الادارسة ، فحاربوهم حتى دخلوا القلعة وقتلوا من كان بها ، فكان أول فتح بني محمد بن ادريس الحسني .

وبلغ ذلك الى أهل اصيلا ، فكتبوا الى ابن أبي العافية وذلك في سنة 332 هـ ، في حين خروج ميسور الى أرض المغرب ، فجاوبهم موسى ابن أبي العافية (1) وأمرهم أن يتحصنوا في بلدهم وكتب الى قبائل كتامة ولواته وهوارة وصنهاجة ، يأمرهم بمعونتهم على البنيان ، فانقسموا على سور المدينة وبنوه في ستة أشهر ، فهرب وجوه القبائل الى أصيلا واجتمع بها ملأ عظيم منهم ، فزحف اليهم بنو محمد الأدارسة بعساكرهم ، فكانت بينهم حرب عظيمة ، فاستمدوا ابن أبي العافية فاعتذر اليهم وقال لهم : اكتبوا الى أمير المؤمنين عبد الرّحمن النّاصر ، فأنا وأنتم رعيته وتحت طاعته . وكتبوا الى أمير المؤمنين عبد الرّحمن النّاصر ، وكانت مدينة سبتة تحت طاعته ، فبعث اليهم الرماة والأنجاد . واتصل ذلك ببني محمد ، فحشدوا الأحشاد وزحفوا الى أصيلا ، فحاربوها أربعين يوما ، فخاف وجوه أهلها وجازوا الى الأندلس ، ودخل بنو محمد أصيلا ، وذلك في سنة 336 هـ ، وملكوها ، فأمنوا من بقي بها من أهلها ، وعاد من جاز إلى الأندلس اليها . وحولها من القبائل ، لواته في القبلة ومن هوارة قوم يعرفون ببني زياد ، بينهم كدية رمل عالية .

قال ابراهيم بن محمد الأصيلي :

سقى غربيَّ أرض بني زياد سحائب ما يجف لها غروب

ولا زال النعيم يعم قوما ازاءهم من الشرق الكثير

وحولها القبائل من جهة الغرب هوارة السّاحل .

* * *

---

(1) هو موسى بن أبي العافية بن أبي بسّال بن أبي الضحاك المكناسي . وهي الأسرة التي اختطت بلد كرسيف ورباط تازا (راجع عن هذه الدولة ، العبر 134/6—137) . وقد أسس موسى أمارة آل أبي العافية المكناسية وعقد له إبن عمه ، مصالة بن حبوس على سائر المغرب (305 هـ) وأقره العبديون على ولايته ثم ضمّ إليه مدينة فاس في سنة 313 هـ ، وقاتل الأدارسة وأجلاهم عن مملكتهم . وقد امتد ملكه في سنة 317 هـ ، حتى شمل ما بين السوس الأقصى وتيهرت . وبعدما نقض دعوة الفاطميين وخطب لعبد الرحمن الناصر الأموي ، عاد تحت ضغط بني زيري الذين اكتسحوا المغرب الأقصى في عهد بلكين ، إلى محالفة العبديين على المغرب . وقد مات موسى بن أبي العافية في سنة 341 هـ (952 م) . (راجع أيضا ، الاستقصا ، 358/1 ؛ البيان المغرب ، 194/1 — 99 — 201 — 202 — 209 — 213 — 214) . إلأجزاء : 4 — 5 — 8 — 10 ، وكذلك :

تـطـوان (تطَّـاوان ـ تطـاون) (1)

البكـــري

ومدينة تطاون على أسفل وادي رأس. وقال محمد بن يوسف وادي مَجْكَسَة. وهذا النهريتسع هناك وتدخله المراكب اللطاف من البحر الى أن تصل تطاوان. ومسافته ما بين البحر وبينها عشرة أميال. وهي قاعدة بني سكين بها قصبة للأول ومنار. وبها مياه كثيرة سائحة عليها الأرجاء وبجوفيها جبل يعرف ببلاط الشوك يركب لبني سكين مائة فارس وبين مدينة تطاوان وجبل الدرقة سكة، وهو قاعدة بني مرزوق بن عون من مصمودة وسكانهم منه بموضع يقال له صدينة، قرية ذات مياه سائحة، وهي أطيب تلك البلاد مزارع. وهذا الجبل في غاية المنعـــة.

الادريسي

وبين مدينة سبتة السابق ذكرها . . الى حصن تطّاوان مرحلة صغيرة. وهو حصن في بسيط من الارض وبينه وبين البحر الشمالي أميال وتسكنه قبيلة من البـــربـــر تسمى مجكســـــه.

---

(1) راجع عن تيطاوان غيرما ذكرأدناه : Archives Marocaines ، الاجزاء : 4 ـ 5 ـ 8 ـ 10 وكذلك Cédiera في : 1925 ورقم 11 خ Renista de troupas colonial ومقالة كولن colin (G.S)، في دائرة المعارف الإسلامية (مادة تيطاوين) والمراجع التي أحال عليها.

مليلة (1)

البكـــرى

مدينة مليلة مسورة بسور حجارة وداخلها قصبة مانعة وفيها مسجد جامع وحمام وأسواق . وهي مدينة قديمة ، ويذكر أن بني البوري بن أبي العافية المكناسي جدّدوها ، ويسكنها بنو ورتدي . وهم يقترعون على من يدخل اليهم من التجار ، فمن أصابته قرعة الرجل منهم كانت تجارته على يده ، ولم يصنع شيئا الا تحت نظره واشرافه ، فيحميه عمن يريد ظلمه ويأخذ منه الاجر على ذلك ، ويأخذ منه الهدية لنزوله عنده . وذكر محمد بن يوسف (2) وغيره أن عبد الرحمن الناصر لدين الله (3) فتحها سنـــة أربع عشرة

---

(1) راجع عدا ما ذكر أسفله : الحسن بن محمد الوزان ، وصف أفريقية ، ج 2 ؛ وكـذلـك :

De Castrie (H), Sources inedtes de l'Histoire du Maroc, T. I (XXVIII), Melilalla au XV siecle ;

مقالة (G) Colin في دائرة المعارف الإسلامية ، مادة مليلة .

(2) يقصد محمد بن يوسف أبو عبد الله التاريخي الوراق : راجع ما ذكره عنه صاحب الجذوة (ص 90) ، وبغية الملتمس (رقم 304) ونفح الطيب (163/3) .

(3) عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم الربضي بن هشام بن عبد الرحمن الداخل ، أبو المطرّف المرواني الأموي . أول من تلقب بالخلافة في دولة بني أمية بالأندلس . ولد يتيما في قرطبة في سنة 277 هـ (890 م) . كان داهية عرف بطموحه وببراعته في قمع الفتن . بويع بالخلافة في سنة 316 هـ . ، وتلقب « الناصر لدين الله » . وعبد الرحمن الناصر الذي عرف بعدد من الآثار العمرانية ، هو باني مدينة الزهراء.وقد استمر حكمه خمسين سنة وستة أشهر ، فكان ، كما قال صاحب الحلة السيراء ، « أطول ملوك الإسلام قبله مدة وزمانا » . راجع الحلة السيراء 197/1—200 و 258/2 و 352 و 367 ؛ وطبقات السبكي ؛ والعبر 137/4 ؛ والكامل 177/8 ؛ تاريخ غزوات العرب ص 228—234 ؛ أزهار الرياض 257/2—284 ؛ المغرب في حلي المغرب 176/1—181) .

وثلاثمائة وبني سورها معقلا لموسى بن أبي العافية . وقال أحمد بن محمد الرازي (1) يذكر ذلك :

والملك الناصر دين اللّه فيما يحوط الدين غيرساه
بني لموسى عدّة مدينه منيعة شاهقة حصينة
ذلت لها تاهرت والافارقة ولم يقطق بنيانها العمالقة

وكيلهم يسمونه المدّ ، وهو خمسة وعشرون مدّا بمدٍّ النبي صل الله عليه وسلم . ورطلهم مثل رطل نكور ، اثنتان وعشرون أوقية . والاوقية خمسة عشر درهما . وقنطارهم من جميع الاشياء بهذا الرطل . والدراهم بها عدة قراريط ، كل قيراط خمسة أثمان درهم .

ومن المراسي ، مرسى مليلة ، وهو صيفي ويوازيه من بر الاندلس ، مدينه شلوبينه . وسنذكر اتصال المراسي من نكور آخذاً الى الشرق وما يحاذيها من مراسي الاندلس الى مرسى مليلة . ومن مرسى مليلة الى الشرق مرسى مدينة جراوة ، وهومامون .

الادريسي

ومدينة مليلة ، مدينة حسنة متوسطة ذات سور منيع وحال حسنة على البحر . وكان لها قبل هذا عمارات متصلة وزراعات كثيرة . ولها بئر فيها عين أزلية كثيرة الماء ومنها شربهم . ويحيط بها من قبائل البربر بطون بُطَّوِيَّة . ومن مليلة الى مصب الوادي الذي يأتي من آقرسيف 20 ميلا . وأمام مصب هذا النهر جزيرة صغيرة . ويقابل هذا الموضع من البرية مدينة جراوة .

ياقوت

مليلة ، بالفتح ثم الكسر وياء تحتها نقطتان . مدينة بالمغرب قريبة من سبتة .

(1) هو أحمد بن محمد بن موسى بن بشير بن حماد الرازي ، أبو بكر الكناني : مؤرخ أندلسي من قرطبة ، له مؤلفات كثيرة في التاريخ ، فيما يروي ابن الفرضي ، كما كان عارفا بالأدب والشعر. راجع : تاريخ علماء الأندلس 40/1 .

البصـــرة (1)

ابـــن حـــوقـــل

البصرة ، مدينة مقتصدة عليها سور ليس بالمنيع ولها مياه عن خارجها من عيون عليها بساتين يسيرة من شرقيها ولهاغلاة كثيرة من القطن المحمول الى افريقية وغيرها . ومن غلاتهم القمح والشعير والقطاني ، وسهمهم في ذلك وفير . وهي خصبة كبيره الخيرات حسنة ا لاسواق ، والعماره طيبة الهواء صحيحة التربة . وفيها قوم لهم خطر وميل الى السلامة والعلم ، ولهم محاسن في خلقهم ، قد عمت نساءهم ورجالهم . والغالب عليهم حسن القدود واعتدال الخلق وجمال ا لاطراف ، ويشملهم الستر والسلامة والمعروف . وبين البصرة والمدينة المعروفة بالاقلام أقل من مرحلة .

البكـــــري

البصرة . مدينة كبيرة واسعة ، وهي أوسع تلك النواحي مرعى وأكثرها ضرعا . ولكثرة ألبانها تعرف ببصرة الذبان (الألبان ؟) ، وتعرف أيضا ببصرة الكتّان . كانوا يتبايعون في بدء امرها في جميع تجاراتهم بالكتان . وتعرف أيضا بالحمراء ، لانها حمراء التربة . وسورها مبني بالحجارة والطوب . وهي بين شرفين ولها عشرة أبواب . وجامعها سبع بلاطات . وبها حمّامان . ومقبرتها الكبرى في شرقيها في جبل . ومقبرتها الغربية تعرف بمقبرة قضاعة . وماء المدينة زعاف . وشرب أهلها من بئر عذبة على باب المدينة تعرف ببئر ابن ذلفاء . وخارجها

---

(1) وتسمى أيضا بصرة الكتان أوبصرة الذبان . مدينة لم يبق لها من أثر في عصرنا . وهذه المدينة هي التي يسميها مرمول Marmol بَسَت Basat وبيسا Basia وبِسَر Besara وموقعها من ناحية الغرب على نهر مدا ، ومن ناحية الشرق على الطريق إلى وزان ، وهي تبعد بثمانين ميلا عن فاس . وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن البصرة قد قامت في مكان المدينة الرومانية Tremulae . والبصرة شيّدت في أواخر القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) ، وكانت في منتصف القرن الرابع عاصمة ولاية تضم الريف وبلاد غمار. راجع : الحسن بن محمد الوزان ، وصف افريقيا ؛ إبن الأبار، الحلة السيراء 131/1 — 132 ؛ السلاوي الاستقصا 172/1 وكذلك : Tissot, Recherches sur la Mauritanie Tingistane

ابـن عـذاري (*)

أسست البصرة (1) في الوقت الذي أسست فيه أصيلا وعلى ثمانية أميال منها جبل يقال له صَرْصَرْ، كثير المياه والثمار يسكنه مصموده . وأول من ملكها ابراهيم بن القاسم ثم أخوه أحمد بإبراهيم، ثم برهون بن عيسى ثانية ، ثم سعيد غلام المظفر من قبل مصالة بن حبوس (2) ثم حسن بن محمد بن الحجام ثم محمد بن يحيى بن القاسم ولد الحبوطي ، ثم عيسى بن أحمد المعروف بأبي العيش (3) ثم أحمد بن القاسم ثانية ، ثم وال من قبل ابن أبي العافية ، ثم أبو العيش بن أحمد ثالثة ، ثم أحمد بن أبي العيش الى سنة 347 .

ولما خرب أبو الفتوح يوسف بن زيري الصنهاجي أمير افريقية مدينة البصرة .

* *
*

(*) نورد وصف ابن عذاري بصفة استثنائية لأنه يحتوي على عناصر لم يذكرها غيره .

(1) أسسها محمد بن إدريس بن إدريس في سنة 218 هـ (833) . وقد وليها القاسم بن إدريس لأخيه محمد بن إدريس القائم بعد أبيه إدريس الثاني عقب وفاته في 12 جمادي الثانية سنة 213 هـ أغسطس 828 م) . راجع تقسم محمد محمد بن إدريس لمملكة الأدارسة بين إخوته في الاستقصا (173/1) ؛ روض القرطاس (ط . فاس ، ص 6) ، وكذلك الحلة السيراء (131/1—132) .

(2) مصالة حبوس المكناسي أمير بربري عاش في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري وكان من أعظم قواد عبيد الله المهدي الذي ولاه على تيهرت . ومن هناك زحف على المغرب الأقصى في سنة 305 هـ على فاس التي كانت في يد يحي بن إدريس وحمله على إعلان طاعته للعبيديين وأبقاه أميرا على المدينة بينما عقد لابن عمه ، موسى بن أبي العافية على بقية أطراف المغرب الأقصى . راجع أخباره في العبر (134/6) والبيان (197/1) إدريس.

(3) عيسى بن إدريس بن محمد بن سليمان بن عبد الله الحسني الذي مات في فخ . أمير من سلالة بني سليمان الذين ملكوا تلمسان وأرشغول وتنس . هو الذي بنى مدينة جراوة وتولى إمارتها وتوفي بها سنة 330هـ راجع البكري (ص 77) .

فـاس (1)

ابـن حـوقـل

وفاس مدينة جليلة يشقها نهر . وهي جانبان يليهما أميران مختلفان . وبين اهل الجانبين الفتن الوائمة والقتل الذريع المتصل . ونهرها كبير غزير الماء عليه أرحية كثيرة . وهي مدينة خصبة مفروشة بالحجارة ، أحدثها ادريس بن ادريس . في كل يوم من أيام الصيف

(1) راجع غير ما ذكر أدناه : روض القرطاس في أخبار ملوك فاس ، جذوة المقتبس ، سلوة الانفاس ، نزهة الحادي ، الاستقصا في أخبار المغرب الأقصى ؛زهرة الآس ؛ وكذلك : Léon l'Africain, *Description de l'Afrique*

Marmol, *Description de l'Afrique*, Traduction d'Abancourt ; Gaillaird (H), *Une ville d'Islam ;* Moulieras (A), *Fès* ; Lucas (G), *Fés dans le Maroc Moderne ;* Le Tourneau (R), *Fes avant le protecterat, Fes in the Age of the Marinides ;* Levi Provençal, *La Fondation de Fes* (Amales d'Etudes Orientales, IV/23 وللمؤلف نفسه *Islam d'Occident ; Neve, Relation d'un Voyageur Chrètien sur la ville de Fès*

et ses écoles dans la premiere moitie du XVI[e] siecle ; Moutte, *Relations de Captivite ;* Chénier, *Recherches Historiques sur les Maures ;* Budgett Meakin *The Land of the Moors ;* la Martinière, *Maroco ;* Aly Bey, *Voyages ;* Aubin, *le Maroc d'aujourd'hui ;* Rohlfs, *Fès, Hauptstadt von Morocco in Das Ausland ;* Veisgeber, *la ville de Fès* (R. F. des Colonies) ; ولنفس المؤلف

Une capitale du Maroc, Fès (dans Tour du Monde, 1900) ; Delphin (G), *Fès son Universalité* (Bult. Soc. Geogr. d'Oran, T. VIII) ; Michaux Blaire, *Description de la ville de Fès* (dans Archives Marocaines, 1907) ; Salomon (G), *les Chorfa idrisides de Fès,* ولنفس المؤلف *le cult de Moulay Adris*

(Archives Marocaines, 1907) ; René le Clerc, *le Commerce et l'Industrie de Fès* (dans Bult. du Cdmité de l'Afrique Française, 1905) ; Charmes (G), *une Ambassade au Maroc ;* loti (P), *le Maroc ;* Chevrillon (A), *un Crepuscule de l'Islam ;* Mackenzie, *The Khalifat of the West*, Trotter, *Our Mission to the Court of Morocco ;* Harris, *The land of an African Sultan.* (مخطوط محفوظ) أحمد بن علي المخلبي تحفة الملوك في مكتبة اكسفورد ورقة 407—408 ؛

Maslow (B) et Terrassé (H), *une Maison merinide de Fes* (R.A., 1936) ; Marçais (G.), les Faiences de Fez (R.A., 1920) ; Delphin (G), *Fas et son université et l'enseignement superieur musulman* (Butt. de la soc. Géogr. d'Oran, 1888).

وانظر أيضا الفصل الذي خصصته لمدينة فاس من كتابي : دولة الأدارسة ملوك تلمسان وفاس وقرطبة .

يرسل في أسواقها من نهرها الماء فيغسلها فتبرد الحجارة وجميع مافيها من الفواكه والغلات والمطاعم والمشارب والتجارات والمرافق والخانات ، فزائد على سائر ماقرب منها وبعد في أرض الهبط ، وظاهر بكثرة حده وموضعه ومستفاض بوفورة مكانه ومرفقه .

المقـــدَّسي

وأما فاس ، فان أهلها ولا انهم علوق . وهي اسم القصبة أيضا . وتسمى الكرة السوس الادنى . ومن مدنها البصرة وزلول وسوق الكتامي وورغة سبو . . . وأزيلا وسبتة ، بلد غمارة ، ومساكنة ، وقلعة شميث ...

وفاس بلدان جليلان كبيران كل واحد منها محصن بينهما واد جرار عليه بساتين وأرحيه قد أستولى على أحدهما الفاطمي وعلى ا لآخرا لاموي .

وكم ثم من حروب وقتل وغلبة . بناؤها مدر وحصنها طوب ، وبها قلعة شميت بناها البوري وأخرى على الوادي بناها ابن أحمد . وهو بلد كثير الخيرات والتين والزيتون ، غير أنهم كما ترى وفيهم ثقل وغباء ، أهل خير وصلاح وأقل انقلابا من غيرهم .

البكـــرى

ومدينة فاس مدينتان مفترقتان مسورتان وبينهما نهر يطرد وأرحاء وقناطر . وعدوة القرويين في غربي عدوة الأندلسيين وعلى باب دار الرجل فيها رحاه وبستانه بأنواع الثمار . وجداول الماء تخرق داره ، وبالمدينتين أزيد من ثملاثمائة رحا ، فيها نحو عشرين حماما . وهي أكثر بلاد المغرب يهودا يختلفون منها إلى جميع الآفاق . ومن أمثال أهل المغرب : «فاس بلد بلا ناس» . وكلتا عدوتي فاس في سفح من جبل والنهر الذي بينهما مخرجه من عين غزيرة في وسط مرج ببلاد مطغرة ، على مسيرة نصف يوم من فاس . وأسست عدوة الأندلسيين في سنة أثنتين وتسعين ومائة ، في ولاية ادريس بن ادريس ومات ادريس بمدينة وليلي من أرض فاس على مسافة يوم من جانب الغرب وكانت وفاته سنة ثلاث عشرة ومائتين في شهر ربيع الأول . ولعدوة الأندلس من الابواب ، باب الفتوح قبلي منه يخرج إلى القيروان ، وباب الكنيسة شرقي يقابل ربض المرضي ، وباب أبي خلوف شرقي وباب حصن سعدون جوفي ، وباب الحوض غربي ، يقابل عدوة القرويين وباب سليمان مثله ومن هذين البابين يخرج أهل هذه العدوة الى الحرب اذا كان بينهم اختلاف . وتقوم الحرب حينئذ بموضع يعرف بكدية الغول . وباب الفوّارة وبها جامع حسن فيه ستة بلاطات طولها

من الشرق الى الغرب وعمده أرجل كذان ، وله صحن فسيح فيه أصول جوز وشجر وساقية تعرف بساقية مصمودة غزيرة الماء . وبهذه العدوة تفاح حلوٌ يعرف بالاطرابلسي جليل حسن الطعم يصلح بها وله غلة ولا يصلح بعدوة القرويين . وسميد عدوة الأندلسيين أطيب من سميد القرويين كدقتهم بصنعته . وكذلك رجال عدوة الأندلسيين أشجع وأنجد من القرويين ، ونساؤهم أجمل من نساء القرويين ، ورجال القرويين أجمل من رجال الأندلسيين . ولعدوة القرويين من الأبواب باب الحصن الجديد يخرج الى زوّاغة ، وباب السلسلة شرقي يخرج منه الى عدوة الأندلسيين ، وباب القناطر شرقي ، وباب سياج يحي بن القاسم جوفي يخرج منه الى المخاض والى وشتاتة ومغيلة ، وباب سوق الأحد غربي ويخرج منه الى زوّاغة ، وبها جامع فيه ثلاثة بلاطات طولها من الشرق الى الغرب ، بناه ادريس بن ادريس وله صحن كبير فيه زيتون وشجر وله سفايف وبها نحو عشرين حماما ، وهي أكثر بساتين ومياها . وعدوة الاندلسيين يجرى الماء عليهم أولا ، ويجود بهذه العدوة الاترج ويعظم ولا يجود بعدوة الاندلسيين . وكلتاالعدوتين جليلة الخطر عظيمة القدر . وموقع وادي فاس بوادي سبو . وفي غربي عدوة القرويين في بلد مغيلة موضع يقال له السيخ ، ساخ باهله . ومن هذا الموضع انهزم البوري بن ابي العافية سنة احدى وأربعين وثلاثمائة ، (1) هزمه بنو محمد واحتووا على معسكره . وبنهر فاس الحوت المعروف بالليبس كثير . وقال محمد بن اسحق المعروف بالبجلي :

ياعدوة القرويين التي كرمت ... لازال جانبك المحبور ممطورا
ولا سرى الله عنك ثوب نعمته ... أرض تجنبت الاثام والزورا

وأنشد ابراهيم بن محمد الاصيلي :

دخلت فاسا ولي شوق الى فاس ... والجبن يأخذ بالعين والرأس
فلست أدخل فاسا ماحييت ولو ... أعطيت فاسا بما فيها من الناس

وقال أحمد بن فتح ، قاضي تاهرت في كلمة له :

أسلح على كل فاسي مررت به ... في العدوتين معا لاتبقين أحدا
قوم غذوا اللؤم حتى قال قائلهم ... من لا يكون لئيما لم يعش رغدا

(1) راجع هذه الحوادث في الفصل الذي خصصه إبن خلدون للحديث عن دولة بني أبي العافية في العبر 134/6—137 .

ومدهم يسع من الطعام ثمانين أوقية . ومدهم يسمونه اللوح وفيه من هذا المد مائة وعشرون مدا . وجميع الماكولات من الزيت والعسل واللبن والزبيب يباع عندهم بالاواق . وحواليها من قبائل البربر ترهنه ومغيلـة واوربـه وصدينة وهواره ومكناسه وزواعة .

وفاس هي دار مملكة بني ادريس بن عبدالله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه . وكان نزول ادريس عند دخوله المغرب بوليلي . ووليلي ، هي طنجة بالبربرية .

الادريسي

ومدينة فاس مدينتان بينهما نهر كبير يأتي من عيون تسمى عيون صنهاجة ، وعليه في داخل المدينة أرحاء كثيرة تطحن بها الحنطة بلا ثمن له خطر . والمدينة الشمالية منهما تسمى القرويين وتسمى الجنوبية الاندلس . ماؤها قليل ولكن يشقها نهر واحد يمر باعلاها وينتفع منه ببعضها. وأما مدينة القرويين ، فمياهها كثيرة تجري منها في كل شارع . وفي كل زقاق ساقية متى شاء أهل الموضع فجروها فغسلوا مكانهم منها ليلا فتصبح أزقتهم ورحابهم مغسولة وفي كل دار منهاصغيرة كانت أوكبيرة ، ساقية ماء نقيا كان أو غير نقي . وفى كل مدينة منها جامع ومنبر . وبين المدينتين أبداً فتن ومقاتلات . وبالجملة ، أن أهل مدينتي فاس يقتل فتيانها بعضهم بعضا . وبمدينة فاس ضياع ومعايش ومباني سامية ودور وقصور ولأهلها أهتمام بحوائجهم ومبانيهم وجميع آلاتهم . ونعمها كثيرة والحنطة بها رخيصة الاسعار جدا دون غيرها من البلاد القريبة منها . وفواكهها كثيرة وخصبها زائد وبها في كل مكان منها عيون نابعة ومياه جارية وعليها قباب مبنية ودواميس محنية ونقوش وضروب من الزينة . وبخارجها الماء مطرد نابع من عيون غزيرة . وجهاتها مخضرة مونقة وبساتينها عامرة وحدائقها ملتفة ، وفي أهلها عزة ومنعة . ومنها الى سجلماسه مرحلة .

يـاقـوت

فاس ، بالسين المهملة بلفظ فاس النجار. مدينة مشهورة كبيرة بالمغرب من بلاد البربر . وهي حاضره البر وأجل مدنه قبل أن تختط مراكش . وفاس مختطة بين ثنيتين عظيمتين . وقد تصاعدت العمارة في جنبيها على الجبل حتى بلغت مستواها من رأسه . وقد تفجرت كلها عيونا تسيل الى قرارة واديها الى نهر متوسط مستنبط على الارض منبجس من عيون

في غربيها على ثلثي فرسخ منها بجزيرة دوي ، ثم ينساب يمينا وشمالا في مروج خضر . فاذا أنتهى النهر الى المدينة طلب قرارتها فيفترق منه ثمانية أنهار تشق المدينة عليها نحو ستمائة رحي في داخل المدينة كلها دائرة لا تبطل ليلا ولا نهاراً ، تدخل من تلك الانهار في كل دار ساقية ماء كبار وصغار . وليس بالمغرب مدينة يتخللها الماء غيرها الا غرناطة بالاندلس . وبفاس يصبغ الارجوان والاكسيه القرمزية . وقلعتها في أرفع موضع فيها يشقها نهر يسمى الماء المفروش اذا تجاوز القلعة أدار رحي هناك . وفيها ثلاثة جوامع يخطب يوم الجمعة في جميعها . قال أبو عبيد البكري : مدينة فاس مدينتان مسورتان (الخ . ما ذكر أعـــلاه) .

ومنها الى سبتة عشرة أيام ، وسبتة أقرب منهاالى الشرق . وقال البكي يهجو أهـل فـــاس :

فـراق الهـم عنـد خـروج فـــاس ... لكـل ملمـة تخشى وبـــــاس
فـأمـا أرضـها فـأجـــل أرضـــ ... وأمـا أهلـها فـاخـس ّ نـــاس
بـــلاد لم تكـــن وطنـا لحـــرّ ... ولا أشتملـــت على رجـل مـواسى

أطعـــن بـــايْـرك من تلقى من النـــاس
من أرضـ مصـر الىأقصـى قـرى فـــاسِ

وله أيضـا فيهم :

دخلـــت بلـــــدة فـــــاس ... أستـــرزق الله فيهـــــم
فمـــا تيســــــر منهـــــم ... أنفـقتــــــــه بينــــــــهم

وقد نسب اليهم جماعة من أهل العلم منهم : أبو عمر عمران موسى بن عيسى بن نَجْح الفاسي (1) فقيه أهل القيروان في وقته . نزل بها وكان قد سمع بالمغرب من جماعة ورحل وسمع بالمشرق جماعة من العلماء ، وكان من أهل الفضل والطلب .

(1) هو موسى بن عيسى بن أبي حجاج الغفجومي أبو عمران الفاسي ، من فقهاء المذهب المالكي ومن أعلام العلم في القيروان ، وهو ينسب إلى قبيلة غفجوم (فخذ من زناتة) ، أصله من فاس نزل بالقيروان وتوفي بها سنة 430 هـ . وقد تلقى العلم بفاس عن عدد من الأعلام ، منهم الأصلي وسعيد إبن نصر والبزاز وغيرهم ، ثم رحل إلى المشرق فزار=

القــزوينـــي

فاس ، مدينة مشهورة في بلاد البربر على برّ المغرب بين ثنتين عظيمتين ، والعمارة قد تصاعدت حتى بلغت مستواها ، وقد تفجرت كلها عيونا تسير إلى قرارة نهر منبسط إلى الأرض ينساب إلى مروج خضر وعليها داخل المدينة ستمائة رحى ولها قهندز (1) في أرفع موضع منها ويسقيها نهر يسمى المفروش .

ومضى ونقل جزءا من وصف البكري بما في ذلك الأبيات الشعرية التي أوردناها سابقا .

ابـن سعيـد

وفي غربيها (تلمسان) مدينة فاس ، حيث الطول عشر درجات وخمسون دقيقة والعرض ثلاث وثلاثون درجة [وهي] من خواص المغرب الملأي بالخيرات والصنائع الغريبة . ويقال آن فيها من العيون عدد الايام . ويسقيها نهرها آلاتي من المرج الذي في شرقيها وينصب في نهر سبو الذي على شماليها . وفي شرقي فاس جبل مديون يمتد الى الجنوب وفيه تعمل البرانس المديونية التي لا ينفذ منها المطر . ويختلط هذا الجبل من جنوبه بجبل تازا وغمارة . ومن الجبال التي في جنوبي فاس ينزل نهر سيك . ومنها ، وفي جنوبي هذا النهر ينزل نهر أم ربيع . ومن الجبال التي في شمال فاس ينزل نهر يسر ، وكلها تصب في البحر المحيط على مارسم. وفي شمال فاس مدينة مكناس المشهورة الكثيرة الزيتون . وبينها وبين فاس أربعون ميلا .

أبـو الفـدا

فاس ، مدينتان يشق بينهما نهر . وفي فاس عدة عيون تجري . وللمدينة ثلاثة عشر

= مصر وبغداد وحج عدة حجات ثم عاد إلى القيروان . راجع ، « الصلة » (2/611—612 رقم 1337) ؛ جذوة المقتبس (ص 338 رقم 391) ؛ شذرات الذهب (3/247—248) ؛ الديباج (ص 344 وما بعدها) ؛ النجوم الزاهرة (5/30 و77) ؛ غاية النهاية (321—322) ؛ دليل مؤرخ المغرب (الترجمة رقم 1010) ؛ كتاب الوفيات لابن قنفذ (ص 239) .

(1) القُهُنْدُز (بضم القاف والهاء والدال) فارسي معرب : أربعة مواضع في بلاد العجم . وفي المشترك ومعجم البلدان لياقوت إنه إسم جنس لكل حصن وسط المدينة العظمى . راجع ، معجم البلدان (4/419) ؛ تاج العروس (4/72—73) .

بابا . والمياه تجري باسواقها وديارها وحماماتها ، وليس بالمغرب ولا بالمشرق مثلها في هذا الشأن . وهي مدينة محدثة اسلامية . ونقل ابن سعيد عن الحجازي انهم لما شرعوا في حفر هذه المدينة وجدوا فاسا في موضع الحفر فسميت بذلك . قال وعلى أنهارها داخل المدينة نحو ستمائة حجر أرحى تدور بالماء دائما . وأهل فاس مخصوصون برفاهية العيش . ولفاس قلعة بارفع مكان بها ويشق القلعة نهر . وفي فاس ثلاثة جوامع يخطب فيها . ومنها الى سبتة عشره أيام ومخرج نهرها على نصف يوم من فاس ، يجري في مرج وأزهار حتى يدخلها . قال في كتاب الاطوال : وفاس قصبة طنجة .

القلقشندي

فاس (القاعدة الاولى) ، بفتح الفاء ثم ألف وسين مهمله . وهي مدينة بالغرب الاقصى واقعة في آخر الاقليم الثالث من الاقاليم السبعة . قال ابن سعيد : حيث الطول عشر درجات وخمسون دقيقة والعرض ثلاثة وثلاثون درجة . قال وسميت بفاس (الى آخر ما ذكر أعلاه) . قال في تقويم البلدان : وهي مدينتان يشق بينهما نهر . الاولى ، فاس القديمة والمياه تجري باسواقها وديارها وحماماتها ، حتى يقال انه ليس بالمشرق ولا بالمغرب مدينة تضاهيها في ذلك ، الا أن أرضها ذات أرتفاع وأنخفاض وفيها عدة عيون . قال أبو عبد الله العسلي عدّتها ثلاثمائة وستون عينا . قال ابن سعيد : لم أَرَقَطٌّ حمامات في داخلها عين تنبع الا في فاس . قال وهي أكثر مياها من دمشق . قال ابن سعيد في «المغرب» : وهي مدينتان : احداهما بناها ادريس بن ادريس بن عبد الله ، احد خلفاء الادارسة في المغرب ، وتعرف بعدوة الاندلس والاخرى بنيت بعدها وتعرف بعدوة القرويين. وقال في الروض المعطار» : وكان بناء عدوة الاندلسيين في سنة اثنتين وتسعين ومائة وبناء عدوة القرويين في سنة ثلاث وتسعين ومائة . وعدوة القرويين أكثر عيونا وبساتين وأشجارا من عدوة الاندلسيين . ورجال عدوة الاندلسيين أشجع . ورجال عدوة القرويين أجمل . ونساء عدوة الاندلسيين أجمل وبعدوة الاندلسيين تفاح طيب الطعم يعرف بالطرابلسي. لايفلح بعدوة القرويين. وبعدوة القرويين أتْرَجٌ حسن لا يفلح بعدوة الاندلسيين مع التقارب على ضفة النهر الغربية . وهي في مستوى من الارض . وهي في علو لا يحكم النهر عليها . والثانية ، فاس الجديدة ، ثلاثة مدن (من) بناء آباء ملوكها القائمين بها الآن حين ملكو الغرب الاقصى ولما نزلوا بها بنوا معها ثلاث مدن على الضفة الغربية للنهر .

أولها ، المدينة البيضاء ، وتعرف بالجديدة . بناها أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق (1) أول من أستقل بالملك بعد الموحدين .

الثانية ، مدينة حمص ، ويعرف موضعها بالملاح . بناها ولده أبو سعيد ، عثمان بن أبي يوسف ، الى جانب المدينة البيضاء المتقدم ذكرها .

الثالثة « ربض النصاري » ، وهي المتخذة لسكنى النصاري من الفرنج المستخدمين بخدمة السلطان . وهذه المتجددات الثلاث على ضفة النهر الغربية . فربض النصاري ، يقابل فاس القديمة على بعد من ضفة النهر . والبيضاء ، وهي فاس الجديدة ، أخذة من شمالي ربض النصاري الى ضفة النهر . وأول عمارة فاس الجديدة آخر عمارة فاس العتيقة . وحمص راكبة على النهر بشمال على جانب فاس الجديدة آخذة الى ربض النصاري ينصب من الجنوب الى الشمال ، ثم ينعطف على زاوية آخذا من الغرب الى الشرق حتى يصير كأنه ينحدر من الغرب ، وحمص على مجراه هناك ، ثم يمر آخذا الى الشرق على حاله فوق فاس الجديدة ، ثم ينعطف عليها بزاوية الى الجنوب ثم ينعطف الى الشرق جائزا بها . وهناك فاس العتيقة على الضفة الشمالية . والقصبة ، وهي القلعة ، بها في غربيها مرجلة على الارض لا تتميز على المدينة برفعة ولا ببناء عال . ويصير النهر مستديراً بفاس الجديدة من جانب الشمال على المجرى المركب عليه حمص ، ومن الشرق حيث أنعطف النهر عند فاس العتيقة .

قال في « مسالك الابصار » وهذا النهر متوسط المقدار . عرضه في المكان المتسع نحو أربعين ذراعا ، وفي الضيق دون ذلك ؛ وربما تضايق الى خمسة عشر ذراعا ،

---

(1) هو يعقوب بن عبد الحق بن محيو بن أبي بكر بن حمامة المريني الزناتي (607—685 هـ) السلطان المنصور بالله . بربري قيل إن له أصلا عربيا . كان في عهد أخيه واليا على تازا وملوية ، ولما مات أخوه في سنة 656 هـ ، أقبل إلى فاس حيث بايعه الناس . وقد هاجمه بنو عبد الواد فظفر بهم ، وكان أول من قام بإنقاذ مدينة سلا من حكم الإسبان وطردهم منها . وفي سنة 660 هـ ، أركب ثلاثة آلاف فارس من بني مرين وعبر البحر إلى الأندلس للجهاد ، ثم زحف بجيش قوي وأنزل هزيمة بجيش الموحدين . وعلى يده انقرضت دولة الموحدين بني عبد المؤمن في المغرب في سنة 674 هـ . وبعدما استولى على طنجة(672هـ.)وسجلماسة (673هـ.) صفاله المغرب كله ، قبل أن يتوغل بفتح الحصون ويثخن في الافرنج في الأندلس . ولما عاد إلى المغرب أقام بفاس حيث أمر ببناء « المدينة البيضاء » الملاصقة لها وانتقل إليها بجيشه وذويه ، كما أمر ببناء قصبة « مكناسة » . وقد استمر على الجهاد والغزو في الأندلس حتى توفي بقصره في الجزيرة الخضراء ودفن برباط الفتح . راجع سيرته وغزواته في الاستقصا 2/10—32 ؛ الذخيرة السنية ص 92 ؛ جذوة الإقتباس ص 349 ؛ الأنيس المطرب القرطاس ص 5 من الكراس 27 ؛ الحلل الموشية (طبعة الرباط) ص 143—148 .

فما دونها . وعمقه في غالب تقدير قامة رجل . ونقل في « مسالك الابصار » عن ابن سعيد أن نهرها يلاقي وادي سبو ، وهو من أعظم أنهار المغرب ، يصب في البحر المحيط بين سلا وقصر عبد الكريم . قال في « تقويم البلدان » قال ابن سعيد : وعلى أنهارها داخل المدينة نحو ستمائة رحى تدور بالماء دائما . قال في « مسالك الابصار » وعليها ناعورة ترفع الماء الى بستان السلطان . وبناء فاس العتيقة بالآجر والجبال مكتنفة بها ، وعلى كل من عتيقها وجديدها أسوار دائره محصنة ذات بروج وبدنات وجميع ابنيتها بالحجر وا لاجر والكلس موثقه البناء مشيدة ا لاركان ، وتزيد فاس الجديدة على فاس العتيقة في الحصانة والمنعة والعتيقة بسور واحد من الحجارة والجديدة بسورين من الطين المفرغ بالقالب من التراب والرمل والكلس المضروب ، وهو اشد من الحجر ولا تعمل فيه المجانيق ولا تؤثر فيه ، وكذلك ابنياتها. وسقوف جميعها الخشب ، وربما غشيت بعض السقوف بالقصدير والأصباغ الملونة . وأرض دور رؤسائها مفروشة بالزليج ، وهو نوع من ا لاجر مدهون بدهان ملون ، كالقاشاني با لابيض والاسود والازرق والاسفر والاخضر ، وما يركب من هذا الالوان ، وغالبه الازرق الكحلي . وربما أتخذ منه الوزرات بحيطان الدور . قال في « مسالك ا لابصار » : وسالت السلائحي عن مقدار عمارة فاس عتيقها وجديدها ، فقال : تكون قدر ثلث مصر والقاهرة وحواضرها : قال في « تقويم البلدان » : وللمدينتين ثلاثة عشر بابا . وفي القديمة مخازن الغلال ، وهي مكان يستدير عليه سور منيع عليه باب وغلق داخله المطامير . وبفاس العتيقة داخل سورها جنان ورياض ذات أشجار ورياحين في دور الكبراء وبيوت ا لاعيان . ثم قال : وبكل من فاس القديمة وفاس الجديدة المعروفة بالبيضاء وحمص الجوامع والمساجد والمآذن والحمامات والاسواق . أما المدارس والخوانق والربط فما خلت صحائف اهل المغرب من أجورها الا النزر اليسير جدا (1) وبفاس العتيقة مارستان . ودور فاس مجالس مقابلة على عمد من حجر أو آجر ورفات تطل على صحن الدار ، وفي وسط صحن الدار بركة يصب بها الماء ويعبر عنها عندهم بالصهريج . ولهم عناية باتخاذ القباب في بيوتهم حتى يوجد في دار الكبير قبتان فأكثر . وحماماتهم صحن واحد ، لاخلاوى فيها ولذلك يتخذ غالب الرؤساء الحمامات في بيوتهم فرارا من مخالطة العامة في الحمام .

---

(1) راجع وصف الحياة الإجتماعية والعمرانية في مدينة فاس في القرن السادس عشر في وصف أفريقية للحسن بن محمد الوزان المصدر المذكور (1/179 ـ 240)

قال ابن سعيد : ومدينة فاس متوسطة بين ملك الغرب ، بينها وبين مراكش عشرة أيام ، وبينها وبين سبتة عشرة أيام ، وبينها وبين سجلماسة عشرة أيام .

قال في « مسالك الابصار » ولذلك صلحت أن تكون قاعدة الملك . وهي تشبه الاسكندرية في المحافظة على علوم الشريعة وتغيير المنكر والقيام بالناموس وتشبه دمشق في البساتين .

وقد ذكر ابن مُنْقَذ (1) ، رسول السلطان صلاح الدين بن أيوب إلى بلاد المغرب : أنهم أخرجوا إلى بستان بفاس يقال له البحيرة متحصلة في كل سنة خمسة وأربعون ألف دينار وبه بركة ذرع كل جانب منها مائتان وستة عشر ذراعا ، يكون دورها ثمانمائة دراع وأربعة وستين ذراعا . قال : وبها ماهو أكبر من ذلك . قال في تقويم البلدان وأهلها مخصوصون برفاهية العيش . قال في « مسالك الابصار » ولأهلها حسن الصنعة والمخروطات من الخشب والنحاس . قال أبو عبدالله السلايحي : ولكنها وَخْمَة ثقيلة الماء تعلو وجوه سكانها صفرة وتحدث في أجسادهم كسلا وفتورا .

* * *

(1) هو أسامة بن منقذ الكناني الكلبي الشيزري (488 — 584 هـ) مؤيد الدولة ، أمير من بني منقذ أصحاب قلعة شيزر (sizarar عند الصليبيين) ، من العلماء الشجعان وله تصانيف عديدة في فنون الأدب ، منها لباب الأداب والعصا (طبع) وديوان شعر . وقد قاد عدة حملات ضد الصليبيين في فلسطين ، وسكن دمشق حيث استدعاه صلاح الدين الأيوبي إليه ، فأقام عنده مكرما معززا ، وكان قد تجاوز الثمانين انظر ترجمته في وفيات الأعيان 195/1 — 199 ، معجم الأدبا 188/5 البداية والنهاية 331/12 ، تهذيب ابن عساكر 400/2 .



مـراكـش (1)

الادريســي

مدينة بناها يوسف بن تاشفين (2) في صدر سنــة 470 ، بعد أن أشتــرى أرضها من أهل أغمات بجملة أموال وأختطها له ولبني عمه . وهي في وطاء من الارض ليس حولها شيء من الجبال الا جبل صغير يسمى ايجليز ، ومنه قطع الحجر الذي بني منه قصر أمير المسلمين، علي بن يوسف بن تشفين ، وهو المعروف بدار الحجر ، وليس في موضع مدينة مراكش حجر البتّة الا ماكان من هذا الجبل . وانما بناؤها بالطين والطوب والطوابي

(1) راجع عدا ما ذكر أعلاه ؛ اليفراني ، نزهة الحادي ؛ إبن أبي زرع ، روض القرطاس ؛ العباس بن إبراهيم المراكشي ، عذارى الكمال ؛ علي بك العباسي ، الرحلة ، ج 1 ، الحسن بن محمد الوزان ، وصف أفريقية .

Marmol, Description General de Africa ; De Chenier (L), Recherches Historique sur les Maures, (T. III ; Mélanges) René Basset (1925) I et II ; Jacksons, Account of The Empire of Morocco ; Lambert (P), Notice sur la ville du Maroc (Bult. Soc. Géogr.,), 1868 ; Doutté, Marrockech ; Champinion (P), Rabat et Marrakech (les villes d'art célébres) ; Terrasse (H) Sanctuaires et Portresses almohades (Hesperis, 1925-27) ; Terrasse (Ch), Madras du Maroc.

(2) هو يوسف بن تاشفين الصنهاجي اللمتوني ، أبو يعقوب : سلطان المرابطين وأول من تلقب منهم بأمير المسلمين . ولد في سنة 410 هـ (1019 م) في جنوب المغرب وولاه أبو بكر بن عمر اللمتوني شؤون البربر . وبعدما استولى على فاس وغزا الأندلس واستقل بالمغرب ، بنى مدينة مراكش سنة 465 هـ (1072—1073 م) . ولما واجه المعتمد بن عبّاد ضعط النصارى ، استنجد بيوسف بن تاشفين ، فسجلت الجيوش الإسلامية الإنتصار المشهور في معركة « الزلاقة » (سنة 479) وبايعه من شاهد هذه المعركة من ملوك الأندلس . وقد عاد إلى مراكش ثم لم يلبث أن سيّر جيشه إلى الأندلس ودخل غرناطة التي أخرج منها صاحبها ، عبد الله بلكين الصنهاجي . وقد توفي يوسف في مرراكش في سنة 500 هـ (1106 م) . راجع : جذوة المقتبس ص 342 ، وفيات الأعيان ، 112/7—130 ؛ الكامل 216/9 و 145/10 ؛ بغية كالرواد (طبعة الفردبيل) 86/1 ؛ المعجب في أخبار المغرب ص 162 ؛ الاستقصا 106/1 ؛ المعجب في أخبار المغرب ص 162 ؛ الحلة السيراء 193/1 و 100/2 ـ 102 البيان المغرب 239/3 و243 .

المقامة من التراب . وماؤها الذي تسقي به البساتين مستخرج بصنعة هندسية حسنة استخرج ذلك عبد الله بن يونس المهندس . وسبب ذلك أن ماءها ليس بعيد الغور ، موجود اذا أحتفر قريبا من وجه الارض . وذلك أن هذا الرجل المذكور ، عبيد الله بن يونس ، جاء الى مراكش في صدربنائها وليس بها الابستان واحد لابي الفضل ، مولي أمير المسلمين المقدم ذكره ، فقصد الى أعلى الارض مما يلي البستان ، فأحتفر به بئرا مربعة كبيرة التربيع ، ثم أحتفر منها ساقية متصلة الحفر على وجه الارض ، ومر يحفر بتدريج من أرفع الى أخفض متدرجا الى أسفله بميزان حتى وصل الماء الى البستان ، وهو منسكب مع وجه الارض يصب فيه وهو جار مع الايام لايفتر ، واذا نظر الناظر الى مسطح الارض ، لم يربها كبير ارتفاع يوجب خروج الماء من قعرها الى وجهها وانما يميز ذلك عالم بالسبب الذي به استخرج ذلك الماء . والسبب هو الوزن للارض ، فاستحسن ذلك أمير المسلمين ، من فعل عبيد الله بن يونس المهندس وأعطاه مالا وأثوابا وأكرم مثواه مدّة بقائه عنده . ثم أن الناس نظروا الى ذلك ، ولم يزالوا يحفرون الارض ويستخرجون مياهها الى البساتين حتى كثرت البساتين والجنات وأتصلت بذلك عمارات مراكش وحسن قطرها ومنظرها . ومدينة مراكش في هذا الوقت من أكبر مدن المغرب الاقصى ، لانها كانت دار أمارة لمتونة ومدار ملكهم وسلك جميعهم . وكان بها أعداد قصور لكثير من الامراء والقواد وخدام الدولة . وازقتها واسعة ورحابها فسيحة ، ومبانيها سامية ، وأسواقها مختلفة ، وسلعها نافقة . وكان بها جامع بناه أميرها يوسف بن تاشفين . فلما كان في هذا الوقت وتغلب عليها المصامدة وصار الملك لهم ، تركوا ذلك الجامع عطلا مغلق الأبواب ولا يرون الصلاة فيه ، وبنوا لانفسهم مسجدا جامعا يصلون فيه بعد أن نهبوا الاموال وسفكوا الدماء وباعوا الحرم ، كل ذلك بمذهب لهم ، يرون ذلك فيه حلالا . وشرب أهل مراكش من الابار . ومياهها كلها عذبة . وآبارهم قريبة معينة . وكان علي بن يوسف قد جلب الى مراكش ماء من عين بينها وبين المدينة أميال ، ولم يستتم ذلك . فلما تغلب المصامدة على الملك وصار لهم وبأيديهم ، تمموا جلب ذلك الماء الى داخل المدينة وصنعوا به سقيات بقرب دار الحجر ، وهي الحظيرة التي فيها القصر منفردا متحيزا بذاته . والمدينة بخارج هذا القصر . وطول المدينة أشف من ميل وعرضها قرب ذلك . وعلى ثلاثة أميال من مراكش نهر لها يسمى تانسيفت وليس بالكبير ، لكنه دائم الجري . واذا كان زمن الشتاء حمل بسيل كبير لا يبقى

ولايــذر . وكان أمير المسلمين علي بن يوسف بن علي(1) بنى على هذا النهر قنطرة عجيبة البناء متقنة الصنع بعد أن جلب الى عملها صناع ا لاندلس ، وجملا من أهل المعرفة بالبناء . فشيدوها واتقنوا بنيانها حتى كملت ، ثم لم تلبث غير أعوام يسيرة حتى أتى عليها السيل فأحتمل أكثرها وأفلت عقدها وهدمها ورمى بها في البحر الزخار . وهذا الوادي يأتي اليه الماء من عيون ومياه منبعثة من جبل درن مــن نـاحية مـدينـة أغمات ايــلان .

وأهل مراكش يأكلون الجراد ، ويباع منه بها كل يوم الثلاثون حملا فما دونها وفوقها . فقباله عليه وكانت أكثر الصنع بمراكش متقبلة عليها مال لازم مثل سوق الدخان والصابون والصفر والمغازل . وكانت القبالة على كل شيء يباع ، دق أوجل . كل شيء على قدره فلما ولي المصامدة وصارا لامر اليهم قطعوا القبالات بكل وجه وأراحوا منها وأستحلوا قتل المتقبلين لها ، ولا تذكر الآن القباله ذكرا في شيء من بلاد المصامدة .

ويسكن بقبلة مراكش من قبائل البربر ايلان ، وهم مصاميد ، وحولها من القبائل نفيس وبنويدفرودكالة ورَجْرَاجَة وزَوْدَه وهسكوره وهَزْرَجَه .

يـاقــــوت

مراكش بالفتح ثم التشديد ، وضم الكاف وشين معجمة . أعظم مدينة بالمغرب وأجلها وبها سرير ملك بني عبد المؤمن وهي في البر الأعظم بينها وبين البحر عشرة أيام في وسط بلاد البربر . وكان أول من اختطها يوسف بن تاشفين من الملثمين الملقب بأمير المسلمين في حدود سنة 370 هـ (2) ، وبينها وبين جبل دَرَنَ الذي ظهر منه ابن تومرت المسمى بالمهدي ثلاثة فراسخ ، وهو في جنوبها . وكان موضع مراكش قبل ذلك مخافة يقطع فيه اللصوص القوافل . كان اذا أنتهت القوافل اليه قالوا مراكش ، معناه بالبربرية : أسرع المشي . وبقيت مدة يشرب أهلها من الابار حتى جلب اليها ماء يسير من ناحية أغمات يسقي

---

(1) علي بن يوسف بن تاشفين (477 — 437) ثاني ملوك دولة المرابطين ، بويع له بعد وفاة أبيه في سنة 500 هـ وسلك طريق أبيه في الحكم ، وقد عبر إلى الأندلس مجاهدا وبنا هناك عدة حصون . ولى أواخر أيامه ظهر المهدي بن تومرت فاضطربت شؤون دولته ومات غما . راجع الاستقصا 123/1 ، الحلل الموشية ص 61 — 90 ، جذوة المقتبس 291 .

(2) هذا غلط لأن مراكش أسست ، كما ذكرنا في سنة 465 هـ . انظر أعلاه ، ص 34 .

بستان لها . وكان أول من أتخذ بها البساتين عبد المؤمن بن علي . يقولون أن بستانا منها طوله ثلاثة فراسخ .

القزويني

مراكش من أعظم مدن المغرب ، واليوم سرير ملك بني عبد المؤمن ، وهي في البرّ الاعظم ، بينها وبين البحر عشرة أيام في وسط بلاد البربر .. وانها كثيرة الجنان والبساتين ويخرج خارجها الخلجان والسواقي وياتيها الأرزاق من الاقطار والبوادي ، مع ما فيها من جني الاشجار والكروم التي يتحدث بطيبها في الافاق . والمدينة ذات قصور ومبان محكمة .

بها بستان عبد المؤمن بن علي ، أبي الخلفاء ، وهو بستان طوله ثلاثة فراسخ ، وكان ماؤه من الابار ، فجلب اليها مآء من أعماق تسير وتسقي بساتين لها . وحكى أبو الربيع سليمان الملتاني أن دور مراكش أربعون ميلا .

ينسب اليها الشيخ الصالح سني بن عبد الله المراكشي وكان شيخا مستجاب الدعوة ، ذكر أن القطر حبس عنهم في ولاية يعقوب بن يوسف ، فقال : أدع الله تعالى أن يسقينا . فقال الشيخ : أبعث الي خمسين ألف دينار حتى أدعو الله تعالى أن يسقيكم في أي وقت شئتم ! فبعث اليه ذلك ففرقها على المحاويج ، ودعا فجاءهم غيث مدرار أياما ، فقالوا له : كفينا ، أدع الله أن يقطعه ! فقال : أبعث الي خمسين ألف دينار حتى أدعو الله أن يقطعه . ففعل ذلك ففرق المال على المحاويج ودعا الله تعالى فقطعه. والله الموفق .

ابن سعيد

وفي شمالها (أغمات) بميلة قليلة الى الغرب ، على نحو خمسة عشر ميلا ، حاضرة المغرب ، مراكش ، بناها يوسف بن تاشفين المتولي سلطان الملثمين في أرض صحراوية ، وجلب اليها الماء ، وأكثر الناس فيها من البساتين [وقد] كثر وخمها ولا يكاد غريب يخلص فيها من الحمي ، ولاسيما الملثمة . وعلى أربعة أميال منها نهر تانسفت ينزل من جبل درن ، فيمر شرقيها وشماليها وعليه أرحى وتخرج منه جداول تسقي البساتين وتنصب في نهر نفيس المليح الذي على شطيه الكروم ذوات الاعناب المفضلة والبساتين الكثيرة والعمائر المفضلة .

وعند مصبه في البحر المحيط ، مرسى أغمات القديم . وأختلف في عرض مراكش ، فقيل احدى وثلاثـون درجة . والصواب تسع وعشرون درجـة .

أبـــو الفـــدا

مَرَّاكشْ بفتح الميم وتشديد الراء المهملة وفتحها وألف ساكنة ثم كاف وشين . وعن ابن سعيد (نقل النص المذكور أعلاه) . وجنوب مملكة مراكش ، جبل درن ، وفي شمالها مملكه سلا ، وفي غربيها البحر المحيط وفي شرقيها الجهات التي بين سجلماسة وفاس . ودور مراكش سبعة أميال ، ولها سبعة عشر بابا . وحرها شديد . وهي في شمال أغمات بميلة يسيرة الى الغرب ، وبينهما نحو خمسة عشر ميلا .

القلقشنـــدي

بعدما نقل كثير من أوصاف المتقدمين قال ان : بمراكش جامع جليل يعرف بالكتبيين ، طوله مائة وعشرة أذرع وعلى بابه ساعات مرتفعة في الهواء خمسون ذراعا ، كان يرمي فيها عند انقضاء كل ساعة صَنْجَةٌ زنتها مائة درهم ، تتحرك لنزولها أجراس تسمع على بعد تسمى عندهم بالبَحَّانة. قال في « تقويم البلدان » الا أن الناس أكثروا فيها البساتين ، فكثر وخمها . قال في « الروض المعطار » : وقد هجاها أبو القاسم بن أبي عبد الله محمد ابن أيوب من أهل بلنسية بابيات أبلغ في ذمها ، فقال :

مــراكش ان سـألــت عنهــا ... فــانهـا فى البــلاد عــار
هــواؤهــا في الشتــاء ثلــج ... وحــرهــا في الصيــف نار
وكــل مــاثم وهـــو خيــر ... مــن أهلهــا عقــرب وفــار
فــان أكــن قــد مكثــت فيها ... فــان مكثــي بهــا اضطــرار

وكانت هذه المدينة دار ملك المرابطين من الملثمين الذين ملكوا بعد بني زيري ، ثم الموحدين من بعدهم . قال ابن سعيد : وبينها وبين فاس عشرة أيام . وقال في « الروض المعطار » : نحو ثمانية أيام . قال : وبينــها وبيــن جبــال درن نحـــو عشـــريــن يوما .

*
* *

أغمات (1)

ابن حوقل

وما عداه وأوغل في براري سجلماسة وأودغست ونواحي لمطة وتاكدمت الى الجنوب ، ونواحي فزان ، ففيه مياه عليها قبائل من البربر المهملين الذين لا يعرفون الطعام ولارأوا الحنطة ولا الشعير ولا شيئا من الحبوب . والغالب عليهم الشقاء وا لاتشاح بالكساء وقوام حياتهم باللبن واللحم . وسأذكر ذلك وأصفه بعد فراغي من ذكر المسافات على استقصاء ان شاء الله وفي مكان آخر :

وعن يسار طريق فاس الى سجلماسة اقليم أغمات . وهو رستاق عظيم فيه مدينة كثيرة الخير والتجارة الى سجلماسة وغيرها . ومن سجلماسة الى أغمات ، نحو ثماني مراحل ، ومثلها الى فاس . ومن ورائها الى ناحية البحر المحيط السوس ا لاقصى وليس بالمغرب كله بلد أجمع ولا ناحية أوفر وأغزر وأكثر خيرا منها . قد جمعت فنون المأكل كلها ذات الصرود والجروم . فيها الارتج والجوز واللوز والنخل وقصب السكر والسمسم والقنّب وسائر البقول التي لاتكاد تجتمع بغيرها . وأهل السوس فرقتان مختلفتان : مالكيون أهل سنه ، وموسويون شيعة يقطعون على موسى بن جعفر من أصحاب علي بن ورصند .

(1) راجع غير ما ذكر أسفله : روض القرطاس ، المعجب في أخبار المغرب ، البيان المغرب (ج 3) ، وصف أفريقية للحسن بن محمد الوزان ، العبر ، في عدة أماكن وكذلك : Marmol, Drscription General de Africa (T.I.) في الجزء السادس والجزء السابع ؛ إبن زمبيل ، تحفة الملوك (مخطوط محفوظ في مكتبة اكسفورد) (ورقة 413) .

المقدسي

وأما السوس الأقصى ، فقصبتها قرفلة ، ومن مدنها أغمات ويلا ، وو ريكة ، وتندلي ، وماسة وغيرهن .

البكـــري

ذكـــر مدينـــة أغمـــات

وهي مدينتان سهليتان ، احداهما تسمى أغمات ايلان وا لاخرى ، أغمات وريكة ، وبها مسكن رئيسهم ، وبها ينزل التجار والغرباء ، وأغمات ايلان ، لايسكنها غريب . وبينهما ثمانية أميال ، ولها نهر لطيف جرية من القبلة الى الجوف ، ماؤه زعاق يقال له تافيروت . وحولها بساتين ونخل كثير وهو بلد واسع يسكنه قبائل مصمودة في قصور وأجشار . وهو راخي ا لاسعار كثير الخير يحمل اليه من مدنينة نفيس تفاح جليل يباع منه حمل بغل بنصف درهم الا أنه وخم الهواء . الوان سكانها مصفرة .(وهي) كثيرة العقارب القتالة التي لا يداوي سليمها ، وبها أسواق جامعة . فسوق أغمات وريكة يقوم يوم ا لاحد بضروب من السلع وأصناف المتاجر ، يذبح فيها أكثر من مائة ثور وألف شاه ، وينفد في ذلك اليوم جميع ذلك . وكانت امر أهل أغمات دولا بينهم ، يتولى الرجل سنة ، ثم يديلون بآخر عن تراض واتفاق . كذلك ذكر محمد ابن يوسف القيرواني . وساحل أغمات رباط فوز على البحر المحيط . وفيه تنزل السفن من جميع البلاد ، ولاتخرج منه السفن صادرة ا لا في زمان ا لامطار وتكدر الهواء واعنبرار الجو . فحينئذ تصدق لهم الرياح البرية . فان تمادى ذلك لهم سلموا وأن صحى الجو وصفا الهواء هبت لهم الرياح البحرية من الغرب فيهيج عليهم البحر ويقذفهم في البراري ، فقل مايسلمون .

ا لادريســـي

ومدينة أغمات تكنَّفها جبل درن ، كما قلناه . فاذا كان زمن الشتاء تحلَّلت الثلوج النازلة بجبل دَرَن (1) فيسيل ذوبانها الى مدينة أغمات ، وربما جمد به النهر في وسط

(1) جبل درن = سلسلة جبال الأطلس . وهي التسمية العامة التي تطلق على جميع السلسلة الجبلية التي تخترق شمال أفريقية وتمتد من المحيط الأطلسي ، مارة بالمغرب الأقصى والجزائر ، حتى خليج تونس ، على مسافة نحو 1600 ميل . وكلمة درن التي يستعملها العرب ، هي تحريف لكلمة « أدرار » البربرية (الجبل) . وجبال الأطلس تنقسم إلى ثلاث كتل أساسية كل واحدة منها قائمة بنفسها : سلاسل جبال المغرب الأقصى وسلسلة هضاب الشطوط ، والسلاسل الجبلية التي تمتد على طول الشواطيء البحرية .

المدينة حتى يجتاز الاطفال عليه وهو جامد ، فلا يتكسر لشدة جموده . وهذا شيء عايناه بها غير ما مرة . ومدينة أغمات أهلها هواره . ومن قبائل البربر المتبربرين بالمجاورة . وهم تجار مياسير يدخلون الى بلد السودان بأعداد الجمال الحاملة لقناطير الاموال من النحاس الاحمر والملون والاكسية وثياب الصوف والعمائم والمأزر وصنوف النظم من الزجاج والاصداف والاحجار وضروب من الافاوية والعطر والآت الحديد المصنوع . وما منهم رجل يسفر عبيده ورجاله الا وله في قوافلهم المائة جمل والسبعون والثمانون جملا ، كلها موقره ، ولم يكن في دولة الملثم أحد أكثر منهم أموالا ولا أوسع منهم أحوالا . وبابواب منازلهم علامات تدل على مقادير أموالهم ، وذلك أن الرجل منهم اذا أملك أربعة آلاف دينار يمسكها مع نفسه وأربعة آلاف يصرفها في تجارته أقام على يمين بابه وعن يساره عرصتين من الارض الى أعلى السقف . وبنايتهم بالآجر والطوب ، والطين أكثر . فاذا مرّ الخاطر بداره ونظر الى تلك العرص مع الابواب قائمة عدّها ، فيعلم من عددها كم مبلغ مال صاحب الدار ، لانه قد يكون من هذا العرض خلف الباب أربع وست مع كل عضادة اثنتان وثلاث وأما الان ، في وقت تأليفنا لهذا الكتاب ، فقد اتى على أكثر أموالهم المصامدة ، وغيرت ما كان بيديهم من نعم الله . ولكنهم مع هذا مياسير أغنياء لهم نخوة واعتزاز لا يتحلون عنه . وبمدينة أغمات عقارب كثيرة وكثيرا ما تلسب الناس فتاذيهم ، وربما مات من لسبته . وبمدينة أغمات ضروب من فواكه وأنواع من النعم وكل شيء بها من الماكول رخيص ممكن .

ياقوت

أغمات ، ناحية في بلاد البربر من أرض المغرب ، قرب مراكش . وهي مدينتان متقابلتان كثيرة الخير ومن ورائها الى جهة البحر المحيط السوس الاقصى بأربع مراحل ، ومن سجلماسة ثمان مراحل نحو الغرب . وليس في بلاد المغرب ، فيما زعموا ، أجمع لاصناف من الخيرات ولا أكثر ناحية ولا أوفر حظا ولا خصبا منها . تجمع بين فواكه الصرود والجروم (1) وأهلها فرقتان يقال لاحداهما المسوية من أصحاب ابن ورصند والغالب عليهم جفاء الطبع وعدم الرقة . والفرقة الاخرى مالكية حشوية ، وبينهما القتال الدائم . وكل فرقة تصلي في الجامع منفردة بعد صلاة الاخرى . كذا ذكر ابن حوقل التاجر

---

(1) الصَّرْد والصَّرَد : البرد . والصرود من البلاد = الباردة ، وهي خلاف الجروم : الحارة . أي فواكه المناطق المعتدلة وفواكه المناطق الإستوائية . أنظر معان أخرى لكلمة الصرد في لسان العرب (2/426—427) .

الموصلي في كتابه ، وكان شاهدها قديما بعد الثلاثمائة من الهجرة ، ولا أدري كيف هي الآن . فقد تداولتهم عدة دول منها : دولة الملثمين وكان فيهم جدٌّ وصلابة في الدين ، ثم عبد المؤمن وبنوه ، ولهم ناموس يلتزمونه وسياسة يقيمونها لا يثبت معها مثل هذه الاخلاط ، والله أعلم . وبين مدينة أغمات ومراكش ثلاثة فراسخ في سفح جبل هناك ، وهي للمصامدة تدفع بها جلود تفوق جودة على جميع جلود الدنيا وتحمل منها الى سائر بلاد المغرب ويتنافسون فيها . وينسب اليها أبو هارون موسى بن عبد الله ابراهيم بن محمد ابن سنان بن عطاء الاغماتي المغربي رحل، الى الشرق وأوغل حتى بلغ سمرقند ، وكان فاضلا وله شعر حسن منه .

لعمر الهوي اني ، وان شطت النوى
لذوكبد حَرَّى وذومدمع سكب

فان كنت في أقصى خراسان ثاويا
فجسمي في شرق وقلبي في غرب

وقال أبو بكر بن عيسى المعروف بابن اللبانة (1) يذكر المعتمد بن ابن عباد صاحب اشبيليه (2) وكان لما أزيل أمره وأنتزع ملكه حمل الى أغمات وحبس بها :

---

(1) محمد بن عيسى بن محمد اللخمي ، أبوبكر ، المعروف بابن اللبانة ، أديب أندلسي من أهل دانية ، عمل في دولة ابن صمادح . وقد وصفه ابن الابار في التكملة (ص 145) بأنه « من جلة الادباء وفحول الشعراء » . توفي في جزيرة ميورقة في سنة 507(1113م) ودفن بأزاء أبي العرب الصقلي . له عدة كتب ، منها سقيط الدرر ولقيط الزهر ، ونظم السلوك في وعظ الملوك . راجع : القلائد للفتح (ص 245) المراكشي ، المعجب (ص 104) ، ابن دحية ، المطرب (ص 178) ابن الابار ، التكملة (ص 145) ، الحنبلي ، شفرات الذهب (20/4) ابن شاكر فوات الوفيات (260/2 .

(2) محمد بن عباد بن إسماعيل اللخمي ، أبوالقاسم ، المعتمد على الله ، ولد في سنة 430 هـ (1040 م) وبويع بالإمارة على أشبيلية وقرطبة بعد وفاة أبيه في سنة 461 هـ . ، وامتلك كثيرا من بلاد الأندلس حتى بلغت حدود مملكته مرسية ، وكان ملوك الطوائف يودون إليه ضريبة سنوية . ولما اشتد تحرش ملوك النصارى به ، استنجد بيوسف بن تاشفين واشترك جيش الملكين في معركة الزلاقة التي خذلت فيها جيوش أذفونش ((Alphonse V)) (سنة 479 هـ) . وبعدما عاد يوسُف بن تاشفين إلى مراكش . لم يلبث أن وجه جيشه لمحاصرة إبن عباد في أشبيلية . وقد استسلم الملك الشاعر بعد معارك شهد له فيها بالبسالة والإقدام ، ونقل إلى أغمات حيث زج به في غيابات السجن حيث توفي في سنة 488هـ (1095م) . (راجع : إبن الأبار ، الحلة السيراء (52/2 ـ 68) ، المقري ، نفح الطيب ، (1119/2) ، البيان المغرب ، (244/3) ، وإبن الأثير ، الكامل (86/10) ، الحنبلي ، شذرات الذهب (386/3) ، الصفدي ، الوافي بالوفيات (183/3) .

أنفض يـديك مـن الدنيـا وسـاكنهـا

فالارض قـد اقفرت والناس قد ماتوا

وقـل لعـالمهـا الارضي قـد كتمـت

سـريرة العـالـم العلـوي أغمات

ابن سعيد

وفي شمالي جبل دَرَن أغمات ، وهي كانت حاضرة البلاد قبل بنيان مراكش . وهي ذات مياه وفواكه كثيرة . وفي شمالها بميلة قليلة الى الغرب على نحو خمسة عشر ميلا ، حاضرة المغرب ، مراكش . وهي ذات مياه وفواكه كثيرة ،

أبو الفدا

ومدينة أغمات في شمال جبل درن ، وكانت حاضرة البلد قبل بنيان مراكش . وهي من أقصى المغرب . وعن ابن سعيد أيضا ، كانت كرسي ملك أمير المسلمين ، يوسف بن تاشفين ، قبل أن يختط مدينة مراكش . ويبنيها . قال الادريسي : وأغمات في مكان أفيح طيب التراب كثير النبات والأعشاب والمياه وتخترقه يمينا وشمالا . وحولها جنات محدقة وبساتين وأشجار ملتفة . وهي طيبة المقام صحيحة الهواء ، وبها نهر ليس بالكبير يشق المدينة ويأتيها من جنوبها ويخرج من شماليها . وربما جمد بها النهر في الشتاء حتى يجتاز الاطفال عليه . قال : وهذا شيء عايناه بها غير مرة . وتسمى هذه أغمات وريكة .

القلقشنـدي

أغمـات – قال في « اللبـاب » بفتح الالف وسكون العين وفتح الميم والف وتاء مثناه من فوق في آخرها . وهي مدينة من الغرب الاقصى واقعة في الاقليم الثالث . قال في «تقويم البلدان» : والقياس ان طولها احدى عشرة درجة وثلاثون دقيقة ، والعرض مراكش ، في مكان أفيح طيب التربة ، كثير النبات والعشب ، والمياه تخترقه يمينا وشمالا . قال ابن سعيد : وهي التي كانت قاعدة ملك امير المسلمين ، يوسف بن تاشفين ، قبل بناء مراكش . قال الادريسي : وحولها جنات محدقة وبساتين وأشجار ملتفة ، وهواؤها صحيح وفيها نهر ليس بالكبير (الخ النص المذكور أعلاه) .

* * *

أَوْدَغُسْت (1)

ابــن حــوقــل

ومن سجلماسة الى أودغست شهران على سمت المغرب ، فتقع منحرفة محاذاة عن السوس الاقصى ، كأنهما مع سجلماسة مثلث طويل الساقين أقصر أضلاعه من السوس الى أودغست. وأودغست مدينة لطيفة أشبه بلاد الله بمكة وبمدينة الجرزوان في بلد الجوزجان من بلاد خراسان ، لأنها بين جبلين ذات شعاب . ومن أودغست الى غانة بضعة عشريو ما بالمفـرده .

(1) يختلف الجغرافيون العرب ، كما سنرى ، في تحديد موقع أودغست من حيث العرض بين درجة 26 عند أبي الفدا ودرجة 17 التي ذكرها ابن سعيد (وهو عرض زافون) . وأما لبكري ، فيضع أودغست بين سجلماسة وغانة ، على مسافة متساوية من كل منهما (15 يوما) . وقد كان الميجر رومل Ramel أول من حاول التعرف على أودغست في أجاديس التي تقع على الشمال الغربي لبحيرة تشاد (راجع : ترجمة تقويم البلدان الفرنسية 24/2) . ولكن كولي Cooley ابتعد في تقديره عن هذا الموقع ووضع أودغست شمالي بحيرة تشاد ، وقد رسم هذا التعرف على الخريطة التي ضمنها كتابه المشهور ((The Negroland)) (راجع : تعليقنارقم 95) على أودغست في كتاب الجغرافيا لابن سعيد ، ص 234—235) . وأما بارث Barth ، فقد حدّد موقع أودغست في كتابه Reisen und Untdeckungen (ج 3 الذيل 4) بين خطي طول 10 و 11 غربي جرينتش ، وخطي العرض 18 و 19 شمالا ، أي في جنوب غربي تجكتة . وقد كانت أودغست في أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع الهجري عاصمة الأمبراطورية الصنهاجية التي كان يخضع لها عدد من الإمارات في أفريقية الغربية . وفي سنة 446 هـ . استسلمت أودغست للمرادين الذين كانوا قد أخضعوا سجلماسة من قبل . وبعد قتال عنيف ، أصبحت المدينة العظيمة نهبا للخراب والدّمار. وقد ظلت اودْغست ردحا من الزمن ، مركزا للإشعاع الحضاري الإسلامي ، فكانت تحتوي على عدد كبير من المساجد والمؤسسات والمدارس والأسواق النافقة ، كما كانت محطة مهمة للتبادل التجاري بين المغرب وشواطيء المحيط الأطلسي . ومن أشهر طرق القوافل التي كانت تربط المغرب بأودغست والتي كان ينقل عبرها ، خصوصا ، الذهب والعبيد إلى الشمال ، الطريق التي كانت تسمى طريق التمر .

ومن المعز بين الموغلين في البراري صنهاجه أودغست وسمعت أبا إسحاق ابراهيم بن عبد الله المعروف بفرغ شُغْله ، وهو صاحب الدين والصك الذي قدمت ذكره بأودغست يقول : سمعت تنبروتان بن اسفيشر يقول ، وكان ملك صنهاجة أجمع أنه يلي أمرهم عشرين سنة وأنه لايزال في كل سنة يرد عليه قوم زائرين له لم يعرفهم ولا سمع بهم ولا مقلهم . قال ويكونون نحو ثلاثمائة ألف بيت من بين نوالة وخُصّ . وكان الملك في أهل هذا الرجل لهذا القبيل مذ لم يزالوا .

وحدثني أيضا أبو إسحاق ابراهيم بن عبد عبد الله أن قبيلة من قبائل البربر قصدت ناحية أودغست للإيقاع بآل تَنْبرتان في جمع كثيف وعُدَّة قوية وعِدَّة عظيمة تلتمس غرة وتهتبل فرصة عن طوائل حدثت مع بعض صنهاجة ، وبلغ ذلك تَنْبُروتَان ملكهم هذا وأعيد عليه ذكرهم وحالهم ومقصدهم في طريقهم دفعات ، فلم يعد جوابا فيه ودعا بر كانوا لأخته ، وكانت أيسر أهل قبيلتها وأكثرهم مالا ، من حيث لا يعلم أحد ، وقال لهم أنتم على مياه فلانة وبنو فلان يردون ناحيتكم ليلة كذا وكذا ، فإذا كان في سحرة تلك الليلةفاعتمدوا هيج الإبل التي هناك بأجمعها على الشرف الفلاني ونفارها على القوم واكتموا على ما أقول عن أنفسكم لتنالوا مني خيرا . وأتى القوم فنزلوا ، ونفر الرعاة الإبل فصوبت على المكان والجيش الذي به ، فأتت على جميع من كان به مع إبلهم وسلاحهم دوسا لهم ووطا عليهم حتى استفاض جميع من بأودغست ومن بعد عنها من أعدائهم أنه لم يعرف لواحد منهم حِيلة بوجه من الوجوه ولا أثر لشيء مما كان معهم .

وملك أودغست هذا يخالط ملك غانة . و [ملك] غانة أيسر من على وجه الأرض من ملوكها بما لديه من الأموال والمدخرات من التبر المثار على قديم الأيام للمتقدمين من ملوكهم وله ، ويهادي صاحب كوغة ، وليس كوغة بقريب من صاحب غانة في اليسار وحسن الحال ، ويهادونه وحاجتهم إلى ملوك أودغست ماسّة من أجل الملح الخارج اليهم من ناحية [بلاد] الإسلام ، فإنه لا قوام لهم إلاّ به ، وربما بلغ حمل الملح في دواخل السودان وأقاصيه ما بين مائتين إلى ثلاثمائة دينار .

البكـــري

أودغست ، مدينة كبيرة آهلة رملية يطل عليها جبل كبير موت لا ينبت شيئا بها جامع ومساجد كثيرة آهلة في جميعها المعلّمون للقرآن ، وحولها بساتين النخيل ويزرع فيها القمح

بالفؤس ويسقى بالدلاء ، يأكله ملوكهم وأهل اليسار منهم . وسائر أهلها يأكلون الذرة والمقاثي تجود عندهم وبها شجيرات تين يسيرة ودوال يسيرة أيضا . وبها جنان حنّاء لها غلة كبيرة وبها آبار عذبة . والغنم والبقر أكثر شيء عندهم يشترى بالمثقال الواحد عشرة أكباش وأكثر. وعسلها أيضا كثير يأتيها من بلاد السودان.وهم أرباب نعم جزلة وأموال جليلة. وسوقها عامرة الدهر كله لا يسمع الرجل فيها كلام جليسه لكثرة جمعه وضوضاء اهله وتبايعهم بالتبر وليست عندهم فضة . وبها مبان حسنه ومنازل رفيعة . وهو بلد ألوان أهله مصفرة وأمراضهم الحميات والطحال ، لا يكاد يخلو من احدى العلتين أحد منهم . ويجلب اليها القمح والتمر والزبيب من بلاد الاسلام على بعد وسعر القمح عندهم في أكثر الأوقات ، القنطار بستة مثاقيل ، وكذلك التمر والزبيب.وسكانها من أهل افريقية وبرّ فرجانة ونفوسة ولواته وزناتة ونفزاوة ، هؤلاء أكثرهم ، وبها نبذ من سائر الأمصار. وبها سودانيات طبّاخات محسنات تباع الواحدة منهن بمائة مثقال وأكثر ، تحسن عمل الاطعمة الطيبة من الجوز ينفات والقطايف وأصناف الحلوات وغير ذلك . وبها جوار حسان الوجوه بيض الألوان منثنيات القدود ، لا تنكسر لهن نهود ، لطاف الخصور ضخام الأرداف ، واسعات الأكتاف ضيقة الفروج المستمتع باحداهن كأنه يتمتع ببكر أبدا . قال محمد بن يوسف : اخبرني أبو بكر احمد بن خلوف الفاسي ، قال اخبرني أبو رستم النفوسي ، وكان من تجار أودغست ، انه رأى منهن امرأة راقدة على جنبها - وكذا يفعلن في أكثر حالهن اشفاقا من الجلوس على أردافهن - ورأى ولدها طفلا يداعبها فيدخل تحت خصرها وينفذ من الجهة الأخرى من غير أن تتجافى له شيئا لعظم ردفها ولطف خصرها . والحيوان الذي تعمل منه الدّرق حول أودغست كثير جدا . ويتجهز الى أودغست بالنحاس المصنوع وبثياب مصبغة بالحمرة والزرقة مجنحة . ويجلب منها العنبر المخلوف الجيد لقرب البحر المحيط منهم ، والذهب الابريز الخالص خيوطا مفتولة . وذهب أودغست أجود من ذهب الأرض كلها وأصحّه . وكان صاحب أودغست في عشر الخمسين وثلاثمائة تين يروتان بن ويستون بن نزار ، رجل من صنهاجة . وكان قد دان له أزيد من عشرين ملكا من ملوك السودان كلهم يؤدي اليه الجزية وكان عمله مسيرة شهرين في مثلها في عمارة يعتدي في مائة ألف نجيب . واستمدهُ نعرين ملك ماسين على ملك اوغام فأمدّه بخمسين ألف نجيب فدخلت بلد أوغام وعساكره غافلة فغنمت البلد وأحرقته . فلما نظر أوغام الى ما حل ببلده هان عليه الموت فرمى بدرقته وثنى رجله على دابته وجلس عليها فقتلته أصحاب تين يروتان . فلما عاين نساء أوغام اليه قتيلا تردين في الابار وقتلن انفسهن بضروب القتل ، أسفا عليه وأنفة من أن يملكهن البيضان .

الادريسـي

وفي هذا الجزء أيضا قطعة من شمال أرض غانة وفيها مدينة أودغست . وهي مدينة صغيرة في صحراء ماؤها قليل . وهي في ذاتها بين جبلين ، شبه مكة في الصفة . وعامرها قليل وليس بها كبار تجار ، ولاهلها جمال ومنها يتعيشون . ومنها الى مدينة غانة مرحلة . وكذلك من أودغست الى ورجلان مرحلة . ومن أودغست الى جَرْمَة (1) أيضا مرحلة . وكذلك من أودغست الى جزيرة أوليل ، معدن الملح ، شهر واحد . وأخبرني بعض الثقات من متجولي بلاد السودان أن مدينة أودغست ينبت بأرضها بقرب منابع المياه المتصلة بها كمأه يكون في وزن الكمأة منها ثلاثة أرطال وازيد . وهو يجلب ألى أودغست كثيرا يطبخونه مع لحوم الجمال ويأكلونة ، ويزعمون أنه ما في الارض مثله ، وقد صدقوا .

يـاقـوت

أودغست بعد ما أورد ماذكره ابـن حـوقـل ، أضاف قائلا انها تقع :

في رمال ومفاوز على مياه معروفة ، وفي بعضهابيوت البربر ، وبها أسواق جليلة . وهي مصر من الامصار الجليلة ، والسفر اليها متصل من كل بلد ، وأهلها مسلمون يقرءون القرءان ويتفهمونه ، ولهم مساجد وجماعات أسلموا على يد المهدي عبيد الله وكانوا كفارا يعظمون الشمس ويأكلون الميتة والدم . وأمطارهم في الصيف ، يزرعون عليها القمح والدّخن والذرة واللوبيا ، والنخل في بلدهم كثير . وفي شرقيهم بلاد السودان ، وفي غربيهم البحر المحيط ، وفي شمالهم الى الغرب بلاد سجلماسة . وفي جنوبيهم بلاد السودان .

ابـن سعيـد

وليس في هذا الجزء مدينة مذكورة غير أودغست . وسكانها أخلاط من البربر المسلمين ، والرئاسة لصهاجة . ولهذه المدينة وصاحبها نباهة في كتاب المسالك والممالك للبكري . وهي مع خط الاقليم الثاني حيث الطول اثنتان وعشرون درجة . وفي عرضها مدينة زافون ، وهي لسودان كفار . ولصاحبها بيت بين بيوت ملوك السّودان . ويمتد في هذه الصحاري

(1) كذا في الأصل . والصحيح بالجيم المعجمة وبفتحها ، إسم قصبة بناحية فزان وصفها البكري بأنها «مدينة فزان العظمى . افتتحها عقبة ابن نافع الفهري ، ضمن ما افتتحه من قصور فزان وودان ، وفرض على ملكها ضريبة كبيرة» . راجع معجم البلدان (129/2) ؛ البكري (ص 3) ؛ الادريسي (ص 35) .

جبل الكاف من شرقي لمتونة الى أن يسامت أودغست ، ثم يعرج الى الجنوب ، فيبقي بينه وبين زافون خمس مراحل .

القلقشنــدي

أوْدَغُسْت . قال الشيخ عبد الواحد : بفتح الهمزة وسكون الواو وفتح الدال المهملة والغير المعجمة وسكون السّين المهملة . وهي مدينة في المغرب الأقصى في الجنوب في الصحراء في الاقليم الثاني . قال في «الأطوال» : حيث الطول ثمان درجات وثمان دقائق . قال في «القانون» : والعرض ست وعشرون درجة . قال وهي في براري سودان المغرب . قال «العزيزي» : وهي جنوبي سجلماسة ، وبينهما ست وأربعون مرحلة في رمال ومفاوز على مياه معروفة ، ولها أسواق جليلة . والسفن تصل اليها في البحر المحيط من كل بلد . وسكان هذه المدينة اخلاط من البربر المسلمين والرئاسة فيها لصنهاجة قال «العزيزي» : ولاودغست أعمال واسعة ، وهي شديدة الحرارة ، وأمطارها في الصيف ، ويزرعون عليها الحنطة والذرة والدّخن واللوبيا . وبها النخل الكثير ، وليس فيها فاكهة سوى التين ، وبها شجر الحجازكلّه ، من السّنْطِ والمُقْل وغيرهما .

*
* *

دَرْعَــــة (1)

الْهَمَــذَانِـــي

وَبِيَدِ الْخارجيّ الصُّفْرِي مدينة كبيرة تدعى درعة فيها معدن الفضة ، وهي مما يلي الحبشة من ناحية الجنوب .

المقــدّســي

درعة لها رستاق واسع ومنائر على نهر جرار نحو ستة أيام ، وعريش رستاق فيه منائر ، وسائر المدن محيطه بها في الرمال عامرات . ومعادن الفضة بتازْرَرْت ، ومعدن الذهب بين هذه الكرة وبلد السودان ، وليس في العالم أصفى ولا أوسع منه . والطرق الى الكورة صعبة ، لانه في مفاوزموحشة ذات رمال .

البكـــري

مدينة درعة يقال لها تيومتين ، وهي قاعدة درعة . وقد تقدم ذكر وادي درعة وأن منبعه من جبل درن . وهذه المدينة آهلة عامرة ، بها جامع وأسواق جامعة ومتاجر رابحة .

---

(1) ينطق بها اليوم : درا ، وتكتب على الخرائط الأروبية Dara . مقاطعة كبيرة خصبة وراء جبال الأطلس ، في شرقي اقليم السوس ، وتمتد من شرقه إلى الجنوب حتى تتصل بالمحيط الاطلسي . وتفصل بينه وبين إقليم السوس ، سلسلة جبال الأطلس الخارجية Anti Atlas . وفي هذه المنطقة ينتشر عدد من المدن الصغيرة ، أكبرها ورزازات وسكان هذه المقاطعة خليط من العرب وبربر صنهاجة . وهذا الإقليم ، هو الوطن الأصلي لدولة السعديين (راجع : التعريف بابن خلدون) تحقيق محمد بن تاويت الطنجي . ص 223 ، تعليق 4 ، العبر 362/6 ؛ الاستقصا 2/3) ؛ وابن فضل الله العمري ، مسالك الأبصار ، (مخطوط محفوظ في مكتبة البودليان ، ورقة 127) .

وهي في شرف من الارض ، والنهر منها بقلبيها وجريته من الشرق الى الغرب ، ويهبط لها من ربوة حمراء . وكان صاحبها ، علي بن أحمد بن ادريس بن يحي ابن ادريس . فمن مدينة تيومتين الى تامجاثت مرحلة وأربع وعشرون دقيقة . ونهرها المشهور في غربيها ينزل من رُبَى حُمْر عند جبل دَرْن ، وهو مسيرة سبعة أيام في عمائر متّصلة . وأكثر ما ينبت عليه الحناء التي تحمل الى الأقطار المغربية ، الى أن يغوص ما يفضل منه في الصّحراء الاقليم الثاني . وفي شرقي درعة ، سجلماسة .

أبـــو الفـــدا

دَرْعَة ، بفتح الدال وسكون الراء وفتح العين المهملة . قال ابن سعيد : ولدرعة نهر مشهور يجري في غربيها ينزل من ربوة (الخ : النص الوارد أعلاه) . ومن كتاب الشريف الادريسي : وعند طرف المغرب الأقصى (الخ : النص المنقول أعلاه) .

القلقشنـــدي

دَرْعَة . . هي آخر مدينة من جنوبي المغرب الأقصى واقعة في الاقليم الثاني . نقل في «تقويم البلدان» عن بعضهم أن طولها احدى عشرة درجة وست دقائق وعرضها خمس وعشرون درجة وعشر دقائق . قال في « نزهة المشتاق » : وهي قرًى متصلة (الخ : النص المنقول أعلاه عن الادريسي) .

الادريســـي

ودرعة ليست بمدينة يحوطها سور ولا حفير ، وانما هي قرى متصلة ، وعمارات متقاربة ، ومزارع كثيرة يتناول ذلك فيها جمل وأخلاط من البربر . وهي على نهر سجلماسة النازل اليهم . وعليه يزرعون غلات الحنّا والكمون والكروية والنيلج ، ونبات الحنّاء يكبر فيها حتى يكون في قوام الشجرة يصعدون اليها ومنها يؤخذ بذرة ويتجهز به الى كل الجهات . ونبات الحناء ، لا يؤخذ بذره الا في هذا الاقليم فقط ، ولا يؤخذ بغيره من الأقاليم البتة . وأما النيلج المزروع في درعة ، فليس طيبه هناك ، ولكنه يتصرف فيه في بلاد الغرب لرخصه ،

يـــاقـــوت

دَرعة ، مدينة صغيرة بالمغرب من جانب الغرب ، بينها وبين سجلماسة اربع فراسخ ،

ودرعة غربيها . اكثر بجارها من اليهود ، واكثر تمرتها القصب اليابس جدّا ، ينسحق اذا دقّ. ينسب اليها أبوزيد ، نصربن علي بن محمد الدَّرعي ، سمع عن سعد بن علي بن محمد الزنجاني بمكة . ومنها أيضا أبوالحسن الدرعي الفقيه (1) .

ابـــن سعيـــد

وفي غربيه [نهر درعة] على مرحلتين مدينة درعة ، وهي [......] حيث الطول احدى عشرة درجة وست دقائق ، والعرض خمس وعشرون درجة .

*
* *

(1) وممن ينتسبون إلى درعة أيضا أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي (1069 — 1129 هـ) . صاحب الرحلة الناصرية . سجل فيها مشاهداته أثناء رحلته إلى الحج في سنة 1121 هـ . (طبع) انظر شجرة النور ص 332 ، معجم سركيس 872/1 ، ومحمد بن محمد بن ناصر (1011 — 1085 هـ .) فقيه كانت له زاوية وله عدة كتب لا تزال مخطوطة في الفقه . انظر شجرة النور ص 113 .

سِجِلْمَاسَة (1)

اليعقـوبـي

وسجلماسة على نهر يقال له زِيز ليس بها عين ولا بئر. وبينها وبين البحر عدة مراحل . وأهل سجلماسة اخلاط والغالبون عليهم البربر ، واكثرهم صنهاجة وزرعهم الدخن والذرة . وزرعهم على الأمطار لقلة المياه عندهم . فإن لم يمطروا لم يكن لهم زرع . ومن (أراضي)

---

(1) قامت سجلماسة على أنقاض مدينة رومانية تقع على مسيرة نحو 100 ميل في الجنوب الشرقي لمدينة فاس على تخوم الصحراء وعلى الضفة اليسرى «لوادي زيز . وموقعها على خط طول 7 31 غربا ، وعرض 34 80 شمالا . وقد كانت عناصر من مكناسة هي التي شيدتها واستقلت بها ، في سنة 140 هـ . (757 — 758 م) . ومنذ سنة 155 هـ خضعت سجلماسة لسلطان بني مدرار الذين بلغوا أوج عزهم في عهد محمد بن الفاتح بن ميمون الملقب بالشاكر لله وقد كان شينيي Chenier أول من تعرف على سجلماسة في تافيلالت وتبعه في ذلك وولكر walker وكولي Cooley وكان من بين القرائن التي استرشد بها العلماء الثلاثة في هذا الاستكشاف ، ما لاحظوا من أن الحسن بن محمد الوزان ، ذكر مكان سجلماسة ، تافيلالت . وبعدما استولى جوهر الصقلي على سجلماسة وأسر أميرها الشاكر لله وأخضعها للعبديين ، استرد بنو مدرار المدينة في زمن لاحق وظلت تحت حكمهم حتى سقطت في يد فلفل بن خزرون المغراوي في سنة 366 هـ . وقد حكمها باسم الأمويين أصحاب قرطبة .

وقد ظلت سجلماسة عاصمة من العواصم الإسلامية الجميلة عدة قرون ووصفها إبن بطوطة الذي زارها في سنة 772 هـ ، بأنها من أجمل المدن . ولكن الحسن بن محمد الوزان الذي زار تافيلات في الشطر الأول من القرن السادس عشر قال . ان أهلها شاروا على واليهم وقتلوه ، فدُمِّرت المدينة تدميراً وَفَرَّ أهلها إلى الريف وإلى القصور . التجارية التي تربط بلاد المغرب بأرض السودان ، وكذلك راجع إلى جانب المصادر المذكورة : المسعودي ، مروج Gerhard Rohlfs, Reisen Durch Marrokko ; Mercier (E) Siejilmasa, selon les auteurs Arabes (R.A., 1868) ; Marçais (G), les Arabes en Berberie ; Jaques Meunie, Architecture et habitant de Bades ; Delfous, Histoire du Sahara, (Hespirés), 1930.

وابن فضل الله العمري ، مسالك الأبصار (مخطوط محفوظ في مكتبة البودليان ، ورقة 127) وإبن زمبيل ، تحفة الملوك

مدينة سجلماسة ، قرى تعرف ببني درعة. وفيها مدينة ليست بالكبيرة ، تامدلت . ليحيي بن ادريس العلوي ، عليها حصن . وحولها معادن ذهب وفضة يوجد كالنبات ، ويقال ان الرياح تسفيه .

المسعـــــودي

. . .وقصة أرض الذهب الذي وراء سجلماسة من أرض المغرب والأمة التي هناك من وراء النهر العظيم ومبايعتهم من غير مشاهدتهم ولا مخاطبتهم وتركهم المتاع وغدو الناس الى امتعتهم فيجدون أعمدة الذهب قد تركت الى جنب كل متاع من تلك الامتعة . فان شاء مالك المتاع اراد الزيادة ترك الذهب والمتاع . وهذا مشهور بأرض المغرب وببلاد سجلماسة . ومنها تحمل التجار الأمتعة الى ساحل هذا النهروهو نهر عظيم واسع المـــاء .

البكـــرى

ومدينة سجلماسة بنيت سنة اربعين ومائة . وبعمارتها خلت مدينة ترغه ، وبينهما يومان وبعمارتها خلت زيز أيضا . ومدينة سجلماسة مدينة سهلية أرضها سبخة حولهـا أرباض كثيرة ، وفيها دور رفيعة ومبان سرية ولها بساتين كثيره ، وسورها أسفله مبني بالحجاره ، وأعلاه بالطوب بناه اليسع أبو منصور بن أبي القاسم من ماله لم يشركه في ا لانفاق عليه أحد . أنفق فيه ألف مدى طعام ، وله أثناعشر بابا،الثمانية منها حديد . وكان بناء اليسع له سنـــة تسع وتسعين ومائة ، وأرتحل اليها سنـــة مائتين وقسمها على القبائل على ما هي عليه اليوم . وهم يلتزمون النقاب ، فاذا حسر أحدهم عن وجهه لم يميزه أحد من أهله . وهي على نهرين عنصرهما من موضع يقال له أجلف تمده عيون كثيرة . فاذا قرب من سجلماسة تشعب نهرين يسلك شرقيها وغربيها . وجامعها متقن البناء ، بناه اليسع فاجاد . وحماماتها رديئة البناء غير محكمة العمل . وماؤها زعاق وكذلك جميع ماينبط من ماء بسجلماسة . وشرب زرعهم من نهر في حياض كحياض البساتين . وهي كثيرة النخل والاعناب وجميع الفواكه . وزبيب عنبها المعرش الذي لا تناله الشمس لا يزبب الا في الظل ويعرفونه بالمظلي . وما أصابته الشمس منه زبب في الشمس . ومدينة سجلماسة في أول الصحراء لايعرف في غربيها ولا قبليها عمران . وليس بسجلماسة ذباب ولا يتجذم أحد من أهلها . وإذا دخلها مجذم توقفت عنه علته . وأهل سجلماسة يسمنون الكلاب

ويأكلونها ، كما يصنع أهل مدينة قفصة وقسطيلية . ويأكلون الزرع إذا خرج شطاه ، وهو عندهم مستطرف . والمجذمون عندهم هم الكنافون . والبناءون عندهم يهود لا تتجاوزهم هذه الصناعة . ومن مدينة سجلماسة تدخل الى بلاد السودان والى غانه وبينها وبين غانه مسيرةشهرين في صحراء غير عامرة الابقوم ضاعنين ولانطمئن بهم منزل ، وهو بنو مسوفة من صنهاجة ، ليس لهم مدينة يأوون اليها الا وادِي دَرْعَة . وبين سجلماسة ووادي درعة على خمسة أيام . وملك بنو مدرار سجلماسة مائة وستين سنة ، وكان فيها أبو القاسم سمجو ابن واسول المكناسي أبو اليسع المذكور. وجد مدرار لقي بافريقية عكرمة مولى بن عباس وسمع منه. وكان صاحب ماشية وكثيرا ماينتجع موضع سجلماسة ، فجمع اليه قوم من الصفرية ، فلما بلغوا اربعين رجلا قدموا على انفسهم عيسى بن يزيد الاسود وولوه امرهم فشرعوا في بنيان سجلماسة ، وذلك سنة أربعين ومائة . وذكر آخرون ان مدرار كان حدادا من ربضية الاندلس، فخرج عند وقعة الربض . فنزل منزلا بقرب سجلماسة اذ ذاك براح يجتمع فيه البربر وقتا ما من السنة يتسوقون لقرب . فكان مدرار (1) يحضر سوقهم بما يعدّه من آلات الحديد ، ثم ابتنى بها خيمة وسكنها وسكن البربر حوله ، فكان ذلك أصل عمارتّها ، ثم تمدّنت و(القول) الأول أصحّ في عمارتّها . وأما مدرار ، فلا شك في أنه كان حدادا ، لأن ولده القائمين بأمر سجلماسة قد هجوا بذلك . فأول من وليها عيسى بن مزيد ثم انكر أصحابه الصّفرية عليه أشياء ، فقال أبو الخطاب يوما في مجلس عيسى : السّودان كلهم سراق وحتى هذا ، وأشار الى عيسى ، فأخذوه وشدّوه وثاقا الى شجرةفي رأس جبل وتركوه كذلك حتي قتله البعوض ، ويسمي ذلك الجبل جبل عيسى الى اليـــــوم .

---

(1) مدرار بن يسع بن أبي القاسم سمكو بن واسول المكناسي البربري ، مات سنة 220 هـ (835 م) . جد أسرة أمراء بني مدرار ، وهم من الخوارج الصفرية ، استمرت دولتهم مائتين وتسعة أعوام . كان أبو القاسم بن سمكو أول من تولى الامارة منهم ، وأعقبه الياس بن أبي القسم الذي بويع بالامارة بعد أبيه ثم جاء بعده اليسع (الأول) ، ثم تولى الامارة بعده مدرار بن اليسع ، ثم ميمون (الامير) بن مدرار بن اليسع ، ثم بويع بعده اليسع (الثاني) بن ميمون ثم الفتح (واسول) ثم أحمد بن ميمون بن مدرار ثم المعتز بن محمد ثم محمد الذي يعرف بأبي المنتصر ثم المنتصر (سمكو) ثم محمد بن الفتح بن ميمون ثم المنتصر با لله ، ثم أبو محمد ، وهو أخو « المنتصر بالله » تولى الامر بعد قتل أخيه (سنة 452 هـ .) وتلقب بالمعتز بالله وأطاعته قبائل مكناسة وأقام بسجلماسة الى ان هاجمه خزرون بن فلفل . من رؤساء مغراوه ، ونشب قتال بين الطرفين أسفر عن هزيمة المعتز بالله (سنة 366) وقطع خرزون رأسه وبعث به الى قرطبة . وبذلك أنتهت دولة بني مدرار. راجع ، البيان (107/1 ، 153 ، 154 ، 156 ، 157) ، العبر (130/6 - 133) ، لاستقصا (الطبعة الثانية 111/1 - 114 و181 و182 و10/2 ، الكامل (8/6 و508 و49/8) .

ثم ولوا أبا القاسم سمغون مزلان بن نزول المكناسي ، لم يزل واليا عليهم الى أن مات فجأة في آخر سجدة صلاه العشاء سنة ثمان وستين ، فكانت ولايته ثلاث عشرة سنة .

ويمضي البكري في ذكر قائمة الأمراء الذين حكموا سجلماسة حتى سنة 347 هـ . ثم يعود الى وصف المدينة نفسها فيقول :

ويزرع بأرض سجلماسة عاما ويحصد من تلك الزريعة ثلاثة أعوام ، لأنّه بلد مفرط الحرّشديد القيظ . فاذا يبس زرعهم تناثر عند الحصاد . وارضهم متشققة فيرتفع ما تناثر منه في تلك الشقوق . فاذا كان في العام الثاني حرث بلا بذر . وكذلك في العام الثالث . وقمحهم رقيق صيني ، يسع مدّ النبي صلى الله عليه وسلم خمسة وسبعين حبة . ومدّهم اثنا عشر قنقلا . والقنقل ثماني زلافات . والزلافة ثمانية أمْدَاد بمد النبي . ومن الغرائب عندهم أن الذهب جزاف عدد بلا وزن والكرات يتبايعونه وزنا لا عددا . ومن سجلماسة الى مدينة القيروان ست وأربعون مرحلـــة .

ابن حوقل

. . . وكذلك قوم من أهل سجلماسة ، وبلدهم بلد مستقل بنفسه عن الحاجة الى ما في غيره . وفيهم جمال بارع وشدة وبأس وصبر على (. . .) والمراس . وكنت الفيت محمد بن الفتح المعروف بالشاكر لله ، يدعو الى غزوهم في سنـــة أربعين وثلاثمائة وأظنه هلك ولم يبلغ منهم محابَّة لقلة اجابة من كان يدعوه الى غزوهم من البربر وخوفهم من أطراد حيلة لمحمد بن الفتح الشاكر لله عليهم في ذلك .

وفي مكان آخر يقول :

وسجلماسة مدينة حسنة الموضع جليلة الاهل فاخرة العمل على نهر يزيد في الصيف كزيادة النيل في وقت كون الشمس في الجوزاء والسرطان والاسد ، فَيُزْرَع بمائة حسب زروع مصر في الفلاحة . وربما زرعوا سنـــة بذر وحصدوا ماضاع من زرعه وتواترت السنون بالمياه . فكلما أنحدقت تلك الارض سنة في عَقِب أخرى ، حصدوه الى سبع سنين ، بسنبل لا يشبه سنبل الحنطة ولا الشعير ، بحبٍ صلب المكسر لذيذ الطعم . وخلقه مابين القمح والشعير . ولها نخيل وبساتين حسنة وأجنة . ولهم رطب أخضر من السلق في غاية الحلاوة . وأهلها قوم سراة مياسير يباينون أهل المغرب في المنظر والمخبر ، مع علم

وستر وصيانة وجمال واستعمال للمروءة وسماحة ورجاحة وأبنيتها كابنية المكوفة الى أبواب رفيعة على قصورها مشيدة عالية .

وفي مكان آخر يقول :

ويقارب القيروان سجلماسة في صحة الهواء ومجاورة البيداء .

مع تجارة غير منقطعة منها الى بلد السودان وسائر البلدان وارباح متوافرة ورفاق متقاطرة ، وسيادة في الافعال وحسن كمال في الاخلاق والاعمال يخرجون برسومهم عن دقة أهل المغرب في معاملتهم وعاداتهم الى عمل بالظاهر كثير ، وتقدم في أفعال الخير شهير وحنو بعض على بعض من جهة المروءة والفتوة ، وان كانت بينهم الجنات والترات القديمة تواضعوها عند الحاجة وأطرحوها رياسة وسماحة وكرم سجية تختصهم ، وأدب نفوس وقف عليهم بكثرة أسفارهم وطول تغربهم عن ديارهم وتعزبهم من أوطانهم .ودخلتها في سنة أربعين فلم أر بالمغرب أكثر مشائخ في حسن سمت وممازحة للعلم وأهله الى سعة نفوس عالية وهــمم سامقة سامية وسائر أرباب المدن دونهم في اليسار وسعة الحال . وتتقارب بالعصبية بالعصبية أوصافهم وتتشاكل أحوالهم . ولقد رأيت بأودغست صكا فه ذكر حق لبعضهم على رجل من تجار أودغست ، وهو من تجار سجلماسة باثنين وأربعين ألف دينار ، ومارأيت وما سمعت بالمشرق لهذه الحكاية شبها ولا نظيراً . ولقد حكيتها بالعراق وفارس وخراسان ، فاستطرفت .

ولم يزل ، المعتز ، أيام ولايتها ، وهو أميرها ، يجتبيها من قوافل خارجه الى بلد السودان وعشر وخراج وقوانين قديمة ، على ما يباع ويشترى بها من ابل وغنم وبقر الى ما يخرج عنها ويدخلها من نواحي افريقية وفاس والاندلس والسوس وأغمات الى غير ذلك مما على دار الضرب والسكة ، زهاء أربعمائة ألف دينار تختص بها وبعملها . وقد ذكرت ان أرتفاع المغرب من أوله الى آخره من ثمانمائة ألف دينار الى مازاد على ذلك بيسير . وربما نقص الكثير . وجباية سجلماسة تخص بها وبعملها .

الادريســـي

وأما مدينة سجلماسة ، فمدينة كبيرة كثيرة العامر . وهي مقصد للوارد والصادر ، كثيرة الخضر والجنات ، رائقة البقاع والجهات ولا حصن عليها ، وانما هي قصور وديار وعمارات متصلة على نهر لها كثير الماء ، يأتي اليها من جهة المشرق من الصحراء يزيد في

الصيف ، كزيادة النيل سواء . ويزدرع بمائه حسبما يزرع فلاحوا مصر . ولزراعته اصابة كثيرة معلومة . وفي بعض الأعوام الكثيرة المياه المتواترة بخروج هذا النهر ، ينبت لهم ما حصدوه في العام السابق من غير بذر . وفي الأكثر من السنين ، إذا فاض النهر ثم رجع بذروا على تلك الاراضين زرعهم ثم حصدوه عند تناهيه وتركوا جذوره الى العام القادم ، فينبت ذلك من غير حاجة الى بذر زراعة . وحكى الحوقلي (ابن حوقل) أن البذر بها يكون عاما والحصاد فيه في كل سنة الى تمام سبع سنين ، لكن تلك الحنطة التي تنبت من غير بذر تتغير عن حالها حتى تكون بين الحنطة والشعير . وتسمى هذه الحنطة «يِرْدَن تِيزْوَاوْ» . وبها نخل كثير وانواع من التمر لا يشبه بعضها بعضا . وفيها الرطب المسمى بالبَرْني ، وهي خضراء جدا وحلاوتها تفوق كل حلاوة ، ونواها صغار في غاية الصغر . ولا هل هذه المدينة غلات القطن وغلات الكمون والكروياء والحناء . ويتجهز منها الى سائر بلاد المغرب وغيرها . وبناآتها حسنة ، غير أن المخالفين في زمننا هذا أتوا على أكثرها هدما وحرقا . وأهل سجلماسة يأكلون الكلاب والحيوان المسمَّى الجِرْذُون ، ويسمّونه بلسان البربر ، أقزيم . ونساؤهم يستعملنه في السمن وخصب البدن . ولذلك فهن في نهاية السمن وكثرة اللحم ، وقل ما يوجد من أهلها صحيح العينن ، بل أكثرهم عُمش . ومن مدينة سجلماسة الى مدينة اغمات وريكه نحو من مراحل .

ابن سعيد

وفي شرقي درعة ، سجلماسة ، وهي قاعدة ولاية شهيرة ، حيث الطول ثلاث عشرة درجة وعشرون دقيقة ، والعرض ست وعشرون درجة وأربع وعشرون دقيقة . ونهرها يأتي من الجنوب والشرق ، ومنبعه من جبل ارزو الكثير الحيات ومن عيونه . وينقسم منها على قسمين ثم يجتمع القسمان ويتصلان على غربيها وشرقيها . ولها ثمانية أبواب من حيثما خرجت منها ترى النهر والنخيل وغير ذلك من الشجر . وينصب هذا النهر في نهر زِيز الذي يمشي معه ومع نهر سجلماسة واليها خمسة أيام في العمائر والخيّرات ثم ينصبُّ نهر زيز في نهر ملوية الذي ينصب في بحر الرومان . ويتصل بجبل أرزو جبال صنهاجة ، وهي كثيرة ملتحمة ومتعرجة . وهذا القبيل أكثر قبائل المغرب . وفي كل أرض منهم خلق ، ويذكرون أن أصلهم من عرب اليمن والعروبة بينهم ظاهرة . وبين جبالهم قاعدتهم مدينة تاكلا، حيث الطول اثنتا عشرة درجة والعرض ثلاثون درجة .

أبـــو الفـــدا

وعنه (ابن سعيد) وسجلماسة في شرقي دَرْعَة (الى آخر الفقرة أعلاه) . وهي مدينة تلي الصحراء الفاصلة بين بلاد المغرب وبلاد السودان ، وليس في جنوبيها ولا غربيها عمارة . قال ابن سعيد : وأهلها يسمنون الكلاب ويأكلونها . وأرضها سبخة سهلة .

يـــاقـــوت

سِجِلْمَاسَة ، بكسر أوله وثانيه وسكون اللام ، وبعد الألف سين مهملة . مدينة في جنوب المغرب في طرف بلاد السودان ، بينها وبين فاس عشرة أيام تلقاء الجنوب وهي في منقطعِ جبل دَرَن . وهي في وسط رمال كرمال زَرُود . ويتصل بها من شماليها جَدَدٌ من الارض ، يمر بها نهر كبير يخاض ، غرسوا عليه بساتين ونخيلا مدّ البصر . وعلى اربعة فراسخ منها رستاق يقال له تيومتين على نهرها الجاري فيه من الأعناب الشديدة الحلاوة ما لا يحد . وفيه ستة عشر صنفا من التمر ما بين عجوة ودقل . واكثر أقوات أهل سجلماسة من التمر وغلتهم قليلة . ولنسائهم يد في صناعة غزل الصوف فهن يعملن منه كل حسن عجيب بديع من الازر تفوق القصب الذي بمصر ، يبلغ ثمن الازار خمسة وثلاثين دينارا اكثر ، كارفع ما يكون القصب الذي بمصر ويعملون منه غفارات يبلغ ثمنها مثل ذلك ويصبغونها بأنواع الاصباغ . وبين سجلماسة ودرعة اربعة أيام . وأهل هذه المدينة من اغنى الناس وأكثرهم مالا ، لانها على طريق من يريد غانه التي هي معدن الذهب .

القلقشنـــدي

سجلماسة مدينة في جنوب الغرب الأقصى في آخر الاقليم الثاني من الأقاليم السبعة . قال ابن سعيد : حيث الطول ثلاث عشرة درجة واثنتان وعشرون دقيقة والعرض ست وعشرون درجة واربع وعشرون دقيقة .

وهي مدينة عظيمة إسلامية ، وبينها وبين البحر الرومي خمس عشرة مرحلة وليس قبليها ولا غربيها عمران . وبينها وبين غانه من بلاد السودان مسيرة شهرين في رمال وجبال قليلة المياه لا يدخلها الا الابل المسيرة على العطش ، اختطها يزيد بن الأسود ، من موالي العرب ، وقيل مِدْرار بن عبد الله . وكان من أهل الحديث ، يقال انه لقي عكرمة مولى

ابن عباس بافريقية وسمع منه . وكان صاحب ماشية (ويمضي فيذكر معظم رواية البكري دون أن يشير اليه ثم يقول) :

وقد حكى ابن سعيد : أن هذا الزرع في السنة الأولى يكون قمحا وفي باقي السنين سُلْتًا ، وهو حب من القمح والشعير. وبها الرطب والتمر والعنب الكثير والفواكه الجمة . وليس فيها ذئاب ولا كلاب ، لأنهم يسمنونها ويأكلونها ، وقلما يوجد فيها صحيح العينين ولا يوجد فيها مجذوم . ولها ثمانية أبواب من أي باب منها خرجت ، ترى النهر والنخيل وغير ذلك من الشجر وعليها وعلى جميع بساتين حائط يمنع غارة العرب مساحته أربعون ميلا . وثمرها يفضل تمر بلاد المغرب ، حتى يقال انه يضاهي التمر العراقي . وأهلها مياسير ، ولها متاجر الى بلاد السودان ، يخرجون اليها بالملح والنحاس والودع ويرجعون منها بالذهب التبر . قال ابن سعيد (كذا)(1) رأيت صكاً لأحدهم على آخر مبلغه أربعون ألف دينار. ولما قدموا عليهم عيسى بن الأسود المتقدّم ذكره ، أقام عليهم أياما ثم قتلوه سنة خمس وخمسين ومائة واجتمعوا بعده على كبيرهم (أبي القاسم بن سمكو) بن واسول بن مصلان بن أبي يزول بن تافرسين بن فراديس بن ونيف بن مكناس بن ورصطف بن يحيى بن مصيت بن فريس بن رجيك بن مادغش بن بربر. كان أبوه سمكو من أهل العلم ، ارتحل الى المدينة المنورة ، فأدرك التابعين وأخذ عن عكرمة مولى ابن عباس ومات فجأة سنة سبع وستين ومائة لا ثنتى عشرة سنة من ولايته ولما مات ولى مكانه ابنه اليسع بن أبي القاسم .

ولما مات ولي مكانه أخوه اليسع بن أبي القاسم ، وكنيته أبو منصور ، فبني صور سجلماسة وشيد بنيانها وأختط بها المصانع والقصور لاربع وثلاثين سنة من ولايته . وعلى عهده أستفحل ملكهم بسجلماسة وسكنها آخر المائة الثانية بعد أن كان يسكن الصحراء ، وهلك سنة ثمان ومائتين .

وولي بعده ابنه ، مدرار ، ولقب المنتصر وطال أمد ولايته ، وكان له ولدان اسم كل منهما ميمون ، فوقعت الحرب بينهما ثلاث سنوات ، ثم كان آخر أمرهما أن غلب أحدهما أخاه وأخرجه من سجلماسة ، ثم خلع أباه وأستقل بالأمر ، فساءت سيرته في الرعية ، فخلعوه وأعادوا مدرارا أباه . ثم حدث نفسه باعادة ابنه ميمون المخلوع ، فخلعوه وولوا

---

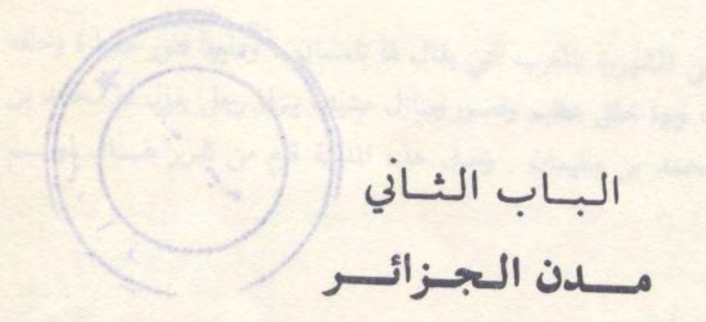
(1) غلط القلقشندي حول رقم الصك أولا ، فهو إثنان وأربعون ألف دينار ، ثم غلط في عزوه هذا الكلام إلى ابن سعيد لأن ابن حوقل هو الذي سجل هذه الحكاية . راجع أعلاه ص 118 .

ابنه ميمونا ا لاخر ، وكان يعرف بالامير . ومات مدرارا اثر ذلك سنة ثلاثة وخمسين ومائتين ، .

وولي مكانه محمد ، الى أن توفي سنة سبعين ومائتين . فولي اليسع بن المنتصر . وفي أيامه وفد عبيد الله المهدي الفاطمي وابنه أبو القاسم على سجلماسة في خلافة المعتضد العباسي

*

* *



الباب الثاني

مدن الجزائر

تلمسان (1)

اليعقوبي

ثم الى المدينة العظمى المشهورة بالمغرب التي يقال لها تلمسان ، وعليها سور حجارة وخلفه سور آخر (من) حجارة ، وبها خلق عظيم وقصور ومنازل مشيدة ينزلها رجل يقال له محمد بن القاسم بن سليمان بن محمد بن سليمان . وحول هذه المدينة قوم من البربر يقال لهم مكناسة .

---

(1) راجع بشان عصور اخرى من تاريخ تلمسان : l'Abbe Barges, *Histoire des Bani Zeian, Rois de Tlemcen. T. I.* *Les Relations Commerciales de Tlemcen avec le Sudan sous le regne des B. Zeian* (Revue de l'Orient, 1853); ولنفس المؤلف *Complement a l'Histoise des B. Zeian de Tlemcen* Rosselard. *les inscriptions arabes de Tlemcen* (R.A., 1858-1861); (G. et W.) Marçais *les Monuments; arabes de telemcen*

إبن مريم ، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان ، تحقيق إبن شنب .

ولنفس المؤلف *un Atelier de Poterie et de Faience au Xe s. de J.C., decouvert a Tlemcen*, T.I. ; Bel (A) et Picard (P), *le Travail de la laine à Tlemcen ;*

Zerrouki (Moh.), *Tlemcen, la mystique* (*Algeria*, 1961) ; Marçais (G) *Tlemcen* (*Documents Algeriens*, 1947) ; و ولنفس المؤلف *le Makhzan des Bani Abd Alwad, Roi de Tlemcen* (Bult. de la Soc. Géogr. d'Oran, 1940) ; و لنفس المؤلف *Tlemcen, ville d'Art et d'Histoire* (R.A., 1936) ; Maniera (P), *la voie romaine de Pomaria* (*Tlemcen*) *a Siga* (*Takembrit*) (Bult. de la Soc. Géogr. d'Oran, 1924) Canal (J), *Contribution a l'histoire de Tlemcen* (Bult. de la Soc. Géogr. d'Oran, 1889) ; Vermonne (Ch.), *deux lettres inédites d'un roi de Tlemcen* (1531-1532) (R.A., 1955) ; Jacqueton (G), *l'Expedition d'A. Martinez.. Contre Tlemcen* (1535) (*R.A.*, 1892) ; Casuva (F) *Guerre de Tlemcen et conquête de cette ville par les Espagnols* (Bult. de la Soc. Geogr. d'Oran, 1890-94) ;(R.A., 1908) ;

le Cocq (A), l'*occupation de Tlemcen*, 1836 (R.A., 1936) ; ولنفس المؤلف *Note sur sources de l'Histore de Tlemcen* (4e Congrés de la Fédération des Sociétés savante de l'Afrique du Nord, Rabat, 1938) ; Coudray, Relations Commerciales de Tlemcen avec le Sahara (Bult. de la Soc. Géogr. d'Alger, 1897).

ابن خرداذبه

وفي يد ولد ادريس بن عبد الله بن حسن بن علي بن ابي طالب رحمة الله عليهـم ، تلمسين (كذا) . ومن تاهرت اليها مسيرة خمسة وعشرين يوما ، عمران كلها . وطنجة وفاس بهـا منزلـه .

ابن حوقـل

... ومنها الى تنمسان (كذا) مرحلة لطيفة ، وهي مدينة أزلية ، ولها انهار جارية وأرحية عليها وفواكه ، ولها سور من أجر حصين منيع . وزرعها سقي وغلاتها عظيمة ومزارعها كثيرة .

البكـري

.. وهي (تلمسان) مدينة مسوره في سفح جبل شجره الجوز ولها خمسة ابواب ، ثلاثة منها في القبلة ، باب الحمام ، وباب وهب ، وباب الخوجة . وفي الشرق باب العقبة . وفي الغرب ، باب أبي قرة . وفيها للاول آثار قديمة ، وبها بقية من النصارى الى وقتنا هذا ، ولهم بها كنيسة معمورة ، وأكثر ما يوجد الركاز في تلك الاثار وكان الاول قد جلبوا اليها ماء من عيون تسمى لوريط بينها وبين المدينة ستة أميال . ولها أسواق ومساجد ، ومسجد جامع ، وأشجار وأنهار عليها الطواحين ، وهو سطفسيف . وهي دار مملكة زناتـه ومتوسطة قبائل البربر ومقصد لتجار الآفاق . ونزلها محمد بن سليمان (1) بن عبد الله بن حسن بن علي بن أبي طالب . ومن ولده عيسى بن العيش بن ادريس بن محمد بن سليمان الذي بنا جراوة وكان أميرها وبها توفـي . ولم تزل تلمسان دارا للعلماء والمحدثين وحملة الرأي على مذهب مالك بن انس رحمه الله . وفي الجنوب من تلمسان قلعة ابن الجاهل ، وهي قلعة منيعة كثيرة الثمار والانهار . ويتصـل بها جبل تاريني ، وهو وما يليه جبال معمورة .

وفي الشمال من تلمسان منزل يسمى باب القصر ، فوقه جبل يسمى جبل البغل ، ينبعث من أسفله نهر سطفسيف ويصب في بركة عظيمة من عمل الاول .

---

(1) مؤسس أمارة بني سليان بتلمسان وأطرافها . كان صغيرا حينا قتل أبوه (سليان) في وقعة فخ واشتدت مطاردة العباسيين له ، فخرج إلى المغرب ونزل بتلمسان .

الادريسي

وتلمسان أزلية ولها سور حصين متقن الوثاقة . وهي مدينتان في واحدة يفصل بينهما سور ولها نهر يأتيها من جبلها المسمي الصخرتين . وعلى هذا الجبل حصن بناه المصمودي قبل اخذه تلمسان . ولم تزل المصامدة قاطنين به الى ان فتحوا تلمسان . وهذا الوادي يمر في شرقي المدينة وعليه أرحاء كثيرة وفواكه جمة . وخيراتها شاملة ، ولحومها شحيمة سمينة . وبالجملة انها حسنة لرخص اسعارها ونفاق اشغالها ومرابح تجاراتها ، ولم يكن في بلاد المغرب بعد مدينة أغمات وفاس أكثر من اهلها اموالا ولا ارفه منهم حالا . ومدينة فاس أكبر من تلمسان قطرا واجل منها قدرا وأكثر خيرا ومالا وأعلى همة .

وفي مكان آخـــر :

ومدينة تلمسان قفل بلاد المغرب ، وهي على رصيف للداخل والخارج منه لا بد منها والاجتياز بها على كل حال

ياقـوت

تِلِمْسان بكسرتين وسكون الميم وسين مهملة . وبعضهم يقول : تنمسان بالنون عـوض اللام . مدينة بالمغرب ، وهما مدينتان متجاورتان مسورتان ، بينهما رمية حجر ، احداهمـا قديمة والاخرى حديثة ، والحديثة اختطها الملثمون ، ملوك المغرب ، واسمها تاقرارت (*) فيما يسكن الجند واصحاب السلطان واصناف من الناس . واسم القديمة أقادير ، يسكنها الرعية فهما كالفسطاط والقاهرة من ارض مصر . ويكون بتلمسان الخيل الراشدية ، لها فضل عـلى سائر الخيل . وتتخذ النساء بها من الصوف انواعا من الكنابيس لا توجد في غيرها . ومنها الى وهران مرحلة . ويزعم بعضهم انه البلد الذي اقام به الخضر ، عليه السلام ، الجدار المذكور في القرآن ، سمعته ممن راى هذه المدينة . وينسب اليها قوم منهم ابو الحسين خطاب بن احمد بن خطاب بن خليفة التلمساني . ورد بغداد في حدود سنة 520 ، كان شاعرا جيد الشعر : قاله ابو سعـــد .

(*) وفي طبعة وستنفلد : تافرزت ، وهو تحريف لم ينتبه إليه المحقق .

ابـــن سعيـــد

وتقع تلمسان المشهورة حيث الطول اربع عشرة درجة واربعون دقيقة ، والعرض ثلاث وثلاثون درجة واثنتان واربعون دقيقة . وبينها وبين ارشغون عشرون ميلا . وبينها وبين هنين ثلاثون ميلا . وهي الان قاعدة بني عبد الواد من زناته . ومنها تحمل ثياب الصوف المفضلة على جنسها المصنوع في بلاد المغرب . وتحمل منها الجم الخيل والسروج وما يتبع ذلـك . والاندلسيون يقولون كانها من مدن الاندلس لمياهها وبساتينها وكثرة صنائعها .

القزوينـي

«تلمسان قرية قديمة بالمغرب . ذكروا انها القرية التي ذكرها الله تعالى في قصة الخضر وموسى : « فانطلقا حتى اذا أتيا أهل قرية استطعما أهلهافابوا ان يضيفوهما فوجد فيها جدارا يريد ان ينقض فاقامه» . قيل أنه كان جدارا عاليا عريضا مائلا . فمسحه الخضر عليه السلام بيده فاستقام .

وحدثني بعض المغاربة انه راى بتلمسان مسجدا يقال له مسجد الجدار يقصـده الناس للزيارة .

أبـو الفـدا

تِلِمسان بكسر المتناه من فوق وكسر اللام وسكون الميم وفتح السين وتلمسان مدينة مشهورة مسورة في سفح جبل ولها ثلاثة عشر بابا . وماؤها مجلوب من غير على ستة اميال منها . وفي خارجها انهار واشجار . ويستدير النهر بقبليها وشرقيها وتدخل فيه السفن اللطاف حيث يصب في البحر . وبقعتها شريفة كثيرة المرافق . وهي قاعدة مملكة ولها حصون كثيرة وفرض عديـدة اشهرها هنين ووهران . وهنين يقابل المرية من الاندلس . و هران حصينة ولها مياه سائحـة ، وهي على ثمانين ميلا من تلمسان . وملوك تلمسان من بني عبد الواد من زناته . وفي غربـي تلمسان بانحراف الى الجنوب مدينة فاس . ومن تلمسان الى تاهرت اربع مراحل .

القلقشنـدي

أما حدودها (مملكة تلمسان)، فحدها من الشرق ، حدود مملكة افريقية ، وما اضيف

اليها من جهة الغرب . وحدها من الشمال البحر الرومي . وحدها من الغرب ، حدود مملكة فاس الآتي ذكرها من الشرق . وحدها من جهة الجنوب المفاوز الفاصلة بين بلاد المغرب وبلاد السودان . وذكر في العبر ان حدها من جهة الغرب ، من وادي ملوية الفاصل بينها وبين الغرب الاقصى الى وادي مجمع في جهة الشرق الفاصل بينها وبين افريقية .

وأما قاعدتها ، فمدينة تلمسان ، بكسر المثناة من فوق واللام وسكون الميم وفتح السين المهملة والف ونون . وهي مدينة الغرب الاوسط . وقال في «تقويم البلدان» : من الغرب الاقصى متاخمة للغرب الاوسط ، شرقي فاس بميله الى الشمال . وموقعها في أوائل الاقليم الرابع من الاقاليم السبعة . قال ابن سعيد : حيث الطول أربع عشرة درجة واربعون دقيقة ، والعرض ثلاث وثلاثون درجة واثنتا عشرة دقيقة . وهي مدينة في سفح جبل ولها ثلاثة عشر بابا وماؤها مجلوب من عين على ستة اميال منها . وفي خارجها أنهار واشجار . ويستدير بقبليها وشرقيها نهر يصب في بركة عظيمة من آثار الاول ، ويسمع لموقعه فيها خرير على مسافة ثم يصب في نهر آخر بعدما يمر على البساتين ثم يصب في البحر ، وعليه ارحاء دائرة تدخل فيه السفن اللطاف حيث يصب في البحر . وبقعتها شريفة كثيرة المرافق ولها حصون كثيرة وفرض عديده .

وبعدما ينقل فقرة من وصف الادريسي للمدينة ، يمضي القلقشندي فيقتبس من « مسالك الابصار » :

وهي على ما بلغ حد التواتر انها في غاية المنعة مع انها في وطآءة من الارض ، ولكنها محصنة البناء وبلغ من حصانتها ان ابا يعقوب المريني صاحب فاس ، خاصرها عشر سنين ، وبنى عليها مدينة سماها فاس الجديدة وأعجزه فتحها . ولها ثلاثة أسوار ، ومن جهة القصبة ، وهي القلعة ستة أسوار . وبها أنهار وأشجار (كذا) . وبها شجر الجوز على كثرة . ومشمشها يقارب في الحسن مشمش دمشق . قال في «مسالك الابصار» زكية الزرع والضرع ، ويقصدها تجار الافاق للتجارة . قال ويطول مكث المخزونات فيها حتى انه ربما مكث القمح والشعير في مخازنها ست سنين ثم يخرج بعد ذلك فيزرع فينبت .

وأما مدنها الداخلة في مملكتها ، فقد ذكر في «مسالك الابصار» ان لها ثمان عشر مدينة وهي : تلمسان ، وجده ، مديونة ، ندرومة ، هنين ، وهران ، تيمزغران ، برشك ، شرشال تونت ، مستغانم ، تنس ، الجزائر ، القصبات ، مازونة تاحجمت ، ومليانة والمرية .

---

(1) راجع عن أرشغول دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة الثانية / الأنجليزية) 661/1 والمراجع المحال إليها .

ارشغول (آرشغون)

البكـــري

ونهر تافنا ، هو الذي يصل الى مدينة أرشغول . وهناك ينصب في البحر . وأرشغول ، ساحل تلمسان . وبين مدينة أرشغول وتلمسان فحص زيدور ، طوله خمسة وعشرون ميلا . ومدينة أرشغول على نهر تافنا ، يقبل من قبليها وستدير بشرقيها ، تدخل فيه السفن اللطـاف من البحر الى المدينة ، وبينهما ميلان ، وهي مسورة . وبمدينة أرشغول جامع حسن فيه سبعة بلاطات . وفي صحنه جب كبير وصومعة متقنة البناء . وفيها حمامان ، أحدهما قديم . ولها من الابواب باب الفتوح ، غربي ، وباب الامير ، قبلي ، وباب مريسة شرقي ، محنية كلها على منافس . وسعة سورها ثمانية اشبار . وامتع جهاتها جوفيها . وبها آبار عذبة لا تغور ، تقوم باهلها وبمواشيهم ولها ربض من جهة القبلة . وكيلهم ستون مدا بمد النبي صلى الله عليه وسلم ويسمونه عمورة . ورطلهم اثنتان وعشرون أوقية . ودرهمهم ثماني خراريب ، والخروبة أربع حبات . وكان يسكنها التجار ونزلها عيسى بن محمد بن سليمان المذكور قبل هذا ، ووليهـا وتوفي سنة خمس وتسعين ومائتين ، وولد له فيها ابراهيم بن عيسى الارشغولي ، ووليها بعده ابنه يحي بن ابراهيم ، وهو الذي حبسه ابو عبد الله الشيعي سنة 323هـ . ويقابلها جزيرة في البحر تسمى جزيرة أرشغول ، بينها وبين البر قدر صوت رجل جهير في سكون البحر . وهـي مستطيلة من القبلة الى الجوف ، عالية منيفة ، واليها التجأ الحسن بن عيسى بن ابي العيش صاحب جراوة ، وتخلى عما كان بيديه ، لما غلبه على ذلك موسى بن أبي العافية على مانبينه ان شاء الله تعالى ، فكتب موسى بن ابي العافية الى صاحب الاندلس ، عبد الرحمن بن محمد يسأله نصرته عليه ويقرب له المأخذ وأعانه على ذلك ، عبد المكن بن أبي حمامة ... فأمـر عبد الرحمن أهل بجانة وغيرهم من أهل السواحل باقامة خمسة عشر مركبا حربية ، ثم جهزها بالرجال والسلاح والازودة والاموال ، فاحاطت بهذه الجزيرة (ارشغول) وقتلوا كثيرا ممن كان فيها وحاصروهم حتى كادوا يهلكون عطشا لما نفذت مياه جبابهم ، حتى تداركهم الله بغيث وابل ، فلم يطمع فيهم أهل الاسطول حين سقوا وانصرفوا قافلين ، فوصلوا الى المرية في شهر رمضان سنة عشرين وثلاثمائة ، ثم ظفر البورى بن موسى بن أبي العافية بالحسن بن عيسى الذي لجأ الى ارشغول ، وبعث به الى عبد الرحمن بن محمد سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة .

الادريسي

... ومنها الى جزيرة أرشغول ، ويروي أرجكون . وكانت فيما سلف حصنا عامرا لـ
مرسى وبادية وسعة في الماشية والاموال السائمة ، ومرساها في جزيرة فيها مياه ومواجل كثير
للمراكب . وهي جزيرة مسكونة ، ويصب بحذائها نهر ملوية (*) . ومن مصب الوادي الى
حصن آسلان اميال على البحر .

* * *

(*) كذا في الأصل . وهو خطأ فات المحقق تصحيحه والمقصود هنا هو نهر تافنا الذي فات الادريسي أن يذكره .

وهـــران (1)

البكـري

وبين مدينة أرزاوْ و وهران اربعون ميلا . ومدينة وهران حصينة ذات مياه سائحة وأرحاء ماء وبساتين ولها مسجد جامع ، وبنى مدينة وهران محمد بن أبي عون ومحمد بن عبدون وجماعة من الاندلسيين البحريين الذين ينتجعون مرسى وهران باتفاق منهم مع نفزة وبني مسفن ، وهم من ازداجة ، وكونوا من اصحاب القرشي ، سنة تسعين ومائتين فاستوطنوها سبعة أعوام . وفي سنة سبع وتسعين ومائتين ، زحفت قبائل كثيرة الى وهران يطالبون أهلها باسلام بني مسفن اليهم لدماء كانت بينهم ، فابى أهل وهران من اسلامهم اليهم ، فنصبوا عليهم الحرب وحاصروهم

(1) راجع عن مدينة وهران :

René Basset, Fastes Chronologiques de la Ville d'Oran pendant la periode Arabe ; Frey, Histoire d'Oran avant, pendant et aprés la domination espagnole ; Walsin Soterhazy, Notice historique sur le Maghreb d'Oran ; Ruff, la Domination Espagnole à Oran sous le Gouvernement du Comte d'Alcoudete (1534 – 1558) ; Broudel, les Espagnoles en Algerie (Dans l'histoire et historiens de l'Algérie) ; Marçais (G), les Arabe en Berberie ; Blum (N), la Croisade de Ximene en Afrique (Bult. de la Soc. Géogr. d'Oran, 1898) ; Conquête d'Oran, Recit de Suarez et Marmol, Trad. de Berbrugger (R.A., 1866) ; Cazenave (J) les Gouvernemeurs d'Oran pendant l'Occupation Espagnole de cette ville (R.A., 1930) ; Francique-Michel (R), trad. de Documents inedits ayant trait à l'occupation d'Oran par les Espagnoles (Bult. de la Soc. Géogr. d'Oran 1887) ; Expédition de Chellala par le Bey d'Oran, Mohammed El-Kabir (Trad. Bresnier. R.A., 1860) ; Notes et Documents, sur la reprise d'Oran par les Espagnoles en 1732 (Bult. de lq Soc. Géogr. d'Oran, 1931) ; Cazenave (J) Oran, cité berbère (Bult. de la Soc. Géogr. d'Oran, 1926) ; Kehl (C), Oran et l'Oranie avant l'Occupation Française (Bult. de la Soc. Géogr. d'Oran, 1942) ; Ricard (R) la factorie portugaise d'Oran (1483-1487), (Annales de l'institut d'Etudes Orientales, T.V, 1939) ; Guin (L), quelques Notes sur l'entreprise des Espagnoles pendant la première Occupation d'Oran (R.A., 1886) ;

ومنعوهم الماء ، فخرج عنهم بنو مسفن ليلا هاربين واستجاروا بازداجة واجاروهم ، وتغلب على أهل مدينة وهران وخرجوا عنها مسلمين في أنفسهم وأسلموا ذخائرهم وأموالهم وخربت وهران وأضرمت نارا فيها ، وذلك في ذي الحجة من هذه السنة . ثم عاد أهل وهران اليها في السنة التالية ، سنة ثمان وتسعين ومائتين ، بأمر أبي حميد دوَّاس بن صولات ، ويقال داود عامل تاهرت ، وابتدءوا بنيانها في شعبان من هذه السنة ، فعادت أحسن مما كانت وولي عليهم داود بن صولات اللهيصي محمد بن أبي عون ، فلم تزل في عمارة وكمال وزيادة وحسن حال الى أن وقع محمد بن يعلى بن محمد بن صالح اليفري بازداجة بجبل فيدر وفرق جماعتهم . وكانت الوقيعة بينهم يوم السبت للنصف من جماد (...) سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة ، فدخل يعلى مدينة وهران وملكها ثم نقل أهلها الى مدينة المعروفة وذلك في ذي القعدة من العام المؤرخ ، وخرب مدينة وهران ثانية وحرقها ، وبقيت كذلك سنين ثم تراجع الناس اليها وبنيت . وفي عمل وهران قرية أهلها موصوفون بعظم الاجساد ومعروفون بشدة الايدي . اخبرني غير واحد انه رأى الرجل الكامل في الخلق المعهود يكون الى دون منكب الرجل منهم ، وانه كان منهم رجل يحمل ستة نفر ويخطوبهم خطوات يحمل على عاتقه اثنين وتأبط اثنين ، ويحمل على ذراعيه اثنين ، وأن رجلا منهم أراد عمل بيت ، فاقتطع ألف كلخة وحملها على ظهره وسوى منها بيت معرشا .

الادريسي

و وهران على مقربة من ضفة البحر وعليها سور تراب متقن وبها أسواق مقدرة وصنائع كثيرة وتجارة نافقة ، وهي تقابل مدينة المرية من ساحل بر الاندلس . وسعة البحر بينهما مجريان ومنها أكثر من مسيرة ساحل الاندلس ولها على بابها مرسى صغير لا يستر شيئا ، ولها على ميلين منها المرسى الكبير وبه ترسى المراكب الكبار والسفن السفرية . وهذا المرسى يستر من كل ريح وليس له مثيل في مراسي حائط البحر من بلاد البربر . وشرب أهلها من واد يجري اليها من البر ، وعليه بساتين وجنات وبها فواكه ممكنة وأهلها في خصب ، والعسل بها موجود وكذلك السمن والزبد ، والبقر والغنم بها رخيصة بالثمن اليسير . ومراكب الاندلس اليها مختلفة . وفي أهلها دهقنة وعزة أنفس ونخوة .

ياقوت

وهران ، بفتح أوله وسكون ثانيه ، وآخره نون . مدينة على البر الاعظم ، بينها وبين تلمسان

سرى ليلة ، وهي مدينة صغيرة على ضفة البحر ، وأكثر أهلها تجار لا يعدو نفعهم . أنفسهم ومنها الى تنس ثماني مراحل .

وبعد ذلك ، نقل ياقوت وصف البكرى لوهران دون أن يضيف اليه شيئا سوى قولـــه انـــه :

ينسب اليها ابو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله ابن خالد الهمداني الوهراني (1) يروى عن ابي بكر أحمد ابن جعفر القطيعي ، روى عنه ابن عبد البر وأبو محمد بن حزم الحـافظ الاندلسـي .

ابن سعيد

... ومنها الى فرضة وهران المشهورة ثمانون ميلا . وهي آخر فرض هذا الجزء من المدن العدوية . وميناؤها مشهور مأمون في الهول .

القلقشندي

و وهران في شرقي تلمسان بشمال قليل على مسيرة يوم من تلمسان ومستغانم وبعد ذلك ، اقتصر على ايراد وصف الادريسي والبكري على التوالي في سياق الحديث عن تلمســـان .

* * *

(1) عاش في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) . عالم من رجال الحديث والرواية . رحل إلى العراق وغيرها ، راجع ترجمته في جذوة المقتبس (ص 675) .

تـاهــرت (1)

ابن خرداذبه

ومدينة كورة تاهرت اسمها تاهرت . وهي مدينة كبيرة خصبة واسعة البرية والزروع والمياه ، وبها الاباضية وهم الغالبون عليها .

المقدسي

وأما تاهرت ، فهي اسم القصبة أيضا . ومن مدنها يممه ، تاغليسية ، قلعة ابن الهرب هزارة الجعبة ، غدير الدروع ، لماية ، منداس ، سوق ابن حبلة ، مطماطة ، جبل توجان ، وهران شلف طير ، الغزة ، سوق ابراهيم ، رهباية ، البطحة ، الزيتونة ، تمما ، الخضراء ، واريقن ، تنس قصر ابن ميلول ، ريا ، تاويلت أبي مغول ، تامزيت ، تاويلت لغوان ، وفكان . تاهرت هو اسم القصبة أيضا (و) هي بلخ المغرب قد أحدق بها الانهار والتفت بهــا الاشجار وغابت في البساتين ونبعت حولها الاعين وجل بها الاقليم وانتعش فيها الغريـب واستطابها اللبيب ، يفضلونها على دمشق ، وأخطؤا ، وعلى قرطبة ، وما اظنهم أصابوا . هو بلد كبير كثير الخير رحب ، رفق ، طيب رشيق الاسواق ، غزير المياه جيد الاهل ، قديم الوضع

---

(1) راجع عن تيهرت وملوكها الأباضيين غير ما ذكر : إبن عذاري ، البيان المغرب (طبع بيروت 1/278ـ383) سير الشماخي ، الكامل لابن الأثير ، (3/50 و 6/90) وكتاب السير لأبي زكرياء تحقيق اسماعيل العربي ، نشر المكتبة الوطنية (ص 133 و 144) ـ 163 ، البكري (ص 68) الباروني ، الأزهار الرياضية (2/48) ، إبن خلدون دول البربر (1/154) ، أعمال المؤتمر الرابع عشر للمستشرقين (القسم الثالث)

Basset (R.) Etude sur la Zenatra du Mzâb, d'Ourgla et de l'Oued Rir' (Publication de la Faculté des Lettres d'Alger).

محكم الرصف ، عجيب الوصف ، غير أنه متى يقاس المغرب بالشام وأين مثل دمشق في الاسلام .

ابن حوقل

وكورة تاهرت من افريقيا عند الجميع . وكانت في القديم مفردة العمل والاسم في الدواوين .

وقد تغيرت تاهرت عما كانت عليه وأهلها وجميع من قاربها من البربر في وقتنا هذا فقراء بتواتر الفتن عليهم ودوام القحط وكثرة القتل والموت . وكذلك كتامة في حالها من جهة خليفه أهل المغرب ، وهو بلكين يوسف بن زيري .

البكري

ومدينة تيهرت مسورة لها ثلاثة أبواب ، باب الصفا وباب المنازل وباب الاندلس وباب المطاحن وغيرها . وهي في سفح جبل يقال له جزول ، ولها قصبة مشرفة على السوق تسمى المعصومة . وهي نهر يأتيها من جهة القبلة يسمى مينه ، وهو في قبليها ، ونهر آخر يجري من عيون تجتمع تسمى تاتش . ومن تاتش شرب أهلها وبساتينها ، وهو في شرقيها ، وفيها جميع الثمار . وسفر جلها يفوق سفر جل الافاق حسنا وطعما ومشما . وسفر جلها يسمى بالفارس . وهي شديدة البرد كثيرة الغيوم والثلج . قال بكر بن حماد أبو عبد الرحمن (1) وكان ثقة مأمونا حافظا للحديث سمع بالمشرق من ابن مشدد وعمرو بن مرزوق وبشر بن حجرا وبافريقيه من سحنون وغيرهم وسكن تاهرت وبها توفي ، قال :

---

(1) هو بكر بن حمّاد بن سهل بن إسماعيل الزناتي التيهرتي ، (200—296 هـ) ولد بتيهرت ويعتبر من أعظم شعراء عصره . وقد رحل إلى البصرة في سنة 217 ، فأخذ العلم عن عدد كبير من شيوخها والتقى بأدبائها وشعرائها ، وفي مقدمتهم دعبل الخزاعي وعلي بن الجهم وحبيب بن أوس الطائي . وكذلك أتيح لبكر الاتصال بالخليفة المعتصم بالله ومدحه . وممن أخذ عنه هناك الخزاعي وعلي بن الجهم وحبيب بن أوس الطائي . وكذلك أتيح لبكر الاتصال بالخليفة المعتصم بالله ومدحه . وممن أخذوا عنه بعد عودته الى القيروان ، حيث تصدر للاملاء بجامعها الكبير ، سحنون وقاسم بن أصبغ القرطبي . وقد عاد الى تيهرت وتوفي بعد سنة من عودته في قلعة ابن حمة شمال تيهرت . راجع ترجمته في معجم أعلام الجزائر (ص 54 ـ 55 ،) البيان المغرب (153/1 ـ 154) ، معالم الايمان للدباغ (473/2) .

ما أخشن البرد وريعانه — وأطرف الشمس بتاهرت

تبدو من الغيم اذا ما بدت — كأنها تنشر من تحت

فنحن في بحر بلا لجة — تجري بنا الريح على السمت

نفرح بالشمس اذا ما بدت — كفرحة الذمي بالسبت

ونظر رجل من أهل تاهرت الى توقد الشمس بالحجاز ، فقال : احرقي ما شئت ، فوالله انك بتاهرت لذليلة . وهذه تاهرت الحديثة . وعلى خمسة أميال منها تاهرت القديمة ، وهي حصن لبرفجانة ، وهو في شرقي الحديثة . ويقال انهم لما أرادوا بناء تاهرت ، كانوا يبنون النهار . فاذا جن الليل واصبحوا ، وجدوا بنيانهم قد تهدم ، فبنوا حينئذ تاهرت السفلى ، وهي الحديثة . ويقبليها لواته وهوارة في قرارات . وبغربيها زواغة ، وبجوفها مطماطه وزناته ومكناسة . وقد ذكرنا ان بشرقيها حصن لبرفجانه ، وهو تاهرت القديمة . وكان صاحب تاهرت ميمون بن عبد الرحمن بن عبد الوهاب بن رستم ابن بهرام . وبهرام هذا ، مولى أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وهو بهرام بن ذو شرار بن سابور بن سابور بن بابكان بن سابور ذي الاكتاف ، الملك الفارسي . وكان ميمون رأس الاباضية وامامهم وامام الصفرية والواصلية وكان يسلم عليه بالخلافة . وكان مجمع الواصلية قريبا من تاهرت وكان عددهم نحو ثلاثين الفا في بيوت كبيوت الاعراب يحملونها . وتعاقب على مملكة تاهرت بنو ميمون وبنو اخوية عبد الرحمن واسماعيل بن الرستمية (1) إلى سنة ست وتسعين ومائتين ، فوصل أبو عبد الله الشيعي مدينة تاهرت فدخلها بالامان ثم قتل فيها من الرستمية عددا كبيرا وبعث برؤوسهم الى أخيه أبي العباس وطيف بها بالقيروان ونصبت على باب رقادة . وملك بنو رستم تاهرت مائة وثلاثين سنة وذكر محمد بن يوسف ان عبد الرحمن بن رستم كان خليفة لابي الخطاب عبد الاعلى بن عبيد بن حرملة أيام تغلبه على افريقية . فلما قتل محمد بن الاشعث الخزاعي أبا الخطاب ، وذلك في صفر سنة اربع واربعين ومائة ، هرب عبد الرحمن بأهله وما خف من ماله وترك القيروان ،

---

(1) هذه الرواية فيها كثير من الخلط والإضطراب ، لأن تسلسل ولاية الأئمة الأباضيين على تيهرت كان على النحو التالي : عبد الرحمٰن بن رستم ـ عبد الوهاب ابن عبد الرحمٰن ـ أفلح بن عبد الوهاب ـ محمد بن أفلح ـ يوسف بن محمد ـ يعقوب بن أفلح ـ يوسف بن محمد ـ يقطان بن محمد . هذه هي القائمة التي أوردها أبو زكرياء في كتاب السير ، وهي تتفق مع قائمة ابن الصغير ، فيما عدا ما يتعلق بولاية أبي بكر بن أفلح التي يتخرج الأباضيون في ايرادها بسبب قتله لابن عرفة غدرا .قارن كتاب الجسير ، تحقيق اسماعيل العربي ، ص 53 وما يليها وتاريخ ابن الصغير ، تحقيق دوموتلينسكي ، إعادة الطبع ، Les Cahiers Tunisiens, N° 91-92 ص 321 وما يليها .

فاجتمعت اليه الاباضية واتفقوا على تقديمه وبنيان مدينة تجمعهم ، فنزلوا موضع تاهـرت اليوم ، ونزل محمد بن عبد الرحمن موضعا مربعا لا شعراء فيه فقال البربر : نزل تافدمت ، تفسيره الدف ، شبهوه بالدف لتربيعه . وادركتهم صلاة الجمعة فصلى بهم هناك . فلما انقضت الصلاة ، ثارت صيحة عظيمة على أسد ظهر في الشعراء ، فاخذ حيا وأتى به الى الموضع الذي صلوا فيه وقتل هناك . فقال عبد الرحمن ، هذا بلد لا يفارقه سفك دم ولا حرب أبدا . وابتداوا من تلك الساعة فبنوا في ذلك الموضع مسجدا ، وقطعوا حشبة من تلك الشعراء ، فهو كذلك الى اليوم . وهو مسجد جامعها . وهو من اربعة بلاطات . قال وكان موضع تاهرت ملكا لقوم مستضعفين من مراسة وصنهاجة ، فارادهم عبد الرحمن على البيع فابوا فوافقهم على ان يؤدوا اليهم الخراج من الاسواق ويبيعوا لهم بنيان المساكن ، فاختطوا وبنوا وسمي الموضع معسكر عبد الرحمن بن رستم الى اليوم . قال وبتاهرت أسواق عامرة وحمامات كثيرة يسمى اثني عشر حماما ، وحواليها من البربر أمم كثيرة . ومدهم الذي يكتالون به خمسة اقفزة ونصف قرطبية وقنطار الزيت وغيره عندهم قنطاران غير ثلث ، الا المجلوب من الفلفل وغيره ، فانه قنطار عدل ورطل اللحم عندهم خمسة أرطال .

الادريسي

وبين مدينة تاهرت والبحر مراحل ، ومدينة تاهرت كانت فيما سلف من الزمن مدينتين كبيرتين ، احداهما قديمة والاخرى محدثة . والقديمة من هاتين المدينتين ذات سور . وهي على قنة جبل قليل العلو وبها ناس وجمل من البرابر ولهم تجارات وبضائع واسواق عامرة . وبارضها مزارع وضياع جمة . وبها من نتاج البراذين والخيل كل حسن . واما البقر والغنم ، فكثيرة بها جدا ، وكذلك العسل والسمن وسائر غلاتها كثيرة مباركة . وبمدينة تاهرت مياه متدفقة وعيون جارية تدخل أكثر ديارهم ويتصرفون بها ولهم على هذه المياه بساتين وأشجار تحمل ضروبا من الفواكه الحسنة وبالجملة انها بقعة حسنة . ومن تاهرت الى قرية أعبر مرحلة .

ياقوت

تاهرت . اسم لمدينتين متقابلتين باقصى المغرب . يقال لاحداهما تاهرت القديمة وللاخرى تاهرت المحدثة . بينهما وبين المسيلة ست مراحل . وهي بين تلمسان وقلعة بني حماد . وهي كثيرة الانداء والضباب والامطار ، حتى ان الشمس بها قل أن ترى . ودخلها

اعرابي من اليمن يقال له أبو هلال ثم خرج الى ارض السودان . فاتى عليه يوم له وهج وحر شديد وسموم في تلك الرمال . فنظر الى الشمس مضحية راكدة على قمم الرؤس وقد صهرت الناس . فقال مشيرا الى الشمس : أما والله لئن عززت في هذا المكان لطالما رأيتك ذليلة بتاهرت وأنشـد :

ما خلـق الرحمـن مـن طرفـة
أشهـى مـن الشمـس بتاهـرت.

وذكر صاحب جغرافيا ان تاهرت في الاقليم الرابع وان عرضها ثمان وثلاثون درجة . وهي مدينة جليلة كانت قديما تسمى عراق المغرب ، ولم تكن في طاعة صاحب افريقية ولا بلغت عساكر المسودة اليها قط ولا دخلت في سلطان بني الاغلب ، وانما كان آخر ما في طاعتهم مدن الزاب .

وبعد ذلك ، اقتبس ياقوت جزءا مهما من الفقرة التي وصف بها البكري تاهرت والتي نقلناها اعلاه .

ومضى ، فنقل قول المهلبي الذي جاء فيه : بين أشير وتاهرت أربع مراحل ، وهما تاهرت القديمة وتاهرت الحديثة ، ويقال للقديمة تاهرت عبد الحق . ومن ملوكها محمد بن أفلح بن عبد الرحمن من رستم . وممن ينسب اليها : ابوالفضل أحمد بن القاسم بن عبد الرحمن بن عبد الله التميمي البزاز التيهرتي (1) روي عن قاسم بن اصبع وأبي عبد الملك بن أبي دكيم وأبي أحمد بن الفضل الدينوري ، وأبي بكر محمد بن معاوية القرشي ومحمد بن عيسى بن رفاعة ، زوعنة أبو عمر بن عبد البر وغيره .

أبو الفدا

وعن ابن حوقل : تيهرت مدينة كبيرة خصبة كثيرة الزرع . قيل ان كرة تيهرت من افريقية وهي غربي سطيف . وكانت قاعدة للغرب الاوسط ، وكان بها مقام بني رستم ملوك الغرب

(1) ولد أحمد التيهرتي ، البزاز ، في سنة 309 هـ (921م) ،وتوفي في سنة 399 هـ.1005م ،وكان محدثا متصوفارحل مع أبيه إلى الأندلس في سنة 317 هـ وسمع من إبن ديلم وقاسم بن أصبغ ووهب إبن مسرة ومحمد بن معاوية القرشي وغيرهم (راجع بغية الملتمس لابن عمير الضبي ، ص 188 ؛ الصلة لابن بشكوال 84/1) .

الاوسط ، حتى انقضت دولتهم بدولة الفاطميين الذين ملكوا مصر . قال في كتاب الاطوال تاهرت العليا طولها وعرضها (...) . قال تاهرت السفلى طولها وعرضها كط . فدل على أن هناك مكانا آخر يسمى تاهرت ، كما نقلناه عن العزيزي في الهامش . وقال في القانون وتاهرت السفلى طولها نط ن وعرضها لدته . قال الادريسي : وتاهرت كانت فيما سلف مدينتان كبيرتان والقديمة منهما على جبل ليس بالعالي ، ولها سوق .

القلقشندي

ومنها تاهرت . قال في «اللباب» : بفتح التاء المثناه فوق وهاء وسكون والراء المهملة وفي آخرها تاء ثانية . قال في «تقويم البلدان» : ونقلت من خط ابن سعيد ، عوض الالف ياء مثناه تحت ، قال وهو الاصح ، لان ابن سعيد مغربي فاضل . وهي مدينة من الغرب الاوسط. وقيل من افريقية في الاقليم الثالث . قال في الاطوال : حيث الطول خمس وعشرون درجة ثلاثون دقيقة ، والعرض تسع وعشرون درجة . قال ابن حوقل : وهي مدينة كبيرة خصبة (الى آخر الجملة أعلاه) . وذكر الادريسي أنها كانت في القديم مدينتين . قال «العزيزي» :

وتاهرت القديمة تسمى «تاهرت عبد الخالق» وهي مدينة جليلة كانت قديما تسمى «بغداد المغرب» . وتاهرت الجديدة على مرحلة منها ، وهي أعظم من تاهرت القديمة والمياه تخترق دور أهلها . وهي ذات أسواق عامرة ، وبأرضها مزارع وضياع جمة ، ويمر بها نهر يأتيها من جهة الغرب ولها نهر آخر يجري من عيون تجتمع فيه منه شرب أهلها ، وبها البساتين الكثيرة المونقة ، والفواكه الحسنة ، والسفرجل الذي ليس له نظير طعما وشما ؛ ولها قلعة عظيمة مشرفة على سوقها . وتاهرت كثيرة البرد كثيرة الغيوم والثلج ، وسورها من الحجر ، ولها ثلاثة أبواب (1) : باب الصفا وهو باب الاندلس وباب النازل وباب المطاحن .

الزهري

وهي مدينة عظيمة يقال أنها من بنيان العمالقة وقد وجد في زماننا هذا قبور أخرج منها عظام بني آدم طول قصبة من قصب الساقين ثمانية أشبار ، ودون المفاصل الأعلى والأسفل . ووجد فيها عظام من رؤس بني آدم بعض اضراسها ومطاحنها أولى بمطحنة منها (ما) عرضها اكثر من ثلاثة اشبار وفي الطول كذلك .

(1) في المعجم : أربعة أبواب باب الصفا وباب الأندلس الخ .

المعسكر

ابن حوقل

المعسكر ، قرية عظيمة لها أنهار وأشجار وفواكه . ومن المعسكر الى عين توجان الى عين الصفاصف ، قرية لها عين وأنهار وأشجار .

الادريسي

المعسكر قرية عظيمة لها أنهار وثمار . ومنها إلى جبل فرحان مارّاً مع أسفله الى قرية عين الصفاصف وبها فواكه كثيرة .

* * *

مليانة (1)

ابن حوقل

مليانة مدينة أزلية ولها أرحية على نهرها وسقي كثير من واديها . ولها حظ من نهر شلف . ومنها الى سوق كران ، وهو حصن أزلي له مزارع .

البكري

... ومنها الى مليانة ، وهي مدينة رومية فيها آثار ، وهي ذات أشجار وأنهار تطحن عليها الارحاء ، جددها زيري ابن مناد وأسكنها ابنه بلجين ، وهي عامرة . ومنها الى مدينة الخضراء وهي مدينة جليلة كثيرة البساتيـــن .

الادريسي

ومن الخضراء الى مدينة مليانة مرحلة. وهي مدينة قديمة البناء حسنة البقعة كثيرة المزارع ولها نهر يسقي أكثر مزارعها وحدائقها وجناتها . ولها أرحاء على نهرها المذكور . ولاقاليمها حظ من سقي نهر شلف ، على ثلاثة ايام منها وفي جنوبيها الجبل المسمى جبل الونشريس .

ياقوت

مليانة ، بالكسر ثم السكون وياء تحتها نقطتان خفيفة ، وبعد الالف نون . مدينة في

(1) وصف الحسن بن محمد الوزان مليانة (Meliana) فقال إنها مدينة كبيرة جدا بنيت على أنقاض مدينة رومانية قديمة وكان الرومان يسمونها ماجنانه (Magnana) وهو الإسم الذي حرفه العرب إلى مليانة . انظر وصف افريقيا 345/1 .

أيــها السائـــل عــن غربنــا وعــن محــل الكفيــر أشيــر
عــن دارفســق ظــالم أهلها قــد شيــدت للافــك والزور
أسسهـــا الملعــون زيرهــا فلعنــة اللــه عــلى زيــري

ثم قــال:

وهي مدينة جليلة حصينة يذكر أنه ليس في تلك الاقطار أحصن منها ولا أبعد متناولا ومراما ولا يوصل الى شيء منها بقتال الا من موضع واحد يحميه عشرة رجال . وهو في شرقيها الذي ينفذ الى عين مسعود وسائر نواحيها تنزل عنها العيون وهي مع ذلك بين جبال شامخة محيطة بها دائرة عليها . وداخل مدينتها عينان ثرتان ، لا يبلغ لهما غور ولا يدرك قعر ، احداهما تعرف بعين سليمان والاخرى بعين تالا نتيرغ والتي بنى سورها بلجين يوسف بن زيري بن مناد الصنهاجي (1) سنة سبع وستين وثلاثمائة هـ . وخربها يوسف بن حماد بن زيري واستباح أموالها وفضح حرمها ، وذلك بعد أربعين واربعمائة ، ثم تراجع الناس اليها بعد خمس وخمسين . وتسير من أشير الى قرية تسمى سوق هوارة .

الادريسي

... ومنها الى أشير زيري مرحلتان ، وهو حصن حسن البقعة كثير المنافع وله سوق يوم معروف تجلب اليه كل لطيفة وتباع به كل طريفة . ومنه الى تامزكيده مرحلة .

ياقوت

أشير .. مدينة في جبال البربر بالمغرب في طرف افريقية الغربي مقابل بجاية في البر ، كان أول من عمرها زيري بن مناد الصنهاجي ، وكان سيد هذه القبيلة في أيامه . وهو جد المعز

---

(1) أبو الفتوح ، بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي ، سماه المعز الفاطمي يوسف ، مؤسس دولة بني زيري في المغرب الأوسط وفي أفريقية ، كان في بداية عهده من كبار قواد الفاطميين ، قام بدور جوهري مع جوهر الصقلي لتدعيم نفوذ العبديين في الجزائر ولمدة سلطانهم الى المغرب الاقصى بعدما أخضع زناته . للاعتراف له ولاسرته بالفضل ، اختاره المعز بن المنصور لولاية ما كان تحت سلطانه من أقطار المغرب عندما قرر الرحيل إلى مصر (361 هـ) . وقد توفي بلكين ، بعدما أخضع فاس وسجلماسة في موضع يسمى « واركنفو » يقع بين تلمسان وسجلماسة في سنة 373 هـ (984) . (راجع : إبن خلكان وفيات الأعيان 286/1 ؛ ابن خلدون 155/6 ؛ إبن عذارى ، البيان المغرب 228/1—239 ؛ إبن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص 26 ؛ إسماعيل العربي ، دولة بني حماد ، الفصل الأول) .

بن باديس (1) وملوك افريقية بعد خروج الملقب بالمعز (الفاطمي) منها . وكان زيري هذا في بدء أمره يسكن الجبال . ولما نشأ ، ظهرت منه شجاعة أوجبت له أن اجتمع اليه طائفة من عشيرته فاغار بهم على من حوله من زناته والبربر ، ورزق الظفر بهم مرة بعد مرة فعظم جمعه وطالبته نفسه بالامارة ، وضاق عليه وعلى اصحابه مكانهم ، فخرج يرتاد له موضعا ينزله ، فرأى أشير ، وهو موضع خال وليس به أحد مع كثرة عيونه وسعة فضائه وحسن منظره ، فجاء بالبنائين من المدن التي حوله ، وهي : المسيلة وطبنة وغيرهما ، وشرع في انشاء مدينة أشير ، وذلك في سنة 178 ، فتمت الى أحسن حال وعمل على جبلها حصنا منيعا ليس الى المتحصن به طريق الا من جهة واحدة تحميه عشرة رجال ، وحمى زيري أهل تلك الناحية وزرع الناس فيها ، وقصدها أهل تلك النواحي طلبا للامن والسلامة فصارت مدينة مشهورة وتملكها بعده بنو حماد ، وهم بنو عم باديس واستولوا على جميع ما يجاورها من النواحي ، وصاروا ملوكا لا يعطون أحدا طاعة ، وقاوموا بني عمهم ملوك افريقية آل باديس (2)

ومن أشير هذه الشيخ الفاضل ، أبو محمد عبد الله بن محمد الاشيري (3) امام أهل الحديث والفقه والادب بحلب خاصة ، وبالشام عامة ، استدعاه الوزير عون الدين أبو المظفر يحي بن محمد بن هبيرة ، وزير المقتفى والمستنجد ، وطلبه من الملك العادل ، نور الدين محمود بن زنكي ، فسيره اليه ، وقرأ كتاب ابن هبيرة الذي صنفه وسماه الايضاح في شرح معاني

---

(1) المعز بن باديس بن المنصور . ولد بالمنصورية في سنة 398 هـ (454 م) . فولي الحكم بعد وفاة أبيه وهو إبن ثماني سنوات ، وأقره الحاكم الفاطمي صاحب مصر على الولاية ولقبه بشرف الدولة ، وفي أيامه بلغت حضارة المغرب أوجها حيث شيد المرافق وبنى المؤسسات وقرب العلماء والشعراء ونشر لواء الأمن . ولكن هذا البنيان الحضاري الشامخ سيطوح به عربان بني هلال وبني سليم الذين وجههم المنتصر الفاطمي إلى المغرب ليحيلوا زرعه إلى محل وعلمه إلى جهل وليسفكوا الدماء الغزيرة وينشروا الخراب والدمار ، وذلك بسبب قطع المغز الخطبة على الفاطميين واعطائه الحرية للناس بالعودة الى مذهب أهل السنة . راجع ، العبر (158/6) ، الكامل (87/9) ، البيان (267/1) وفيات الاعيان 233/5 ـ 235) الخلاصة النقية (ص 47) الحلة السيراء (21/2 ، 22 ، 23) أعمال الاعلام (ص 29) .

(2) هو باديس بن المنصور بن بلكين ، أبو مناد ، ويلقب بنصير الدولة . تولى ملك أفريقية والمغرب الأوسط بعد وفاة أبيه (386 هـ) ، وكان مولده ليله الأحد 13 ربيع الأول سنة 374 هـ ، بأشير . وقد اغتنم الطامعون في الملك فرصة صغر سن أبي مناد ، وقاموا بعده فتن قمعها باديس بكل حزم . وبعد الإنتصارات العظيمة التي حققتها جيوشه ، توفي يوم الثلاثاء 29 من ذي الحجة سنة 406 هـ . راجع سيرته في الخلاصة النقية (ص 64) ؛ العبر (157/6) ؛ الكامل (86/9) ؛ وفيات الاعيان (265/1 ـ 266) ، أعمال الاعلام (ص 28) ، وانظر كذلك كتابي ، دولة بني حماد .

هو أبو محمد عبد الله الأشيري الصنهاجي (توفي سنة 561 هـ) ؛ محدث كبير وفقيه ، أقام بالأندلس ثم بالشام وسمع عن أبي جعفر إبن غزلون وأبي بكر بن العربي وغيرهم . راجع عنه ، إلى جانب معجم البلدان ، التكملة لإبن الأبار (ط القاهرة ــ 917/2ــ91) ؛ تاريخ إبن عساكر (الفهرس) .

الصحاح بحضوره . وجرت لمحمود بن زنكي (1) مع الوزير منافرة في شيء اختلف فيه أغضب كل واحد منهما صاحبه ، وردف ذلك اعتذار من الوزير وبره برا وافرا ، ثم سار من بغداد الى مكة ثم عاد الى الشام فمات في بقاع بعلبك في سنة 561 هـ .

* * *

(1) محمود بن زنكي (عماد الدين) (511 — 569 هـ) ملك الشام وديار الجزيرة ومصر . ولد في حلب وانتقل إليه الملك بعد وفاة أبيه . كان ملكا عادلا فاضلا مجاهدا وقاتل الصليبيين بنفسه في مواقع عديدة أثناء زحفهم على بلاد الشام . ومن أعماله الاجتماعية المذكورة أنه اقطع عربان البادية لضمان استقرارهم حتى لا يتعرضوا للحجاج . وكذلك شيد كثيرا من المدارس التي من بينها مدرسة العادلية ، والزوايا (الخوانق) للصوفية ، انظر سيرته في العبر 253/5 ، الكامل لابن الأثير 138/11 — 144 و 294 — 304 و 341 — 344 و 351 — 355 ، النجوم الزاهرة 71/٥ ، كتاب الروضتين 227/1 — 229 ، وفيات الأعيان 444/2 — 447 و 148 — 151 و 184 — 149 ، مرآة الزمان 305/8 ، الإسلام والحضارة العربية لمحمد كرد علي 289/1 .

آخر افريقية بينها وبين تنس أربعة ايام . وهي مدينة رومية قديمة ، فيها آبار وأنهار تطحن عليها الرحي ، جددها زيري بن مناد وأسكنها بلكين .

القزويني

مليانة مدينة كبيرة بالغرب من اعمال يجابه مستندة الى جبل زكار وهي كثيرة الخيرات وافرة الغلات ، مشهورة بالحسن والطيب وكثرة الاشجار وتدفق المياه . حدثني الفقيه أبو الربيع سليمان الملياني (1) ان جبل زكار مطل على المدينة ، وطول الجبل أكثر من فرسخ ، ومياه المدينة تتدفق من سفحه . وهذا الجبل لا يزال أخضر صيفا وشتاء ، وأعلى الجبل مسطح يزرع . وبقرب المدينة حمامات لا يوقد عليها ولا يسقي ماؤها ، بنيت على عين حارة عذبة المياه يستحم بها من شاء .

تنس

البكري

... ومنها الى مدينة تنس . بينها وبين البحر ميلان . وهي مسورة حصينة داخلها قلعة صغيرة صعبة المرتقى ينفرد بسكنها العمال لحصانتها . وبها مسجد جامع وأسواق كثيرة . وهي على نهر يسمى تناتين ، يأتيها من جبال على مسيرة يوم يأتيها من القبلة ويستدير بها من جهة الجوف والشرق ويريق في البحر ، وبها حمامات . وتنس هذه هي التي تسمى تنس الحديثة وعلى البحر حصن يذكر أهل الاندلس أنه كان القديم المعمور قبل هذه الحديثة.

وتنس الحديثة أسسها وبناها البحريون من أهل الاندلس ، منهم الكرنكي وأبو عائشة والصقر وصهيب وغيرهم ، وذلك في سنة اثنتين وستين ومائتين . ويسكنها فريقان من أهل

(1) انظر أعلاه ص 18 . قد يتبادر إلى الأذهان أن المتاني (إذا اعتبرناه تحريف الملياني) هو سليمان الحميدي الوهراني (أبو الربيع) الذي ذكره القلصادي في رحلته وترجم له صاحب نيل الابتهاج (ص 121) ولكنه على الرغم من أن كلا الشخصين يحملان اسما واحدا ولقبا واحدا وينتميان إلى نفس المنطقة ، كما كان كل منهما إماما في الفقه المالكي ، فإن من المستحيل أن يكونا شخصا واحدا ، حيث أن الأول كان يعيش في عهد القزويني (القرن السابع الهجري) بينما كان الثاني يعيشق في القرن التاسع الهجري . وكذلك ينبغي التأكيد بأن كليهما غير الملياني الذي ترجم له ابن الخطيب في الاحاطة (292/1) ، فإن هذا شاعر ويسمى أحمد بن علي ويكنى أبا عبد الله وأبا العباس .

الاندلس ، من أهل البيرة وأهل تدمير . وأصحاب تنس من ولد ابراهيم بن محمد بن سليمان بن عبد الله بن حسن بن حسين بن علي (1) وكان هؤلاء البحريون من أهل الاندلس يشتون في مرسى على ساحل البحر ، فتجمع اليهم بربر ذلك القطر ورغبوا في الانتقال الى قلعة تنس ، وسألوهم أن يتخذوها سوقا ويجعلوها سكنى ووعدوهم بالعون والرفق وحسن المجاورة ، فاجابوهم الى ذلك ، وانتقلوا الى القلعة وخيموا بها ، وانتقل اليهم من جاورهم من أهل الاندلس وغيرهم فلما دخل عليهم الربيع ، اعتلوا واستوبؤا فركب البحريون من أهل الاندلس مراكبهم واظهروا لمن بقي منهم انهم يمتارون . فحينئذ نزلوا مرية بجانة وتغلبوا عليها ، على ما ياتي ذكره ان شاء الله . ثم ان الباقين نزلوا في تنس ولم يزالوا في تزايد ثروة وعدد ، ورحل اليهم أهل سوق ابراهيم وكانوا في اربعمائة بيت ، فتوسع لهم أهل تنس في منازلهم وشاركوهم في أموالهم وتعاونوا على البنيان واتخذوا الحصن الذي فيها اليوم . ولها بابان الى القبلة ، وباب البحر ، وباب ابن ناصح وباب الخوخة ، شرقي يخرج منه الى عين تعرف بعين عبد السلام ، ثرة عذبة ، وكيلهم يسمى الصحفه ، وهي ثمانية واربعون قادوسا ، والقادوس ثلاثة أمداد بمد النبي صلى الله عليه وسلم ورطل اللحم بها سبع وستون أوقية . ورطل سائر الاشياء اثنتان وعشرون أوقية . ووزن قيراطهم ثلث درهم عدل بوزن قرطبه . والجاري عندهم قيراط وربع درهم وصقل وحبتان مضروبة كلها . ودرهمهم اثنا عشر صقلية عددا .

الادريسي

ومدينة تنس على مقربة من ضفة البحر الملح على ميلين منه ، وبعضها على جبل وقد أحاط به السور . وبعضها في سهل من الارض . وهي مدينة قديمة ازلية عليها سور حصين وحظيرة مانعة دائرة بها . وشرب أهلها من عين. ولها في جهة الشرق واد كثير الماء وشربهم منه في ايام الشتاء والربيع . وبها فواكه وخصب وافلاع وحط . ولها أقاليم وأعمال ومزارع ، وبها الحنطة ممكنة جدا وسائر الحبوب موجودة وتخرج منها الى كل الافاق في المراكب . وبها من الفواكه كل طريفة من السفرجل الطيب المعنق ما يفوت الوصف في صفته وكبره وحسنه .

---

(1) راجع شجرة نسب أبناء محمد بن سليمان بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب الذين أنشئوا عدة إمارات في الجزائر في عهد الأدارسة ، في جمهرة أنساب العرب (ص 48) ؛ وكذلك عن إماراتهم النبذة التي أوردها اليعقوبي في كتاب البلدان (ص،356—357) والفقرة التي خصصها لهم التنسي في كتابه عن بني زيان (مخطوط في حوزة السيد محمود بوعياد (ورقة 122 وجة) .

الجـزائــر (1)

البكري

ويليه مرسى الجزائر وتعرف بجزائر بني مزغني ، وهو مرسى مأمون مشتى بين جزيرة سطفله من الشرق الى الغرب وبين البر . وبالمرسى عذبة . ويقابله من مرسى بنشكلة من بر الاندلس .

وفي مكان آخر

... ومنها الى مدينة جزائر بني مزغني ، وهي مدينة جليلة قديمة البنيان ، فيها آثار للاول وأزاج محكمة تدل على أنها كانت دار ملك لسالف الامم ، وصحن دار الملعب فيها الفسيفساء فيها صور الحيوان بأحكم عمل وأبدع صناعة ولم يغير تقادم الزمن ولا تعاقب القرون ولها اسواق ومسجد جامع . وكانت بمدينة بني مزغني كنيسة عظيمة بقي منها جدار مدير من

---

(1) راجع : الحسن بن محمد الوزان ، وصف أفريقية ، ج 3 ، وكذلك ترجمتنا العربية للوصف الخاص بالجزائر من هذا الكتاب وكذلك ترجمتنا لمذكرات شالر ، وروض القرطاس لابن أبي زرع ، والبيان لابن عذارى ، وتاريخ الدولتين للزركشي ، والمؤنس في أخبار افريقية وتونس لابن أبي دينار ، وكتاب الاستقصا للسلاوي ، ومدينة الجزائر لعبد القادر حلمي .

Marmol, Description de Africa, T. 2 ; Show, Travels and Observations ; Schaler, l'Etat d'Alger ; R. Basset, Documents Géogr. sur l'Afrique Septenterionale ; Mercier (E), Histoire de l'Afrique Septenterionale ; Gramont, Histoire d'Alger sous la Domination Turque ; Devoulx (A) les Edifices Relegieux d'Algrr (R.A., Vol. 6 – 13) و ولنفس المؤلف Notes sur les Mosqués d'Alger, (R.A., Vol. 4-5); Rozet, voyage dans la Regence d'Alger; Boutin, Reconnaissance de la ville etc. d'Alger ; Julien (Ch. A.), Histoire Contemporaine de l'Algérie ; Golvin (L) la Maghreb Central sous les Zirides ; Playfair (R.L.), A Bibliography of Algeria ; Lespes (R), Alger, Etude de Géographie et b'histoire urbane ; Matteren (A.T.), Journal de la Prise d'Alger, 1830 ; Desparnet (T), Alger, 1931; Esquer (G), le Commencement D'un empire; la prise d'Alger; la prise d'Alger racontée par un Algerien (Texte turque et trad. par Ottocar de Aschlechta, 1862) ; LKaddach (M) la vie politique à Alger de 1919 a 1939, SNED, 1970.

الشرق الى الغرب . وهو اليوم قبلة الشريعة للعيدين مفصص كثير النقوش والصور ومرساها مأمون له عين عذبة ، يقصد اليه أهل السفن من افريقية والاندلس وغيرهما .

الادريسي

ومدينة الجزائر على ضفة البحر وشرب أهلها من عيون على البحر عذبة ومن آبار . وهي عامرة آهله وتجارتها مربحة وأسواقها قائمة وصناعاتها نافقة ، ولها بادية كبيرة وجبال فيها قبائل من البربر . وزراعاتهم الحنطة والشعير وأكثر اموالهم المواشي من البقر والغنم ويتخذون النحل كثيرا ، فلذلك ، العسل والسمن في بلدهم كثير وربما يتجهز بها الى سائر البلاد والاقطار المجاورة لهم والمتباعدة عنهم . واهلها قبائل ولهم حرمة مانعة .

ياقوت

الجزائر ، جمع جزيرة : اسم علم لمدينة على ضفة البحر بين افريقية والمغرب ، بينها وبين بجاية اربعة ايام ، كانت من خواص بلاد بني حماد بن زيري بن مناد الصنهاجي . وتعرف بجزائربني مزغنا ، وربما قيل لها جزيرة بني مزغناي .

وبعد ذلك اقتبس ياقوت وصف أبي عبيد البكري الذي اورد ناه اعلاه ، ثم اختتم مقالته قائلا :

وينسب الى هذه المدينة جماعة منهم ابوبكر محمد ابن احمد بن الفرج الجزائري المصري يروي عن ابن قديد ، توفي في ذي القعدة سنة 368 هـ .

ابن سعيد

... وفي شرقيها مدينة الجزائر . وهي فرضة من عمل بجاية حيث الطول عشرون درجة وثمان عشرة دقيقة والعرض ثلاث وثلاثون درجة ونصف .

القلقشندي

وغربي بجاية ، جزائر بني مزغناي (كذا) بفتح الميم وسكون الزاي وكسر الغين المعجمتين ثم نون بينهما الف الاولى منهما مشددة كما في «تقويم البلدان» عن الشيخ شعيب . وبعضهم يسقط النون الاخيرة . وفي «مسالك الابصار» مزغنانة ، بزيادة هاء في الاخير .

المسيلة (1)

ابن حوقل

ومن مقره الى المسيلة مرحلة . وهي مدينة محدثة استحدثها علي بن الاندلس ، أحد خدم آل عبيد الله وعبيدهم ، وعليها سور حصين من طوب ، ولها واد يقال له وادي سهر فيه ماء عظيم منبسط على وجه الارض وليس بالعميق ، ولهم عليه كروم وأجنة كثيرة تزيد على كفايتهم وحاجتهم ، ولهم من السفرجل المعنق ما يحمل الى القيروان ، وأصله من تنس . ومن غلاتهم القطن (2) والحنطة والشعير ، وتكثر عندهم المواشي من الدواب والانعام والبقر . وعليها من البربر بنو برزال (3) وبنو زنداج وهوارة مزاته . وعليهم صدقات وخراج غزير . ومنها جوزا منهل ينزله الناس لا ساكن به ، وفيه ماء من عيون عذبة .

---

(1) وصف الحسن بن محمد الوزان المسيلة بأنها مدينة قديمة بناها الرومان على أطراف الصحراء النوميدية ، على مسافة حوالي 140 ميل من بجاية . وأضاف مترجم الكتاب أن المسيلة بنيت على مسافة 7 كلم .من أنقاض المدينة الرومانية «زابي» (Zabi) والتي تحمل الآن اسم بوشلجة . أنظر وصف افريقية 362/1 هامش 16 . وقد ذكر ابن عذارى ، ـ أن الأمير أبا القاسم ابن عبيد الله أمر ببناء مدينة المسيلة في سنة 313 هـ ، وجعل المتولى لبنائها ابن الأندلسي (علي بن حمدون) . وعلي هذا هوالذي خربها في سنة 324 هـ . راجع البيان 214/1 ــ 415 . والمسيلة تسمى أيضا المحمدية

(2) راجع : Sergeant, Textiles in ARS Islamica, XV, p. 50

(3) موطن بني برزال الأصلي ، هي منطقة الزاب التي أخضعها للعبيديين قائدهم ، عليّ بن حمدون ، وقد دخل بنو برزال في طاعته واتخذ منهم النواة الأولى من السكان عندما قام ببناء المسيلة (كما اتخذ حماد فيما بعد نواة من قبيلة جراوة المغربية لتعمير القلعة) . وقد ظل ولاء بني برزال لأسرة بني حمدون قويا بحيث أن جعفر بن علي بن حمدون الذي هرب إلى الأندلس ودخل في خدمة الأمويين (بعد ما قرر الفاطميون تسليم حكم المغرب إلى بني زيري) ، قد تدخل لدى الخليفة المستنصر واستأذنه في أن يستقدم بني برزال إلى مملكته . وقد دخل عدد كبير من رجال هذه القبيلة الكبيرة إلى الأندلس حيث كانوا قوة شائكة في المعارك في صف بني أمية ، ولا سيما في عهد المنصور بن أبي عامر ، وقد شكل بنو برزال دولة =

تخرج من مدينة القلعة الى مدينة المسيلة ، وهي مدينة جليلة على نهر يسمى سهر ، أسسها اسماعيل (1) بن أبي القاسم بن عبيد الله الله سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة . وكان المتولي لبنائها علي بن حمدون (2) بن سماك بن مسعود بن منصور الجذامي المعروف بالاندلسي ، واستعمله القائم (العبيدي) عليها ، فلم يزل بها الى ان هلك في فتنة أبي يزيد (3) وبقي ابنه جعفر (4) فيها وصار اميرا على الزاب كله الى ان خرج عنها في سنة ستين وثلاثمائة على ما نحن ذاكروه في موضعه ان شاء الله .

وهي مدينة في بساط من الارض عليها سوران بينهما واد ماء يستدير بالمدينة وله منافذ تسقي منها عند الحاجة . وللمدينة أسواق وحمامات وحولها بساتين كثيرة ويجود عندهم القطن وهي كثيرة اللحم رخيصة السعر وبها عقارب مهلكة لا يتخلص من لسبها . ويقرب منها جبل

= في قرمونة ، وكان أول من بويع منهم بالملك فيها هو أبو عبد الله بن عبد الله بن برزال ، وكان ذلك في سنة 404 هـ . وقد بايعته فيا بعد استجّة وأشونة والمدوّر وغيرها من البلاد . راجع : البيان المغرب 311/3 ـ 312) لابن عذارى .

(1) ولد اسماعيل المنصور العبيدي في المهدية في سنة 302 هـ وولاه أبوه سنة 332 هـ . كان المنصور شجاعا رابط الجأش فصيحا اللسان وكان هو الذي اختط مدينة صبرة (336 هـ) . وسماها المنصورية . ومن الأحداث التاريخية الهامة التي لعب فيها المنصور الدور الأول ، ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد التي قمعها بمساعدة بني زيري والقبض على الخارجي في جبل تقربست (جبل قلعة بني حماد) . ومن شدة غيضه أمر بسلخ الثائر وحشو جلده قطنا ثم صلبه . وأما المنصور ، فقد مات في المنصورية في آخر شوال 441 هـ . (راجع : إبن عذارى ، البيان المغرب)(طبع بيروت) 1/ 311 - 314 .

(2) كان علي بن حمدون الأندلسي ، أول من تولى إمرة الزاب من قبل الفاطميين الذين كان على اتصال بهم وهم بالمشرق ، قبل ظهور دعوتهم . وقد أقام بالزاب حتى أدركته فتنة أبي يزيد الخارجي ، فأمره القائم بأن يجنِّد البربر ويلحق به في المهدية . ولما وصل إلى باجة على رأس جيش كبير ، هاجمه أيوب بن أبي يزيد فاقْتَتَلا ، فسقط على بن حمدون من على جبل شاهق فمات . راجع إبن خلدون ، العبر 82/4 ؛ إبن عذارى ، البيان المغرب 242/2 ـ 244 ؛ أعمال الأعلام ص 60ـ62 ؛ الحلة السيراء 305/1ـ306ـ307 و 50/2) .

(3) راجع عن أبي يزيد مخلد بن كيداد : إبن خلدون ، العبر 44/4 ، إبن خلكان ، وفيات الأعيان (طبع القاهرة) 77/1 ؛ إبن عذارى البيان المغرب 193/1 ـ 616 ؛ المقريزي ، اتعاض الحنفاء ؛ ابن تغريبردي ، النجوم الزاهرة 87/3 ؛ الحلة السيراء 290/1ـ291 و 387/2ـ389 .

(4) عرف جعفر بن علي ، خصوصا بطموحه وبمنافسته الشديدة لبني زيري الذين كان يرى أنه أفضل منهم وأولى بأن يسلم زمام أفريقية بعد رحيل العبيديين عنها إلى مصر . وقد جرت بينه وبين زيري معارك انتهت بمقتل زيري ثم بهزيمته على يد إبنه بلكين ، مما اضطره إلى الهجرة إلى الأندلس حيث قتل في سنة 364 هـ . راجع : تاريخ العروس 386/7 ؛ إبن خلدون ، العبر 154/6 ؛ إبن الأثير ، الكامل 625/8 ؛ إبن خلكان ، وفيات الأعيان 360/1 ؛ إبن حيان القرطبي ، المقتبس ص 32 ـ 34 .

عجيسة وهوارة وبني برزال ، وهم كانت ارض المسيلة . ويقبلي مدينة المسيلة موضع يعرف بالقباب ، فيه قباب من بناء الاول . وعلى مقربة منها مدينة للاول خربة يقال لها بشليفة فيها جدولان من ماء عذب جلبه الاول اليها يقال لها تارفا انودى ، تفسيره ساقية السمن .

وقال احمد بن محمد المروذي يذكر نزول اسماعيل بالمسيلة والشيعة تسميها المحمدية :

ثم الى مدينة مرضية — أسست على التقوى محمدية
أقبل حتى حلها ضحية — بالنور من طلعته المضية
فحل في عسكره المسيلة — في هيئة كاملة جليلة
للنصر في أرجائه مخيلة — بنعمة من ذي العلى جليلة

ونهر سهر الذي عليه مدينة المسيلة منبعه من عيون داخل مدينة غدير وأرّاوْ ، وهي مدينة كبيرة ازلية بين جبال .

الادريسي

.. ثم الى المسيلة مرحلتان . وهي مستحدثة ، استحدثها علي الاندلسي في ولاية ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن ابي طالب . وهي عامرة في بسيط من الارض ولها مزارع ممتدة اكثر مما يحتاج اليه . ولاهلها سوائم خيل واغنام وابقار وجنات وعيون وفواكه وبقول ولحوم ومزارع قطن وقمح وشعير . ويسكنها من البربر بنو برزال وزنداج وهواره وصدراته ومزانة . وهذه المدينة ايضا عامرة بالناس والتجار . وهي على نهر فيه ماء كثير مستنبط على وجه الارض وليس بالعميق . وهو عذب فيه سمك صغير فيه طرق حمر حسنة ولم ير في بلاد الارض المعمورة سمك على صفته .. وأهل المسيلة يفتخرون به ، ويكون مقدار هذا السمك من شبر الى مادونة . وربما أصطيد منه الشيء الكثير ، فاحتمل الى قلعة بني حماد . وبينهما ميل .

ياقوت

المسيلة ، بالفتح ثم الكسر والياء ساكنة . مدينة بالمغرب تسمى المحمدية ، اختطها أبو القاسم بن عبيد الله المهدي في سنة 315 هـ ، وهو يومئذ ولي عهد أبيه . وأبو القاسم هذا، يلقب بالقائم بعد المهدي من المنتسبين الى العلويين الذين كانوا بمصر. ينسب اليها ابو العباس أحمد بن محمد بن حرب المقرئ بمصر. قرأ القرآن ورحل الى بطليوس فلقي بها أبا بكر محمد

ابن مزاحم الخزرجي وقرأ عليه ابو حميد عبد العزيز بن علي بن محمد بن سلمه السيحاني المقري .

ابن سعيد

... وفي شماليها مدينة المسيلة ، وهي محدثة بناها العبيديون على نهر سهر ، من أجل الانهار . [وهو] يمر بغربيها وتغوص [مياهه] في رمال الصحراء . وهي حيث الطول ثلاث وعشرون درجة واربعون دقيقة والعرض تسع وعشرون درجة وخمس واربعون دقيقة . والبلاد التي حولها مجالات لعرب رياح. وتمتد الصحاري في شرقيها الى ان يكون جبل رحوبة الذي يمتد من المغرب الى المشرق . ذكر بطليموس ان راسه الغربي حيث الطول ثلاثون درجة وخمسون دقيقة والعرض ست وعشرون درجة ودقائق .

ابو الفدا

قال ابن سعيد : ومدينة المسيلة محدثة بناها الخلفاء الفاطميون ، خلفاء مصر ، ولها نهر يمر بغربيها ويغوص في الصحاري والرمال ، وهي في شمال بسكرة . قال في العزيزي : ومدينة المسيلة محدثة أحدثها القائم بالله الفاطمي سنة خمس عشرة وثلاثمائة وسماها المحمدية . ومنها الى مدينة طينة اربعة وعشرون فرسخا .

القلقشندي

ومنها المسلية ... وهي من بلاد الجريد موقعها في الاقليم الثالث . قال ابن سعيد حيث الطول ثلاث وعشرون درجة [الخ. ما ذكر اعلاه] . قال في «العزيزي» . وهي مدينة محدثة بناها القائم الفاطمي [الخ . ما ذكره ابو الفدا] . قال ابن سعيد : ولها نهر يمر بغربيها ويغوص في رمال الصحاري .

قلعة بني حماد (قلعة أبي طويل) (1)

البكري

وهي قلعة كبيرة ذات منعة وحصانة وتمصرت عند خراب القيروان . انتقل اليها أكثر اهلها من افريقية . وهي اليوم مقصد التجار وبها تحل الرحال من العراق والحجاز ومصر والشام وسائر بلاد المغرب . وهي اليوم مستقر مملكة صنهاجة . وبهذه القلعة كان احتضن أبو يزيد مخلد بن كيداد [...] على ما نذكره في موضعه من هذا الكتاب ان شاء الله .

الادريسي

ومدينة القلعة من اكبر البلاد قطرا واغزرها خيرا واوسعها اموالا واحسنها قصورا ومساكن وأعمها فواكه وخصبا . وحنطتها رخيصة ولحومها طيبة سمينة . وهي في سند جبل سامي العلو صعب الارتقاء . وقد استدار سورها بجميع الجبل ، وسمى تاقربست . واعلى هذا الجبل متصل ببسيط من الارض ومنه ملكت القلعة . وبهذه المدينة عقارب كثيرة سود تقتل في الحال . واهل القلعة يتحرزون منها ويتحصنون من ضررها ويشربون لها نبات القوليون الحراني . ويزعمون انه ينفع شرب درهمين منه لعام كامل ، فلا يصيب شاربها شيء من ألم العقارب . وهذا عندهم

---

(1) راجع غير ما ذكر كتاب الاستنصار (الملحق) في آخر هذا الكتاب . وكذلك :

De Beylié, la Kalas des Bani Hammad, une capitale Berbere de l'Afrique du Nord au XI[e] siecle ; Blachet et Saladin, Description des Monuments de la Kalaa des Bani Hammad (Nouvelles Archieves des Missions Scientifiques, T. XVII) ; Marçais (G), les Poteries et les Faiences de la Kalaa des Bani Hammad ; Maquesse, la Kala des Bani Hammad (R.A., 1886) ; Robert, la Kala des Bani Hammad (Bult. de la Soc. Arch. de Constantine (T. XXXVII, 1903)

إسماعيل العربي ، دولة بني حماد ، ملوك القلعة وبجاية ، نشر الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، 1980 .

مشهور ، وقد أخبر بذلك من يوثق به في وقتنا هذا . وحكى عن هذه الحشيشة انه شربهـا وقد لسبته العقرب فسكن الوجع مسرعا . ثم انه لسبته العقارب في سائر العام ثلاث مـرات فما وجد لذلك اللسب الما . وهذا النبات ببلد القلعة كثير .

ياقوت

قلعة حماد : مدينة متوسطة بين اكم واقران لها قلعة عظيمة على قلة جبل يسمى تاقربوست تشبه في التحصن ما يحكي عن قلعة انطاكية . وهي قاعدة ملك بني حماد بن يوسف الملقب بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي البربري . وهو أول من احدثها في حدود سنة 370 هـ . وهي قرب أشير من أرض المغرب الأدنى ، وليس لهذه القلعة منظر ولا رواء حسن انما اختطها حماد للتحصين والامتناع ، لكن تحف بها رساتيق ذات غلة وشجر مثمر كالتيـن والعنب في جبالها وليس بالكثير . وبها الاكسية القلعية الصفيقة النسيج الحسنة المطرزة بالذهب ولصوفها من النعومة والبصيص بحيث ينزل مع الذهب بمنزله الابرسيم . ولاهلها صحة مزاج ليس لغيرها . وبينها وبين بسكرة مرحلتان ، والى قسطينة الهواء ايام . وبينها وبين سطيف ثـلاث مراحـــل .

*
* *

بجاية (1)

البكري

... ثم مرسى مدينة بجاية ازلية آهلة عامرة بأهل الاندلس بشرقيها نهر كبير تدخله السفن محملة ، وهو مرسى مأمون مشتى قد خرج عن محاذاة جزيزة الاندلس . ومرسى بجاية هو ساحل قلعة ابي طويل . وعلى هذا المرسى في تلك الجبال ، قبائل كتامة ، وهي شيعة يكرمون من مال الى مذهبهم ويبرون من وافق اعتقادهم . ثم يلي مرسى بجاية مرسى سبيبه .

الادريسي

ومدينة بجاية على البحر ، لكنها على جرف حجر ، ولها من جهة الشمال جبل يسمى اميسون وهو جبل سامي العلو صعب المرتقى . وفي اكنافه جمل من النبات المنتفع به في صناعة الطب مثل شجر الحضض والسقولوقندوريو والبرباريس والقنطوريون الكبير والزراوند والقسطون والافستين

(1) راجع غير ما ذكر : إبن خلدون ، ج 6 ؛ عبد الواحد المراكشي ، المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، ديوان إبن حمديس الصقلي ؛ كتاب الاستبصار ؛ مناهج الفكر (مخطوط محفوظ في مكتبة اكسفورد ، ورقة 105) ؛ روض القرطاس ؛ إسماعيل العربي ، بجاية عاصمة بني حماد الثانية — مجلة الثقافة عدد 18 ديسمبر / يناير 1973 ؛ وكتابنا ، دولة بني حماد ، ملوك القلعة وبجاية ؛ الغبريني ، عنوان الدراية ، طبع بيروت وكذلك : Feraud, Histoire de Bougie ; ولنفس الكاتب ، (1889 , Aicha, Poetesse de Bougie (R.A., 1889) Gysel (St.) Atlas Archéologique ; de l'Algérie ; Marçais (G), la Poterie et Faience de Bougie ; Marmol, Description de Africa (T. I.); Marçais (G), Bougie (Documents Algeriens 1950) ; Ferand, Notes sur Bougie (R.A., 1858-1859) ; الحسن الوزان ، وصف أفريقية . ولنفس المؤلف la Conquète de Bougie par les Espagnols (R.A., 1868) ; Wintzer (P), Bougie, Place Forte Espagnole (Bult. Soc. Géogr. d'Alger, 1932), Uinares (A), le Séjour de Raymon Lulle à Bougie (1307), Estudios Lulianos, 1960, Vol. V.

وغير ذلك من الحشائش . وفي هذا الجبل كثير من العقارب ، صفر الالوان ، لكـن ضررها قليـــل .

ومدينة بجاية في وقتنا هذا ، مدينة الغرب الاوسط وعين بلاد بني حماد . والسفن اليها مقلعة وبها القوافل منحطة والامتعة اليها برا وبحرا مجلوبة ، والبضائع بها نافقة وأهلها مياسير تجار . وبها من الصناعات والصناع ما ليس بكثير من البلاد . وأهلها يجالسون تجار المغرب الاقصى وتجار الصحراء وتجار المشرق . وبها تحل الشدود وتباع البضائع بالاموال المقنطـرة . ولها بواد ومزارع . والحنطة والشعير موجودان بها بكثرة والتين وسائر الفواكه بها ما يكفي لكثير من البلاد . وبها دار صناعة لانشاء الاساطيل والمراكب والسفن والحرابي لان الخشب فـي اوديتها وجبالها كثير موجود ويجلب اليها من اقاليمها الزفت البالغ الجودة والقطران . وبها معادن الحديد الطيب موجودة وممكنة ومن الصناعات كل غريبة ولطيفة . وعلى بعد ميل منها نهـر يأتيها من جهة الغرب من نحو جبال جرجره . وهو نهر عظيم يجاز عند فم البحر بالمراكب . وكلما بعد عن البحر ، كان ماؤه قليلا ، ويجوز من شاء في كل موضع منه . ومدينة بجايـة قطب لكثير من البلاد ، وذلك ان من بجاية الى ايقجان يوم وبعض يوم . ومن بجايــة الــى بلزمـــا مرحلتـــان .

وأما مدينة بجاية نفسها ، فانها عمرت بعد خراب القلعة التي بناها حماد بن بلقيـن ، وهي التي تنسب دولة بني حماد اليها . والقلعة كانت في وقتها وقبل عمارة بجاية دار الملـك لبني حماد ، وفيها كانت ذخائرهم مدخرة وجميع اموالهم مختزنة ودار اسلحتهم . والحنطـة تختزن بها ، فتبقى العام والعامين لا يدخلها الفساد ولا يعتريها تغيير . وبها من الفواكه الماكولة والنعم المنتخبة ما لا يلحقه الانسان بالثمن اليسير . ولحومها كثيرة ، وبلادها وجميع ما ينضاف اليها تصلح فيها السوائم والدراب لانها بلاد زرع وخصب . وفلاحتهم اذا كثرت اغنت واذا قلت كفت . فانها ابد الدهر شباع واحوالهم صالحة . وقد ذكرنا حالها وصفة بنائها فيما تقدم لنا . وهي متعلقة بجبل عظيم مطل عليها وقد احتوى سورها المبني على جميع الجبل المذكور طولا وعرضا . وامامها في جهة الجنوب ارض سهلة متصلة الانفراج لا يرى الناظر فيها جبلا عاليا ولا شرفا مطلا الا على بعد منها . وعلى مسير مراحل يرى جبالا لا تبين . وعـلى ميــل منهـــا ، المسيلــة .

ابن سعيد

... وفي شرقيها قاعدة الغرب الاوسط ، بجاية ، حيث الطول اثنتان وعشرون درجة والعرض اربع وثلاثون درجة وخمس عشرة دقيقة ولها نهر في نهاية الحسن على شاطئه البساتين المنتزهات ويتفرج فيه اصحاب المراكب من ينصب الى البحر بشرقيها . ومنبعه من جهة شقراء بصحراء الجنوب . وعرض البحر عند بجاية الى طرطوشه من الأندلس ثلاث مجار .

ابو الفدا

وبجاية ، هي قاعدة الغرب الاوسط ، ولها نهر على شاطئه البساتين والمنازه ، في شرق بجاية . ويقابل بجاية من الاندلس طرطوشه . وعرض البحر بينهما ثلاث مجار . وغربي بجاية ، جزائر بني مزغنان (كذا) . وهي فرضة مشهورة . ومزغنان ، بفتح الميم وسكون الزاء وكسر الغين المعجمتين . ثم نونان بينهما الف ، الاولى مشددة ـ عن الشيخ شعيب . وفي آخر حد مملكة بجاية وشرقي قسنطينة مرسى الخرز المخصوص بالمرجان .

القلقشندي

بلاد بجاية ... وبجاية مدينة من مدن المغرب الاوسط واقعة في الاقليم السابع . قال ابن سعيد : حيث الطول اثنتان وعشرون درجة والعرض اربع وثلاثون درجة وخمس وخمسون دقيقة . قال في «تقويم البلدان» : هي قاعدة الغرب الاوسط ، وهي مقابل طرطوشة من الاندلس ، وعرض البحر بينهما ثلاث مجار . قال في «مسالك الابصار» وهي مدينة مسورة أضيف الى جانبها ربض ادير عليه رسوم ضام لنطاق المدينة فصارا كالشيء الواحد . قال : والربض في وطاه ، والمدينة القديمة في سفح جبل ، يدخل اليها خور من البحر الرومي تدخل منه المراكب اليها . قال في «تقويم البلدان» ولها نهر في شرقيها ، على شاطئه البساتين والمنازه قال في «مسالك الابصار» : وبها عينان من الماء احداهما كبيرة ومنها شرب اهلها ولها نهر جار على نحو ميلين منها تحف به البساتين على ضفتيه ممتدة نحو اثني عشر ميلا متصلا بعضها ببعض لانفصال بينهما الا ما يسلك عليه الى البساتين الى ان يصب في بحر الروم . وبضفتيه للسلطان بستانان مقابلان شرقا وغربا . الشرقي منهما يسمى الربيع .

*
* *

مـرسـى الخـرز (1)

ابن حوقل

... وعلى الساحل منها بهذا البحر على نحو مرحلة ، مرسى الخرز ، وفيه معدن المرجان . ومرسى الخرز ايضا قرية غير انها نبيلة لمكان المرجان وحضور من يحضرها من التجار ، ولا اعرف في شيء من البحار له نظيرا في الجودة ولا يوجد المرجان في مكان غير هذه القرية المدعوة بمرسى الخرز ومدينة تنس ومدينة سبته المحاذية من الاندلس لجبل طارق ، وهي المعروفة بالجزيرة الخضراء . والذي بها من المرجان قليل الجوهر حقير المقدار في جنب ما يخرج من مرسى الخرز . ولسلطان المغرب بها أمناء على ما يخرج منه ، وناظر يلي صلاتها ومعادنها وما يلزم ما يخرج من هذا المعدن . وللتجار بها اموال كثيرة من اقطار النواحي عند سماسرة وقوف لبيع المرجان وشرائه . ويعمل بها في أكثر الاوقات في اثارة المرجان الخمسون قاربا ، وما زاد على ذلك مما في القارب والعشرون رجلا الى ما زاد ونقص . والمرجان نبت ينبت كالشجر في الماء ثم يستحجر في نفس الماء بين جبلين عظيمين . والعاملون فيها يكثرون الاكل والشرب والخلاعة ، ولهم فيها مكاسب وافرة وينتبذون نبيذ العسل فيشربونه من يومه ويسكرهم الاسكار العظيم ، ويعمل من الصداع ما لا يعمله نبيذ الذرة وغيره من الاشربة . وهي ناحية قليلة الزرع يجلب اليها ما يقوتها مما يجاورها من فاكهة وغيرها . وفيها من صيود السمك ما لم أر ببلد مثله سمنا وربما منع جانبه من أكل ما يصاد بها ولا سيما وقت الغلات .

---

(1) راجع غير ما ذكر : Lombard (M), Arsenaux et Bois de Marine dans la Méditerranée Musulmane (tirage apart d'un recueil intitulé : le Navire et l'Economie Maritime) ; Marçais (G), les Arabes en Berberie ; Heyd, Histoire du commerce levant, traduction Reynavd :

المقدسي

مرسى الخرز مدينة في جزيرة على البحر يدخل من موضع واحد . ومنها يرتفع المرجان يرتفع القرن ، وهي في جبال ، يخرجون الى جمعه في قوارب ومعهم صلبان من خشب قد لفوا عليها شيئا من الكتان المحلول وربطوا في كل صليب حبلين ياخذهما رجلان فيرميان بالصليب ويدير النوتى القارب فيتعلق بالقرن ثم يجذبونه . فمنهم من يخرج عشرة الاف دراهم ثم يجلى في اسواق لهم ويباع جزافا رخيصا ولا اشراق له قبل جليه ولا لون .

البكري

وبشرقي مدينة بونة ، مرسى الخرز فيه المرجان . وهي مدينة قد احاط بها البحر الا مسلك لطيف ربما قطعه البحر في الشتاء . عليها سور وبها سوق عامرة . وقد صنع بها مرفأ للسفن منذ مدة قريبة . وفي هذه المدينة تنشأ السفن والمراكب البحرية التي يغزى بها الى بلاد الروم . والى هذه المدينة يقصد الغزاة من كل أفق لان مقطعها يقرب من جزيرة سردانيا بينهما نحو مجراوين .

الادريسي

ويقابل باجة في جهة الشمال وعلى نحر البحر ، مدينة مرسى الخرز وبينهما مرحلة كبيرة ، وهي مدينة صغيرة عليها سور حصين ولها قصبة وحولها عرب كثير وعمارة اهلها لها صيد المرجان والمرجان يوجد بها كثيرا ، وهو أجل جميع المرجان الموجود بسائر الاقطار ، مثلما يوجد منه بمدينة سبتة وصقلية .

ويقصد التجار من سائر البلاد الى هذه المدينة فيخرجون منه الكثير الى جميع الجهات . ومعدن هذا الجوهر في هذه المدينة مخدوم في كل سنة ويعمل به في كل الاوقات الخمسون قاربا والزائد والناقص . وفي كل قارب العشرون رجلا وما زاد ونقص . والمرجان ينبت كالشجر ثم يتحجر في نفس البحر بين جبلين عظيمين ويصاد بالات ذوات ذوائب كثيرة تصنع من القنب ، تدار هذه الالة في اعلى المراكب فتلتف الخيوط على ما قاربها من نبات المرجان فيجذبه الرجال الى انفسهم ويستخرجون منه الشيء الكثير مما يباع بالاموال الطائلة . وعمدة اهلها على ذلك . وشرب اهلها من الابار ، وهي قليلة الزرع ، وانما يجلب اليها قوتها من بوادي العرب

المجاورة ، وكذلك الفواكه ، وربما جلبت اليها من بونة وغيرها . وبين مرسى الخرز وبونة مرحلة خفيفة ، وفي البحر 24 ميلا روسية .

ابن سعيد

... وفي شرقيها مرسى الخرز المخصوص بالمرجان . وأمامه في البحر في هذا الجزء سردانيه ، الجزيرة المشهورة التي يوجد فيها المرجان . وهو شجر في البحر مستحجر يخرج ابيض اللون لينا فاذا ضربه الهواء احمر وصلب . ومدينة هذا المرسى حيث الطول تسع وعشرون درجة ودقائق ، والعرض يقارب عرض بونة .

ياقوت

مرسى الخرز ، بالفتح ثم السكون والسين مهملة والقصر . وأصله مفعل ، من رست السفينة اذا ثبتت ، والموضع مرسى . والخرز بفتح الخاء المعجمه والراء ثم الزاي ، واحدته خرزة : موضع معمور على ساحل افريقيه ، بينه وبين بونة ثلاثة ايام . منه يستخرجون المرجان ، يجتمع التجار فيستاجرون اهل تلك المواضع على استخراجه من قعر البحر وليس في ذلك على مستخرجه مشقة ولا لسلطان فيه حصة . فانه يتخذ لاستخراجه صليب من خشب طوله قدر الذراع ثم يشد في طول ذلك الصليب حجر ويشد فيه حبل ويركب صاحبه في قارب ويبعد عن الساحل قدر نصف فرسخ . وفي قعر تلك المسافة ينبت المرجان فيرسل ذلك الصليب في الماء الى ان ينتهي الى القرار ثم يمر بالقارب يمينا وشمالا ومستديرا الى ان يعلق المرجان في ذوائب الصليب ثم يقتلعه بقوة ويرقيه اليه فيخرج وقد علق في ذلك الصليب جسم مشجرا الى القصر ما هو ، اغبر اشقر . فاذا حل عنه قشره خرج احمر اللون فتصقله الصناع .

القزويني

مرسى الخرز بليدة على ساحل افريقية عندها يستخرج المرجان وليس للسلطان فيه حصة ، فيجتمع بها التجار ويستاجرون اهل تلك النواحي على استخراج المرجان من قعر البحر . حكي من شاهد كيفية استخراجه انهم يتخذون خشبتين طول كل واحدة منهما ذراع ، ويجعلونهما صليبا ويشدون فيه حجرا ثقيلا ، ويصلونه بحبل ويركب صاحبه في قارب ويتوسط البحر نصف فرسخ ليصل الى منبت المرجان ، ثم يرسل الصليب الى البحر حتى ينتهي الى قرار

البحر ويمر بالقريب يمينا وشمالا ومستديرا ليتعلق المرجان في ذوائب الصليب ثم يقلعه بالقوة ويرقيه ، فيخرج جسم اغبر اللون ، فيحك قشره فيخرج احمر اللون حسنا .

القلقشندي

وشرقي قسنطينة في آخر مملكة بجاية ، مرسى الخرز . ومنه يستخرج المرجان من قعر البحر على ما تقدم في الكلام على الاحجار النفيسة .

*
* *

سطيف

ابن حوقل

ومدينة سطيف كثيرة الخير تقارب ميلة والمسيلة وتصاقب القسطنطينه . وبربرها بالصورة التي ذكرتها من بذل الطعام والاولاد . وكان اصل ما استباحهم به ابو عبد الله الداعي على بذل اولادهم لا ضيافهم . فاني سمعت ابا علي بن ابي سعيد يقول انه ليبلغ بهم فرط المحبة في اكرام الضيف ان يؤمر الصبي الجليل الاب والاصل الخطير في نفسه بمضاجعة ضيف ليقضي منه نهمته وينال منه الحرام وربما وقعت شهوة أحد في جليل من فرسانهم وشجعانهم فلا يمتنع عليه مطلب من الباطل ، ويرى ذلك كرما وفخرا والاباء عنه عارا ونقصا وليس نرى بكتامة التي بسطيف ولا بغيرها شيئا من هذا الامر ولا يجيزونه ولا يستحسنون ذكره وكتامه التي بهذه الناحية متشيعون وبهم ظهر ابو عبد الله الداعي واخذ المغرب .

البكري

ومدينة سطيف على مرحلتين من المسيلة ... ومدينة كبيرة جليلة أولية كان عليها سور خربته كتامة مع ابي عبد الله الشيعي ، لانها كانت في الاول لكتامه ثم غلبتهم عليها العرب فكانوا يعاشرونهم اذا دخلوها ، وهي اليوم بدون سور لكنها عامرة كثيرة الاسواق رخيصة الاسعار وبين سطيف والقيروان عشر مراحل .

وعلى مدينة بجاية الى جهة الجنوب حصن سطيف ، وبينهما مرحلتان .

وحصن سطيف كبير القطر كثير الخلق كالمدينة . وهو كثير المياه والشجر المثمر بضروب من الفواكه ومنها يحمل الجوز لكثرته بها الى سائر الاقطار . وهو بالغ الطيب حسن ويباع بها رخيصا . وبين سطيف وقسنطينة مراحل . وبقرب سطيف جبل يسمى ايكجان (1) وبه قبائل كتامة وحصن حصين ومعقل منيع ، وكان قبل هذا من عمالة بني حماد .

وقبيلة كتامة (2) تمتد عمارتها إلى أن تتجاوز أرض القل و بونه . وفيهم كرم و بذل طعام لمن قصدهم ونزل باحدهم . وهم أكرم الرجال للاضياف حتى استسهلوا مع ذلك بذل اولادهم للاضياف النازلين بهم ولا تتم عندهم الكرامة البالغة الا بمبيت اولادهم مع الاضياف ليتلقوا منهم الارادة ولا ترى كتامه بذلك عارا ولا ترجع عن ذلك البته . وقد اصابتهم الملوك في ذلك وأبلغت في نكايتهم فما اقلعوا ولا امتنعوا عن عاداتهم في ذلك ولا تحولوا عن شيء منه . ولم يبق من كتامه في وقت تاليفنا هذا الكتاب سوى اربعة الاف رجل وكانوا قبل ذلك عددا كثيرا وقبائل وشعوبا . واعف قبائل كتامه واقلهم فعلا لهذا الفن ، من كان في جهة سطيف لانهم من القدم لا يرون ذلك ولا يستجيزونه ولا يستحسنون شيئا من فعل هذه المنكرات التي تأتيها قبائل كتامه الساكنون بجهة القل وبجبالها المتصلة باقليم قسنطينة الهواء .

ياقوت

سطيف ، مدينة في جبال كتامة بين تاهرت والقيروان من أرض البربر ببلاد المغرب ، وهي صغيرة الا انها ذات مزارع وعشب عظيم . ومنها خرج أبو عبد الله الشيعيى داعيه عبيد الله المسمى المهدي .

القلقشندي

سطيف ، مدينة من الغرب الاوسط في الاقليم الثالث . قال في «الاطوال» حيث الطول

---

(1) لا يزال موقع ايكجان غير معروف بالتحديد ، وذلك على الرغم من محاولات الباحثين للتعرف عليه . انظر تفاصيل مجمل هذه المحاولات في : Mohammad Talbi. l'Emirat Aghlabit, Paris. 1966, P. 600.

(2) عتبر كتامة وصنهاجة وزناتة أعظم قبائل المغرب . وهم ينتسبون إلى كتم بن برنس بن برّ ، وقاعدتهم جبل ايكجان بالقرب من سطيف . وتشمل أراضيهم المناطق التي تمتد من جبال أوراس جنوبا حتى البحر شمالا عند بجاية وبونة . ويذكر ابن خلدون أن كتامة من أشد قبائل البربر بأسا وأطولهم باعا في الملك . وقد كانت كتامة دعامة الدولة العبيدية وسندها ، وذلك في المغرب وفي مصر وسورية على السواء . انظر غير ما ذكر في هذا الكتاب ، الأقاليم للخوارزمي ص 21 ، جمهرة أنساب العرب ، ص 495 ، البيان المغرب 125/1 ، العبر 9/6 ، 148 .

سبع وعشرون درجة ، والعرض احدى وثلاثون درجة . وهي مدينة حصينة ، بينها وبين قسنطينة اربع مراحل ، ولها حصن في جهة الجنوب عن بجاية على مرحلتين منها . ولها كورة تشتمل على قرى كثيرة غزيرة المياه كثيرة الشجر المثمر بضروب من الفواكه وبها الجوز الكثير ومنها يحمل الى سائـــر البـــلاد .

***

طبنـــة (1)

اليعقوبي

مدينة الزاب العظمى ، طبنة . وهي التي ينزلها الولاة وبها اخلاط من قريش والعـرب والجند والعجم والافارقه والروم والبربر . والزاب بلد واسع (1)

ابن حوقل

طبنة مدينة قديمة وكانت عظيمة كثيرة البساتين والزروع والقطن والحنطة والشعيـر . ولها سور من طابية . وأهلها قبيلتان : عرب وبرقجانه . وأكثر غلاتهم بالسقي . ويزرعــون الكتان ، وجميع الحبوب فيها غزيرة . وكانت وافرة الماشية من البقر والغنم وسائر الكراع والنعم فحدث بينهم البغي والحسد الى أن اهلك الله بعضهم ببعض وأتى على نعمهم فصاروا بعد السعة والدعة الى الضيق والذلة والصغار والشتات والقلة ، مشردين في البلاد مطرحين في كل جبل وواد وبقيتهم صالحة . ومن طبنة الى مقرة منزل فيه ايضا مرصد ، مرحلة .

البكري

ومن نقاوس الى مدينة طبنة ، وهي مدينة كبيرة سورها اليوم (...) من بناء المنصور ابي

(1) يجب التمييز بين زاب الموصول وزاب أفريقية الذي يمتد في جنوب ولاية الاوراس. وقد كان الزاب في القرون الاولى من الفتح الإسلامي يشمل سهول الحضنة ومدنها الواقعة عند سفوح جبال الأطلس الصحراوي ، مثل المسيلة وطبنة . راجع :

Delattre, Excursion dans le Zab Occidental (Recueil des Notices et Mémoires de la Société Archéologique Historique et Géographique de Constantine ; Maguelonne, Monographie Historique de la Tribu des Ziban.

الدوانيف . وهي مما افتتح موسى بن نصير ، فبلغ سبيها عشرين الف ، وهرب ملكهم كسيلة (1) وسورها مبني بالطوب وبها قصر وارباض وداخل القصر جامع وصهريج كبير يقع فيه نهرهـا ، ومنه تسقى بساتينها . ويقال أن الذي بناها أبو جعفر عمر بن حفص المهلبي (2) المعروف بهزرامورد يسكنها العرب والعجم بينهم الاختلاف والحرب . ويسكن حولها بنو زفراح . وقال محمد بن يوسف ان قصر طبنة قديم اولي كبير جليل مبني بالصخر عليه ازاج كثيره ينزله العمال . وهـو ملاصق لسور المدينة من جهة القبلة عليه باب حديد . ولمدينة طبنة من الابواب ، باب خاقان مبني بالحجر عليه باب حديد ، وهو سري ، وباب الفتح ، غربي [عليه] باب حديد ايضا . وبينهما سماط يشف المدينة من الباب الى الباب ، وباب تهوذا ، قبلي عليه باب حديد ، وهو سري ايضا . والباب الجديد [عليه] باب حديدايضا ، وباب كتامه . جوفي . وخارج المدينة بازاء باب الفتح سور مضروب على فحص فسيح يكون مقدار ثلثي مدينة طبنة ، بناه عمر بن حفص ويشق سكك المدينة جداول الماء العذب وبها اسواق كثيرة غير السماط المذكور ، ولها بساتين يسيرة ملاصقة للربض ومقبرتها بشرقيها . وبقرب المقبرة غدير يعرف بغدير فرغان . وهو يجري في مصلى العيد . وليس من القيروان الى سجلماسة مدينة اكبر منها . واسم نهرهـا بيطام . واذا حمل سقى جميع بساتينها وفحوصها ويقول اهلها : «بيطام بيت الطعام» لجودة زرعها . واذا كانت الحرب بين العرب والمولدين ، استمد العرب بعرب مدينة تهوذا وسطيف واستمد المولدون بأهل بسكره وما والاها . وقال احمد بن محمد المروذي في قصة اسماعيـل بن ابي القاســـم .

سرنـا وقـد حـل بقـرب طبنـــــه   وصــار منهــا اهلهــا في محنـة
فــاعظــم الله العزيـــز المنـــــة   وبدلـــوا مــن بعـد نـار جنـة

وفج زيدان يطل على مدينة طبنة واياه عنى ابو عبد الله الشيعي في قولـه : .

---

(1) راجع عن كسيلة ، إبن الأثير ، الكامل 466/3 و107/4—110 ؛ إبن عذارى ، المغرب (طبع بيروت) 20/1—22

(2) عمر بن حفص بن عثمان بن قبيصة ، بن أبي صفره المهلبي ، من أبطال الفتح الإسلامي كان العجم يسمونه «هزارمرد» ، أي : ألف رجل . ولي على أفريقية في عهد المنصور العباسي ، ووصل إلى القيروان في سنة 151 هـ أثناء فتنة عظيمة قاتل فيها جموع الثوار على رأس جيشه مدة وأبلى بلاء حسنا ، ثم تحصن وراء أسوار القيروان ، ولما خرج لمجابهة المحاصرين قاتل حتى قتل . راجع ، الاستقصا (58/1) ، العبر (1924/4) ، الكامل في عدة أماكن ، وخصوصا في (595/5 ـ 598) ، البيان (75/1) ، الطبري (284/9) ، الخلاصة النقية ص 19 .

من كان مغتبطا بلين حشية فحشيتي وأريكتي سرج
من كان يعجبه ويبهجه نقر الدفوف ورنة الصنج
فانا الذي لا شيء يعجبني الا اقتحامي لجة الوهج
سل عن جيوشي اذا طلعت بها يوم الخميس ضحى من الفج

ومن طبنة الى مدينة مقرة ، وهو بلد كبير ذو ثمار وأنهار ومزارع . ومنها الى قلعة ابي طويل .

الادريسي

ومن المسيلة الى طبنة مرحلتان . وطبنة ، مدينة الزاب ، وهي مدينة حسنة كثيرة المياه والبساتين والزروع والقطن والحنطة والشعير ، وعليها سور من تراب . واهلها اخلاط ، وبها صنائع وتجارات واموال لاهلها متصرفة في ضروب من التجارات . والتمر بها كثير ، وكذلك سائر الفواكه . وتخرج من المسيلة الى مقره ، مرحلة . وهي مدينة صغيرة وبها مزارع وحبوب . وأهلها يزرعون الكتان ، وهو عندهم كثير .

ياقوت

طبنة ـ وهي ، فيما احسب عجمية . ومثلها في العربية الطبنة لعبة للاعراب ، وهي خطة يخطونها مستديرة ، وجمعها طبن .

قال :

تغيرت بعدي والهتها طبن

والطبنة صوت الطنبور . وطبنه : بلدة في طرف افريقيه مما يلي المغرب على ضفة الزاب ، فتحها موسى بن نصير ، فبلغ سبيها (*) عشرين الفا . وهرب ملكهم كسيلة . وسورها مبني بالطوب ، وبها قصر وارباض ، وليس بين القيروان الى سجلماسة مدينة اكبر منها . استجدها عمر بن حفص هزارمرد المهلبي في حدود 454 هـ . ينسب اليها علي بن منصور الطبني روي عنه غندر البصري ، وروي عن محمد بن مخارق . وكتب عنه غندر البصري وأبو القاسم بن علي بن معاوية ابن الوليد الطبني ، له بمصر عقب ، حدث عن ابن المغربي وغيره وأبو الفضل عطية

* بياض في الأصل

بن علي بن الحسين بن يزيد الطبني القيرواني . سافر الى بغداد وسمع الحديث بها وله شعر حسن منه ، وهو معنى بديع جـدا :

قالــوا التحـي وانكسفـت شمسـه
ومـا دروا عـــذر عذاريـه
مـرءاة خـديه خـلاها الصبـا
فبـان فيها فـيء صـدغيه

وأبو مروان بن زياده الله الطبني (1) شاعر اديب وهو القائل لغوي كان بالاندلس . وقد رجع من المشرق وكثر عليه الجمـع :

انـي اذا حضرتنـي الـف محبرة
يقـول شيخـي .....(٠)
نـادت بعقوتـي الاقـلام معلنـة
هـذي المفاخـر لا قبعـان مـن لبن

أبو الفدا

وطبنة مدينة الزاب . وهي حسنة كثيرة المياه والبساتين والزرع من القطن والحنطة والشعير . وعليها سور من التراب . وأهلها اخلاط . والتمر بها كثير والفواكه كذلك . وبينها وبين المسيلة مرحلتـان .

وطبنـة مدينـة عظيمـة .

* * *

(1) من أعلام المنتسبين إلى طبنة ، عبد الملك بن زياده الله الطبني (396 — 457 هـ) أصله من طبنة وعاش في قرطبة . رحل إلى الحجاز وأدى فريضة الحج وكتب على كثير ممن اجتمع بهم من العلماء هناك وأملى كثيرا من تقييداته . كان يوصف بالإفراط في البخل وقد انتهى الأمر إلى أن قتلته جواريه لتقتيره عليهن . انظر أخباره في الصلة لابن بشكوال ص 354 ، المغرب لابن سعيد 92/1 .

(٠) بياض في الاصل

بسكـــرة (1)

البكري

وبسكرة كورة فيها مدن كثيرة ، وقاعدتها بسكرة . وهي مدينة كبيرة كثيرة النخيل والزيتون وأصناف الثمار . وهي مدينة مسورة عليها خندق وبها جامع ومساجد كثيرة وحمامات وحواليها بساتين كثيرة . وهي في غابة كبيرة مقدار (ها) ستة اميال فيها اجناس التمور منها جنس يعرفونه بالكسبا ، وهو الصيحاني ، يضرب به المثل لفضله على غيره ، وجنس يعرف بالليّاري ، ابيض املس ، كان عبيد الله الشيعي يأمر عماله بالمنع من بيعه والتحظير عليه وبعث ما هنالك منـه اليه ، وأجناس كثيرة يطول ذكرها لا يعدل بها غيرها . وحول بسكرة ارباض خارجة عن الخندق المذكور . وبسكرة علم كثير واهلها على مذهب اهل المدينة . ولها من الابواب ، باب المقبـره وباب الحمام ، وباب ثالث . وسكانها مولدون . وحولها من قبائل البربر سدراته وبنو مغراوة ، اهل بيت بني خزر وبنو يزمرتي . وداخل مدينة بسكرة آبار كثيرة عذبة ، منها في الجامع بئر لا تنزف . وداخل المدينة جنان يدخل اليه الماء من النهر . وبها جبل يقطع فيه الملح كالصخـر

---

(1) تشغـل بسكـرة مكان المدينة الرومانية القـديمـة Vescera التي كانت مركزا حربيا وقاعدة للتوغل الإستعماري الروماني في منطقة الزاب . وقد كانت بسكرة في عهد بني حماد تحت حكم بني رمان الذين كانوا يدينون بالولاء لسادة القلعة .
وكانت بسكرة في ذلك الوقت ، مسورة وعليها خندق ، كما يشير إلى ذلك البكري ، وقد اشتهرت مدينة الزاب منذ أقدم العصور بخصب الأراضي المجاورة لها . وبسكرة تقع على طول 42 5 شرقي جرينتش ، وخط عرضها 27 39 شمالا .
راجع غير ما ذكر : تاج العروس 43/3 ؛ بغية الرواد 183/2 ؛ إسماعيل العربي ، « العمران والنشاط الإقتصادي في الجزائر في عهد بني حماد » ، مجلة الأصالة ، أبريل / مارس 1974 ؛ التعريف بابن خلدون ، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي) .

الجليل . ومنه كان عبيد الله الشيعي وبنوه يستعملون في طعامهم . وتعرف ببسكره النخيل . قال احمد بن محمد المروذي :

ثم أتى بسكره النخيل
قد اغتدى بزيّه الجميل

ومن مدنها ، مدينة جمونة . ومدينة طولقة ومدينة مليلى . ومدينة بنطيوس ، وهي من بنيان الاول . وشرب بسكره من نهر في جوفيها منحدر من جبل اوراس ، وقرية من قرى بسكره ملشون ، منها ابو عبد الله الملشوني (1) وابن اسحق ، عالمان يحمل عنهما العلم ، سمع منهما ابو عبد الله بن ميمون ومقاتل وغيرهما . اخبرني احمد بن عمر بن انس (2) قال اخبرني قاسم بن عبد العزيز ان في الطريق الى بسكره جبل يعرف بزيغيزي في وسطه كهف فيه رجل قتيل لم يغيره مر الزمان وتقادم الدهور ، تبض جراحه دما كانما قتل منذ يومين ، وتخبر الكافة انهم لا يعلمون متى قتل قدما . وقد نقله اهل تلك النواحي ودفنوه بافنيتهم تبركا به ثم لم ينشبوا ان وجدوه في الكهف على حاله . يحدث بذلك ثقات اهل تلك الناحية ، والله فعال لما يشاء وقال محمد بن يوسف في كتابه ان هذا القتيل في شرف جبل بشرقي عين اريان . وهذه العين بين مدينة مرصاجنه ومدينة سبيبه المذكورة ايضا . وذكر انه كما ذبح من يومه وانه هناك من قبل فتح افريقية ولم يذكر أمر دفنه . والله اعلم بامره .

الادريسي

ومن نقاوس الى حصن بسكره مرحلتان ، وهو حصن منيع في كدية تراب عال وبه سوق

---

(1) تعرف دوسلان على ملشون أو ملشونة في القرية التي تحمل اليوم اسم مشونش راجع : ترجمة البكري (ص 112 ـ تعليق 4) وأما أبو عبد الله إسحاق بن عبد الملك الملشوني فقد كان فقيها وله إلمام بالتاريخ . ترجم له صاحب طبقات علماء أفريقية تحت إسم « أبو عبد الملك الملشوني » . وقال أبو العرب بشانة : « حدثني أحمد بن يزيد عن إسحاق عن أبيه عن مقاتل بن سليمان قال : وملشون قرية للعجم بتهوذة » . ومضى فقال : « رأيت إسحاق الملشوني عند سحنون أحسبه قال يسمع منه (ص 180 ـ 181) .

(2) أحمد بن عمر بن أنس بن دلهاث الزّغبي العذري ، أبو العباس ، المعروف بإبن الدلائي . عالم أندلسي ينتسب إلى دلأية من أعمال المرية . ولد في سنة 393 هـ ، وتوفي في سنة 478 هـ (1003 — 1085 م) . وبعد إقامة استغرقت بضع سنوات في مكة ، عاد إلى المرية حيث توفي . له كتاب « المسالك والممالك » (قام بتحقيقه المرحوم عبد العزيز الاهواني ونشره المعهد العربي الاسباني في مدريد) وغيره من المصنفات . راجع : الوزير الأندلسي ، الحلل السندسية ، ص 186 ، الكامل لابن الأثير ، اللباب في معرفة الأنساب ، 436/1 ، الصلة ، لابن بشكوال ص 29 ؛ جذوة المقتبس للحميدي (ص 127) .

وعمارة ، وفيه ايضا من التمر كل غريبة وطريفة . ومنه الى حصن بادس ، وهو في اسفل طرف جبل أوراس ، مراحـــل .

ياقوت

بسكره ، بكسر الكاف وراء : بلدة بالمغرب من نواحي الزاب ، بينها وبين قلعة بني حماد مرحلتان . فيها نخل وشجر وقسب جيد . وبينها وبين طبنه مرحلة . هكذا ضبطهــا الحازمي وغيره يقول : بسكره بفتح اوله وكافه . قال وهي مدينة مسورة ذات اسواق وحمامات واهلها علماء على مذهب اهل المدينة . وبها جبل ملح يقطع منه الصخر . وتعرف ببسكـــره النخيل . واليها ينسب أبوالقاسم يوسف بن علي (1) بن جبارة بن محمد بن عقيل بن سواده بن مكناس بن وربليس بن هذيل بن جمح بن حيان بن مستملح بن عكرمة بن خالد ، وهو ابو ذئيب الهذلي بن خويلد البسكري ، سافر الى بلاد الشرق وسمع ابا نعيم الاصبهاني وجماعة من الخراسانيين وكان يفهم الكلام والنحو ، وله اختيار في القراءة وكان يدرس النحو .

ابن سعيد

... وفي شرقيها مدينة بسكره قاعدة بلاد الزاب . وهي بلاد نخل وزرع ومنها تجلــب اصناف التمر الى حاضرتي تونس وبجاية . وهي حيث الطول اربع وعشرون درجة وخمس وعشرون دقيقة ، والعرض سبع وعشرون درجة ونصف ، وفي شماليها مدينة المسيلة .

ابو الفدا

بسكره ، بكسر الباء الموحدة من تحت . وقيل بفتحها وسكون السين المهملة . قال ابن سعيد (واقتبس ابو الفدا الفقرة المذكورة اعلاه) ثم قال :
وفي المشترك : والزاب كورة كبيرة ونهر جرار ببلاد المغرب .

(1) كان يوسف بن عليّ بن جبارة متكلما عالما بالقراءات المشهورة والشاذة وكان ضريرا . رحل إلى اصبهان وبغداد وعينه نظام الملك مقرئا في مدرسته بنيسابور حيث توفي في سنة 465 هـ . عن سن تناهز الثانية والستين . وقد وضع عددا من المؤلفات ، ومن بينها كتاب «الكاكل» قال فيه انه لقي نيفا و 365 شيخا . راجع أخباره في مرآة الجنان 93/3 ، غاية النهاية 391/2 ، إرشاد الأديب 308/7 ، لسان الميزان 325/6 و 350/4 .

القلقشندي

ومنها بسكره . قال في اللباب بكسر الباء الموحدة ، وقيل بفتحها وسكون السين المهملة وكاف وراء مهملة بعدها هاء . وهي مدينة من بلاد الجريد في اواخر الاقليم الثاني . قال ابن سعيد (اقتبس القلقشندي ما ذكره ابن شعيد بدون اضافة) .

***

باغـاي (باغـايـة)

... ومنه (الزاب) مدينة واسعة يقال لها باغاية بها قبائل من الجند وعجم من اهل خراسان وعجم من عجم البلد من بقايا الروم ، حولها قوم من البربر من هوارة ، بجبل جليل يقال له اوراس يقع عليه الثلج .

ابن حوقل

... ومنها الى باغاي ، وهي كبيرة عليها سور ازلي من حجارة ولها ربض عليه سور ، والاسواق فيه . وكانت الاسواق قديما في المدينة فنقلت . ولها ماء جار من أوديتهم من القبلة ومنه شربهم ، مع ابارلهم عذبة ، ولهم من البساتين الكثير . وهوبلد بربري البادية ، وأكثر غلاتهم الحنطة والشعير . وعاملها على صلاتها ومعاونها ووجوه اموالها عامل بنفسه لا من تحت يد احد . وجبل اوراس منها على اميال ، وفيه المياه الغزيزة والمراعي الكثيرة والعمارة الدائمة . وكان اهله قوم سوء . وطوله نحو اثني عشر يوما . وسكانه مستطيلين على من جاورهم من البربر وغيرهم فهلكوا واتى الله بنيانهم من القواعد. ولباغايا طريق ياخذ الآخذ على بلزمه الى نقاوس الى طبنة ويتصل هذا الطريق بطريق مجانه الى تيجست ، فيمر عليه الى بونه .

البكري

... ومنها الى مدينة باغايا ، وهي مدينة جليلة اولية ذات انهار وثمار ومزارع ومسارح . وعلى مقربة منها جبل أوراس (1) المتصل بالسوس . وبهذا الجبل قام مخلد بن كيداد الزناتي . ومن باغايا إلى مدينة فاساس ، وهي مدينة قديمة .

(1) هي سلسلة الجبال الجزائرية التي تمتد في الصحراء وتكون شكلا رباعيا طولها من الشرق إلى الغرب نحو 65 ميلا . وهي =

وفي مكان آخر

... وعلى ما والاها جبل أوراس وهو مسيرة سبعة أيام . وفيه قلاع كثيرة يسكنها قبائل هوارة ومكناسة ، وهم على رأي الخوارج الأباضية . ومن هذا الجبل ، قام أبويزيد مخلد بن كيداد النفزي الزناتي على ابى القاسم بن عبيد الله . وفي هذا الجبل كان مستقر الكاهنة ، الى مدينة باغاية ، وهي حصن صخر قديم حوله ربض كبير من ثلاث نواحي . وليس فيما يلي الناحية الغربية ربض ، انما يتصل بها بساتين ونهر . وفي ارباضها فنادقها وحماماتها واسواقها ، وجامعها داخل الحصن . وهي في بساط من الارض عريض كثير المياه ، وجبل اوراس مطل عليه . ويسكن فحص هذه المدينة قبائل مزاتة وضريسة ، وكلهم اباضية . وهم يضعنون في زمن الشتاء الى الرمال حيث لا مطر ولا ثلج ، خوفا على نتاج ابلهم . والى مدينة باغايا لجأ البربر والروم وبها تحصنوا من عقبة بن نافع القرشي ، فدارت بينهم حروب عظيمة ، وكانت الدبرة فيها على أهل باغاية فهزمهم عقبة بن نافع وقتلهم قتالا ذريعا ولجأ فلولهم ، الى الحصن وغنم منهم خيلا ، ولم يروا في مغازيهم اصلب ولا اسرع منها ، من نتاج خيل اوراس ، فرحل عنهم كراهة ان يشتغل بهم عن غيرهم . واهلها كلهم اليوم على رأي الاباضية . وكيل الطعام بباغاية بالويبة ، وهي اربعة وستون مدا بمد النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو قفيز ونصف قفيز قرطبي ، والزيت قروى ، وهو خمس ربع قرطبي . ورطل اللحم عندهم عشرون رطلا فلفلية.

الادريسي

فأما مدينة باغاي فمدينة كبيرة عليها سوران من حجر وربض وعليه سور ، وكانت الاسواق فيه . وأما الآن ، فالأسواق في المدينة ، والأربض خالية بافساد العرب لها . وهي أول بلاد التمر ولها واد يجري اليها من جهة القبلة وشربهم منه . ولهم أيضا شرب من آبار عذبة . وكانت لها

= تغطي في جنوب قسنطينة مساحة قدرها 3600 ميل مربع ، وفي نهايتها إلى المغرب تمتد تلال الزاب القليلة الإرتفاع . وأهم قممها هي : كِف مَحيل (7740 قدما) وجبل فرعون (6980 قدما) ، وجبال أحمر خدّو (6933 قدما) . والقمم العالية من الأوراس تغطيها الثلوج في الشتاء والربيع . راجع :

Reclus ; l'Afrique Septenterionalle ; Fallot, Etudes sur les Monts Aurès (Soc. Géogr. de Marssaille, 1886) ; Basset, le Schaouia de la province de constantine ; Marcier (G), Chaouia de l'Aurès, Paris, 1896. Xanier de planhol, les fondements géographiques de l'histoire de l'Islam, Paris, 1968, P. 128-129.

بواد وقرى وعمارات . والآن كل ذلك قليل فيها . وحولها عمارت برابر يعاملون العرب وأكثر غلاتهم الحنطة والشعير وقبض معاومها وتصرف أحوالها لاشياخها . ويتصل بها وعلى أميال منها جبل أوراس وطوله نحو 12 يوما ، وأهله مسلّطون على من جاورهم . ومن مدينة باغاي قسنطينة 3 مراحـــل .

يـــاقـــوت

باغاية : مدينة كبيرة في أقصى افريقية بين مجانة وقسنطينة الهواء ، ينسب اليها أحمد بن علي بن أحمد بن محمد بن عبد الله الربعي الباغاي المقري ، يكني أبا العباس (1) دخل الأندلس في سنة 376 وقدم للاقراء بالمسجد الجامع بقرطبة ، واستأدبه المنصور بن أبي عامر لابنه عبد الرحمن ، ثم عتب عليه فأقصاه ، ثم رقّاه المؤيّد بالله هشام بن الحكم في دولته الثانية إلى خطّة الشورى بقرطبة ، مكان أبي عمر الاشبيلي الفقيه . وكان من أهل العلم والفهم والذكاء وكان لا نظير له في علوم القرآن والفقه على مذهب مالك . روى بمصر عن أبي الطيب بن غلبون وأبي بكر الادفوي ، وتوفي لاحدى عشرة خلت من ذي القعدة سنة 401 . ومولده بباغاية سنة 345 وقرأت في كتاب لأبي بكر الخطيب باسناده الى أبي بكر بن محمد بن أحمد المفيد الجرجاني : انشدني الحسن بن علي الباغاني من أهل المغرب ، قال أنشدني ابن حماد المغربيّ منتقصا لاصحاب الحديث :

أرى الخيـــر في الدنيا يقـلّ كثيـره ... وينقـــص نقصـــا والحـديث يـزيـد
فلوكـان خيْـرًا كـان كالخير كلـــه ... ولكـن شيطـان الحـديث مـريـد
ولابـن معيـــن في الرجـــال مقـالـة ... سيُسـأل عنها والمليـك شهيـــد
فان تلك حقـا فهـي في الحكـم غيبـه ... وان تــك زورا فالقصـاص شديـد

* * *

(1) هو أحمد بن علي بن محمد بن عبد الله الربيعي الباغائي ، أبو العباس ، محدث مالكي ومقرىء ، ولد بمدينة باغاي في سنة 345 هـ . ورحل إلى الاندلس في سنة 376 هـ فأقرأ بالمسجد الجامع بقرطبة ، واستأذنه المنصور ابن أبي عامر لابن عبد الرحمن ثم أقصاه ، ثم رقاه المؤيد بالله إبن الحكم في دولته الثانية إلى خطة الشورى مكان الفقيه أبي عمر الأشبيلي ، وقد رحل إلى المشرق فروى عن إبن غلبون وأبي بكر الأفوي . راجع هدية العارفين (70/1) .

مـجـانـة (1)

ابن حوقل

مجانة مدينة ذات سور من طابية . وهي كثيرة الزعفران والزرع وبها معادن حديد وفضّة ، ومنها الحجارة المجلوبة للمطاحن بجميع المغرب . ولهم واد غزير الماء يزرعون عليه واسواق صالحة . ومن مجانه الى تيجس طريق قصد على مناهل وقرى خمس مراحل .

ومنها الى مسكيانه ، قرية عليها سور قديمة كثيرة المياه والزرع ولها سوق وماؤها جار من عيون فيها من الحوت الكثير الرخيص ، وسوقها ممتد كالبساط ، مرحلة .

البكري

ومن باغاية الى مدينة مجانة ، وهي كبيرة عليها سور طوب وبها جامع وحمامات ومعادن كثيرة منها معدن فضة للواته يسمى الوريطسي ، وتعرف بمجانة المعادن . ولها قلعة مبنية بالحجر ولها ثلاثمائة وستون جبا قد تقدم ذكرها . وهذه المدينة للعرب وحولها لواته . وهذه القلعة تعرف بقلعة بشر بن ارطاة افتتحها عنوة ، بعثه اليها موسى بن نصير وبعث خمس غنيمتها اليه . وبين باغاية ومجانة فندق مسكيانه .

(1) راجع :

Cysell (St.), Exploitations Minière, Mesperis, 1928 ; Golvin (L), Maghreb Central ; Marçais (G), la Berberie Musulmane.

ومجانة مدينة جزائرية تابعة لولاية سطيف ، وقد غلطت محققة «رسالة افتتاح الدعوة» حين قالت (ص 164 تعليق 5) إنها «مدينة قديمة بتونس» .

ومن مرماجنة الى مجانة مرحلتان حفيفتان ، بل هي مرحلة كبيرة . وهي مدينة صغيرة عليها سور تراب وكان بها قديما يزدرع بصل الزعفران . ولهم واد غزير الماء يأتي من جبل بمقربة منها يزرعون عليه غلاتهم ، وهو جبل شاهق ، ومنه تقطع احجار المطاحن التي اليها الانتهاء في الجودة وحسن الطحين ، حتى ان الحجر منها ربما مر عليه الانسان فلا يحتاج الى نقش ولا الى صنعة ، هذا لصلابته ودقة اجزائه . وارض مجانة تغلبت عليها العرب وبها تخزن طعامها . وبينها وبين قسنطينة مراحل .

*
* *

قسنطينة (1)

ابن حوقل

واما القسطنطينية (كذا) التي لكتامة ، فمدينة قريبة الامر تداني ميله ونقاوس في حالهما

البكري

ومدينة قسنطينة وهي مدينة اولية كبيرة آهلة ذات حصانة ومنعة ليس يعرف احصن منها وهي على ثلاثة انهار عظام تجري فيها السفن قد احاطت بها تخرج من عيون تعرف بعيون اشقار ، تفسيره سود . وتقع هذه الانهار في خندق بعيد القعر متناهي البعد ، قد عقد في اسفله قنطرة على اربع حنايا ، ثم بني عليها قنطرة ثانية على الاولى (*) قنطرة ثالثة من ثلاث حنايا ، ثم بني فوقهن بيت ساوي حافتي الخندق يعبر عليه الى المدينة . ويظهر الماء في قعر هذا الوادي

---

(1) راجع عن قسنطينة :

Leschi (L), Cirta, de la capitale numide à la colonie romaine (R.A., 1937) ; Feraud (L), Epoque de l'établissement des Turcs à constantine (R.A., 1866) ; Vayssettes (E), Histoire des derniers Beys de constantine ; Notes cronologiques pour l'histoire de constantine (R.A., 1895) ; Nouchi (A), constantine, à la veille de la conquête (les cahiers de Tunisie, 3e trim. 1955) ; Yver (G), la question de constantine en 1837, Congrés Nationale des Sciences Hist., 1930) ; Courtois (A), Etude sur le Palais d'Elhady Ahmed dernier Bey de Constantine (Bult. Soc. Geogr. d'Alger, 1929) ; Vallet (E) et Berthier (A), Decouverte d'une citerne romaine à Constantine (IV Congrés de la Fédération des Sociétés Savantes de l'Afrique du Nord, Rabat, 1938) ; Feraud (L), Province de Constantine (R.A., 1869); Joleaud (L), les origine de la ville de Constantine (Bult. de la Soc. Géogr. d'Alger, 1918) ; Esquer (G), la Prise de Constantine (Algeria, Dec. 1937) ; Braham, Constantine et son Passé (Constantine, 1937) ; Mac Arthy (O), Constantine, depuis sa fondation jusqu'à la conquête française, 1837 ; Mercier (E) Hist., de Constantine (Constantine, 1903) ; ولنفس المؤلف Constantine avant la conquête française (Constantine 1879) ; Marçais (G), Notice sur les poteries trouvées à Constantfne, 1918 ; Saint-Callira (Ch.), Constantine et quelques auteurs Arabes (Alger, 1913).

(*) في الأصل : على الثانية . وهو تحريف واضح .

من هذا البيت كالكوكب الصغير لعمقه وبعده . ويسمى هذا البيت «العبور» لانه معلق في الهواء . ويسكن قسنطينة قبائل شتى من اهل ميلة ونفزاوة وقسطيلية . وهي لقبائل من كتامة وبها اسواق جامعه ومتاجر رابحة وبينها وبين مرسى سقده مسيرة يوم .

الادريسي

ومدينة قسنطينة عامرة وبها اسواق وتجار واهلها مياسير ذوي مال واحوال واسعة ومعاملات للعرب وتشارك في الحرث والادخار . والحنطة تقيم بها في مطامرها مائه سنة لا تفسد والعسل بها كثير ، وكذلك السمن يتجهز به منها الى سائر البلاد . ومدينة القسنطينة على قطعة جبل منقطع مربع فيه بعض الاستدارة ، لا يتوصل اليه من مكان الا من جهة باب في غربيها ليس بكثير السعة ، وهناك مقابر اهلها حيث يدفنون موتاهم . ومع المقابر ايضا بناء قائم من بناء الروم الاول وبه قصر قد تهدم كله الا قليل منه ، وبه دار ملعب من بناء الروم شبيه بملعب ثرمة من بلاد صقلية . وهذه المدينة ، اعنى القسنطينة ، يحيط بها الوادي من جميع جهاتها كالعقد مستديرا بها وليس للمدينة من داخلها سور يعلو أكثر من نصف قامة الا من جهة باب ميله . وللمدينة بابان ، باب ميلة في الغرب ، وباب القنطرة في الشرق . وهذه القنطرة من اعجب البناءات ، لان علوها يشف على مائه ذراع بالذراع الرشاشي . وهي من بناء الروم ، قسي عليا على قسي سفلى ، وعددها في سعة الوادي خمس . والماء يدخل على ثلاث منها مما يلي جانب الغرب وهي كما وصفناها ، قوس على قوس ، والقوس الاولى يجري بها الماء اسفل الوادي . والقوس الاخرى فوقها ، وعلى ظهرها المشي والجواز الى البر الثاني . وباقي القوسين التين من جهة المدينة ، فانهما مفردتين على الجبل . وبين القوس والقوس ارجل تدفع مضرة الماء ومصادرته عند حمله بسيوله . وعلى رقاب الارجل قسي فارغة كالبنات صغار ، فربما زاد الماء في بعض الاوقات عند سيله ، فعلا الارجل ومر في تلك الفرجان . وهي من اعجب ما روى من الهناء . وليس في المدينة كلها دار كبيرة ولا صغيرة الا وعتبة بابها حجر واحد . وكذلك جميع عضادات الابواب ، فمنها ما يكون من حجرين ومنها ما يكون من اربعة احجار . وبناؤها من التراب وارضها كلها حجر صلد وفي كل دار منها مطمورتان وثلاث واربع منقوة في الحجر . وكذلك تبقى بها الحنطة لبرودتها واعتدال هوائها وواديها يأتي من جهة الجنوب فيحيط بها من غربيها ويمر شرقا مع دائرة المدينة وستدير في جهة الشمال ويمر مغربا الى اسفل الجبل ثم يسير شمالا الى ان يصب في البحر في غربي وادي سهر . والقسنطينة من احصن بلاد الله ، وهي

مطلة على فحوص متصلة ولها مزارع الحنطة والشعير ممتدة في جميع جهاتها . ولها في داخل المدينة ومع سورها مسقى يستقون منه ويتصرفون منه عند اوقات الحصار لها ممن طرقها . وبين القسنطينة وباغايا مراحل .

ياقوت

قسنطينية ، بضم اوله وفتح ثانيه ثم نون وكسر الطاء وياة مثناة من تحت ونون اخرى بعدها ياء خفيفة وهاء . مدينة وقلعة يقال لها قسنطينة الهواء . وهي قلعة كبيرة جدا حصينة عالية لا يصلها الطير الا بجهد . وهي من حدود افريقية ، مما يلي المغرب . لها طريق واتصال باكـام متناسقة جنوبيها تمتد منخفضة حتى تساوي الارض . وحولها مزارع كثيرة واليها ينتهي رحيـل عرب أفريقية مغربين في طلب الكلإ ، وتزاور عنها قلعة بني حماد ذات الجنوب في جبال وارض وعرة .

وبعدما تقدم ، نقل ياقوت وصف البكري المذكور اعلاه في معظمه ثـم اضـاف قائـلا :

واليها ينسب علي بن ابي القاسم محمد ابو الحسن التميمي المغربي القسنطيني المتكلم الاشعري (1) قدم دمشق وسمع بها صحيح البخاري من الفقيه نصر بن ابراهيم المقدسي ، وخرج الى العراق وقرأ على ابي عبد الله محمد بن عتيق القيرواني ولقي الائمة ثم عاد الى دمشق وأكرمه رئيسها ابو داود المضرج بن الصوفي ، وما اظنه روي عنه شيئا من الحديث لكنه قرأ عليه بعض كتب الاصول . وكان يذكر عنه ان كان يعمل كيمياء الفضة ، ورأيت له تصنيفا في الاصول سماه كتاب تنزيه الاله وكشف فضائح المشبهة الحشوية وتوفي بدمشق سنة 519 .

ابن سعيد

... وموضوع قسنطينة في جنوبيها (القل) حيث الطول ست وعشرون درجة واربعون دقيقة والعرض ثلاث وثلاثون درجة واثنتان وعشرون دقيقة . ولها نهر ينصب في خندقها العظيم الشرقي

(1) علي بن أبي قاسم ، محمد ، أبوالحسن التميمي ، متكلم أشعري ، سمع صحيح البخاري من نصر بن إبراهيم المقدسي شيخ الشافعية ، ثم قصد الى بغداد فقرأ بالنظامية على القيرواني . توفي سنة 519 هـ راجع ، كشف الظنون (695/5) ، إيضاح المكنون (328/1) . هدية العارفين 195/1 ، معجم المؤلفين لرضا كحالة 187/7 ، معجم البلدان 349/4 .

مطلة على فحوص متصلة ولها مزارع الحنطة والشعير ممتدة في جميع جهاتها . ولها في داخل المدينة ومع سورها مسقى يستقون منه ويتصرفون منه عند اوقات الحصار لها ممن طرقها . وبين القسنطينة وباغايا مراحل .

ياقوت

قسنطينية ، بضم اوله وفتح ثانيه ثم نون وكسر الطاء وياة مثناة من تحت ونون اخرى بعدها ياء خفيفة وهاء . مدينة ,قلعة يقال لها قسنطينة الهواء . وهي قلعة كبيرة جدا حصينة عالية لا يصلها الطير الا بجهد . وهي من حدود افريقية ، مما يلي المغرب . لها طريق واتصال باكام متناسقة جنوبيها تمتد منخفضة حتى تساوي الارض . وحولها مزارع كثيرة واليها ينتهي رحيل عرب أفريقية مغربين في طلب الكلإ ، وتزاور عنها قلعة بني حماد ذات الجنوب في جبال وارض وعرة .

وبعدما تقدم ، نقل ياقوت وصف البكري المذكور اعلاه في معظمه ثم اضاف قائلا :

واليها ينسب علي بن ابي القاسم محمد ابو الحسن التميمي المغربي القسنطيني المتكلم الاشعري (1) قدم دمشق وسمع بها صحيح البخاري من الفقيه نصر بن ابراهيم المقدسي . وخرج الى العراق وقرأ على ابي عبد الله محمد بن عتيق القيرواني ولقي الائمة ثم عاد الى دمشق وأكرمه رئيسها ابو داود المضرج بن الصوفي ، وما اظنه روي عنه شيئا من الحديث لكنه قرا عليه بعض كتب الاصول . وكان يذكر عنه ان كان يعمل كيمياء الفضة ، ورأيت له تصنيفا في الاصول سماه كتاب تنزيه الاله وكشف فضائح المشبهة الحشوية وتوفي بدمشق سنة 519 .

ابن سعيد

... وموضوع قسنطينة في جنوبيها (القل) حيث الطول ست وعشرون درجة واربعون دقيقة والعرض ثلاث وثلاثون درجة واثنتان وعشرون دقيقة . ولها نهر ينصب في خندقها العظيم الشرقي

---

(1) علي بن أبي قاسم ، محمد ، أبوالحسن التميمي ، متكلم أشعري ، سمع صحيح البخاري من نصر بن إبراهيم المقدسي شيخ الشافعية ، ثم قصد الى بغداد فقرأ بالنظامية على القيرواني . توفي سنة 519 هـ راجع ، كشف الظنون (5/695) ، إيضاح المكنون (1/328) . هدية العارفين 195/1 ، معجم المؤلفين لرضا كحالة 187/7 ، معجم البلدان 349/4 .

يسمع له دوي هائل دائر من اعلى المدينة في قعر الخندق مثل ذؤابة النجم لبعد المسافة . وهذه المدينة على آخر سلطنة بجاية . واول سلطنة افريقية على البحر ، مدينة بونة .

العبدري

ثم وصلنا الى البلد الذي نشفت الخطوب معينه ، وابت الاقدار ان تكون له معينة ، بلد الوضع العجيب والموضع الخصيب ، مدينة قسنطينة ، جبر الله صدعها . وكفاها من نوائب الدهر ما واصل فرعها . وهي مدينة عجيبة حصينة ، غير انها لخطوب الدهر مستكينة قد ذبلت ببوارح الغير وفوادح الضرر ، حتى صارت كالحسناء لبست اسمالا والكريم فقد مالا والبطل اثخنته الجراح حتى لا يطبق احتمالا ، فهي ترى الحوادث لمحا باصرا وتنادي بلسان الحال ، لو أجد ناصرا .

وبها للاوائل آثار عجيبة ومبان متقنة الوضع غريبة واكثرها من حجر منحوت ، يعجز الوصف اتقانه ويفوت . وقد دار بها واد شديد الوعر ، بعيد القعر ، احاط بها كما يحيط السوار بالمعصم ، ومنعها كما يمنع النوق الاعصم ، ولكن سهام الدهر لا تقيها الجنن ولا تمنع منها الفتن ، وريب المنون وصرف الزمن قد اعيت الحيلة فيها ... ولم ار بها من ينتمي الى طلـب ولا من له في فن من فنون العلم ارب سوى الشيخ ابي علي حسن بن بلقاسم بن باديس . وهكذا قيد لي اسم ابيه بخطه مخلوطا وقال انه اسم وكنية . وهو شيخ من اهل العلم يذكر فقها ومسائل ذو سمت وهيبه ووقار . وليس في البلد من يذكر بعلم سواه البتة ، وليست له بالرواية عنايـة ولم يروا الا الموطأ وحده ، فانه قرأ على الشيخ الفقيه المحدث أبي يعقوب يوسف الغماري المحساني حين خطر على قسنطينة راجعا من الشرق ، فاقام عندهم مدة لتوالي الامطار . فقرأه عليه وهو اذ ذاك كبير ، وفارقه وهو عنده مجهول وماعرف من هو حتى عرفته به حين رايت خطه الذي كتبه على الموطإ ، وقد قرأت عليه صدرا منه وحدثني به عنه ، وسمعته يقول : سمعت الشيخ الصالح المسن حسن الحفناوي يقول : عمرت خمسا وثمانين سنة ، ماتم لي بها سرور قط الا ثلاثة ايام الـــخ .

ابو الفدا

قسنطينية ، بضم القاف وسكون السين وكسر الطاء المهملتين . وسكون المثناه من تحت ونون وهاء .

وبقسنطينة نهر يصب في خندقها العظم ويسمع لذلك دوي هائل ، مثل ذؤابة النجم لشدة ارتفاع قسنطينة عن خندقها . وقسنطينة اخر مملكة بجايه واول مملكة افريقية . قال في نزهة المشتاق : وقسنطينة عامرة (الخ . الفقرة الاولى من الاقتباس الذي اوردناه اعلاه) . وبينها وبين مدينة المسيلة ثمانية عشر ميلا . وبين المسيلة وقسنطينة جبل متصل .

القلقشندي

ومن المدن التي باعمال بجاية ، قسنطينة . وهي مدينة من المغرب الأوسط في أواخر الاقليم الثالث . قال ابن سعيد (اقتباس العرض والطول) . قال في « تقويم البلدان » وهي على آخر مملكة بجاية وأول مملكة افريقية . قال الادريسي (اقتباس فقرة من النص الوارد أعلاه) .

وفي شرقي قسنطينة في آخر مملكة بجاية ، مرسى الخرز ، ومنه يستخرج المرجان .

*
* *

بـونـة (1)

ابن حوقل

ومدينة بونة مدينة مقتدرة ليست بالكبيرة ولا بالصغيرة ، ومقدارها في رقعتها كالاربس . وهي على نحر البحر ، ولها أسواق حسنة وتجارة مقصودة وأرباح متوسطة ، وفيها خصب ورخس موصوف ، وفواكه وبساتين قريبة . وأكثر فواكهها من باديتها . والقمح بها والشعير في أكثر أوقاتها ، كما لا قدر له . وبها معادن من حديد كثيرة ويحمل منها الى الأقطار الغزير الكثيرة ويزرع بها الكتان ولها عامل قائم بنفسه ومعه من البربر عسكر لا يزول كالرابطة . ومن تجارتها الغنم والصوف والماشية من الدواب وسائر الكراع . وبها من العسل والخير والمير ما تزيد به على مادتاها من البلاد المجاورة لها . وأكثر سوائمهم البقر ، ولهم اقليم واسع وبادية وحوزة بها نتاج كثيرة ، وقل من بها تفوته الخيل السائمة للنتاج . وبينها وبين جزائر بني مزغناي مراس .

(1) تقع بونة الحديثة على مسافة ميل ونصف من هيبونة ، (Hipo Vegius) وقد أسس الفنيقيون بونة وغزتها قرطجنة ثم استولى عليها ملوك نوميديا . ولما هزم يوغرطة ، ضمت المدينة وأراضيها إلى ما يسمى بولاية أفريقية الرومانية . وقد أصبحت بونة مدينة مزدهرة كما أصبحت من أهم المراكز الدينية (مقرا لاسقفية) بعدما انتشرت فيها المسيحية .

Julien (Ch.A.), Histoire de l'Afrique du Nord, II/107-108); Feraud (L), Documents pour servir à l'histoire de Bône (R.A., 1873-1887) ; Boujac (R), Histoire de Bône ; Carlanan (P), Bône, Premier post minier de l'Afrique du Nord (Algeria, 1950) ; Coudret (J), Bône et sa région (Bult. Economique et Juridique, 1960) ; Marçais (G), la Piraterie, Annales d'Etudes Orientales (T. XIII) ; Gsell (St.) Exploration minière, Hésperis, 1928.

البكري

ومدينة بونة أولية . . وهي مدينة افشتين (سانت اغستين) العالم بدين النصرانية وهي . على ساحل البحر في نشز من الأرض منيع ، مطلّ على مدينة سبوس ، وتسمى اليوم مدينة زاوي . وبينها وبين المدينة الحديثة نحو ثلاثة أميال ، ولها مساجد وأسواق وحمام وهي ذات ثمار وزرع . وقد سورت بونة الحديثة بعد الخمسين وأربعمائة . وفي بونة الحديثة بير على ضفة البحر منقور في صخر صلد يسمى بئر النثرة منها يشرب أكثر أهلها . وبغربي هذه المدينة ماء سائح يسقي بساتين ، وهو مستنزة حسن . ويطل على بونة جبل زغوغ . وهو كثير الثلج والبرد . ومن العجائب أن فيه مسجدا لا ينزل عليه شيء من ذلك الثلج ، وإن عم الجبل كله . ومدينة بونة برية بحرية كثيرة اللحم واللبن والحوت والعسل ، وأكثر لحومها البقر ، الا أنها يصحّ بها السودان ويسقم البيضان . وحول بونة قبائل كثيرة من البربر ، مصمودة واوربة وغيرهما . وأكثر تجارها أندلسيون . ومستخلص بونة ، غير جباية بيت المال عشرون ألف دينار . وبشرقي مدينة بونة ، مدينة مرسى الخـرز .

الأدريسي

ومدينة بونة وسطة ليست بالكبيرة ولا بالصغيرة ، ومقدارها في رقعتها كالاربس . وهي على نحر البحر ، وكانت لها أسواق حسنة وتجارة مقصودة وأرباح موجودة ، وكان فيها كثير من الخشب موجود ، جيد الصفة . ولها بساتين قليلة وشجر . وبها من أنواع الفواكه ما يعم أهلها . وأكثر فواكهها من باديتها ، والقمح بها والشعير في أوقات الاصابات كما كما وصفنا كثير جدا . وبها معادن حديد جيّد . ويزرع بأرضها الكتّان (1) والعسل بها موجود ممكن ، وكذلك السمن . وأكثر سوائمهم البقر . ولها أقاليم وأرض واسعة تغلبت العرب عليها . وافتتحت بونة على يد أحد رجال الملك المعظم رجّار في سنة 548 هـ . وهي الآن في

---

(1) (راجع : Sergeant, Textiles. ARS Islamica, XX ; Remarques sur le Commerce.

ضعف وقلة . وبها عامل من قبل الملك المعظم رجال (1) من آل حماد وعلى المدينة وبجنبيها جبل يدوغ ، وهو عالي الذروة ، سامي القمة ، وبه معادن الحديد اتى ذكرها آنفا .

ياقوت

بونة ، مدينة بافريقيه ، بين مرسى الخرز وجزيرة مزغناي . وهي مدينة حصينة مقتدرة كثيرة الرخص والفواكه والبساتين ، وأكثر فاكهتها من باديتها . وبها معدن حديد . وهي على البحر ، ينسب اليها جماعة ، منهم : ابو عبد الملك مروان بن محمد الاسدي البوني (2) فقيه مالكي من اعيان اصحاب ابي الحسن القابسي له كتاب في شرح الموطإ . وأصله من الاندلس انتقل الى افريقية فاقام ببونه فنسب اليها ، ومات قبل سنة 444 . ويطل على بونه جبل زغزوع

ابن سعيد

واول سلطنة افريقية على البحر ، مدينة بونه . وهي حيث الطول ثمان وعشرون درجة والعرض ثلاث وثلاثون درجة وخمسون دقيقة . ولها نهر متوسط ينصب في البحر بغربيها . وفي شرقيها مرسى الخرز المخصوص بالمرجان .

---

(1) رجار (Roger II) (1095 ـ 1154 م) . حصل على لقب ملك صقلية من البابا في سنة 1130 م . وبعد محاولات فاشلة لغزو شواطيء أفريقية مع الكونت دوبرشلونة (1118 ـ 1127 م) ، استأنف حروبه معتمدا على قائده جورج أنطيوش (الأميرال) الذي كان يعمل في خدمة بني زيري في المهدية . وقد استغل روجر الوضع المضطرب الذي كانت تواجهه أفريقية نتيجة للغزو الهلالي ، فاستولى على جربة في سنة 1134 ، ثم وجه أسطوله إلى جيجل (1143 م) ، ثم غزا الموانيء التي تمتد بين تنس وجزر قرقنة واستولى على طرابلس الغرب في سنة 1146 . وفي السنتين التاليتين ، أخضع قابس والمهدية وسفاقس وسوسة ، وبذلك قوض سلطة الزيريين . راجع تفاصيل أخرى في :

Julien (Ch. A.), Histoire de l'Afrique du Nord, II/107-108)

(2) هو مروان بن علي القطان البوني المتوفي سنة 439 هـ . ، فقيه مفسر من الأندلس نشأ في بونة وأقام بها ردحا من الزمن ثم رحل إلى قرطبة وأخذ عن علمائها ، ومنهم عبد الحق الأشبيلي ثم أقام بسبتة وفاس وأخذ عن علماء المدينتين ثم عاد إلى عنابة حيث عكف على التدريس والتأليف . راجع إلى جانب معجم البلدان ، كشف الظنون (427/6) ؛ الديباج لابن فرحون ص 345 ، بغية الملتمس ص 446 ـ 447 ؛ جذوة المقتبس (ص 321) ، إيضاح المكنون (310/1) الصلة (ص 557) .

ابو الفدا

بعدما نقل الفقرة المقتبسة اعلاه عن ابن سعيد ، اضاف : قال في «العزيزي) . ومدينة بونه هذه مدينة جليلة عامرة على البحر ، خصبة الزرع كثيرة الفواكه ، رخيصة . وبظاهرها معادن الحديد ، ويزرع بها كتان كثير ، وحدث بها عن قريب مغاص المرجان ، ليس كمرجان مرسى الخرز .

واختتم ابو الفدا باقتباس الفقرة الاولى من وصف الادريسي الذي اوردناه اعلاه .

القلقشندي

... ومنها بونة . قال في «اللباب» بضم الباء الموجده وسكون الواو ثم نون وهاء . قال في «مسالك الابصار» : وهي المسماة الآن بلد العناب (عنابه) . وهي مدينة على ساحل البحر في الاول الاقليم الرابع . قال ابن سعيد (نقل الطول والعرض) . قال في «العزيزي» : (نقل ما اقتبسه ابو الفدا اعلاه) .

الباب الثالث

المدن التونسية

طبرقة (1)

ابن حوقل

وطبرقة قرية . وهي عدوة لاهل الاندلس ، اليها ينتهون ، ومنها الى الاندلس يركبون ، وهي قرية وبيئة ، وبها عقارب قاتلة .نحو عقارب عسكر مكرم في وجاء القتل وسرعته ومضاء الميتة وقربها . ومن اراد طبرقه من تونس على الجادة اجتاز على مدينة باجة .

البكري

ومنها الى مدينة طبرقة ، وهي على شاطئ البحر وفيها آثار للاول وبنيان عجيب . وهي عامرة لورود التجار فيها . وبها نهر كبير تدخله السفن الكبار وتخرج في بحر طبرقه ، وروي أن الكاهنة قتلت بطبرقه . وبشرقي مدينة طبرقه على مسيرة يوم وبعض آخر قلاع تسمى بقلاع بنزرت ، وهي حصون يأوى اليها أهل تلك الناحية ، اذ خرج الروم غزاة الى بلادهم .

الادريسي

وطبرقة حصن على البحر قليل العمارة وحوله عزب لاخلاق لهم ولا يحفظون في أحد من الناس الاَّ ولا ذمة ، وبها مرسى للمراكب ، ومراكب الاندلس تطفى اليها وتاخذها .

---

(1) راجع :

Lévi-Provinçal, Histoire de l'Espagne Musulmane, T. III : Courtois, Remarques sur le Commerce, (Mélange G. Marçais, T. II) ; Desfontaines, Voyages, Dureau de la Malles ; Plantet, Correspondence des Beys de Tunis avec la Cour de France, 2 vol.

باجــة

ابن حوقل :

باجة . . مدينة قديمة أزلية كثيرة القمح والشعير ، ولها من الغلاة والزروع ماليس بجميع المغرب كثرة وجودة ونقاء [ومرجع ذلك] إلى جوهر في نفس حبوبها . وهي صحيحة الهواء كثيرة الرخاء ، واسعة الفضاء غزيرة الدخل على السلطان ، وافرة الارباح على تجارها والمزارعين بها ، وطبرقه المذكورة مع صغير مقدارها وتفه منزلتها ، فانما اشتهرت كثرة ورود المراكب بالاندلسيين والتجار عليها ونزولهم فيها وتعشيرهم كان في سالف الزمن بها . وهي تجاه اوائل الاندلس وتحاذي ايضا بعض بلاد افرنجه .

البكري

ومدينة باجة كبيرة كثيرة الانهار وهي على جبل يسمى عين الشمس ، في هيئة الطيلسان تطرد حواليها . وفيها عيون الماء العذب . ومن تلك العيون عين تعرف بعين الشمس ، هي تحت سور المدينة ، والباب هناك ينسب اليها ، ولها أبواب غير هذا . وفي داخل الحصن عين اخرى عذبة غزيرة الماء ، وحصنها اولي مبني بالصخر الجليل أتقن بناء ، ويقال أنه من عهد عيسى عليه السلام . ولها ربض كبير في شرقي الحصن . وسور الحصن ممايلي الربض مهدوم ولها جامع متقن البناء قبلته سور المدينة . وفيها خمسة حمامات ماؤهامن العيون ، وفنادق كثيرة . وبها ثلاث رحاب لبيع الاطعمة وعيون خارجها لا تحصى كثرة . وهي دائمة الدجن والغيم كثيرة الامطار والانداء قل مايصحى هواؤها ، وبها يضرب المثل في كثر المطر . ولها نهر من جهة الشرق من الجوف الى القبلة على ثلاثة اميال منها ، وحولها بساتين عظيمة تطرد فيها الميـــاه

ياقوت

طبرقة ، بالتحريك . وبعد الراء الساكنة قاف مدينة بالمغرب من ناحية البر البربري على شاطئ البحر ، قرب باجه ، وفيها آثار للاول وبنيان عجيب . وهي عامرة لورود التجار اليها وفيها نهر كبير تدخله السفن الكبار وتخرج في بحر طبرقه . وفي شرقي مدينة طبرقة قلاع تسمى قلاع بنرزت .

ابن سعيد

وفي شرقيها (مرسى الخرز) من الفرض المذكوره ، طبرقة التي يحمل منها الخشب والقصب الفارسي الجيد الى الحضره التونسية .

* * *

وارضها سوداء متشققة تجود فيها جميع البذور وبها حمص وفول قل مايرى مثله ، وتسمى هري أفريقية لريع زرعها وكثره رفاعها وانها خصيبة لينة الاسعار ، امحلت البلاد أم أخصبت. واذا كانت أسعار القيروان نازره ، لم يكن للحنطة بها قيمة ، وربما اشترى وقر البعير من الحنطة بدرهمين . ويردها كل يوم من الدواب والابل العدد العظيم الالف والاكثر لانتقال الميرة فلا يؤثر ذلك في سعرها لكثره طعامهم . ثم تسير منها مرحلة الى باسلي . ومن قرى باجة ، المغيرية وهي قرية شريفة بها آثار عظيمة عجيبة للاول من كنائس قائمة البنيان محكمة العمل كأنما رفعت عنها الايدي بالامس وكلها مفروشه، بالرخام النقيس ، يقف عليها من الغربان عدد لا يحصى ، حتى يظن المرء أن غربان الارض قد تجمعت هنا ويزعمون أن بها طلسما. وامتحن أهل باجة أيام أبي يزيد (مخلد) بالقتل والسبي والحرق قال الراجز في هجوه لابي يزيد .

وبعدها باجة أيضا أفسدا
وأهلها أجلى ومنها شردا
وهدم الاسواق والقصورا
والدور قد فتش والقبورا

ولم يزل الناس يتنافسون في ولاية باجة ، وكان المتداولون فيها لذلك ، بنو على بن حميد الوزير . فاذا عزل احد منهم ، لم يزل يسعى ويتلطف ويهادي ويتاحف حتى يرجع اليها . فقيل بعضهم لم ترغبون في ولاية باجة ؟ فقال لأربعة أشياء : قمح عنده ، وسفرجل زانه وعنب بلطه ، وحوت درنه . وبها حوت بوري ليس له نظير في الافاق يخرج من حوت واحد عشرة ارطال شحم اذا كان من جلتها وأكثر . وكان يحمل الى عبيد الله حوتها في العسل فيحفظه ويصل طريا . ودرنه بين طبرقه وباجه .

الادريسى

مدينة باجة . مدينة حسنة في وطاء من الارض كثيرة القمح والشعير ، ولها من غلات ذلك ماليس بالمغرب مثله كثرة وجودة في المواضع المضاهية لباجة . وهي صحيحة الهواء كثيرة الرخاء واسعة الدخل على واليها . والعرب مالكة لخراج قطرها ومتصل أرضها . وبها عين في وسطها ينزل اليها بادراج ومنها شرب أهليها . وليس لها في خارجها عود نابت الافحوص ومزارع .

وبين باجة وطبرقة مرحلة . ويقابل باجة في جهة الشمال ، وعلى نحر البحر ، مدينة مرسى الخزز ، وبينهما مرحلة كبيرة .

ياقوت

باجة في خمسة مواضع ، منها : باجة بلد بافريقية تعرف بباجة القمح . سميت بذلك لكثرة حنطتها . بينها وبين تنس يومان . وحدثني من أثق به أن الحنطة تباع فيها كل أربعمائة رطل ، برطل بغداد ، بدرهم واحد فضة قال ابوعبيد البكري :

ومدينة باجة مدينة كثيرة الأنهار (ويمضي ياقوت فينقل النص الوارد أعلاه للإدريسي كله).

وينسب إلى باجة هذه أبومحمد عبد الله بن محمد بن علي الباجي الأندلسي (1) أصله من باجة افريقية ، سكن اشبيلية . كذا نسبة ونسب ابنه ، أبا عمر احمد بن عبد الله ، أبو موسى محمد بن عمر الحافظ الاصبهاني وأبوسكر الحازمـي في الفيصل ؛ ونسبه أبو الفضل محمد بن طاهر الى باجة الاندلس . كذا قال أبو سعد . وقدرد ذلك عليه أبو محمد عبد الله بن عيسى ابن أبـي حبيب الحافظ الاشبيلى ، وقال انه من باجة افريقية .

فأمّا الحافظ عبد الغني بن سعيد ، فإنه قال في قريته الناجي ، بالنون . وأبوعمير أحمد بن عبد الله الباجى الاندلسى ، من اهل العلم ، كتبت عنه وكتب عني . وولد أبي عمر هذا من أجله المحدثين ، كان يسكن اشبيلية ولم يزد . مات قريبا من سنة أربعمائة . وأما أبو الوليد بن الفرضى فانه قال : عبد الله بن علي بن شريعة اللخمى المعروف بالباجى ، من أهل اشبيلية ، يكنى أبا محمد . سمع باشبيلية من محمد بن عبد الله بن الفرق وحسن بن عبد الله الزبيدي وسيد أبيه الزاهد . وسمع بقرطبه عن محمد بن عمر بن لبانه ، وذكر غيره . ورحل الى البيرة ، فسمع بها من محمد بن فطيس كثيرا . وكان ضابطا لروايته ، صدوقا حافظا للحديث بصيرا بمعانيه ، لم ألْق فيمن لقيته بالاندلس أحدا أفضله عليه في الضبط ، وأكثر في وصفه ، ثم

---

(1) هو عبد الله بن محمد بن علي بن شريعة بن رفاعة بن صخر اللخمي ، ابومحمد ، المعرف بابن الباجي . ولد في رمضان سنة 291 هـ . وتوفي في رمضان سنة 378 هـ . ينتمي إلى باجه الأندلس (بيجا Beja البرتغالية) . سمع باشبيلية وقرطبة والبيرة ، وسمع منه عدد من الاعلام ، منهم ابن الفرضي . راجع تاريخ ابن الفرضي (رقم 742) ؛ محمد بن محمد بن مخلوف ، شجرة النور (ص 100) ؛ القاضي عياض ، تراجم اغلبية (مستخرجة من مدارك القاضي عياض) (ص . 48) .

قال : وحدث أكثر من خمسين سنة ، وسمع منه الشيوخ اسماعيل ابن اسحاق واحمد بن محمد الجزار الاشبيلـي الزاهد وعبد الله بن ابراهيم الاصيلي وغيرهم . قال وسالته عن مولده ، فقال ولدت في شهر رمضان سنة 291 هـ . ومات في السابع عشر من شهر رمضان سنة 378 هـ . قال عبيد الله المستجير بعفوه : فهذا الامام ابن الفرضـي ذكر أبا محمد هذا ، وهذا الامام عبد الغني ، ذكر ابنه أبا عمر ولم ينسب واحد من الامامين واحدا من الرجلين الى باجه افريقية وقد صرحا بأنهما من الأندلس . وفي هذا تقوية لقول ابن طاهر . والله أعلم . والذي صحَّ لنا نسبته الى باجة افريقية ، أبو حفص عمر بن محمود بن غلاب المقرى الباجـي . قال أبو طاهر السلفي : هو من باجه افريقية وكان رجلا من أهل القرآن صالحا . وقال : سالته عن مولده ، فقال في رجب 434 هـ . بباجه القمح بأفريقية ، لا باجه الأندلس . وتوفي في سنة 520 هـ . في صفر . وكتبت عنه أشياء كثيرة ، وصحب عبد الحق بن محمد بن هارون السبتي وعبد الجليل بن مخلوف وغيرهما .

ابو الفدا

قال في المشترك ، من افريقية وباجة أيضا كورة من الاندلس . وباجة مدينة كبيرة ولها بساتين قليلة ولها عيون ماء . وهي مسوَّرة حصينة في مستوى من الارض من البحر على مسيرة يوم . قال ابن سعيد : وبين باجة وبونة ، نهر مغيلة قد زين الله جانبيه باشجار النارند وغيره ، مما صيره عليهما كالطراز ، وهو في نهايته من الحسن . وذكر بعض المسافرين ان باجة أيضا قرية من الفيوم شرقي مدينة فيوم . (واختتم أبو الفدا باقتباس فقرة من الادريسي مما اوردناه أعلاه)

القلقشندي

ومما قارب تونس على مسيرة يومين باجة . قال في المشترك بفتح الباء الموحدة والف وتخفيف الجيم ثم هاء وهي مدينة بالاقليم الثالث . قال في « الاطوال » : حيث الطول تسع وعشرون درجه وخمس وأربعون دقيقة والعرض احدى وثلاثون درجه . وهي مدينة كبيرة ولها بساتين قليلة وعيون ماء . وعليها سور حصين مبنية في مستوى من الارض على نحو يوم من البحر . ويقابلها على البحر مرسى الخرز .

*
* *

قفصة (1)

اليعقوبي

قفصة ـ مدينة حصينة عليها سور حجارة وفيها عيون ماء داخل المدينة . وهي مفروشة بالبلاط . وحولها عمارة كثيرة [وبها] ثمار موصوفه .

البكري

ومن مدينة القيروان الى مدينة قفصة ثلاثة أيام . وهي مدينة مبنية كلها على أساطين وطيقان رخام ، قد بني خلالها بالصخر الجليل باحكم عمل . ويذكر أن باني هذا السور هو شانتيان غلام نمرود وقد زبر عليه اسمه ، وهو مقروء فيه الى اليوم . وسورها كانما قد فرغ من عمله بالامس وداخل مدينة قفصة عينان نضاحتان ينبعان بنهرين خرارين يسقيان بساتينها ومزروعاتها . وفي داخل جامعها عين كبيرة مبنية بالصخر من بنيان الاول ، أربعون باعا في مثلها . وقفصة اكثر بلاد القيروان فستقا . ومنها ينتشر بافريقية ويحمل الى مصر والاندلس وسجلماسة ، وبها تمر مثل بيض الحمام . وهي تميز القيروان بانواع الفواكه والثمر . وحولها اكثر من مائتي قصر عامرة أهلها تطرد فيها وحواليها المياه ، تعرف بقصور قفصة . وجباية قفصة خمسون الف دينار .

---

(1) قفصه = Capsa الرومانية . راجع : الحسن بن محمد الوزان ، وصف افريقية ، ج 2 ، وكذلك :

Bodereau, la Capsa ancienne et la Capsa moderne ; Guerin, la voyage dans le sud de la Tunisie ; Zaccome, Notes sur la Régence de Tunis ; Céalis, de Sousse à Gafsa ; Mayet, voyage dans le sud de la Tunisie.

ومن قصور قفصة ، مدينة طراف ، وهي في منتصف الطريق من قفصة إلى فج الحمار (1) وأنت تريد القيروان .

ومدينة طراف كبيرة آهلة بها جامع وسوق حافلة واليها ينسب الكساء الطرافي ، وهو من جهاز مصر . وهي كثيرة النستق .

الادريسي

ومدينة قفصة مدينة حسنة ذات سور ونهر جار ماؤه أطيب من ماء قسطيلية ، ولها في وسطها العين المسماه بالطرميذ . ولها اسواق عامرة ومتاجر كثيرة وصناعات قائمة ، ويطيف بها نخل كثير يشتمل على ضروب من التمر العجيب ، ولها جمل جنات وبساتين وقصور قائمة معمورة يزرع بها ضروب من غلات الحناء والقطن والكمون . وأهلها متبربرون واكثرهم يتكلم باللسان اللاطيني الافريقي .

ياقـوت

قفصة ، بلدة صغيرة في طرف افريقية من ناحيه المغرب من عمل الزاب الكبير بالجريد ، بينها وبين القيروان ثلاثة أيام ، مختطة في أرض سبخة لا تنبت الا الاشنان والشيح . يشتمل سورها على ينبوعين للماء أحدهما يسمى الطرميذ ، والاخرى بيش . وعلى هذه العين عدة بساتين ذوات نخل وزيتون وتين وعنب وتفاح . وهي اكثر بلاد افريقية فستقا ومنها يحمل الى جميع نواحي افريقيه والاندلس وسجلماسه . وبها تمر مثل بيض الحمام وتمير القيروان بانواع الفواكه . قال : وقد قسم ذلك الماء على البساتين بمكيال توزن به مقادير شربها معمولة بحكمة لايدركها الناظر لايفضل الماء عنها ولا يعوزها ، تشرب في كل خمسة عشر يوما شربا . وحولها اكثر من مائتي قصر عامرة آهله تطرد حواليها المياه تعرف بقصور قفصة .

---

(1) فج الحمار ، هو المكان الذي يرسم على الخرائط الاروبية على مسافة سبعة فراسخ في جنوب شرقي قفصة .

ابن سعيد

ويقع آخر هذا الجزء من بلاد الجريد (1) وهي بلاد التمر قفصة . وهي قاعدة مشهورة بالنخيل . والفستق لا يكاد (يوجد) بالغرب الا فيها وبها من الفواكه والمشمومات خواص كثيره ومنها يجلب دهن البنفسج وخل العنصل .

القلقشندي

قفصة ، موقعها في الاقليم الثالث . قال في الاطوال حيث الطول احدى وثلاثون درجة والعرض ثلاثون درجة وخمسون دقيقة . قال ابن سعيد (نقل النص المذكور اعلاه) واليها ينسب جلد الاروى المتخد منه النعال الشديده الليوته .

*
* *

(1) يطلق اسم الجريد على المناطق الوسطى في تونس ، وخصوصا ، على الواحات الأربع : توزر ونفطة والوديان والحمّة . ويحد الجريد شمالا شط غرسلة ، ومن الجنوب ، شط الجريد . وتحيط بهذه المناطق جبال وتلال رملية تعزلها عن المناطق المجاورة لها . والجريغ قليل المطر ولكنه وفير العيون غزير المياه ، ومن ثم شهرتها في إنتاج التمور التي تشكل ثروة البلد الرئيسية ، مع القمح . أنظر غيرما ذكرهنا ، خصوصا العبر (6/412 ـ 420) ، وكذلك :
Les fondements géographique de l'Islam, P. 129.

بنـزرت (1)

المقدسي

بنزرت ، مسورة وبناؤها من حجر ، والجامع وسط البلد . وثم واد يجري مالح يدخل من بحيرة الى جنب البحر ثم يرجع اليه ويعدي فيه الناس بالقوارب .

البكرى

مدينة بنزرت . . مدينة على البحر يشقها نهر كبير كثير الحوت ويقع في البحر وعليه سور صخر وبها جامع واسواق وحمامات وبساتين وهي ارخص البلاد حوتا . وافتتحها معاوية بن حديج سنة احدى واربعين وكان معه عبد الملك بن مروان ، فشد عن الجيش ، فمر بامرأة من العجم من عمل بنزرت فقرته واكرمت مثواه فشكر ذلك لها فلما ولي الخلافة كتب الى عامله بافريقية في المرأة وأهل بيتها ، فاحسن اليهم وظاهر النعم لديهم ، وتوالى هذه المراسى مذكور بعد هذا في موضعه ان شاء الله . وعلى ساحل هذه القلاع بحيرة تنسب أيضا الى بنزرت يدخل اليها ماء البحر الكبير ، فيوجد فيها في شهر ما من السنة صنف من الحوت لا يشبه غيره ولا يوجد هناك في غير هذا الشهر ، وفي هذه البحيرة اعجوبة على أن الصياد فيها اذا اتاه التجار لشراء الحوت يقول لهم على اي شئ ارسل شبكتي ؟ فيتفق معهم على عدة معلومة فياتي الصياد بحوت

---

(1) راجع عدا ما ذكر هنا :

Archidarc Louis Salvador, Bizerte, son passé son présent et son avenir ; Casting (R.C.) Bizerté, souvenir du passé (Revue Maritime, 1900).

يقال انه أنثى الصنف المعروف بالبورى ، فيرسلها في البحيرة ثم يتبعها بشبكه فيخرج العدة التي اتفقوا عليها ، لايكاد يخطئ !

وعلى مقربة من هذه البحيرة ، بحيرتان : احداهما حلوة والاخرى ملحة فيصب كل منهما في الاخرى نصف العام على السواء فلا يتغير لواحدة منهما طعم (مائها) .

الادريسى

وبين تونس وبنزرت يوم كامل في البر . ومدينة بنزرت صغيرة عامرة باهلها وبها مرافق واسواق قائمة بذاتها ، وبالجهة الشرقية منها بحيرتها المعروفة بها والمنسوبة اليها ، وطولها ميل وعرضها 8 أميال . وفمها متصل بالبحر . وكلما أخذت الى البرية اتسعت [وكلما] قربت من ، البحر ضاقت وانخرطت وهذه البحيرة من أعاجيب الدنيا ، وذلك أن بها انثى عشر نوعا من السمك ، يوجد منها في كل شهر نوع لايمتزج بغيره من أصناف السمك . فاذا تم الشهر لم يوجد شيء من ذلك النوع في الشهر التالي ، ثم يوجد في الشهر الآتي صنف من السمك أخر غير الصنف الاول ، لايمتزج بغيره . وهكذا لكل شهر نوع من السمك لايمتزج بسمك غيره الى كمال السنه . هكذا في كل عام . وهذه الاثنى عشر نوعا من الحوت التي ذكرناها هي : البوري والقاجوج والمحل والطلنط والاشبلينيات والشلبة والقاروض واللاج والجوحة والكملاء والطنفلو والقلا . ويتصل بهذه البحيرة من جهة الجنوب مع انحراف الى الغرب ، بحيرة ثانية تسمى بحيرة تينجه ، وطولها 4 أميال في عرض مثلها . وبينهما فم تتصل منه مياه احداهما بالاخرى . وفي هاتين البحيرتين أمر عجيب ، وذلك أن ماء بحيرة تينجه هذه عذب وماء بحيرة بنزرت ملح . وكل واحدة من هاتين البحيرتين تصب في اختها ستة أشهر ، ثم ينعكس جريها فتمسك البحاريه عن الجري وتصب البحيرة الثانية الى هذه الاولى ستة أشهر اخرى ، فلابحيرة تينجه يتملح ماؤها ولا يعذب ماء بحيرة بنزرت . وهذا أيضا عجب آخر من عجائب هذا الصقع . والسمك ببنزرت ، وبتونس أيضا كثير رخيص جدا .

ياقوت

بنزرت . . مدينة بافريقيه بينها وبين تونس يومان . وهي من نواحي سَطْفُورة مشرفة على البحر . وتنفرد بنزرت ببحيرة تخرج من البحر الكبير الى مستقر تجاهها ، يخرج منها في كل

شهر صنف من السمك لا يشبه السمك الذي خرج في الشهر الذي قبله الى انقضاء الشهر ، ثم صنف آخر ، ويضمنه السلطان بمال وافر . بلغنى أن ضمانته اثنا عشر الف دينار . قال أبو عبيد البكرى : وبشرقي طبرقة على مسيرة يوم وبعض آخر (الخ . الفقره التي تنتهى : مفزع لهم) . وفيها رباطات للصالحين . قال محمد بن يوسف في ذكر الساحل : من طبرقة الى مرسى تونس ، مرسى القبة عليه مدينة بنزرت . وهي مدينة على البحر يشقها نهر كبير كثير الحوت ويقع في البحر ، وعليها سور ضخم وبها جامع وأسواق وحمامات ، افتتحها معاوية بن حديج سنة 41 وكان معه عبد الملك بن مروان .

ابن سعيـــد

. . وفي شرقيها ، مدينة بنزرت حيث الطول ثلاثون درجة وخمسون دقيقة والعرض ثلاث وثلاثون درجة ونصف . ولها نهر عليه فنار ينصب في شرقيها ولها بحيرة حلوة في جنوبيها ، وبحيرة مالحة في شرقيها ، تنصب كل منهما في الاخرى ستة اشهر ، فلا الحلوة تفسد بالمالحة ، ولا المالحة تصلح بالحلوة . وقد استفاض أن الحوت يخرج من هاتين البحيرتين في رأس كل جنس جديد ، ويغيب الجنس الأول حتى يدور العام . وفي شرقيها رأس الجبل حيث المرسى المأمون في فصل الشتاء واليه تلجا المراكب من مرسى تونس اذا كان الهول ، أو يرام اصلاحها . وبين هذا الجبل وبين تونس ينصب نهر مَجْرَدة المشهور بافريقية ، ويقال له عند مصبة : المفزع .

أبو الفدا

ومدينة بنزرت على نهر يجري في شرقيها وعليه الفنار ، ولها بحيرة في جنوبها وبحيرة في شرقها تصب كل واحدة منهما في الاخرى ستة أشهر ، فلا الحلوة تفسد بالمالحة ولا المالحة تعذب بالحلوة . قال الشيخ عبد الواحد : وهي مدينة خراب والبحيرات منها حسبما ذكر . وقال العزيزي في أمر البحيرتين المذكورتين انه اذا جاءت الشتاء وكثرت السيول على البحيرة الحلوة ، فاضت على المالحة ومدتها . واذا جاء الصيف قل المدعنها وغار واشتغلت عن المالحة فتمدها المالحة الى أيام السيول .

قال الادريسي : وطول المالحة ستة عشر ميلا وعرضها ثمانية اميال . والحلوة اربعة اميال في مثلها . ومن بنزرت الى طبرقة سبعون ميلا .

القزويني

بنزرت مدينة بافريقية على ساحل البحر يشقها نهر كبير كثير السمك لها قلاع حصينة ياوي اليها أهل النواحي إذا خرج الروم غزاة ، وبها رباطات للصالحين . وانفردت بنزرت ببحيره تخرج من البحر الكبير الى مستقر تجاهها ، يخرج منها في كل شهر صنف من السمك لايشبه النصف الذي كان في الشهر الماضي الى تمام السنة ، ثم يعود الدور الى الاول . والسلطان ضمنه باثني عشر الف دينار.

* * *

تـونـس (1)

ابن حوقل :

... واليها مدينة تونس ، وهي قاعدة أزلية قديمة ذات مياه جارية قليلة والانتفاع بها كثير ، والعائدة الى أربابها صالحة ، وهي خصبة في ذاتها .(وبها) متسع لغلاتها . ويعمل بها غضار حسن الصباغ وخزف حسن كالعراقي المجلوب . وكان اسمها في قديم الزمن ، ترشيش ، فلما أحدث فيها المسلمون البنيات واستحدثوا البساتين والحيطان سميت تونس . وهي مطابقة لقرطاجنة المشهور أمرها بالطيب وكثرة الفواكه وحسنها وجودة الثمار وصحة الهواء

---

(1) راجع غير ما ذكر هنا : Bertholon et Chantre, Recherches Anthropologiques dans la Berberie Orientale ; وحسن حسني عبد الوهاب : Coup d'Oeil Général sur les apports éthniques étrangers en Tunisie (Revue Tunisienne, 1917) ; وابن أبي دينار القيرواني : المؤنس في أخبار أفريقية وتونس : محمد الباجي ، الخلاصة في امراء افريقية ؛ . وابن مقديش ، نزهة الانظار . وكذلك :

Savary de Brèves, Relations de ses voyages aux Royaumes Tunis et d'Alger ; Dans, Histoire de Berberie ; Lucas, Mémoire pour servir à l'histoire de Tunis ; Laugier de Tassy, Histoire des Etats Barbaresques ; Peysonnel, Relation d'un Voyage sur la côte de Barberie ; en 1724 ; Shaw Travels ; Herbenstreit, voyage à Alger à Tunis et à Tripoli, en 1732 ; Faye, Etat des Royaume de Barbarie ; Poiron, Mémoire Concernant l'Etat présent du Royaume de Tunis ; Stanley, on the city of Tunis ; Blaquière, letters from the mediterranean Tunis ; Noak, Travels in the Barbary states ; Ewans, Reise... Von Tunis ; Niculy, Documenti sulla storia di Tunis, Kennedy, Tunis in 1845 ; Flaux, la Régence de Tunis, au XIX[e] siecle ; Zaccone, Notes sur la Régence de Tunis ; Idris (H.R.) la Berberie Orientale sous les Zirides ; Feraud, Notes sur un Voyage en Tunisie et en Tripolitaine ; Plantet, Correspondance des Bey de Tunis et des Consuls de France avec la Cour ; Grandchamps, France en Tunisie ; Masson, Mistoire des établissements et du Commerce français dans l'Afrique barbaresque ; Bartheres, les impots arabes en Tunisie ; Tunis en 1865 d'aprés le récit d'un voyageur (la Revue liberale, 4[e] trim., 1959) ; Serg (P), le Faubourg de Sidi Fathallah (cahier de Tunis 1[er] – 2[e] trim., 1960) ; Solignac (J.M.), Travaux hydroliques Hafsides de Tunis (R.A., 1936) ; Puaux (G), A la cour du Bey de Tunis (les Annales Mai, 1951) ; Llimares (A) les Séjours de Raymond Lulle à Tunis, (Revue de la Méditerranée, 1960) ; Sacerdot (A), Venise et les Regen ces d'Alger, Tunis et Tripoli (1699-1764) (R.A., 1957).

واتساع الغلات . ومن غلاتها ، القطن ويحمل الى القيروان فيظهر الانتفاع به ، وكذلك القنب والكرويا والعصفر والعسل والسمن والحبوب والزيت وكثير من الماشية مختص بها .

البكري

ومن القيروان الى مدينة تونس ، مائة ميل ، وهي ثلاث مراحل . فالى فندق شكل مرحلة ، والى منستير عثمان مرحلة .

ودور مدينة تونس أربعة وعشرون الف ذراع . وفي سنة أربع عشرة ومأتة ، بنى عبيد الله بن الحبحاب (1) الجامع ودار الصناعة بمدينة تونس . وأهلها موصوفون بدناءة النفوس . واسم مدينة تونس في الاول مدينة ترشيش . ويقال لبحرها ، بحر رادس . وكذلك يسمى مرساها مرسى رادس . وافتتحها حسان بن النعمان (2) بن عدي بن بكر بن مغيث بن عمرو مزيفياء بن عامر الازدى . وروي جماعة عن أبي المهاجر قال : سار حسّان بن النعمان الى أرطة فقاتل الروم بفحص تونس ، فساله الروم ألا يدخل عليهم وأن يضع الخراج عليهم ويقوموا له بما يحمله وأصحابه ، فاجابهم الى ذلك وكانت لهم سفن معدة من ناحية الباب الذي يقال له باب النساء فاحتملوا فيها أهليهم وأموالهم وهربوا ليلا وأسلموا المدينة ، فدخلها حسان ، فحرق وخرب وبنى فيها مسجدا وبقي هناك طائفة من المسلمين . وكذلك كان مكر صاحب قرطاجنة أيضا بحسان بن النعمان ، فإن الروم لما فروا عنها وبقي فيها مرناق صاحبها وليس معه إلا أهله ، بعث الى حسان : هل لك أن تعاهدني وولدي وتقطع لي قطائع اشترطها عليك وأفتح

---

(1) كان عبد الله بن الحبحاب قد بنا دار الصناعة ، فيما روى معظم المؤرخين العرب في سنة 116هـ، ولكن ابن خلدون وابن تغريبردي يذكران آن ذلك وقع في سنة 114 (932ـ933م) ، وهي رواية تتفق مع ماقرره أبو عبيد البكري .

(2) حسان بن النعمان بن عدى الازدى الغسانى . قدم الى افريقية واليا عليها بعد موت زهير البلوى في برقه وكلف باتمام فتحها (سنة 78 هـ) ، وكانت قرطجنة التي لا تزال في يد البيزنطيين من اعظم فتوحاته في هذه الحملة التي تتكون من اربعين الف رجل. وقد أحدث سقوط قرطجنة فراغا كبيراً في أمبراطورية القسطنطينية ، مما آضطر معه الامبراطور ليونتيو الى ارسال قوة بحرية كبيرة لانجاد المدينة . وقد دخل في معارك عديدة وعنيفة مع البيزنطيين ومع الكاهنة البربرية ، دهينا ، في جبل أوراس وقابس أظهر فيها شجاعة شخصية وحنكة في القيادة حتى دانت له افريقية كلها . وقد توفى في نحو سنة 86هـ . راجع ، مقالة Basset (R) Leontios في دائرة المعارف الاسلامية (الطبعة الاولى ، مادة حسان) ، البيان 34/1 — 39 ، الدرر السنية ص 24 — 29 البلاذري ، فتوح البلدان (ط ليدن ص 229) ، طبقات أبي العرب ص 82 ، البكري (ص 7 — 8) : رحلة التجاني تاريخ الإسلام للذهبي 151/3 ، النويري ، ذيل تاريخ البربر (109/6) ، المؤنس ص 17 — 18 .

لك بابا فتدخل المدينة على من فيها ، فاجابه الى مسألته ، فاشترط عليه المنازل التي بين الجبلين التي يقال لها فحص مرناق ، وهي إذ ذاك ثلاثمائة وستون قرية ، ثم فتح لهم الباب ، فلم يجد بها أحدا غيره وغير ولده وأهله ، فتمم له حسان ما اشترطه وانصرف الى القيروان . قال ، وأغارت الروم من البحر على من كان بقي من المسلمين بمدينة تونس ، خرجت اليهم في المراكب ، فقتلوا من بها وسبوا وغنموا ولم يكن للمسلمين شـيء يحصنهم من عدوهم ، انما كانوا معسكرين هناك . وبلغ حسان ذلك ، فرحل الى تونس وأرسل أربعين رجلا من أشراف العرب الى عبد الملك بن مروان وكتب اليه بما نال المسلمين من البلاء ، وأقام هناك مرابطا ينتظر رأي عبد الملك . فلما بلغ ذلك عبد الملك ، عظم عليه ، وكان آذ ذاك التابعون متوافرين ، فيهم اثنان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنس بن ملك (1) وزيد بن ثابت (2) فقالا للمسلمين : من رابط بـرادس يوما فلـه الجنـة حتما . وقالا لعبد الملك ، مدّ هذه البلاد وانصر أهلها ليأمنوا من العدو ويكون لك ثوابها وأجرها ، فانها من البلدان المقدسة المرحوم أهلها . وهي حرس لمقدونية يريدون القيروان . وروي أن ببحر رادس خرق الخضر عليه السلام السفينة ، وأن الملك الذي كان يأخذ كل سفينة غصبا [هو] الجلندي ، ملك قرطاجنة ، الخضر السفينة ببحر رادس وقتل الغلام بطنبد ، وهي اليوم تسمى المحمدية ، وهناك فارق موسى الخضر عليه السلام ، وطنبد على أميال يسيرة من تونس .

كتب عبد الملك بن مروان الى أخيه عبد العزيز ، وهو والي مصر أن يوجه الى معسكر تونس الف قبطي بأهله وولده وأن يحملهم من مصر ويحسن عونهم حتى يصلوا الى ترشيش ، وهي تونس . وكتب الى ابن النعمان يأمره ان يبني لهم دار صناعة تكون قوة وعدة للمسلمين الى آخر الدهر ، وأن يجعل على البربر جرَّ الخشب لانشاء المراكب ليكون ذلك جاريا عليهم الى آخر الدهر وأن يصنع بها المراكب ويجاهد الروم في البر والبحر وأن يغار منها على ساحل الروم فيشتغلوا عن القيروان نظرا للمسلمين وتحصينا لشانهم . فوصل القبط الى حسان ، وهو مقيم بتونس

---

(1) أنس بن مالك بن النفر الخزرجي الانصارى ، أبو ثمامة . صاحب رسول الله وخادمه . روى عنه رجال الحديث . ولـد بالمدينة في سنة 10 قبل الهجرة واسلم صغيرا . رحل الى دمشق ومنها الى البصرة حيث مات في سنة 93 هـ . راجع سيرتـه في طبقات ابن سعد 7/10 وفي تهذيب ابن عساكر 7/139 .

(2) زيد بن ثابت الانصارى الخزرجي ، ابو خارجة . كاتب الوحي ومن اكابر الصحابة . ولد بمكة في سنة 11 قبل الهجرة ونشابها وهاجر وتعلم الدين وهو يافع . وممن اخذ عنه ابن عباس ، وكان احد الذين جمعوا القرآن في حياة الرسول (ص) . وقد توفي في سنة 45 هـ . راجع سيرته في غاية النهاية 1/296 ؛ الصفوة 1/294 .

فاجرا البحر من مرسى رادس الى الصناعة وجرَّ البربر الخشب وجعل فيها المراكب الكثيرة وأمر القبط بعمارتها .

وبشرقي مدينة تونس بحيرة كبيرة دورها أربعة وعشرون ميلا في وسطها جزيرة تسمى شكلة مقدار ميلين تنبت الكلخ وبها آثار قصر خرب ، فصارت دار صناعة تونس متصلة بالميناء ، والميناء متصل بالبحيرة ، والبحيرة متصلة بالبحر . وعلى شاطيء الميناء مسجد يعرف بمسجد عبد الله ، وبقبلى الميناء قصر مبني بالحجارة متقن البناء . وفي الجوف منه حائط صخر كالسور ، فصار المدخل بالسفن في هذا الميناء ، بين حائط القصر وهذا السور ، وتعرض بينهما سلسلة جديد تمنع المراكب من الدخول والخروج مادامت متعرضة . وهذا القصر يعرف بقصر السلسة وبقبلي القصر صهريجان ، كان ملوك بني الاغلب يرسلون ماء البحر ويملؤنهما بالسمك . وقد تقدم ان عبيد الله بن الحبحاب بنى دار صناعة . فلعل من روي ذلك يريد ان عبيد الله جددها وزادها تحصينا ، فلم تزل تونس معمورة من يومئذ ، يغزو منها المسلمون بلاد الروم ويكثرون فيهم النكاية ولهم الاذاية .

ومدينة تونس في سفح جبل يعرف بجبل أم عمرو ويدور بمدينتها خندق حصين . ولها خمسة ابواب : باب الجزيرة ، قبلي ، ينسب الى جزيرة شريك ويخرج منه الى القيروان . ويقابله الجبل المعروف بجبل التوبة ، وهو جبل عال لا ينبت شيئا ، في أعلاه قصر مبنى مشرف على البحر . وبشرقي هذا القصر غار محني الباب يسمى المعشوق . وبالغربي منه عين ماء . وبغربي هذا الجبل جبل يعرف بجبل الصيادة ، فيه قرى كثيرة الزيتون والثمار . والمزارع . وفي هذا الجبل سبعة مواجل للماء أقباء على غرار واحد . وبغربي هذا الجبل أيضا اشراف مزارع متصلة بموضع يعرف بالملعب ، فيه قصر لبني الاغلب قد غرس بجميع الثمار واصناف الرياحين وبشرقي مدينة تونس المبني والبحيرة التي ذكرنا وسبخة . وبشرقيها أيضا باب قرطاجنة ، دونه داخل الخندق بساتين كثيرة وأبارسواني تعرف بسواني المرج ، وباب السقايين ، جوفي ، نسب الى السقايين ، لان بئرا تعرف ببئر أبي القبار تقابله ، وهي بئر كبيرة غزيرة عذبة الماء نميزة . وهنا قصور لبني الاغلب وبساتين فيها اصناف الثمار والرياحين ، ويصل جبل أجرد يقال له جبل أبي خفاجة في أعلاه آثار بنيان ، وباب ارطه غربي تجاوره مقبرة تعرف بمقبرة سوق الاحد . ودون الباب من داخل الخندق غدير كبير يعرف بغدير الفحامين . وربض المرضى خارج عن المدينة . وبقبلي ربض المرضى ملاحة كبيرة منها ملحهم وملح من يجاورهم . وجامع مدينة تونس رفيع البناء مطل على البحر ، ينظر الجالس فيه الى جميع جواريه ويرفا الى الجامع

من جهة الشرق على اثنتي عشرة درجة . وبها اسواق كثيرة ومتاجر عجيبة . وبمدينة تونس خمسة عشر حماما وفنادق كثيرة رفيعة . وعضادات أبواب دور مدينة تونس كلها رخام بديع ، لوحان قائمان وثالث معترض عليهما مكان العتبة . ومن أمثالهم : « دور تونس أبوابها رخام وداخلها سخام » . ومدينة تونس دار علم وفقه ، ولي منها قضاء افريقية جماعة كثيرة . ومع هذا الفضل الذي فيها ، هي مخصوصة بالقيام على الامراء والخلاف للولاة ، خالفت نحو عشرين مرة ، وامتحن أهلها أيام أبن يزيد بالقتل والسبي وذهاب الاموال .

وقال الجربي صاحب الحدثان :

فـويـل لـترشيـش وويـل لأهـلـهـا   من الحبشي الأسود المتغاضب

وقال بعض الشعراء :

لعمـرك مـا ألفيـت تـونس كاسمهـا   ولكـنـني ألفيتـهـا وهي توحش

ويصنع بتونس آنيه للماء من الخزف تعرف بالريحية ، شديدة البياض في نهاية الرقة ، تكاد تشف ليس يعلم لها نظير في جميع الاقطار وعامة الامصار . ومدينة تونس من أشرف مدائر افريقية واطيبها ثمرة وانفسها فاكهة فمن ذلك اللوز الفريك ، يفرك بعضه بعضا من رقة قشرة ويحت باليد واكثره حبتان في كل لوزة مع طيب المضغه وعظم الحبة ، والرمان الضعيف لا حجم لحبه البتة مع صدق الحلاوة وكثرة المائية ، والاترج الجليل الطيب الطعم الذكي الرائحة البديع المنظر ، والتين الخارمى أسود كبير رقيق القشرة كثير العسل ، لايكاد يوجد لـه بذر ، والسفرجل المتناهي كبرا وطيبا وعطرا والعناب الرفيع في قدر الجوز ، والبصل الفلوري في خلق الاترج مستطيل سابرى القشرة صادق الحلاوة كثير الماء . وبها من اجناس الحوت الذي لايكون مثله في غيرها مالا يحصى كثرة اجناس ، تجرى في البحر مع شهور العجم في كل شهر من تلك الشهور يجرى فيه جنس منه لا يوجد في البحر الى دخول ذلك الشهر من العام القابل . فهم من تجددها في لذة موصولة ونعمة غير مملولة . وكل جنس منها يصير فيبقى السنين صحيح الحرم طيب الطعم ، منها جنس يعرف بالعبانق وجنس يعرف بالاكتوبرى وجنس يعرف بالاشبارس وجنس يعرف بالمنكوس وجنس يعرف بالبقونس . ومن امثالهم « لولا البقونس لم يخالف أهل تونس » .

ومن مدينة تونس الى قرطاجنة اثنا عشر ميلا .

ومن مدينة القيروان إلى مدينة تونس مرحلتان و بعض ، بسير القوافل . وهي مدينة حسنة يحيط بها من جميع جهاتها فحوص ومزارع للحنطة والشعير ، وهي أكبر غلاتها . وجل معاملات أهلها مع ثقات العرب وامرائها . وهي الآن في وقت تاليفنا لهذا الكتاب ، معمورة موفورة الخيرات يلجأ إليها الغريب والبعيد . وعليها سور تراب وثيق ، ولها ابواب ثلاثة . وجميع جناتها ومزارع بقولها في داخل سورها وليس لها خارج السور شيء يعول عليه . والعرب تجاور أرضها وتاتي بانواع الحبوب اليها والعسل والسمن ما يكفي أهلها غدقا . ويعمل بها من الخبز وانواعه مالا يمكن عمله في غيرها من البلاد . ومدينة تونس في ذاتها قديمة ازلية حصينة اسمها في التواريخ طرشيش . ولما افتتحها المسلمون وأحدثوا البناء بها ، سموها تونس . وشرب أهلها من أبارشتى ، لاكن أعظمها قدراً واحلاها ماء ، بئران احتفرتهما بعض سيدات الاسلام ، ابتغاء الثواب . وهما في نهاية من سعة القدر وكثرة الماء . وهذه المدينة مصاقبه لقرطاجنة المشهورة بالطيب وكثرة الفواكه وحسن الجهة وجودة الثمار واتساع الغلات .

ومدينة تونس في جون خارج من البحر ، وهي على بحيرة محتفرة وعرضها اكثر من طولها ، وذلك أن طولها أميال ولها فم يتصل بالبحر ، وهو المسمى فم الوادي . وذلك ان هذه البحيرة لم تكن من قبل ، وإنما حفر في البر حفر انتهى به إلى مدينة تونس لأن بين تونس والبحر ستة اميال وسعة هذا النهر المحفور نحو 40 ذراعا وعمقه من 4 إلى 3 وقعرى طين وطول هذا الحفر المسمى نهـرا 3 أميال ثم أجـــروا ماء البحـــر في ذلك النهـــر فعـــلا عـــلى الحفر تجاوز أعلاه بربع قامة وأقل وا كثر الى ان بلغ الماء حده فوقف . وعند آخر هذا الحفر يتسع فيه الماء ويغمق . واسمه وقور ، واليه تصل المراكب الحمالة والنواشي والحرابي وترسى هناك . واتصل فيض الماء الطافي في هذا النهر المحفور الى مدينة تونس ، فهي على نحو البحيرة وأوساق المراكب تفرغ بوقور في زوارق صغار تعوم في أقاصير المياه الى مدينة تونس . ودخول المراكب من البحر الى النهر حتى تصل الى وفور واحدا بعد واحد ، لاسعة النهر لا يحتمل اكثر من ذلك .

ياقـــوت

تونس الغرب : بالضم ثم السكون ونون تضم وتفتح وتكسر . مدينة كبيرة محدثة بافريقية على ساحل بحر الروم ، عُمِرتْ من أنقاض مدينة كبيرة قديمة بالقرب منها يقال لها قرطاجنة .

ووكان اسم تونس في القديم ترشيش وهي على ميلين من قرطاجنة . ويحيط سورها باحدى وعشرون الف ذراع ، وهي الآن قصبة بلاد افريقية ، بينها وبين اسفاقس ثلاثة أيام ، ومائة ميل . بينها وبين القيروان ونحو من ذلك ، بينها وبين المهدية . وليس بها ماء جار ، وانما شربهم من آبار ومصانع يجتمع فيها ماء المطر ، في كل دار مصنع . وآبارها خارج الديار في أطراف البلد . وماؤها ملح وعليها محترث كثير ، ولها غلة فائضة . وهي من أصح بلاد افريقية هواءً .

بين تونس والقيروان منزل يقال له مجقه . اذا كان أوان طاب الزيتون بالساحل قصدته الزرازير فباتت فيه وقد حمل كل طائر منها زيتنتين في مخلبيه فيلقيهما هناك . وله غلة عظيمة تبلغ سبعين الف درهم .

ويختتم ياقوت قائلا

وبتونس قبر المؤدب مَحْرز (1) يقسم به أهل المراكب اذا جاش عليهم البحر ، يحملون من تراب قبره معهم وينذرون له . والمنسوب إلى تونس من أهل العلم كثير ، منهم شجرة بن عيسى وقيل ابن عبد الله التونسي مات سنة 203 (2) ، وعبد الوارث بن عبد الغني بن علي بن علي يوسف بن عاصم ، أبو محمد التونسي المالكي الاصولي الزاهد ، كان عالما بالكلام بصيرا به حسن الاعتقاد فيه ، له قدم في العيادة ، وكان يتردد بين دمشق وحمص وحلب . وكان له أصحاب ومريدون . قال أبو القاسم الحافظ : أنشدني أبو محمد الاصولي :

اذا كنت في علم الأصول موافقا ... بعقلك قول الأشعري المسدد
وعاملت مولاك الكريم مخالصا ... بقول الإمام الشافعي المؤيد
وأتقنت حرف ابن العلاء مجردا ... ولم تعد في الاعراب رأي المبرد
فانت على الحق اليقين موافق ... شريعة خير المرسلين محمد

(1) راجع ترجمة احمد بن ابي محرز القاضى في طبقات ابي العرب (ص 167) ؛ طبقات الخشني (ص 235) ؛ الرباط (1 / 305) ، معالم الايمان (2 / 25) ؛ البيان (1 / 133) ؛ وترجمة (ابو محرز محمد ابن عبد الله السكناني القاضى) في الرياض (1 / 189) ؛ معالم الايمان (2 / 18) ؛ الديباج (ص 285) ؛ البيان (1 / 130) ؛ طبقات أبي العرب (ص 166 ـ 167) .

(2) هو أبو سمرة شجرة بن عيسى المعافرى (167 ـ 162 هـ) ، محدث وفقيه مالكي تولى قضاء تونس . درس على ابيه وتتلمذ على مالك وروي عنه وعن أبن زياد وأبن اشرس راجع ابن عذارى ، البيان (1 / 152 و 162) ؛ ابو العرب ، طبقات علماء افريقية (ص 316) ؛ أبن فرحون ، الديباج المذهب (ص 127) ؛ القاضى عياض ، تراجم أغلبية (ص 151)

ومات عبد الوارث سنـة خمسين وخمسمائـة

القزويني

تونس مدينة بارياض المغرب كبيرة على ساحل البحر ، قصبة بلاد افريقية ، أصلح بلادها هواء وأطيبها ماء واكثرها خيرا وبها من الثمار والفواكه ما لا يوجد في عبرها من بلاد المغرب حسنا وطعما . فمن ذلك لوز عجيب يفرك باليد واكثرها في كل لوزه حبتان . وبها الرمان الذي لاعجم له مع صدق الحلاوة والاترج الذكى الرائحة البديع المنظر ، الحازمي الاسود الكبير الرقيق القشر الكثير العسل ، لايكاد يوجد فيه بذر ، والسفرجل الكثير جدا العطر الرائحة ، والعناب الكبير ، كل حبة منه على حجم جوزة ، والبصل العلورى على حجم الاترج مستطيل صادق الحلاوة .

وبها أنواع من السمك عجيبة لا ترى في غيرها ، يرى في كل شهر نوع من السمك مخالفا لماكان قبله فيملح ويبقى سنين صحيح الجرم طيب الطعم . ومنها نوع يقال له البقونس . يقولون لولا البقونس لم تخالف أهل تونس ، وأهلها موصوفون باللؤم ودناءة النفس والبخل الشديد والخروج على الولاء . قال بعضهم ولاتهم وقد خرجوا عليه ولقي منهم التباريح ، قال :

لعمرك ما الفيت تونس كاسمهـا ولكنني الفيتها وهي تـوحش

وبين تونس والقيروان ثلاثة أيام بينهما موضع يقال له محققة به أمر عجيب ، وهو أنه إذا كان أول الزيتون قصدته الزرازير وقد حمل كل طائر منها زيتونتين في مخلبيه يلقيهما هنا ويحصل من ذلك على غلة ، قالوا : تبلغ سبعين الف درهم !

ابن سعيد

وتقع الحضره التي اسمها تونس حيث الطول اتنتان وثلاثون درجة والعرض ثلاث وثلاثون درجة واحدى وثلاثون دقيقة . وهي على بحيرة مالحة تدخلها المراكب الصغار بالوستى من المراكب الكبار التي ترسو في مينائها . وبين ساحل البحيرة عند تونس وفمها عند البحر عشرة أميال ، ودورتها اربعة وعشرون ميلا . وهذه المدينة الآن هي قاعدة افريقية ، ومعظم بلاد المغرب تابع لها . وفي شرقيها أقليبية .

العبدرى

وأهل تونس في طرفي نقيض من أهـل طرابلس . أولئك في الأوج وأولاء في الحضيض

ولم أربها مايروق العيون ، وسما عن أن يقوم بالدون سوى جامعها ومدرستها ، فان لهما من حسن الصوره نصيبا ومن اتقان الصنعة سهما مصيبا . وما رأيت في الغرب مثل مدرستها المذكورة لولا ان محاسنها مقصوره على الصورة ، فما يشب بها للعلم طفل وما الحسن في وجه الفتى شرف له .

وما الحسن في وجه الفتى شرف له
اذا لم يكن في فعله والخلائق

أبو الفدا

تونس قاعدة افريقيه ، وهي على بحيرة مالحة خارجة من البحر . وبين ساحل البحيرة عند تونس وبين فمها عند البحر عشرة أميال ودور البحيرة نحو أربعة وعشرين ميلا ، قال في العزيزي : وتونس مدينة جليلة قديمة البناء ولها مياه ضعيفه جارية يزرع عليها . وهي كثيره الفلاحة خصبة الارض . وجبل زغوان بالقرب منها ، وهو عنها بجهة الغرب ، مع ميلة الى الجنوب ، على مسيرة يومين ، وهوبفتح الزاء وسكون الغين المعجمتين وفتح الواو.

القلقشندي

تونس . . هي قاعدة هذه المملكة الآن ومستقر سلطانها وهي مدينة قديمة البناء واقعة في الاقليم الثالث . قال ابن سعيد (الطول والعرض) وهي على بحيرة مالحة خارجه من البحر الرومي ، طولها عشرة أميال ، وتونس على آخرها .

قال البكرى ، ودور هذه البحيرة أربعة وعشرون ميلا . قال العزيزي ، وهي مدينة جليلة ، لها مياه ضعيفة جارية يزرع عليها ، وفيها الخصب وكثرة الغلات . وهي في وطأة من الارض في سفح جبل يعرف بأم عمرو ، يستدير بها خندق وسور حصين ولها ثلاثة ارباض كبيرة في سفح جبل يعرف بأم عمرو ، يستدير بها خندق وسور حصين ولها ثلاثة أرباض كبيرة من جهاتها . وأرضها سبخة ، وجميع بنائها بالحجر والاجر وبنيتها مستقفة بالاخشاب ، ودور أكابرها مفروشة بالرخام . وذم في « روض المعطار » بيوتها فقال ، هي كما يقال : ظاهرها رخام وباطنها سخام . وشرب أهلها من الآبار ، و(في) بيوتها صهاريج يجمع فيها ماء المطر لغسل القماش ونحوه . وبها الحمامات والاسواق الجليلة وبها ثلاث مدارس : وهي الشماعية والفرضية ومدرسة الهواء وبها البساتين القريبة والبعيده منها ، البساتين محاطه ببحيرتها المقدم ذكرها .

قال في مسالك الابصار : ومذخلا الاندلس من أهله وأووا الى جناح ملوكها ، مصروا اقليمها ونوعوا الغراس فيها فكثرت مستنزهاتها وامتد بسيط بساتينها . قال وبها يعمل القماش الافريقى ، وهو ثياب رفاع من القطن والكتان معا ، ومن الكتان وحده . وهو امتع من النصافي البغدادى وأحسن . ومنه جل كساوى اهل المغرب . وللسلطان بها قلعة جليلة يسكنها ، يعبرون للسلطان بها قلعة جليلة يسكنها ، يعبرون عنها بالقصبة ، كما هو مصطلح المغاربة في تسمية القلعة بالقصبة . وللسلطان بها بستانان احدهما ملاصق أرباض البلد يسمى براس الطابية ، والثاني بعيد من البساتين يسمى بابي فهر بينه وبين البلد نحو ثلاثه أميال . والماء منساق اليهما من ساقية بجبل يعرف بجبل زعوان ، على مسافة يومين من تونس .

*

* *

قرطاجنة (1)

الهمذاني

واسم مدينة تونس قرطاجنة ، وهي على ساحل البحر يحيط بسورها أحد وعشرون دراع . ومن مدينة تونس الى الاندلس ستة فراسخ .

ابن حوقل

. . . وهي (تونس) مصاقبه لقرطاجنة المشهور أمرها بالطيب وكثرة الفواكه وحسنها وجودة الثمار وصحة والهواء واتساع الغلات ومن غلاتها القطن ، ويحمل الى القيروان فيطهر الانتفاع به ، وكذلك القنب والكرويا والعصفر والغسل والسمن والحبوب والزيت وكثير من الماشية .

البكرى

ومن مدينة تونس الى قرطاجنة اثنا عشر ميلا . ويقال أن الذي بنى قرطاجنة ، ديدون الملك ، زمن داود عليه السلام . ويقال ان بين بناء قرطاجنة وبناء مدينة رومية اثنتان وسبعون سنة . ولو دخلها الداخل أيام عمره وتدبر فيها الرأي فيها كل يوم مستانف أعجوبة لم يرها في السالف وهي على شاطئ البحر يصيب سورها امواجه . وكان تكسير سورها اربعة عشر الف ذراع . وقال ابو جعفر احمد بن ابراهيم (1) المتطبب القرواني في مغازي افريقية ان موسى بن نصير

---

(1) ابو جعفر الملقب بابن الجزار ، طبيب شهير من مدينة القيروان له عدة مؤلفات ، منها كتاب زاد المسافر وقوت الحاضر ، وكتاب طب الفقراء والمساكين ، وكتاب المعدة وأمراضها . ومن الموضوعات الطبيه التي عالجها ، الزكام والطاعون . توفى سنة 400 هـ (1009 ـ 1010 م) . (راجع : عمر فروخ ، تاريخ العلوم عند العرب (ص 282) .

لما دخل الاندلس فاتى على ماأراد منها ، قال لهم : دلوني على أسن شيخ فيكم ، فاتي بشيخ قد وقعت حاجباه على عينيه من الكبر. فقال له موسى : من أنت ياشيخ ؟ قال : من قرطاجنة افريقية . فقال له موسى : ما الذي أصارك هنا ، وكيف كان خبر قرطاجنة ؟ فقال له الشيخ : ان قرطاجنة بناها قوم من العيديين (؟) الذين هلك قومهم بالريح ، فبقيت بعدهم خرابا الف سنة ، حتى بناها اردمين بن لاوين بن نمرود الجبار وجلب اليها الماء العذب من دلالا ، فحفر له في الجبال وبنى القناطر في بطون الاودية حتى استوى جري الماء فيها بعد عمل أربعين سنة . قال : ولما حفر اساس تلك القناطر في بطون الاودية ، أصيب فيه حجر عليه كتابة . فاذا فيه أن هذه المدينة ليس تخرب الا اذا اظهر فيها الملح . قال الشيخ : فبينا نحن ذات يوم في قرطاجنة أن أنبيل (هانبال) ، ملك افريقية ، وكانت قرطاجنة دارملكه ، مضى الى بلد أيطالية الذى فيه مدينة رومية ولاقى قواد رومية وكان اهل رومية يومئذ لاملكلهم انما كان تدبير مملكتهم الى سبعين رجلا من كبرائهم يخرجون من انفسهم كل عام اثنى عشر قائدا يقرعون بينهم على نواحيها فيخرج كل واحد الى الناحية التي وقعت عليه . فهزمهم انبيل وقاتلهم في عدة مواطن حتى بعث الى افريقية بثلاثة أمداد من خواتم الذهب التي كانت في ايد اشراف من قتل منهم وملكهم وكتب اليهم : هذا عدا من قتلته من الا شراف والقواد ، فضلا عن غيرهم . فاقام في في بلاد ايطالية ومضيقا على نواحيها نحوا من ست سنوات ، فركب قائد من قوادهم يقال له المراكب خفية حتى أتى صقلية فحشر من اجتمع له بها ثم مضى الى بلد افريقية وترك انبيل محاصرا لبلد رومية فانتصر على الافريقيين وعم بلد افريقية قتلا وسبيا وإحراقا وبقى محاصر لقرطاجنة ، فبعث أهلها الى أميرهم انبيل يعلمونه بما دهمهم من أهل رومية ويسالونه الاسراع لغياثهم ، فعجب عند ذلك أنبيل فقال اني كنت ارى التزام محاصرة هذه المدينة (حتى) يقطع اسم الرومانيين من الدنيا . فاظن ان اله السماء لا ياذن بذلك . ثم ركب المراكب واسرع الرجوع الى افريقية ، فزحف اليه شبيونقائد الرومانيين فهزمه في كل مشهد فجعل انبيل يخاطبه ويقول : اين كنتم معشر الرومانيين من هذه النجدة اذ كنا نقاتلكم ونهزمكم في افنيتكم . فقال له شبيون : اذا كنتم في بلدنا بعد عنكم بلدكم وحصونكم ونحن في حصوننا وبلدنا كنا اشد منكم خوراً وكنتم أشد منا استثباتا . فلما صرنا في بلدكم ، انتقل الامروتبدل الحكم فغلب عند ذلك اهل روميه على اهل افريقية وهدموا مدينة قرطاجنة . واعجب ما بقرطاجنة دار الملعب ، وهم يسمونه الطياطر ، قد بنيت اقواسا على سوارى وعليها مثلها ماأحاط بالدار وقد صور في حيطانها جميع الحيوان وصور جميع اصحاب الصناعات وجعلت فيه صور الرياح فجعلت فيه صورة

الصبا ووجهه مستبشر وصورة الدبور ووجهه عابس . ورخام قرطاجنة لو اجتمع اهل افريقية على نقله واستخراج جميعه ما أمكنهم ذلك لكثرته . وفيها قصر يعرف بالمعلقة مفرط العظم والعلو ، قباء معقودة طبقات كثيرة مطل على البحر في غربيه قصر يعرف بالطياطر ، وهو الذي فيه دار الملعب المذكور ، وهو كثير الابواب والتراويح ، وهو أيضا طبقات على كل باب صورة حيوان رخام وصور جميع الصناع . وقصر يقال له قومش .

البكرى

طبقات كثيرة أيضا في سواره رخام مفرطة الكبر والعظم يتربع على راس السارية منها اثنا عشر رجلا وبينهم سفرة طعام او شراب وهي مشطبة كالثلج بياضا والمهاة صفاء . بعض تلك السواري قائمة وبعضها ساقطة . وبها قبو عظيم لا يدك الطرف آخره فيه سبعة مواجل للماء كبار تعرف بمواجل الشياطين فيها ماء قديم لايدرى متى دخلها . وبقرب قصر قومش سجن اقباء بعضها فوق بعض مظلم مهيب الدخول ، فيه جثث الموتى على حالهم الى اليوم . فاذا مسوا تلاشوا . وداخل المدينة ميناء كانت المراكب تدخلها بشرعها . وهي اليوم ملاحة عليها قصر ورباط يعرف ببرج ابي سليمان . وفي وسط المدينة صهريج كبير عليه في وقتنا هذا الف وسبعمائة حنية قائمة سوى مانهدم منها . وكان يجري الى هذا المصنع الماء المجلوب من عين جفاره الى قرطاجنة على مسيرة أيام في قناطر عظيمه تغيب مرة تحت الارض ، وتكون في موضع آخر في قناطر فوق قناطر حتى تساوى السحاب . ومن عين جفارة ، كان عبيد الله يشرب الماء ترد عليه منه كل يوم احمال معروفة . وبقرطاجنة قصران من رخام يعرفان بالاختين ليس فيهما حجر سواه محكم البناء ، رخامه كله مدخول بعضه في بعض وبهدين القصرين ماء مجلوب ياتي من قبل الجوف لا يعرف اين منبعثه يصب في البحر ، وعليه نواعير لقرى قرطاجنة . وبها سوارى قائمة طول الظاهر فوق الارض ، منها اربعون ذراعا قد عقد عليه قبو من حجر النشفه ، وهو الحجر الخفيف الذي يطفو فوق الماء . وبها قبة لا يلحقها الرامى باشد نزع السهام علوا وسموا . ولها سطح مفروش بالفسيفساء خمسون ذراعا في مثلها . وخرائب قرطاجنة اليوم قرى رفيعة مفيدة عامرة واصناف ثمارها متناهية في الطيب ، لايكاديرى ما يفضلها . وروى الثقات عن عبد الرحمن بن زياد (1) بن أنعم ، قال : كنت وأنا غلام مع عميّ بقرطاجنة نمشى في

---

(1) عبد الرحمن بن زياد بن أنعم المعافرى السفاني الافريقي (ابوخالد) عالم ولي القضاء بافريقية مرتين . ولد ببرقه وكان أول مولود في الاسلام بافريقية (سنة 75 هـ) . رحل الى بغداد واتصل بابي جعفر المنصور . وقد روى عن سلسلة من الاعلام=

آثارها ونعتبر بعجائبها فاذا بقبر مكتوب عليه بالحميرية : أنا عبد الله بن الاواش ، رسول رسول الله صالح . وفي رواية أخرى « متعب » ، بعثنى الى أهل هذه القرية ادعوهم الى الله . أتيتهم ضحى فقتلوني ظلما ، حسبهم الله . وقال اسحاق بن عبد الملك الملشوني : لم يدخل افريقية نبي قط . وأول من دخلها بالايمان حوارى عيسى بن مريم عليهما السلام .

الادريسى

. . . ومن هذه البحيرة الى المدينة قرطاجنة 3 أميال ونصف وهي الآن خراب ، وأنما يعمر منها قطعة مرتفعة تسمى المعلَّقة ، يحيط بها سور تراب ويسكنها رؤساء من العرب يعرفون ببني زياد . ومدينة قرطاجنة كانت في وقت عمارتها من غرائب البلاد المذكورة ، بما فيها من عجائب البناء واظهار القدرة في ذلك . وبها الآن بقايا من بنيان الروم المشهور بها مثل الطياطر التي ليس لها نظير في مباني الارض قدرة واستطاعة . وذلك أن هذا الطياطر هي بناء في استدارة . وهي نحو من خمسين قوسا قائمة في الهواء ، سعة كل قوس منها أزيد من 30 شبرا . وبين كل قوس واختها سارية ، وسعة السارية والعضادتين 14 شبار ونصف . ويقوم على كل من هذه الاقواس قوس على قوس صفة واحدة وبناء واحدا من الحجر الكذان الذي لا يجانسه شيء في الجودة ، وعلى أعلى كل قوس من هذه القسي بحر دائر وقد صور في البحر الدائر على القسي السفلى أنواع من الصور وضروف من التماثيل العجيبة الثابتة في الضحر من صفات الناس والصناع والحيوانات والمراكب ، وكل ذلك قد اتقن بابداع صنعة وأحذق حكمة . وسائر البناء الا على أملس لا شيء به . ويقال ان هذا البناء كان ملعباومجتمعا في فصل ما يوم ما من السنة . ومن عجائب البناء بقرطاجنة الدواميس (1) التي يبلغ عددها 24 داموسا في سطر واحد ، طول كل داموس 130 خطوة في عرض 36 خطوة . ولكل داموس منها اقباء في أعلاه

= ذكرهم أبو العرب عدداً منهم ، وروي عنه جماعة منهم الثورى وابن لهيعة وابن غانم والبهلول راجع ترجمته . في طبقات علماء افريقية (ص 96 ـ 116) ؛
رياض النفوس (1 / 96) ؛ ميزان الاعتدال (2 / 104) ؛ معالم الايمان للدباغ (1 / 171) ؛ تهذيب التهذيب (6/ 173) ؛ طبقات المدلسين (ص 19) ؛ النجوم الزاهرة (1/ 440) ؛ الخلاصة النقية (ص 192) ؛ البيان (1/ 92) الشذرات لابن العماد (1/ 240) ؛ الكامل (5/ 45 ، 62) ؛ تراجع اغلبية (فهرس الاعلام ، ص 436) .

(1) من دمس الظلام ، اذا اشتد ، أي مكان مظلم . ومنه سمي سجن الحجاج بن يوسف ديماس لظلمته . راجع مختلف معاني الكلمة في لسان العرب (1/ 1011) .

وبين كل داموس منها وصاحبة اثقاب وزراقات تصل منها المياه من بعض الى بعض ، كل ذلك بهندسة وحكمة . وكان الماء يجري الى هذه الدواميس من عين شوقار التي هي بقرب القيروان وطول مسافة جرى الماء من هذه العين الى هذه الدواميس 3 مراحل . وكان جري الماء من هذه العين الى هذه الدواميس على عدة قناطر لا يحصى لها عدد . وجرى الماء بوزنه معتدلة . وهذه القناطر قسي مبنية بالصخر . فما كان منها في نشر الارض كان قصيرا . وما كان منها في بطن الارض واخاديدها ، كان في نهاية العلو . وهذا من أغرب شيء أبصر على وجه الارض . والماء في وقتنا هذا مقطوع عن هذه الدواميس لا يصل اليها منه شيء ، كل ذلك أوجبه خراب مدينة قرطاجنة . ومع ذلك فإنها من يوم خرابها إلى الآن ، يحفر على ما تهدم من قصورها وأصول بنائها فيستخرج منه من انواع الرخام ما يكل عنه الواصف . ولقد أخبر خبير بها أنه رأى الواحا استخرجت من الرخام طولها 40 شبرا في عرض 7 أشبر ، فمادونها . والحفر في خرابها دائما

ورخامها يحمل الى جميع أقطار الارض ولا سبيل الى أن يخرج أحد منها في مركب أو غيره الا ويحمل معه من رخامها الشيء الكثير حتى اشتهر ذلك . وقد يوجد منها من اعمدة الرخام ما يكون محيط دور الواحدة منها 40 شبرا فما دونه . ويحيط بمدينة قرطاجنة أوطية من الارض وسهول ولها مزارع وضروب الغلات ومنابع جمة . ويتصل بأرض قرطاجنة من جهة المغرب اقليم مدينة سطفورة ، وهو أقليم جلبل .

ياقوت

قرطاجنة ، بالفتح ثم السكون فطاء مهملة . وقيل أن اسم هذه المدينة قرطا واضيف اليها جنة لطيبها ونزهتها وحسنها . بلد قديم من نواحي افريقية . قال بطليموس في كتابه الملحمة : طولها أربع وثلاثون درجة وعرضها خمس وثلاثون درجة ، تحت احدى عشرة درجة من السرطان يقابلها مثلها من الجدي بيت ملكها من الحمل . . .

كانت مدينة شامخة البناء أسوارها من الرخام الابيض وبها من العمد الرخام المتنوع الالوان مالايحصى ولا يحد . وقد بنى المسلمون من رخامها لما خربت عدة مدن ، ولم يزل الخراب بها منذ زمان عثمان بن عفان رضي الله عنه ، والى هذه الغاية على حالها عمودان احمران من الحجر احدهما قائم والآخر قد وقع ، دور كل عمود منهما ستة وثلاثون شبر ، وطوله فوق

الاربعين ذراعا . وهي على ساحل البحر بينهما وبين تونس اثنا عشر ميلا . وتونس عمرت من خراب قرطاجنة وبحجارتها . وقد بقي من حجارتها ما يعمر به مدينة أخرى ، ولم يكن بقربها عين جارية ولا قناة سارية ، فجلب عامرها اليها من ناحية القيروان ، وبينهما مسيرة ثلاثة أيام في جبال منحازة بعضها من بعض ، وقد وصل بين تلك الجبال بعقود معقودة وعمد مبنية كالمنائر العالية وجعل مجرى الماء فوق ذلك المعقود والازج المحكم المنحوت . أهل تلك البلاد يسمونها الحنايا ، وهي مؤن كثيرة . ومن نظر الى هذه المدينة عرف عظمة شان بانيها وسبح وقدس مبيد أهلها ومفنيها . وذكر أهل السيران عبد الملك بن مروان ولى حسان بن النعمان الأزدي أفريقية .فلما قدمها ، نزل بالقيروان وقال : أي مدينة بأفريقية أشد ؟ قيل له ليس مثل قرطاجنة ، فانها دار الملك . فنازلها وقاتل أهلها قتالا شديدا ثم طلبوا الامان فاعطاهم أياه ، ثم غدروا فرجع اليهم حتى ملكها وهدمها . فهو اول من أمر بهدمها ، وذلك في سنة 70 هـ . وقرطاجنة مدينة أخرى بالأندلس تعرف بقرطاجنة الحلفاء خربت أيضا وكانت عملت على مثال قرطاجنة التي بأفريقية .

*
* *

ســوســة

اليعقوبي

سوسه – بها دار صناعة تعمل بها المراكب البحرية وتردها المراكب . وأهل سوسه اخلاط من الناس .

ابن حوقل

واما سوسه ، فمدينة بين الجزيرة والمهدية طيبة رفهة خصبة على نحر البحر ولها سور حصين ، وماؤها معين ، ولها مواجن قليلة وأعمال صالحةنبيلة ، وفي أهلها دهقنة (1) والغالب عليهم السلامة . وهي احدى فرض البحر . ولها اسواق حسنة وفنادق وحمامات طيبة . وهي من القيروان على مرحلة وكانت لها ضياع جمة.ووجوه من الجباية غزيرة ، وغلات

(1) الدهقان بالكسر والضم (من دهق ودهقن) كلمة فارسية معربة : التاجر ، وأيضا زعيم أعجمي ورئيس إقليم وزعيم فلاحي العجم ، أو مقدم قرية أو صاحبها بخراسان والعراق .

إذا شئت غنتني دهاقن قرية
وصناجة تجذو على كل مبسم

انظر تاج العروس 250/6 و 306/9 .

وفي لسان العرب ، التهقن : التكيس 1026/1 وفي وصية أبي حمو : «اعلم يا بني انه ينبغي لك أن تكون يقطانا ماهرا حازما دهقانا ضابطا» . وقد ترجم كل من دوزي في ترجمته للإدريسي (glossaire) وصاحب ملحق المعاجم العربية (467/1) ودوسلان وفانيان ، كلمة الدهقنة إلى الفرنسية بكلمات (finess, subtilité) .

واسعة ورباطات كثيرة . وبين المهدية وسوسه رباط (1) يسكنه أمة من الناس على مر الايام والساعات ، يعرف بالمنستير ويقصده أهل افريقية لوقت من السنة فيقيمون به اياما معلومات .

البكري

ومن القيروان الى سوسه ستة وثلاثون ميلا ، قد أحاط بها البحر من ثلاث نواح الشمال والجنوب والشرق . وسورها صخر منيع حصين متقن البناء يضرب فيه البحر ويدخل الى دورها من قنى من الجهة الشرقية . وفي ركن مدينة سوسة الذي بين المغرب والقبلة ، منار عال يعرف بمنار خلف الفتى . وبها ثمانية ابواب ، احدها باب كبير جدا ، شرقي دار تعرف بدار الصناعة منها تدخل المراكب وتخرج . ولمدينة سوسة بابان غربيان يقابلان الملعب . والملعب بنيان عظيم للاول ، اقباء مرتفعة واسعة معقودة بحجر النشفة الخفيف الذي يطفو على الماء المجلوب من بركان صقلية وحوله أقباء كثيرة يغضى بعضها الى بعض . وحول مدينة سوسة آثار عظيمة للاول . وبنيان سوسة كلها بالصخر المحكم . وبسوسة أسواق كثيرة ، وهي مخصوصة بكثرة الامتعة والثمر . ولحم سوسة أطيب اللحوم . وهي رخيصة الاسعار والفواكه ، كثيرة الخير .

(1) الرباط ، حصن صغير يأوى حامية من المجاهدين المتطوعين الذين يقفون على قدم الاستعداد لصد كل غزو للأراضي الاسلامية . وهو في اصطلاح الفقهاء عبارة «عن احتباس النفس للجهاد والحراسة» ، وعند المتصوفين عبارة «عن الموضع الذي يلتزم فيه العبادة» . وقد نقل عن الامام أبي حفص البكري قوله : «فالقوم في الرباط ، مرابطون متفقون على قصد واحد وعزم واحد» «قال ابن مرزوق التلمساني» وأما الرباط على ما هو مصطلح عليه في المشرق . فلم أر في المغرب على سبيلها ونمطها الا رباط سيدي محمد الصالح والزاوية لسيدنا أبي زكريا بسلا ، غربي الجامع الاعظم» ، وهذه التسمية ربما جاءت من قوله تعالى في سورة الأنفال : «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل» . والرباط يختلف عن نمط الأديرة (راجع مقدمة كتاب الديارات للشابشتي ، تحقيق كوركيس عواد ص 49 ـ 50) التي شيدها البيزنطيون على الشاطيء قرب قرطاجنة ، من حيث أن الأديرة لم يكن لها طابع عسكري . والرباط يتكون من سور يحيط به ومن أبراج للمراقبة ولارسال اشارات التحذير من خطر الغزو ، ومن حجر للسكن ، ومخازن للأسلحة . وقد كان نظام الرباطات محكما في المغرب بحيث أن الرسائل كانت توجه بالاشارات من سبتة الى الاسكندرية بصفة متصلة . وفيما يتعلق برباط المنستير المشهور ، فان المعروف هو أنه أول رباط أنشىء في افريقيا الشمالية ، شيده العباس بن هرثمة بن أعين عام 179 هـ (795 م) . وقد تضاعف عدد الرباطات في عهد الأغالبة بصفة ملحوظة على الشواطيء الشرقية الافريقية . والمجاهدون الذين يأوون الى الرباط يسمون مرابطين . ومن هنا فانا أعتقد أن نظام الزوايا الذي خلف نظام الرباطات في بلاد المغرب انما قام على أساسه من حيث التنظيم . وأما المحرس ، فهو أقل تعقيدا من الناحية المعمارية ، وأخف تحصينا من الناحية العسكرية من الرباط (راجع كلمتي «رباط» و «محرس» في Levi-Provinçal, Mesperis (T V, 1925) وكذلك ترجمة البكري الفرنسية لدوسلان ، (ص 1 تعليق 1) ، ومختلف كتب الجغرافيين العرب التي اقتبسنا منها هذه الصفحات ، وكتاب المسند ، لابن مرزوق ، النسخة الخطية تحقيق ماريا بيغرا (مخطوط) (ص 282 .) وأنظر كذلك : =

وهي قديمة البناء . وكان معاوية بن حديج (1) قد بعث اليها عبد الله بن الزبير (2) في جمع كثيف وكان بلغه أن نقفور ، بطريقا من بطارقة الروم انفده ملكهم في ثلاثين الف مقاتل فنزل بذلك الساحل . فسار عبد الله حتى نزل شرفا عاليا ينظر منه الى البحر ، بينه وبين سوسة اثنا عشر ميلا فلما بلغ ذلك نقفور، رجع الى مراكبه وصدر عن ذلك الساحل ، فركب عبد الله بن الزبير في جيشه حتى بلغ البحر ونزل على باب مدينة سوسة وانحط عن فرسه وصلى بالناس صلاة العصر ، والروم يتعجبون من أمره وقلة اكتراثه بهم فاخرجوا اليه جمعا منهم كثيرا من كماتهم رجالا وركبانا ، فزحفوا اليه وهو مقبل على صلاته لا يروعه ذلك ولا يهوله ، حتى اذا قضى صلاته ، شد على فرسه فركبه وحمل عليهم فانكشفوا عنه فهزمهم وولوا أدبارهم حتى لجئوا الى مدينتهم وانصرف عنهم . ومدينة سوسه ممتنعة على من رامها وقد جبل على الشده والباس ففي ذلك يقول سهل بن ابراهيم الوراق :

ان الخوارج صدها عن سوسه
منّيا طعان السمر والاقدام
وجلاد أسياف تطاير بينها
في النقع دون المحصنات السهام

وقال محمد بن بلج السوسى :

الم بسوسة وبغي عليها ... ولكن الاله لنا نصير
مدينة سوسة للغرب ثغر ... تدين لها المدائن والقصور
لقد لعن الذين بغوا عليها ... كما لعنت قريضة والنضير
أعز الدين خالق كل شيء ... بسوسة بعدما التوت الامور
ولولا سوسة لدهت دواه ... يشيب لهولها الطفل الصغير
سيبلغ ذكر سوسة كل ارض ... ويفشى أهلها العدد الكثير

Doutté, Histoire des Marabout
(Revue des Relegions, 1900). René Basset, les Ribats en Berberie (Mélanges, 1925) ; Marçais Manuel de l'Art Musulmans, 1/45-46. Jaine Oliver Asin, Origin Arabe de Rabato Arrobdo , 1928 مدريد =

(1) معاوية حديج بن جفنة ين قنبر ، أبو نعيم الكندي ، الامير الصحابي ، والي مصر في عهد معاوية الذي أخذ له بيعة اهل مصر . وقد ولى غزو المغرب مرارا ، كان آخرها سنة 50 هـ . ومن أهم أعماله ، فتح صقلية وبنزرت . وقد أعيد الى ولاية مصر البيان (17/) ؛شذرات الذهب (58/1) ؛ للدباغ (11/1) ؛الخلاصة النقية (ص 4) .

(2) عبد الله بن الزبير بن العوام القرشي الأسدي ، أبوبكر . شهد فتح في زمن عثمان (ض) وبويع بالخلافة في سنة 64 هـ ،=

والخروج من سوسة الى القيروان على الباب القبلي المعروف بباب القيروان . ومقبرة سوسة على يمين هذا الطريق . وكان زيادة الله (1) بنى سورها وكان يقول : ما آبالى ما قدمت عليه يوم القيامة وفي صحيفتى أربع حسنات ، بنياني مسجد الجامع بالقيروان ، وبنياني قنطرة الربيع ، وبنياني حصن مدينة سوسة ، وتوليتي أحمد أحمد بن أبي محرز (2) قضاء افريقية . وخارج مدينة سوسة محارس وروابط ومجامع للصالحين ، وداخلها محرس عظيم كالمدينة مسور بسور متقن يعرف بمحرس الرباط ، هو مأوى للاخيار والصالحين داخله حصن ثاني يسمى القصبة وهو بجوفي المدينة متصل بدار الصناعة بسفح الجبال الذي هو في سنده ، شرقي ، وأعلى المدينة غربي . ومدينة سوسة في سند عال ترى دورها من البحر . ووراء سورها هناك هيكل عظيم يسميه البحريون الفِنْطَاس . وهو أول ما يرون من البحر اذا قصدوا من صقلية وغيرها . ولهذا الهيكل أربعة ادراج يصعد من كل واحد منها الى أعلاه ، وهو هيكل واسع بين بابه الذي يدخل منه والثاني الذي يخرج منه مسافة طويلة الحياكة بسوسة كثيرة . ويغزل بها غزل يباع زنة المثقال منه بمثقالين من ذهب . وبسوسة تقصر ثياب القيروان الرفيعة . وجباية ساحل القيروان سوسة والمهدية وسفاقس وتونس لبيت المال خاصة ، غير الدخل والخرج الذي لغير بيت المال ، ثمانون الف مثقال . ومن محارس سوسة المذكورة ، محرس المنستير الذي جاء فيه الاثر المتقدم الذكر . ويذكر أن الذي بنى القصر الكبير بالمنستير ، هو هرثمة بن اعين ، سنة ثمانين ومائة . وله في يوم عاشور موسم عظيم ومجمع كثير . وبالمنستير البيوت والحجر والطوحين الفارسية ومواجل الماء . وهو حصن عال متقن العمل .

الادريسي

ومن اهر قليه الى مدينة سوسة 18 ميلا ، وهي مدينة عامرة بالناس كثيرة المتاجر .

= بعد وفاة يزيد بن معاوية ، وكانت عاصمته المدينة . وقدنشبت بينه وبين الحجاج حروب انتهت بمقتله في سنة 73 هـ . راجع الكامل لابن الأثير (135/4) ؛ فوات الوفيات (210/1) ؛ الطبري (202/7) .

(1) زيادة الله بن ابراهيم بن الأغلب ، أبومحمد ، رابع أمراء الأغالبة في افريقية ، ولي من قبل المأمون في سنة 201 هـ . وقد عرفت افريقنه في عهده كثيرا من الفتن والاضطرابات ، وتقلصت رقعة البلاد التي كانت تعترف بسلطانه بحيث لم يبق على طاعته وقتا ما سوى الساحل . ولكنه استعاد دقة الأمور وقويت شوكته بحيث جهز أسطولا لغزو صقلية واستولى على معظم حصونها راجع : ابن الأثير ، الكامل (111/6) ، ابن عذارى ، البيان المغرب (96/1) ، ابن خلدون ، (العبر 197/4) ، وأنظر أيضا بعض أخباره في طبقات علماء افريقية لأبي العرب ، (ولا سيا في الصفحات 169 و171 و173) .

(2) انظر اعلاه : (ص 210 هامش 1) .

والخروج من سوسة الى القيروان على الباب القبلي المعروف بباب القيروان . ومقبرة سوسة على يمين هذا الطريق . وكان زيادة الله (1) بنى سورها وكان يقول : ما أبالي ما قدمت عليه يوم القيامة وفي صحيفتي أربع حسنات ، بنياني مسجد الجامع بالقيروان ، وبنياني قنطرة الربيع ، وبنياني حصن مدينة سوسة ، وتوليتي أحمد أحمد بن أبي محرز (2) قضاء افريقية . وخارج مدينة سوسة محارس وروابط ومجامع للصالحين ، وداخلها محرس عظيم كالمدينة مسور بسور متقن يعرف بمحرس الرباط ، هو مأوى للاخيار والصالحين داخله حصن ثاني يسمى القصبة وهو بجوفي المدينة متصل بدار الصناعة بسفح الجبال الذي هو في سنده ، شرقي ، وأعلى المدينة غربي . ومدينة سوسة في سند عال ترى دورها من البحر . ووراء سورها هناك هيكل عظيم يسميه البحريون الفِنْطَاس . وهو أول ما يرون من البحر اذا قصدوا من صقلية وغيرها . ولهذا الهيكل أربعة ادراج يصعد من كل واحد منها الى أعلاه ، وهو هيكل واسع بين بابه الذي يدخل منه والثاني الذي يخرج منه مسافة طويلة الحياكة بسوسة كثيرة . ويغزل بها غزل يباع زنة المثقال منه بمثقالين من ذهب . وبسوسة تقصر ثياب القيروان الرفيعة . وجباية ساحل القيروان سوسة والمهدية وسفاقس وتونس لبيت المال خاصة ، غير الدخل والخرج الذي لغير بيت المال ، ثمانون الف مثقال . ومن محارس سوسة المذكورة ، محرس المنستير الذي جاء فيه الأثر المتقدم الذكر . ويذكر أن الذي بنى القصر الكبير بالمنستير ، هو هرثمة بن اعين ، سنة ثمانين ومائة . وله في يوم عاشور موسم عظيم ومجمع كثير . وبالمنستير البيوت والحجر والطوحين الفارسية ومواجل الماء . وهو حصن عال متقن العمل .

الادريسي

ومن اهر قليه الى مدينة سوسة 18 ميلا ، وهي مدينة عامرة بالناس كثيرة المتاجر .

= بعد وفاة يزيد بن معاوية ، وكانت عاصمته المدينة . وقدنشبت بينه وبين الحجاج حروب انتهت بمقتله في سنة 73 هـ . راجع الكامل لابن الأثير (135/4) ، فوات الوفيات (210/1) ؛ الطبري (202/7) .

(1) زيادة الله بن ابراهيم بن الأغلب ، أبومحمد ، رابع أمراء الأغالبة في افريقية ، ولي من قبل المأمون في سنة 201 هـ . وقد عرفت افريقيه في عهده كثيرا من الفتن والاضطرابات ، وتقلصت رقعة البلاد التي كانت تعترف بسلطانه بحيث لم يبق على طاعته وقتا ما سوى الساحل . ولكنه استعاد دقة الأمور وقويت شوكته بحيث جهز أسطولا لغزو صقلية واستولى على معظم حصونها راجع : ابن الأثير ، الكامل (111/6) ، ابن عذارى ، البيان المغرب (96/1) ، ابن خلدون ، (العبر 197/4) ، وأنظر أيضا بعض أخباره في طبقات علماء افريقية لأبي العرب ، (ولا سيا في الصفحات 169 و 171 و 173) .

(2) انظر اعلاه : (ص 210 هامش 1) .

والمسافرون اليها قاصدون وعنها صادرون بالمتاع الذي يعدم قرينه من انواع الثياب والعمائم المنسوبة اليها ، وهو من جيد المتاع ونفيسه . وبها اسواق عامرة ومياههم من المواجل . وعليها سور من حجر حصين .

ياقوت

سوسة ، بضم أوله . قال بطليموس مدينة سوسة طولها أربع وثلاثون درجة وثماني عشرة دقيقة ، وعرضها اثنتان وثلاثون درجة وخمس وأربعون دقيقة . قال ابو سعيد : سوسة بلد بالمغرب وهي مدينة عظيمة بها قوم لونهم لون الحنطة ، يضرب الى الصفرة (وبعد ماذكر ياقوت كلاما كثيرا فيه خلط بين سوسة والسوس الاقصى ، اضاف :

والصحيح ان سوسة مدينة صغيرة بنواحي افريقية ، بينها وبين سفاقس يومان ، أكثر أهلها حاكة ينسجون الثياب السوسية الرفيعة ، وما صنع في غيرها ، فهو مشبه بها ، يكون ثمن الثوب منها في بلد عشرة دنانير وبين سوسة والمهدية ثلاثة أيام . قال طاهر : سوسة بلده بالمغرب خرج منها محدثون وفقهاء وادباء ، منهم : يحى بن خالد السوسي ، يحدث عن عبد الله بن وهب ، كذا ذكره ابن يونس وصديقنا الأديب أبو الحسن علي بن عبد الجبار بن الزيات المنشئ مليح الكلام في النظم والنشر . قدم الشرق وأقام بدمشق مدة ثم قدم الموصل وأقام بها بالمدرسة ينسخ . وهو كيس لطيف حافظ للاخبار والاشعار . انشدني لنفسه ، وكتب لي بخطه

لا تعتبن شيباً ... ألم بلمّتي
ان الشيب غبار معترك الصبا

وهي مدينة قد أحاط بها البحر من ثلاث نواحي ، من الشمال والجنوب والشرق . سورها صخر حصين منيع يضرب فيه البحر ، وبها منار يعرف بمنار خلَف الفتى . ولها ثمانية ابواب وبها المعلب ، وهو بنيان عظيم بناه الاول له أقباء مرتفعة واسعة مرتفعة معقودة .

(وهنا يقتبس ياقوت حرفيا وصف البكرى الذي أوردناه أعلاه ، دون أن يعزوه الى الجغرافي الأندلسي ، حتى قوله : ومن محارس سوسة المذكورة المنستير) .

ابن سعيد

وفي شرقي الحمامات على الساحل ، مدينة سوسة ومنها فتح المسلمون صقيلية . وهي حيث الطول اربع وثلاثون درجة ودقائق ، والعرض اثنتان وثلاثون درجة واربعون دقيقة . وفي شرقيها بدخلة للجنوب ، مدينة المهدية .

التجـاني :

وسوسة مدينة كبيرة على سفح جبل عال وعليها سور منيع من الصخر ينتهى البحر اليه ويضرب فيه ، وبها آثارللاول ، واليها تنسب الثياب الرفيعة السوسية . والمسافرون يقصدونها من الافاق ، وبها جامع للخطبة حسن كان بناؤ في ولاية أبي العباس محمد بن الاغلب سنة ست وثلاثين ومائتين على يد خادمه خدام ، وكانت سوسة أذ ذاك قرية وأتى بعده ابن اخيه ، أبو ابراهيم احمد بن الاغلب فجدد سورها والحقها بالمدن . وكان تجديده لسورها سنة تسع وأربعين ومائتين ، وبحصن جامعها المذكور بيت قد كتب فيه بخـط قـديـم نقـشـا في الحجر كلام الله ليس بمخلوق » ، وكتب مثل ذلك أيضا في عمد الجامع ، وذلك كله تنبيه على مذهب أهل السنة وتثبيت له بسبب كثرة ما كان بها وبجميع بلاد افريقية في القديم من مذاهب المنحرفة عن المذهب السنى ، ثم ما كان بها منها في زمن ملك الروافض لها ثم في زمن تغـلـب الخوارج عليها .

ومن سوسة ركب أسد بن الفرات غازيا الى صقلية سنة اثنتي عشرة ومائتين ، فافتتح كثيرا من معاقلها وتغلب على كثيرمن مدنها ومات في العام الذي يليه ، وهومحاصر لها .

قالوا ، ونزل الروم على سوسة في القديم في ثلاثين الف مقاتل ، فبلغ ذلك معاوية بن حديج السكونـي ، وقيل التجيبى وقيل الكندى قال أبو عمربن عبد البر : والصواب ان شاء الله السكوني ، وخطأه الرشاطي . وكان معاوية هذا واليا على افريقية من قبل عمرو بن العاص ، فبعث عبد الله بن الزبير الى سوسة في جمع كثيف ليحميها ، فتوجه عبد الله الى سوسة ونزل بجمعه على شرف عال بينه و بينها اثنا عشر ميلا ، أو نحوها . فلما علم الروم بوصاله رفؤوا (*) جميع سفنهم الى شاطيء البحر وازمعوا الارتحال ، فوصل عبد الله بجمعه من الغد حتى انتهى

* في الأصل : شيئا . وهو تحريف واضح

الى سور المدينة ، ثم نزل على فرسه وقام يصلي بالناس بعض الصلوات الحاضرة ، فجعل الروم يتعجبون من اقدامه ومن قلة اكتراثه بهم فاخرجوا له جمعا من حماتهم فزحفوا اليه وهو مقبل على صلاته لايهوله ذلك ، حتى اذا اقضى صلاته ، ركب فرسه وحمل عليهم فانكشفوا عنه وولوا أدبارهم فصعدوا الى مراكبهم وأقلعوا .

ولم تزل سوسة معروفة بالامتناع على من رامها ، أهلها يوصفون بالباس والنجدة . وحسبك مد أمتناعهم وتجلدهم أن ابا يزيد لما تملكها وفعل فيهم الافاعيل الشنيعة من قتل الرجال وسبي النساء وقطع الأعضاء وبقر البطون ، خالفوا عليه وبايعوا ابا القاسم القائم الشيعي ووجهوا عامل ابي يزيد اليه ، وذلك كله في عام اثنتين وثلاثين وثلاثمائة ، فوصل اليها ابو يزيد بنفسه في سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة وحاصرها حصارا شديدا ، وكان ما أخده التحصيل من جند ابي يزيد مائة الفخص يسكن في الخص الواحد الثلاثة والاربعة فصاعدا ، فكان يقاتل سوسة كل يوم ، فمرة له ومرة عليه ، ولم يزل محاصرا لها الى ان توفي القائم في ذلك العام وولى بعده ابنه اسماعيل الملقب بالمنصور فوجه الى ابي يزيد جيشا كان سبب ارتحاله عنـهـا .

القلقشندي

سوسة ، مدينة على ساحل البحر واقعة في الاقليم الثالث من الاقاليم السبعة ، حيث الطول اربع وثلاثون درجة وعشر دقائق والعرض اثنتان وثلاثون درجة واربعون دقيقة . وهي في جنوبي شرقي تونس ، وشرقيها في طرف داخل في البحر . قال (العزيزي) : وهي مدينة ازلية بها سوق وفنادق وحمامات. قال الادريسي : (اقتباس من النص المذكور اعلاه) .

وذكر في مسالك الابصار أن عليها سورا من لبن وانها قليلة العمارة لاستيلاء العرب عليها .

*
* *

(ه) في الأصل : شيئا . وهو تحريف واضح .

القيـــروان (1)

مدينة القيروان العظمى التي اختطها عقبة بن نافع الفهرى سنة 60 في خلافة معاوية وشربهم من ماء المطر اذا كان الشتاء ووقعت الامطار والسيول دخل ماء المطر من الاودية الى برك عظام يقال لها المواجل . ومنها شرب السقاة . ولهم واد يسمى وادى السراويل في قبلة المدينة يأتي فيه ماء ملح لأنه في سباخ . الناس يستعملونه فيما يحتاجون اليه . ومنازل بني الاغلب على ميلين من القيروان في قصور قد بني عليها عدة حيطان لم تزل منارلها حتى تحول عنها ابراهم ابن احمد فنزل بموضع يقال له رقادة (2) على ثمانية أميال من القيروان ، وبنى

(1) راجع : غيرما ذكر : ابن الناجي ، معالم الأيمان (4 أجزاء) ، ابن ابي دينار القيرواني ، المؤنس ، محمود مقديش ، نزهة الانظار (جزءان) ؛ الحسن بن محمد الوزان ، وصف افريقية ، ج 3 ؛

Dureau de la Malle, Voyages dans les Régences de Tunis et d'Alger etc. ; Shaw (Th), Travels and Observations ; Pelissier, Description de la Régence de Tunis ; Guerin, Voyage dans la Régence de Tunis ; Fournel (H), les Berbères (2 vol.) ; Rae, The Country of the Moors ; Basset (R) et Houdas, Mission en Tunisie ; Foncin, De Sousse à Kairawan (Revue Politique et Litéraire, 1883) ; Body, To Kairawan, the Holy ; Saladin (H), la Mosquée de Sidi Okba ; Tunis et Kairawan ; Fagault, Tunis et Kairawan ; Penet (P), Kairawan, Tunis ;

وأنظر أيضا : ابن زمبل ، تحفة الملوك (مخطوط في مكتبة اكسفورد) ورقة 398 _ 399 .

(2) عاصمة أمارة الأغالبة وتقع على مسافة نحو ستة أميال إلى الجنوب من القيروان ، بناها ابراهيم الثاني ، سابع الأمراء الأغالبة في سنة263 هـ (876 م) . وقد استقر ابراهيم برقادة في قصر الفتح في نفس السنة التي بدأت فيها أعمال البناء ، وعاش فيه بقية حياته ، فأصبحت رقادة منذ ذلك الوقت حاضرة من الحواضر العباسية . وكان بالمدينة إلى جانب ذلك القصر قصور أخرى . منها قصر البحر ، وقصر الصحن المختار ، وقصر بغداد ، كما كان يوجد بها مسجد جامع وحمامات وفنادق وأسواق . راجع الملحق الذي اقتبسه دوسلان من نهاية الارب للنويري وألحقه بترجمته لتاريخ دول البربر ، والبكري ، كتاب المغرب ، (ص 27) وابن عداري ، البيان المغرب ، طبعة دوزي (110/1) ، وابن الأبار ، الحلة السيراء (191/1 _ 192) ، وابن الأثير ، الكامل ، (215/7 ، 222و24/8) وكتاب الاستبصار (الفهرس) ، =

هناك قصرا . وفي مدينة القيروان اخلاط من الناس من قريش ومن سائر بطون العرب من مضر وربيعة وقحطان ، وبها اصناف من العجم من أهل خراسان ، ومن كان وردها من عمال بنى هاشم من الجند وبها عجم من عجم البلد من البربر والروم واشباه ذلك .

ابن حوقل

وكانت القيروان اعظم مدينة بالمغرب وأكثرها تجارة وأموالا واحسنها منازل واسواقا . وكان فيها ديوان جميع المغرب واليها تجبى اموالها وبها دارسلطانها ، وبظاهرها المكان المدعو رقادة ، وهومدينة كانت منازل لآل الاغلب .

المقــدسي

القيروان مصر الاقاليم . بهي عظيم حسن الاخبار جيد اللحوم ، قد جمع اخداد الفواكه والسهل والجبل والبحر والنعم مع علم كثير ورخص عجيب اللحم خمسة امناء بدرهم ، والتمر عشر ولا تسأل عن التين والزبيب والأعناب والزيت . وهي فرضة (؟) المغربين ومتجر البحرين ، لاترى أكثر من مدنها ولا أرفق من أهلها ليس غير حنفي ومالكي ، مع الفة عجيبة . لا شعب بينهم ولا عصبية . لا جرم أنهم على نور من ربهم قد أقبلوا على مايعنيهم وارتفع الغل من قلوبهم . فهي مفخرة المغرب ومركز السلطان واحد الاركان . ارقى من نيسبور واكبر من دمشق واجمل من أصبهان ، الا ان ماءهم ضعيف وأدبهم طفيف ولافيها ظريف . الماء مخزون في مواجين ، والضرائب موضوعة على اصحاب الدكاكين . تعيشهم في صبره واسواقهم معطلة ، والعوام كالاغنام المرسلة . لا تراويح تصلى ولا بقي للفريقين بها ماء ، تكون أقل من ثلاثة أميال في مثلها . .وشربهم من مواجين وصهاريج يجتمع فيها ماء المطر . وقد اجرى لهم المعز قناة من الجبل تملأ المواجين بعدما تدخل قصره بصبرة بنيانهم مدر وآجر . ومواجين الزيت فيها كثيرة الجامع بموضع يسمى السماط الكبير وسط الاسواق في سرة البلد . (وهو) اكبر من جامع بن طولون باعمدة الرخام ، وسقفه رخام ومزاريبه رصاص . لها باب السماط ، باب الصرافين ، باب الرهادنة ! باب الفضوليين ، باب الماذنة ، باب الصياغين باب الحواريين ، باب سوق الخميس ، باب الميضاءه ، باب الخاصة ، باب خمسة عشر درب ، درب الربيع ،

= Fournel, les Berbères 1/526 ; Vonderhyden, la Berberie orientale sous la dynastie des Banou L.Aghleb
Marçais (G) Manuel de l'Art musulman, I/42-44.

درب عبد الله ، درب تونس ، درب أصرم ، درب أسلم ، درب سوق الاحد ، درب نافع ، درب الخداعين . . .

البكـــري

مدينة القيروان في بسيط من الارض مديد ، من الجوف منها بحر تونس ، وفي الشرق بحر سوسة والمهدية ، وفي القبلة ، بحر اسفاقس وقابس . وأقربها منها البحر الشرقي ، بينها وبينه مسيرة يوم . وبينها وبين الجبل ، مسيرة يوم ، وبينها وبين سواد الزيتون المعروف بالساحل ، مسيرة يوم . وشرقيها سبخة ملح عظيم طيب نظيف . وسائر جوانبها أرضون ، طيبة كريمة وأحسنها الجانب الغربي ، وهو المعروف بفحص الدراره ، يصاب فيه في السنة الخصبة للحبة مائة . وهواء هذا الجانب طيب صحيح . وكان زياد بن خلفون المتطبب اذا خرج من القيروان يزيد رقادة ، وحاذي باب أصرم رفع العمامة عن رأسه يباشر الهواء براسه المتداوي به لصحة . وللقيروان من القديم ، سبع محارس . اربعة خارجها ، وثلاثة داخلها . وكان للقيروان في القديم سورطوب سعته عشرة اذرع بناه محمد بن الاشعث بن العقبة الخزاعي (1) سنة اربع واربعين ومائة . وهو أول قائد دخل افريقية . وكان في قبلية باب سوى الاربعة . وهو بين القبلة والمغرب . وبين القبلة والشرق باب أبي أبي الربيع ، وفي شرقيه باب ابي الربيع ، وفي شرقيه ، باب عبد الله وباب نافع . وفي جوفيه باب تونس ، وفي غربيه ، باب أصرم ، وباب سلم ، فهدم هذا السورزيادة الله بن ابراهيم المعروف بالكبير سنة تسع ومائتين ، لما قام عليه أهل القيروان مع المنصور المعروف بالطنبذي (2) فلما انهزم عن القيروان يوم الأربعاء للنصف من جمادى الاولى من هذه السنة ، وخرج أهل القيروان الى زيادة الله ، فرغبوا

---

(1) محمد بن الأشعث الخُزاعي (ت 149 هـ) ولاه المنصور العباسي على مصر في سنة 141 هـ ، ثم أمره بالسير لانقاذ افريقية بعد مقتل حبيب ابن عبد الرحمن الفهري ، فوجه اليه جيشا بقيادة أبي الأحوص العجلي ، فهزمه أبو الخطاب الخارجي ، فسار ابن الأشعث على رأس جيش يتراوح عدد رجاله بين 40 و 50 ألفا ، فجرت بين الطرفين معارك انتصر فيها ابن الأشعث بخدعة حربية وقتل أبا الخطاب في سنة 144هـ ، ودخل القيروان في سنة 146 هـ ، واستقر له الأمر حتى ثار عليه بعض قواده وأخرجوه من القيروان بعد ذلك بسنتين . انظر سيرته في النجوم الزاهرة ، (346/1) ، القضاة والولاة (ص 108) ، دول الإسلام للذهبي (18/1) ، البيان المغرب (72/1) .

(2) نسبة إلى طنبذه حيث ثار على زيادة الله الأغلبي الأول في سنة 209 هـ . راجع عنه تاريخ البربر (406/1) ؛ البيان (126/1) ؛ تراجم أغلبية (ص 521) ؛ طبقات أبي العرب (ص 155) ؛ Fournel, Les Berberes (I/482)

في العفو عنهم والصفح ، هدم سور القيروان عقوبة لهم ثم بناه المعز بن باديس بن المنصور الصنهاجي سنة اربع واربعين واربعمائة . ومبلغ تكسيره اثنان وعشرون الف ذراع ، وجعل السور ممايلي صبره ، كالفصل حائطان يتصلان الى مدينة صبرة . وللمدينة اليوم اربعة عشر بابا ، منها المذكورة ، وباب النخبل ، والباب الحديث . وللفصيل بابان ، وباب الطراز وباب الفلالين وباب ابي الربيع وباب سحنون الفقيه .

ومدينة صبره ، متصلة بالقيروان ، بناها اسماعيل ، سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة واستوطنها وسماها المنصورية ، وهي منزل الولاة الى حين خرابها . ونقل إليها معد بن اسماعيل اسواق القيروان كلها ، وجمع الصناعات ولها خمسة ابواب الباب القبلى ، والباب الشرقي وباب زويلة ، وباب كتامة ، وهو جوفي ، وباب الفتوح ، ومنه كان يخرج بالجيوش . يذكر انه كان يدخل من أحد أبوابها كل يوم ستة عشر ألف درهم . وكان سماط سوق القيروان قبل نقله الى المنصورية متصلا من القبلة الى الجوف . وطوله من باب ابي الربيع الى الجامع ميلان غير ثلث . ومن الجامع الى باب تونس ثلثا ميل . وكان سطحا متصلا فيه جميع المتاجر والصناعات . وكان امر بترتيبه هكذا هشام بن عبد الملك . وخارج مدينة القيروان خمسة عشر ماجلا للماء سقايات لاهلها منها من بنيان هشام بن عبد الملك وغيره . وأعظمها شانا وافخمها منصبا ، ماجل ابي ابراهيم احمد بن محمد بن الاغلب (1) ، بيان تونس . وهو مستدير متناهي الكبر ، في وسطه صومعة مثمنة في اعلاها قصبة لرقبة مفتحة على اربعة ابواب على أحد عشر رجلا لا خلل بينهم كيلا يصل محط . فإذا امتلأ الماجل كان ذلك وسط هذه القصبة نحو ذراعين . كان ابن الاغلب يدخل الى هذه القبة في موكب يسمى بالزلاج . ويتصل بهذا الماجل في قبلية أقباء طويلة معقودة ازاجا على ازاج . وكان زيادة الله قد بنى عربي هذا الماجل قصرا وبجوفي هذا الماجل ماجل لطيف متصل به يسمى الفسفيه يقع فيه ماء الوادي اذا جرى ينكسر فيه شدة جريان الماء ثم يدخل منه الى الماجل الكبير اذا ارتفع الماء في الفسفيه قدر قامتين على باب بين الماجلين يسمى السرح . وهذا الماجل عجيب الشان غريب

---

(1) أحمد بن محمد بن الاغلب التميمي (220 — 249) سابع الأمراء الاغالبة ولي الأمر بعد عمه ، أبي العباس سنة 242 هـ . وكان حسن السلوك في الرعية رفيقا بالناس محبا للعمران وبلغ ما بناه من الحصون عشرة آلاف حصن كما وسع جامع القيروان وجامع تونس . وفي عهده فتحت قصريانه في صقلية . وقد دامت ولايته 7 سنين وعشرة أشهر . سيرته في العبر (201/4) الكامل لابن الأثير (108/7 ـ 109) ، البيان (112/1) جمهرة أنساب العرب (ص 210) خلاصة تاريخ تونس (ص 68) .

البنيان. وكان عبيد الله يقول: رايت بافريقية شيئين لم أر مثلهما بالشرق: الحفير الذي بباب تونس. يعني الماجل - والقصر الذي بمدينة رقادة، المعروف بقصر البحر. وفي القيروان ثمانية واربعون حماما. واحصي ماذبح بالقيروان في بعض أيام عاشورا من البقر خاصة، فانتهى تسعمائة وخمسين رأسا. ومن عجائب القيروان أنهم يحتطبون الدهر من زيتونها، ليس لهم محتطب غيره، وان ذلك لا يؤثر في زيتونها ولا ينقص منه و[في] سنة اثنتين وخمسين سبيت القيروان وأخليت ولم يبق الاضعفاء أهلها. والقفيز (1) بالقيروان واعمالها ثماني ويبات. والويبة اربعة اثمان، والثمنه ستة امداد بمد (2) أو في من مد النبي صلى الله عليه وسلم. ومقدار تلك الزيادة في القفيز كله، اثنتى عشر مدا، فصار القفيز القروي مائتي مد وأربعة أمداد بمد النبي، وذلك بكيل قرطبه خمس أقفزة غير ستة أمداد ورطل اللحم والتين وسائر الماكولات عندهم، عشرة أرطال فلفلية. وقفيز الزيت عندهم ثلاثة أرطال فلفلية.

ومدينة رقادة، وعلى أربعة اميال من القيروان، ودورها أربعة وعشرون الف ذراع واربعون ذراعا. واكثرها بساتين، وليس بافريقية اعدل هواء ولا ارق نسيما ولا اطيب تربة من مدينة رقادة. ويذكر أن من دخلها لم يزل ضاحكا مستبشرا من غير سبب. وذكروا أن احد بني الاغلب أرق وشرد عنه النوم اياما فعالجه اسحق (3) الذي ينسب اليه اطريفل اسحق، فلم يَنَمْ، فامره بالخروج والمشي. فلما وصل الى موضع رقادة، نام، فسميت منذ يومئذ رقادة واتخذت دارا ومسكنا وموضع فرحة للملوك والذي بنى مدينة رقادة واتخذها داراً ووطنا، ابراهيم بن احمد، وانتقل اليها من مدينة القصر القديم، وبنى بها قصور عجيبة وجامعا، وعمرت بالاسواق والحمامات والفنادق. ولم تزل بعد ذلك دار ملك لبني الاغلب الى أن هرب عنها زيادة الله من أبي عبد الله الشيعة، وسكنها عبيد الله، الى أن انتقل الى المهدية

---

(1) يختلف كيل القفيز باختلاف البلدان الإسلامية وباختلاف العصور. وهو في المتوسط يتراوح بين 3 و 5 هيكتوليتر بالمكايل الحديثة. ولكنه كان يوجد قفيز يحتوي على ما يتراوح بين 440 و 1200 ليتر.

(2) ضرب من المكاييل (وهو بضم الميم)، وهو ربع صاع، وهو قد مُدّ النبي (ص) والصاع خمسة أرطال. والجمع أمداد ومِدَدٌ ومداد. والمُد عند أهل الحجاز رطل وثلث وكذلك عند الشافعي، ورطلان عند أهل العراق وأبي حنيفة.

(3) طبيب يهودي مارس الطب في المرحلة الأولى في مصر ثم هاجر إلى افريقية واستقر بالقيروان. وبعدما عمل وقتا في قصر الأغالبة، تحول، بعد سقوط زيادة الله، إلى خدمة عبيد الله الفاطمي. توفي في سنة 320 هـ (932 م)، وقد ترك عددا من المؤلفات، ومن بينها كتاب نشره المستشرق (Wuslenfeld) بعنوان Geschichte der Arabischen Aerts. (أو تاريخ الطب عند العرب).

سنة ثمان وثلاثمائة . وكان ابتداء تأسيس ابراهيم لها سنة ثلاث وستين ومائتين فلما انتقل عنها عبيد الله الى المهدية ، دخلها الوهن وانتقل عنها ساكنوها ، ولم تزل تخرب شيئا بعد شيء الى أن ولي معدبن اسماعيل ، فخرب ما بقى منها وعفا آثارها وحرث منازلها ، ولم يبق منها غير بساتينها . ولما بناها ابراهيم بن احمد وجعلها داره ، منع بيع النبيذ بمدينة القيروان وأباحه بمدينة رقادة ، فقال بعض الظرفاء من أهل القيروان :

يـاسيـد النـاس وابـــن سيـــدهـم ومـــن إليـه الرقـاب منقـــادة
مـــاحـــرم الشـــرب في مدينتـــنـــــا وهـــو حـــلال بـــأرض رقـــادة

فاما مدينة القصر القديم ، فان الذي أسسها هو ابراهيم بن الاغلب بن سالم سنة اربع وثمانين ومائه وصارت دار امراء بني الاغلب . وهي بقبلي مدينة القيروان وعلى ثلاثة أميال منها . بها جامع له صومعة مستديرة مبنية بالآجر والعمد سبع طبقات ، لم يُبْنَ أحكم منها ولا أحسن منظرا . [وفيها] حمامات كثيرة وفنادق وأسواق جمة ومراجل للماء . واذا قحطت القيروان وفقد الماء في مواجلها ، نقلوا الماء من مدينة القصر . وكان لها من الابواب ، باب الرحمة ، قبلي وباب الحديد ، قبلي ، وباب غلبون ، شرقي ، وباب الريح ، شرقي ، وباب السعادة ، غربي ، يقابل المقبرة الكبيرة . وداخل المدينة رحبة كبيرة واسعة تعرف بالميدان . ويجاور مدينة العصر بنية تعرف بالرصافة . ولما أتي ابراهيم مدينة القصر وانتقل اليها خرب دار الامارة التي كانت بالقيروان بقبلي الجامع .

الادريسي

ومدينة القيروان أم أمصار وقاعدة اقطار ، وكانت أعظم مدن المغرب قطرا وأكثرها بشرا وأيسرها اموالا وأوسعها أحوالا واتقنها بناء وأنفسُها همَماً وأربحها تجارة واكثرها جباية وانفقها سلعة وأنماها ربحا واجهرهم عصيانا واطغاهم أغمارا والغالب على فضلائهم التمسك بالخير والوفاء بالعهد والتخلى عن الشبهات واجتناب المحارم والتفنن في محاسن العلوم والميل الى القصد ، فسلط الله سبحانه عليها العرب وتوالت الجوائح عليهم حتى لم يبق منها الا أطلال دارسة وآثار طامسة وهي الآن في وقتنا هذا ، على جزء منها سور تراب ، وولاه أمورها العرب . وهم يقبضون ما يتوفر من جبايتها ، وبها اقرام قليلون تجاراتهم يسيرة ومنافعها نزرة ، وفيما يذكر أهل النظر أنها عماقريب ستعود الى ما كانت عليه من العمارة وغير ذلك . ومياهها قليلة . وشرب أهلها من ماء الماجل الكبير الذي بها . وهذا الماجل من عجيب البناء ، لانه مبنى على تربيع

وفي وسطه بناء قائم كالصومعة وذرع كل وجه منه مائتا ذراع . وهو كله مملوء ماء . والقيروان كانت مدينتين ، أحد اهما القيروان ، والثانية صبرة . وصبرة كانت دار الملك . وكان فيها أيام عمارتها ثلاثمائة حمام ، واكثرها للديار وباقيها مبرَّز للناس كافة . وصبرة الا ن في وقتنا هذا خراب ليس بها ساكن . وعلى اميال منها قصور رقادة الشاهقة الدار الحسنه البناء الكثيرة البساتين والثمار وبها كانت الاغالب ترجع في أيام دولتها وزمان بهجتها . وهي الآن خراب لا ينتظر جبرها ولا يعود خبرها . ومن مدينة القيروان الى مدينة تونس مرحلتان .

ياقـوت

القيروان : قال الازهري معرب ، وهو بالفارسية كاروان . وقد تكلمت به العرب قديما . قال امرؤ القيس :

وغـــارة ذات قـيـــــــروان كـأن أسـرابـهـــا الــــرغـــــال

والقيروان في الاقليم الثالث ، طولها احدى وثلاثون درجة وعرضها ثلاثون درجة واربعون دقيقة . وهذه مدينة عظيمة بافريقية غَبَرَتْ دهرا ، وليس بالغرب أجل منها ، الى ان قدمت العرب الى افريقية وأخربت البلاد ، فانتقل أهلها عنها ، فليس بها اليوم الا صعلوك لا يطمع فيه . وهي مدينة مصرت في الاسلام في ايام معاوية ، رضي الله عنه . وكان من حديث تمصيرها ماذكره جماعة كثيرة من أهل السير . قالوا : عزل معاوية بن ابي سفيان معاوية بن حديج الكندي عن افريقية واقتصر به على ولاية مصر ، وولى افريقية عقبة بن نافع (1) بن عبد قيس بن القيط بن عامر بن امية ابن عائش بن ظرب بن الحارث بن فهر بن مالك بن النظر بن كنانه . وكان مولده في ايام النبي صلى الله عليه وسلم .

وقال ابن الكلبي : هو عبد الرحمن بن عدي بن نافع بن قيس القرشي ، سنة 48ه . وكان مقيما بنواحي برقة وزويله مند ولاية عمرو بن العاص له ، فجمع اليه من أسلم من البربر وضمهم

(1) عقبة بن نافع بن عبد القيس الأموي القرشي ، من أعظم قادة الإسلام السياسيين والعسكريين ، وجهه عمرو بن العاص إلى افريقية في سنة 42 هـ . ثم ولاه معاوية على هذه البلاد في سنة 50 هـ . وهو باني القيروان والمسجد الذي لا يزال يحمل اسمه . وبعدما عزله معاوية من الولاية ولاه يزيد من جديد على افريقية في سنة 62 هـ . ومن هذه القاعدة انطلق لفتح كثير من المدن والحصون في الجنوب والغرب . وقد قتل في معركة مع جيش بقيادة كسيلة في تهوذة بالزاب ، في سنة 63 هـ (783 م) ودفن هناك .كرراجع : ابن عذارى ، البيان المغرب(19/1)؛ يحيى ابن خلدون ، بغية الرواد (76/1) ؛ السلاوي ، الاستقصا (36/1) ، ابن الأثير ، الكامل (465/3 ـ 467) .

الى الجيش الوارد من قبل معاوية . وكان جيش معاوية عشرة الاف ، وسار الى افريقية ونازل مدنها فافتتحها عنوة ووضع السيف في أهلها وأسلم على يده خلق كبير من البربر وفشا فيهم دين الله حتى اتصل ببلاد السودان ، فجمع عقبة حينئذ أصحابه وقال : ان أهل هذه البلاد قوم لا خلاق لهم . اذا عضهم السيف اسلموا ، واذا رجع المسلمون عنهم عادوا الى عادتهم ودينهم ، ولست ارى نزول المسلمين بين اظهرهم رايا . وقد رأيت أن ابني هنا مدينة يسكنها المسلمون فاسنصوبوا رايه فلجؤا ، الى القيروان ، وهي في طرف البر . وهي أجمة عظيمة لا تشقها الحيات من تشابك اشجارها . وقال : انما اخترت هذا الموضع لبعده من البحر لئلا تطرقها مراكب الروم ، فتهلكها ، وهي في وسط البلاد . ثم أمر أصحابه بالبناء فقالوا : هذه غياض كثيرة السباع والهوام ، فنخاف على انفسنا هنا ؛ وكان عقبة مستجاب الدعوة ، فجمع من كان في عسكره من الصحابة وكانوا ثمانية عشر ونادى : ايها الحشرات والسباع نحن اصحاب رسول الله ، فارحلوا عنا ، فانا نازلون فمن وجدناه بعد قتلناه . فنظر الناس يومئذ الى أمرهاثل . كان السبع يحمل أشباله ، والذئب يحمل أجراءه والحية تحمل اولادها ، وهم خارجون اسرابا اسرابا ، فحمل ذلك كثيرا من البربر على الاسلام ، ثم اختط دار الامارة ، واختط الناس حوله واقاموا بعد ذلك اربعين عاما لا يرون فيها حية ولا عقربا ، واختط جامعها فتحير في قبلته فبقي مهموما فبات ليلة فسمع قائلا يقول : في غد ادخل الجامع ، فانك ستسمع تكبيرا فاتبعه . فاي موضع انقطع الصوت ، فهنالك القبلة التي رضيها الله للمسلمين بهذه الارض فلما اصبح سمع الصوت ووضع القبلة واقتدى بها بقية المساجد وعمر الناس المدينة فاستقامت في سنة 55 للهجرة . وقد ذكرت بقية خبر عقبة ومقتله في كتابي المسمي بالمبدأ والمثال ، وكان مقتله في سنة 63 ، بعد ان فتح جميع بلاد المغرب .

وينسب الى القيروان : محمد بن ابي بكر عتيق القيرواني المتكلم الثغرى المعروف بابي أبي كديه . درس علم الاصول بالقيروان على ابي عبد الله الحسين بن حاتم الازدي ، صاحب القاضي ابي بكر الباقلاني (1) وعلى غيره . وكان يذكر انه سمع عن أبي عبد الله القضاعي

---

(1) محمد بن الطيب بن محمد ، أبوبكر ، القاضي الباقلاني . ولد في سنة 338 هـ . وكان على رأس علماء المذهب الاشعري وقد ترجم له ابن عساكر وذكره بالعبارة التالية : «محمد بن الطيب بن محمد أبو بكر القاضي المعروف بالباقلاني المتكلم على المذهب الاشعري ، من أهل البصرة . سكن بغداد وسمع بها الحديث من أبي بكر بن مالك 375 هـ . وأبي محمد بن ماس 369 هـ . وأبي أحمد الحسين بن علي النيسا بوري 375 هـ . «كان قوي الحجة دقيق الانشاط وقد وجهه عضد الدولة سفير الى ملك الروم ، فجرت بينه وبين علماء النصرانية في القسنطينية=

بمصر . قرا عليه نصر الله بن محمد بصور . وكان يقرئ الكلام في النظاميه ببغداد وأقام بالعراق إلى أن مات ، وكان صلبا في الاعتقاد . ومات في بغداد في ثامن عشر ذي الحجة سنة 512 هـ ، ودفن مع ابي الحسن الاشعرى ، خارج الكرخ .

القــزويـنـي

القيروان مدينة عظيمة بافريقية مصرت في أيام معاوية وذلك أنه لماولى عقبة بن نافع الفرشى افريقية ذهب اليها وفتحها وأسلم على يده خلق كثير من البربر ، فجمع عقبة اصحابه وقال : أن أهل افريقية قوم اذا عضهم السيف اسلموا ، وإذا رجع المسلمون عنهم عادوا الى دينهم . ولست أرى نزول المسلمين بين اظهرهم رأيا ، لكن رأيت أن ابنى ههنا مدينة يسكنها المسلمون .

فجاءوا الى موضع القيروان وهي أجمة عظيمة وغيضة لا تشقها الحيات من تشابك شجرها ، فقالوا : هذه غيضة كثيرة السباع والهوام . وكان عقبة مستجاب الدعوة ، فجمع من كان في عسكره من الصحابة ، وكانوا ثمانية عشر نفسا ونادى : ايتها السباع والحشرات ، نحن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ارحلوا عنا ، فانا نازلون . فمن وجدناه بعد قتلناه ! فرأى الناس ذلك اليوم عجبا لم يروه قبل ذلك . وكان السّبع يحمل اشباله والذئب أجراءه ، والحية أولادها ، وهي خارجة سربا سربا ، فحمل ذلك كثيرا من البربر على اعتناق الاسلام . ثم بنى المدينة فاستقامت في سنة خمس وخمسين . ذكر الجيهاني ان بالقيروان أسطوانتين لا يدري جوهرهما ما هو ، وهما تترشحان ماء كل يوم جمعة قبل طلوع الشمس . وموضع العجب كونه يوم الجمعة . وقد قيل ان ملوك الروم طلبوهما بثمن بالغ ، فقال أهل القيروان : لا تخرج اعجوبة من الاعاجيب من بيت الله الى بيت الشيطان :

= مناظرات بمحضر الملك النصراني . توفي في بغداد سنة 403 هـ . وقد خلف كثيرا من الكتب من أهمها» كشف أسرار الباطنية . و «الملل والنحل» و «الاستبصار الخ) . راجع سيرته في وفيات الاعيان 239/4 ــ 270 ! قضاة الاندلس (ص 37 ـ 40) . الوافي بالوفيات (177/3) ، الديباج المذهب (ص 267) ، معجم المطبوعات (1349/1 ـ 349 : 1 . 211/1) ابن عشاكر . تبيين كذب المفتري فيما نسب الى الامام ابن الحسن الاشعري (طبعة دمشق 1347هـ) (ص 221) والمحدثين أنظر جلال محمد عبد الحميد موسى ، نشأه الأشعرية وتطورها (طبعة دار الكتاب بيروت ، 1975 (ص 317) وما يليها .

ابن سعيد

وتقع مدينة القيروان في جنوبي هذا الجبل (جبل وسلات) حيث الطول ثلاث وثلاثون درجة والعرض احدى وثلاثون درجة. وهي في الصحراء تصلح لجمال العرب، وكانت قاعدة افريقية أول الاسلام. وهي الآن تابعة لتونس. ويتصل بجبل وسلات جبال يسكنها أصناف من رعايا البربر.

أبو الفدا

ومدينة القيروان محدثة بنيت في صدر الاسلام، وهي جنوبي الجبل، والجبل في شماليها. وهي في صحراء تصلح لجمال العرب. وكانت قاعدة افريقية في صدر الاسلام، وهي الآن تابعة لتونس. وشرب أهلها من الابار وليس لها ماء جار، وهي في الوطأة. قال العزيزى. ومدينة القيروان أجمل مدن المغرب. وكان عليها سور عظيم فهدمه زيادة الله بن الاغلب لماثار عِمْران بن مُجالد (1) وشرب أهلها [أيضا] من ماء المطر، يجتمع لها من الشتاء في برك عظام تسمى المواجل. ولهم واد في قبلة المدينة يأتي فيه ماء ملح يستعمله الناس فيما يحتاجون اليه.

القلقشندي

ثم صارت قاعدتها (افريقية) القيروان، بفتح القاف وسكون المثناة تحت وفتح الراء وسكون المثناة تحت وفتح الراء المهملة وواو والف في آخر هانون. وهي مدينة من الاقليم الثالث أيضا، حيث الطول ثمان وعشرون درجة واحدى وثلاثون دقيقة. بنيت في صدر الاسلام بعد فتح افريقية، في جنوبي جبل (يقع) شماليها. وهي في صحراء. وشرب أهلها من ماء الابار. وقال في «العزيزي» من ماء المطر، وليس لها ماء جار ولها واد في قبلة المدينة، به ماء ملح

(1) في الأصل: عمار بن مخالد. والأصح ما رسمناه. وهو عِمْران بن مجالد الربيعيّ. وقد قام بثورته على ابراهيم بن الأغلب في سنة 194 هـ. فتجمع حوله خلق وحُصر إبراهيم بقصره. وفي نفس الوقت خرج عليه أهل القيروان. وبعدما تكبّدت جيوش ابراهيم الهزيمة في معركتين، انتصرت على الثوار في معركة ثالثة وقد أصدر زياده الله الأمر بهدم سور القيروان في سنة 201 هـ. (راجع أخبار هذه الثورة في ابن الأثير الكامل (230/6 ـ 236 و 331 ـ 332)؛ أبو العرب، طبقات علماء افريقية (ص 160). (1/455) Fournel, les Berbères 1/455).

يستعمله الناس فيما يحتاجونه . قال العزيزي وهي أجل مدن المغرب (يعني في القديم) وكان عليها سور هدمه زيادة الله بن الاغلب قال الادريسي : وبينها وبين أسبيطلة سبعون ميلا .

الــزهــري

وكذلك كان ايضا في هذا الصقع المدينة العظيمة التي جمعت طيب الهواء وجميع المحاسن ، الا وهي مدينة القيروان ، وهي أجل مدينة عمرت في الارض وذلك ان من أول بنيانها الى حين خربت مائة سنة وستة اشهر ، وكانت هذه المدينة من احسن بلاد الارض واكثر رزقا وفواكه وزرعا ، وكانت تضاهي مدينة بغداد في الحسن والجمال ، وكان فيها من العلماء والفقهاء والادباء والشعراء مثل ما كان في بلاد البصرة ، وكان خرابها على يد العرب الذين ارسلوا اليها في مدة يزيد بن عبد الملك بن مروان (كذا) وذلك انه لما انتقلت الخلافة من بني أمية الى بني العباس وتخالف الامر ، استعلت العرب على مدينة افريقية ولم يبق منها الا ما كان على ساحل البحر وبقيت القيروان خربة سنين حتى سكن الامر وعمر منها شيء قليل حتى الخلافة المهدية استفتح امير المؤمن ابو محمد بن بن عبد المؤمن بلاد افريقية بعد ما كان الروم قد عملت على بعضها فغلبهم الخليفة ، فهي اليوم معمورة عمارة يسيرة .

*
* *

المهديــة (1)

ابن حــوقــل

والمهدية مدينة صغيرة استحدثها المهدي القائم بالمغرب ، وسماها بهذا الاسم . وهي في نحر البحر . وتحول اليها من رقادة القيروان ، في سنة ثمان وثلاثمائة . وهي من القيروان على مرحلتين ، في فرضة لما والاها من البلاد كثيرة التجارة حسنة السور والعمارة منيعة . ولها سور من حجارة وله بابان ليس لهما فيما رأيته من الارض شبيه ولا نظير غير البابين اللذين على سور الرافقه ، وعلى مثالهما عملا ومثل شكلهما اتخذا . كثيرة القصور نظيفة المنازل والدور ، حسنة الحمامات والخانات خصبة رفهة الفواكه والغلات طيبة الدخل نزهة الخارج بهية المنظر . أدركتها سنة ست وثلاثين (وثلاثمائه) .وملوكها كماة وجيوشها حماة وتجارتها طراة وقد آختلت أحوالها والتاثت أعمالها وانتقل عنها رجالها ، بانتقال ملوكها عنها وبعدهم منها . وكان أول نحس أظلها ، أبو يزيد مخلد بن كيداد وخروجه بالمغرب على أهلها ، وانثالت المناحس عليها الى الآن ، وقد بقى بها بعض رمق .

وانتقل عنها رجالها بانتقال المنصور عليه السلام عنها وبعده عنها وسكناه المنصورية من ظهر القيروان ، وذلك لما دهمه من أبي يزيد مخلد بن كيداد وقصده المخالفه عليه واطراد

(1) راجع غير ما ذكر : ابن عذارى ، البيان المغرب (ج 1) ، الحسن بن محمد الوزان ، وصف افريقية ج 1 ، ابن زمبيل ، تحفة الملوك (مخطوط محفوظ في مكتبة اكسفورد) ورقة 404 — 403 ، وكذلك :
Marmol, description général de Africa, Trad. Perrot d'Alliancourt T. II; Marçais (G) Manuel d'Art Musulman Marçais (G) les Arabes ; en Berberie ;
Vonderheyden (Mélanges) emcy. de l'Islam, T. III ; Creswell, Arechitecture ofEgypt.

ما أطرد له عند خروجه بالمغرب في أحزاب الكفر والنفاق والأباضية والنكارية المرّاق . فإنه صارت له الحال عند نجومه لما سبق به القدر وتقدم به القضاء الى ان استولى على المغرب باجمعه وحاصر المهديه وضيق على اهلها وموالينا عليهم السلام ، حتى اذن الله تعالى ببواره وهو في غاية الثقة بانصاره والسرور باغترار ه ، فخانه فجوره واسلمه سروره . وخرج اليه مولانا ، أمير المؤمنين المنصور بالله صلى الله عليه وسلم ، في فئة شعارها الايمان وعادتها من الله الظفر والاحسان . وعدو الله في عدد لا يحصى وأمة اذن الله فيها بالفنى . . . يمر سرا كرجع الطُرف فزحزحهم عن مستقرهم وصياصيهم . وبذل السيف في نواصيهم وانهزم اللعين وقد عاين الموت وشارف القوت يطلب من الارض معاذا وفيها من سوء ما اقترفه لو اذا ، فمناه أهل القيروان العزور وانزلوه كالمقهور وقد وصل اليهم في مرحلة واحدة ، فمنوه الاباطيل وزخرفوا له الاقاويل فاقام ووصل المنصور أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، فنزل عن غربي القيروان في منزل نزله بالسعادة وعلت فيه طيور النصر والسلامة فتيمن بنزوله وتبرك بحلوله ، فانجزه الله ما وعده وبلغه مأمله ، فهزم أبا يزيد عن مكانه وامكن الله من حزبه واعوانه ، فمن على أهل القيروان بالعفو والغفران واتبع ابا يزيد ، فكان بينهما مايطول شرحه وتتفاقم انباؤه الى ان اخده ورجع الى العسكر المنصور والمكان المذكور ، فاختط أحسن بلد في أسرع أمد وانتقل اليه واستوطنه وأقام به واستحسنه صلوات الله عليه يوم الثلاثاء لليلة بقيت من شوال سنة سبع وثلاثين وثلاثمائه .

البكري

مدينة المهدية ، منسوبة الى عبيد الله المهدى الذي بناها على ماذكر في التاريخ وبينها وبين القيروان ستون ميلا . تخرج من القيروان فتنزل منزل كامل ، ثم تخرج منها فتاتي المهدية وطريق آخر تخرج من القيروان الى مدينة تماجر مرحلة الى المهديه مرحلة أخرى . ومدينة تماجر كبيرة آهلة بها جامع واسواق وفنادق وحمام ، وماؤها زعاف . وفي وسطها غدير ماء وحولها غابة زيتون وشجر أعناب . وبين مدينة تماجر والمهدية الوادي الملح الذي كانت فيه الوقعة المشهورة بين ابي يزيد وأبي القاسم قتل فيها من اصحاب أبي القاسم عدد لا يحصى ، ففر منه ابو القاسم فيمن كان يختص به . والبحر قد أحاط بها من ثلاث جهاتها . وانما يدخل اليها من الجانب الغربي . ولها ربض كبير يعرف بزويله فيه الاسواق والحمامات ومساكن ، أهلها . وبنى على الربض المعز بن باديس سورا يحيط به . وطولها اليوم نحو ميلين ، وعرضها يضيق ويتسع واوسعه أقله من بسط طولها . وجميع بنيانها بالصخر ولمدينتها بابا حديد لا خشب فيهما ، زنة

كل باب الف قنطار ، طوله ثلاثون شبرا . في كل مسمار من مساميرها ستة ارطال . وفي البابين صور الحيوان . وفي المهدية من المواجل العظام ثلاثمائة وستون غير ما يجري اليها من القناة التي فيها . والماء الجاري بالمهدية جلبه عبيد الله من قرية منانس ، وهي على مقربة من المهدية في أقداس ويصب في صهاريج داخل المهدية ، عند جامعها ، ويرفع من الصهريج الى القصر بالدواليب ويصب في محبس يجري منه في تلك القناة . وهي مرفا لسفن الاسكندرية والشام والاندلس وصقلية وغيرها . ومرساها منقور في حجر صلد يسع ثلاثين مركبا على طرفي المرسى برجان بينهما سلسلة من حديد . فاذا اريد ادخال سفينة فية أرسل حراس البرجين أحد طرفي السلسلة حتى تدخل السفينة ثم مدرها كما كانت بعد ذلك لئلا يطرقها مراكب الروم وعرض المدخل الى المهدية من القبلة الى الجوف قدر غلوة . . وردم عبيد الله من البحر مثل ذلك وأدخله في المهدية فاتسع الموضع وفيه ستة عشر برجا ثمانية منها في السور الاول وثمانية في الزيادة ، منها برج أبي الوزان النحوى وبرج عثمان وبرج عيسى وبرج الدهان ، نسبت اليهم لقرب مساكنهم منها . والجامع ودار المحاسبة فما ردم من البحر وغير ذلك من المنازل . والجامع سبعة بلاطات متقن البناء حسنه وقصر عبيد الله كبير سري المباني ، بانه غربي ، وقصر ابنه القاسم بازائه بابه شرقي بينهما رحبة فسيحة . ودار الصناعة بشرقي قصر عبيد الله تسع اكثر من مائتي مركب وفيها قبوان كبيران طويلان لآلات المراكب وعددها لئلا ينالها لها شمس ولا مطر . وكان سبب بنيان عبيد الله المهدية ، قيام أبي عبد الله وجماعة كتامة عليه وما حاولوه من خلعه وقتل اهل القيروان رجال كتامه . فكان ابتداؤه بالنظر فيها سنة ثلاثمائه وكمل سورها سنة خمس وانتقل اليها سنة ثمان في شوال وكان لها ارباض كثيرة آهله عامرة ، اقربها اليها ربض زويله ، فيه الاسواق والحمامات وربض الحمى كان مسكنا لا جناد افريقيه من العرب والبربر . ولم تزل دار ملك لهم الى ان ولى الامر اسماعيل بن القائم سنة اربع وثلاثمائه ، فسار الى القيروان محاربا لابى يزيد واتخد مدينه صيره واستوطنها بعده ابنه معد وخلت اكثر ارباض المهدية وتهدمت .

الادريســـي

ومن صفاقس الى المهدية مرحلتان ولها عامل من قبل الملك المعظم رجار . والمهدية مدينة لم تزل ذات حط واقلاع للسفن الحجازية القاصدة اليها [و] من بلاد المشرق والمغرب والاندلس وبلاد الروم وغيرها من البلاد . واليها تجلب البضائع الكثيرة بقناطير الاموال

على مر الايام . وقد قل ذلك في وقتنا هذا . فمدينة المهدية كانت مرسى وفرضه للقيروان . واستحدثها المهدي عبيد الله وسماها بهذا الاسم في نحر البحر . تدخل من سفاقس الى رقادة القيروان ، ثم تدخل اليها من مدينة رقادة . ومدينة المهدية من مدينة القيروان على مرحلتين وكانت فيما سلف المسافر اليها كثير والبضائع اليها مجلوبة من سائر البلاد والاقطار ، والامتعة والمتاجر بها نافقة وفيها بائعة ، والهمم على أهلها موقوفة واليهم راجعة ، ولها حسن مبان لطيفة ، نظيفة المنازل والمتبوءات وديارها حسنة وحماماتها جليلة ، وبها خانات كثيرة . وهي في ذاتها حسنة الداخل والخارج ، بهية المنظر . وأهلها حسان الوجوه نظاف الثياب . ويعمل بها من الثياب الحسنه الدقيقة الجيدة المنسوبة اليها مايحمل ويتجهز به التجار الى جميع الافاق في كل وقت وحين ، ما ليس يقدر على عمل مثله في غيرها من البلاد والامصار ، لجودته وحسنه . وشرب أهلها من المواجل ، وآبارها غير عذبة . ويحيط بالمهدية سور حسن مبني من الحجارة ، وعليها بابان من حديد لفق بعضه على بعض من غير خشب وليس يدري في معمور الارض مثلها صنعة ورشاقه ، وهما من عجائبها الموصوفة . وليس لها جنات ولابساتين ولا نخيل ، انما يجلب اليها شيء من الفواكه من قصور المنستير. وبينهما في البحر ميلاد . والمنستير قصور ثلاثة يسكنها قوم متعبدون لا تضرهم الاعراب في شيء . وبهذا المكان ، اعنى المنستير ، يدفن أهل المدينة موتاهم ، يحملونهم في الزوارق اليها فيدفنونهم بها ثم يعودون الى بلدهم . وليس بالمهدية جبانة تعرف في وقتنا هذا . والمهدية في حين تاليفنا لهذا الكتاب ، مدينتان : احداهما مدينة المهدية ، والثانية مدينة زويلة . ومدينة المهدية يسكنها السلطان وجنوده ، وبها قصره الحسن البناء العجيب الاتقان والارتقاء . وكان بها ، قبل أن يفتحها الملك المعظم رجار ، في سنة 543 ، طيقان الذهب . وكانت مما يفتخر ملوكها . واستفتحت المهدية ، وسلطانها يومئذ الحسن بن علي بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس بن المنصور بن بلقين بن زيرى الصنهاجي . (1)

وبمدية زويلة الاسواق الجميلة والمباني الحسنه والشوارع الواسعة والازقة الفسيحة . وأهلها تجار مياسير نبلاء ذوي اذهان ثاقبة وأفهام ذكية . وحل لباسهم البياض . ولهم همم في انفسهم وملابسهم . وفيهم الجمال ولهم معرفة زائدة في التجارات . وطريقتهم حميدة في المعاملات .

(1) الحسن بن علي الصنهاجي ، آخر ملوك بني زيري . ولد بالمهدية في سنة 503 هـ . وتولى الملك بعد أبيه في سنة 515 هـ ، وعمره لم يكن يتجاوز الثانية عشرة . وبعدما أخرجه روجار الثاني ملك صقيلية من المهدية ، استقر وقتا قصيرا في المناطق الشرقية في الجزائر وبايعه أهلها قبل ان يصطحبهُ عبد المؤمن الى المغرب الاقصى حيث رتب له حياة الامراء وبقي هنا حتى وفاته .

(2) راجع : العبر (161/6) ؛ البيان المغرب (308/1) ، ابن الخطب ، أعمال الاعلام (ص 33) اسماعيل العربي ، دولة بني حماد في عدة أماكن .

وهذه المدينة أسوار عالية حصينة جدا تطيف بها من سائر جهاتها ونواحيها البرية والبحرية وجميعها مبنى بالحجر. وفيها فنادق كثيرة وحمامات جمة. ولهذه المدينة من جهة البر، خندق كبير تستقربه مياه السماء. وبخارجها من جهة غربيها حمى، كان قبل دخول العرب الى افريقية وافسادهم لها، فيه جنات وبساتين بسائر الثمار العجيبة والفواكه الطيبة. ولم يبق الان منها بهذا الحمى المذكور شـيء. وعلى مقربة من هذه المدينة، قرى كثيرة ومنازل وقصور يسكنها قوم بواد لهم زروع كثيرة ومواش واغنام وأبقار واصابات كثيرة في القمح والشعير. ولها زيتون كثير يعتصر منه زيت طيب عجيب يعم سائر بلاد افريقية ويتجهز به الى سائر بلاد المشرق. وبين هاتين المدينتين، أعني المهدية وزويلة، فضاء كبير يسمى الرملة، مقداره أشف من رمية سهم. والمهدية قاعدة بلاد افريقية وقطب مملكتها.

ياقـوت

المهديَّة، في موضعين: أحداهما بافريقية والاخرى اختطها عبد المؤمن بن علي قرب سلا. فاما المهديه، ففى اشتقاقه عندي أربعة أوجه: أحدهما أن يكون من المهدى بفتح ميـمه، ويعـنى أنه هومهتد في نفسه، لا أنه هـداه غيره. ولوكان ذلـك لكـان المهدى، بضم الميم كقولك المرْمِـيُّ والمكْريُّ. ولو كان يفعل ذلك بغيره لضمت الميم وليس الضم والفتح للتعديه وغير التعديه. فان الاصمعي يقول: هداه يهديه في الدين هدى. وهداه يهديه هداية، اذا دله على الطريق. وهَدَيْت العروس فانا اهديها هداءً. وأهديت الهدية اهداء واهديت الهدي. هاذان الاخيران بالالف، والاول، كما تراه، ثلاثيا متعديا، فلا يفتقر الى زيادة الف.

(ويمضي ياقوت في هذا التحليل اللغوي الذي لا صلة له بالموضوع، ثم يعـود الى المهدية).

وهذه المدينة بافريقية، منسوبة الى المهدى وبينها وبين القيروان مرحلتان، والقيروان في جنوبيها. وقد اختطها المهدي واختلف في نسبه (1) فأكثر أهل السير الدين لم يدخلوا في رعيتهم،

---

(1) عبيد الله بن محمد الحبيب بن جعفر المصدق، مؤسس دولة الفاطميين في المغرب، يسود اختلاف كبير بين المؤرخين بشأن نسبه. كان أبوعبد الله الحسين بن أحمد الشهير بالشيعي قد نزل في المغرب الأوسط وأوته قبيلة كتامة (في منطقة سطيف) ومكنته من اعداد المغرب لاستقبال المهدي المنتظر، ومبايعته عبيد الله (سنة 297 هـ) في القيروان بعد أن قضى على دولة الأغالبة. وقبل أن يختط المهدية (سنة 303 هـ)، كان المهدي قد اختار رقادة

وبعض رعيتهم الذين كانوا يخفون أمرهم يزعمون أنه كان ابن يهودي من أهل سلمية بالشام . وتزوج القداح الذي كان أصل هذه الدعوة بامه فرباه الى أن حضرته الوفاة فلم يكن له ولد فعهد اليه وعلمه الدعوة . وكان اسمه سعيدا ، فلما صار الامر اليه سمي عبيد الله .

وقال قوم وهم قليلون : انه ولد القداح نفسه ، في قصص طويلة .

وقال من صحح نسبه انه احمد بن اسماعيل الثاني بن محمد بن اسماعيل الاكبر بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب . قام الى افريقية فملكها واقام بالقيروان مدة ثم خط المهدية . وهي على ساحل بحر الروم داخله فيه ككف على زند ، عليها سور عال محكم كاعظم ما يكون . يمشي فيه فارسان . عليه باب من حديد مُصْمَت مصراع واحد تانق المهدي في عمله .

وقال بعض أهل المعرفة بأخبارهم : في سنة 300 هـ . خرج المهدي بنفسه إلى تونس يرْتاد لنفسه موضعا يبنى فيه مدينة خوفا من خارج يخرج عليه ، وأراد موضعا حصينا حتى ظفر بموضع المهدية وهي جزيرة متصلة بالبركهيئة كف متصلة بزند ، فتاملها ، فوجد فيها راهبا في مغارة فقال له : بم يعرف هذا الموضع ؟ فقال : هذا يسمى جزيرة الخلفاء ، فاعجبه هذا الاسم فتبناها وجعلها دار مملكته وحصنها بالسور المحكم والأبواب الحديد المصمت وجعل في كل مصراع من الابواب مائة قنطار . ولها بابان بأربعة مصاريع ، لكل باب منها دهليز يسع خمسمائة فارس . وكان شروعه في اختطاطها لخمس خلون من ذي القعدة سنة 303 . وقال أبو عبيد البكرى كان شروعه فيها سنة 300 ، وكمل سورها سنة خمس ، وانتقل اليها في سنة ثمان في شوال . ولم تزل دار مملكة لهم إلى أن ولي الأمر اسماعيل بن أبي القاسم في سنة 440 هـ ، فسار إلى القيروان محاربا لأبي يزيد واتخذ مدينة صبره واستوطنها بعد أبيه معد وعمل فيها مصانع واحتفر آبارا وبنى فيها قصورا عاليه .

= لاقامته . وقد استمر حكمه لافريقية أربعين سنة ومات في سنة 322 هـ (934 م) راجع : ابن الأثير في الكامل 90/8 ؛ ابن خلدون العبر 11/4 ؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان 117/3 — 120 ؛ القاضي النعمان ، رسالة افتتاح الدعوة (في عدة أماكن) المقريزي ، اتعاظ الحنفاء ص 17 ؛ ابن عذارى ، البيان المغرب 118/1 وما بعدها وجمهرة الأنساب لابن حزم الذي قال بشأن نسبه ما يلي : «وادعى عبيد الله القائم بالمغرب أنه أخو حسن البغيض ؛ وشهد بذلك رجل من بني البغيض ... ومرة ادعى أنه ولد الحسين ابن محمد بن اسماعيل بن جعفر وكل هذه دعوى مفضوعة ، لأن محمد بن اسماعيل بن جعفر لم يكن له ولد اسمه الحسين . وهذا كذب فاحش» (ص 60 ـ 61) .

(ويمضي ياقوت فيقتبس من وصف البكرى الذي اوردناه اعلاه ، حتى قوله : ثم يمدونها كما كانت تحبيسا لها)

ولما فرغ من احكام ذلك ، قال : اليوم أمنت على الفاطميات يعنى بناته . وارتحل اليها واقام بها ، ثم عمر فيها الدكاكين ورتب فيها ارباب المهن ، كل طائفة في سوق ، فنقلوا اليها اموالهم . فلما استقام ذلك ، أمر بعمارة مدينة اخرى الى جانب المهدية ، وجعل بين المدينتين قدر طول ميدان وأفردها بسور وابواب وحفظه وسماها زويله وأسكن بها أرباب الدكاكين من البزازين وغيرهم فيها بحرمهم وأهاليهم ، وقال : انما فعلت ذلك لآمن غائلتهم ، وذلك ان اموالهم وأهاليهم هناك ، فان ارادوني بكيد وهم بزويله كانت اموالهم عندي فلايمكنهم ذلك . وان أرادوني بكيد في المهدية خافوا على حرمهم هناك . وبنيت بيني وبينهم سورا وابوابا ، فأنا آمن منهم ليلا ونهارا ، لاني افرق بينهم وبين اموالهم ليلا ، وبينهم وبين حرمهم نهاراً . وشرب أهلها من الابار والصهاريج . ومهما ذكرنا من حصانتها ، فان أحوال ملوكها تناقضت حتى أفضى الأمر إلى أن أنقذ رجار صاحب صقلية جرجى اليها في سنة 543هـ ، فأخلاها الحسن يد الافرنج اثنتي عشرة سنة حتى قدم عبد المؤمن في سنة 555 هـ إلى افريقية ، فأخذ المهدية في اسرع وقت . فهي في يد اصحابه الى يومنا هذا ولم تغن حصانتها في جنب قضاء الله .

وينسب الى المهدية جماعة وافرة من العلماء في كل فن ، منهم : ابوالحسن علي بن محمد بن ثابت الخولانى المعروف بالحداد المهداوى القائل :

قالت وأبدت صفحة	كالشمس من تحت القناع
بعت الدفاتر وهي	آخر ما يباع من المتاع
فأجبتها ويدي على	كبدي وهمت بانصداع
لا تعجبي فيما رأيـ	ـت ، فنحن في زمن الضياع

القزويني

المهديه مدينة بافريقية بقرب القيروان ، اختطها المهدى المتغلب على تلك البلاد سنة ثلاثمائة ، قيل انه كان يرتاد موضعا يبني فيه مدينة حصينة ، خوفا من خارج يخرج عليه حتى ظفر بهذا الموضع وكانت جزيرة متصلة بالبركهيئة كف متصلة بزند ، فوجد فيها راهبا في مغارة ، فساله عن اسم الموضع ، فقال : هذه تسمى جزيرة الخلفاء ، فاعجبه هذا الاسم فبنى بها

بناء وجعلها دار مملكة وحصنها بسور عال وأبواب حديد وبنى بها قصرا عاليا . فلما فرغ من احكامه قال : الآن آمنت على الفاطميات ! يعنى بناته .

وحكي انه لما فرغ البناء أمر راميا ان يرمي سهما الى جهة الغرب . فرمى فانتهى الى موضع المصلى . فقال : الى هذا الموضع يصل صاحب الحمار ! يعنى ابا يزيد الخارجي . لانه يركب حمارا . فقالوا : ان الامر كان كما قال . وأن ابا يزيد وصل الى موضع السهم ووقف ساعة . ثم رجع ولم يظفر . ثم امر بعمارة مدينة اخرى الى جانب المهدية وجعل بين المدينتين طول ميدان . وافردها بسور وابواب وسماها زويله . واسكن ارباب الصناعات والتجارات فيها وامر أن تكون اموالهم بالمهدية واهلهم بزويله . قال : ان ارادوني بكيد بزويله . فاموالهم عندي بالمهدية وان ارادوني بكيد بالمهدية خافوا على اهليهم بزويله . فاني آمن منهم ليلاً ونهارا ! .

وشرب أهلها من الصهاريج . وهم ثلاثمائة وستون صهريجا على عدة أيام السنة . يكفيهم كل يوم صهريج الى تمام السنة ومجيء مطر العام المقبل . ومرساها منقور في حجر صلد تسع مئتي اريد ادخال سفينة أرسل الحراس احد طرفي السلسلة لتدخل الخارجة ثم يمدها .

ثم تناقصت حال ملوكها مع حصانة الموضع حتى استولى عليها الفرنج في سنة ثلاث واربعين وخمسمائة . وبقيت في يدهم اثنتي عشرة سنة . حتى قدم عبد المؤمن افريقية سنة خمس وخمسين وخمسمائة واستعادها . وهي في يد بني عبد المؤمن الان .

ابن سعيد

. . . وفي شرقيها بدخلة الى الجنوب . مدينة المهدية التي بناها عبيد الله المهدي وجعلها حاضرة افريقية . وهي مستطيلة في البحر وهو دائر بها في غير مكان واحد ضيق . مثل سبته وموضوعها حيث الطول اربع وثلاثون درجة واربعون دقيقة . والعرض اثنتان وثلاثون درجة . وفي شرقيها مدينة صفاقس .

أبـو الفـدا

والمهدية . مدينة استحدثها المهدي عبيد الله في شرق سوسة وجعلها المهدي كرسي مملكته في افريقية . وهي على طرف داخل في البحر . كهيئة كف متصل بزند . والبحر محيط بها غير مدخلها . وهو مكان ضيق . مثل سبتة . وهي غربي صفاقص . وحصنها بسور شاهق في اهواء

[مبنـي] بالحجر الابيض بابرجه عظام . وكان الابتداء في بنائها سنة ثلاث وثلاثمائة . وابتنى بها القصور الحسنة الشارعة على البحر والظاهرة عنه . وابتنى الناس بالمهدية أجل الابنيه وصارت من أجمل الامصار .

التجـاني

. . . ثم منها يوم الاثنين الثاني عشر صفر ، الى المهدية ، فرايت مدينة جبيلا قدرها ، شهيرا في قواعد الاسلام ذكرها ، وهي من بناء عبيد الله المهدي ، أول الخلفاء العبيديين واليه تنسب . وكان ابتداء بنائه لها لخمس خلون من ذي القعدة سنة ثلاث وثلاثمائة . ولما اكمل بناءها آمن على زعمه على الفاطميات . قال أبو اسحاق ابرهيم ابن القاسم الرقيق في كتابه : خرج المهدي بنفسه في سنة ثلاثمائة الى مدينة تونس ، فاجتاز على قرطاجنة وغيرها ، ومر على جميع السواحل يرتاد موضعا على ساحل البحر يتخذ فيه مدينة تحصنه وتحص بنيه من بعده ، وقد كان عنده علم حدثاني بقيام قائم على ذريته ، فاقام يلتمس ذلك مدة ، فلم يجد موضعا احسن ولا احصن من موضع المهدية فبناها هنالك وجعلها دار مملكته قال : وكان أول ما ابتنى منها سورها الغربي الذي فيه أبوابها . وعندما وضع أول حجر منه وهو حاضر ، أمر ناشبا كان بين يديه أن يوتر قوسه ويقف على ذلك الحجر ويرمي سهمه ففعل الرامي ذلك ، فانتهى السهم الى المصلى ، ووقع قائما على نصله فقال المهدي : الى ذلك الموضع ينتهي صاحب الحمار ، يعنى أبا يزيد ، فقدر أن وصل أبو يزيد الى ذلك الموضع ولم يتجاوزه .

قال معلم الفتيـان في تاريخـه : وأمر المهدي بقياس مسافة هذه الرمية ، فكانت مائتي ذراع وثلاثمائة وثلاثين ذراعا . فقال المهدي : هذا منتهى ماتقيم المهدية في ايدينا من السنين . قال : ولما تم بناء السور ، هناه اولياؤه بذلك ، فقال لهم : ان جميع ماترون انما عمل لساعة واحدة ، يعني ساعة وصول أبي يزيد الى المهدية ، قال : فكان يقف على فرسه فيامر الصناع بما يصنعون . قال : وأمر بعمل باب الحديد للمدينة ، فجعل صفائح مصمتة ، ثم اثبت فيها المسامير ، فبقيت تتقلقل ، فقال للصناع : ما عندكم في هذا ؟ قالوا : لا ندري ، فامرهم بتسميرها كذلك ، ثم أمر بايقاد النار تحت الباب كله حتى التهب واتصلت المسامير بالصفائح فعادت كلها قطعة واحدة ، فكان ذلك مما عد من معارف المهدي . وهذا تعصب ممن نقله ، وأدنى معرفة الصناع ان يعرفوا هذا القدر ، ان كان صحيحا .

ولما تم الباب على هذه الصفة ، احب اختباروزنه ، فكلهم اخبره أن لا سبيل الى ذلك لا فراط ثقله ، فامرهم ان يضعوا احدى مصاريعه على ظهر سفينة ففعلوا ذلك . ونظر الى منتهى غوص السفينة في الماء ، ثم انزل وشحنت السفينة بالرمل والحجارة الى ان وصل منها ما وصل أولا واستخرج الرمل منها فوزن على كرات ، فكان وزن مصراع مائة قنطار . وفي كثير من نسخ المؤلفين : الف قنطار وكذا حكي أبو عبيدة في « المسالك » . ولما علموا قدره وحاولوا تركيبه ، صعب عليهم فتحه واغلاقه ، فلم تكن المائة من الرجال يستطيع ذلك ، فأمر المهدي ان يكون مداره على الزجاج فهان امره وعاد الرجل الواحد يتولى منه ما كانت المائة تعجز عنه فعجب من هذا كله من فطنة المهدى ونفوذ فكرته .

وأمر المهدي بحفر مرسى المدينة ، وكان حجرا صلدا فنقر نقرا وجعله حصنا لمراكبه الحربية ، وأقام على فم هذا المرسى سلسلة من حديد يرفع احد طرفيها عند دخول السفن ثم تعاد كما كانت تحصينا للمرسى من دخول مراكب الروم . وابتنى دار الصناعة ، وهي من عجائب الدنيا : ثم شرع في حفر الاهراء داخل المدينة ، وبنى الجباب والمصانع ، واختزن الاهراء بالطعام وملأ الجباب بالماء ثم أمر بحفظها ولم تفتح الا في أيام أبي يزيد . ولولا ذلك لما أطاقوا الحصار . وكان اتساع المهدية في أول بنائها من الجوف الى القبلة قدر غلوة سهم ، فاستصغرها المهدي عند ذلك ، فردم من البحر مقدارها وادخله في المدينة فاتسعت . والجامع الاعظم الان ، والدار المعروفة في القديم بدار المحاسبات من جملة ماردم من البحر .

واخذ عبيد الله في بناء قصوره بها ، فبنى قصره الكبير المعروف به الذي كانت فيه طيقان الذهب . وبنى ابنه أبو القاسم قصره المعروف به أيضا وبينهما فسحة ، وبشرقي قصر عبيد الله حيث كان هي دار الصناعة الان .

ولما كمل سور المدينة وقصورها ، أراد عبيد الله الانتقال اليها فثقل ذلك على اوليائه وجنده وصعب عليهم استبداله بالموضع الذي استوطنوه ، فقال لهم : ان صعب ذلك عليكم ، فنحن ننتقل ونترككم هنا ونجري عليكم الارزاق والصلات ، وعما قليل ستنتقلون الينا مسارعين . قال المؤرخون : فلم يكن بعد ذلك الازمان يسير حتى ارسل الله السماء بامطار غزيرة اخربت مساكن رقادة واهدمت دورها وهلكت خلقا عظيما من أهلها ، فخرج الناس في الاخبية والفازات ، وكتبوا الى المهدي يسالونه الا نتقالْ الى المهدية ، فاجابهم الى ذلك فانتقلوا اليها وتمت عمارنها .

وقالت الشعراء في تهنئة المهدي بها فاكثروا ، ومما استحسن في ذلك قول ابن بديل الكاتب

بنيت لدى أقصى المغارب دار قطنت بها الأحرار والأبرار
لاذت ببرد الماء لما أن درت أن القلوب على الحسين حرار

وانزل المهدي جنده وخاصته فيها وابتنى لعامة الناس المدينة الاخرى المسماه بزويلة ، وهي احدى المدينتين وبينهما قدر غلوة سهم وجعل الاسواق والفنادق فيها وأدار بها خنادق متسعة تجتمع بها مياه الامطار ، فكانت الربض لمدينة المهدية . وقد كان المعزبن باديس جعل عليها سورا عند دخول العرب الى أرضه سنة اربع واربعين وأربعمائة وخربت هذه المدينة الان فلم يبق لها أثر ، وكان بخارجها الحمى المعروف بحمى زويلة وكان له جنات وبساتين بسائر الثمار وانواع الفواكه فافسدته العرب .

وأقام المهدي ساكنا بمدينة المهدية مدة حياته ثم مات بهاسنة اثنتين وعشر وثلاثمائة ، فولى ابنه أبو القاسم القائم . ففي آخر دولته ثار عليه أبو يزيد مخلد بن كيداد النكاري .

القلقشندي

. . . ثم صارت قاعدتها بعد ذلك المهدية ، نسبة الى المهدي وهي مدينة بناها عبيد الله جد الخلفاء الفاطميين بمصر في سنة ثلاث وثلاثمائة . وموقعها في الاقليم الثالث من الاقاليم السبعة (نقل طول وعرض ابن سعيد) . وهي على طرف داخل في البحر كهيئة كف متصل بزند . والبحر محيط بها غير مدخلها ، وهو مكان ضيق كما بسبته . ولها سور حصين شاهق في الهواء مبني بالحجر الابيض بابراج عظام . وبها القصور الحسنة المطلة على البحر .

* * *

سفاقس (صفاقص) (1)

ابن حوقل

ومدينة سفاقس ، جل غلاتها الزيتون والزيت وبها منه ما ليس بغيرها مثله . وكان سعره عندهم فيما سلف من الزمن بحال غيرته الفتن في وقتنا هذا ربما بلغ من ستين قفيزاً بدينار الى مائة قفيز بدينار ، على حسب السنة وريها . وزيت مصر في وقتنا هذا من ناحيتها يجلب لقلته بالشام . وهي ناحية على نحر البحر ولها مرسى ميت الماء ، وعليها سور من حجارة وأبواب حديد منيعة . وفيها محارس مبنية للرباط بها أسواقها عامرة وهي قليلة الكروم . وفاكهتها من قابس ، تسد حاجة أهلها . وشرب أهلها من مواجل بها . ومواجنها مالحة الطعوم حافظة لما استردعت . ولهم من صيود السمك ما يكثر ويعظم . تصاد بحظائر قد زُربت وعملت في الماء فتؤخذ بايسر سعي . وبناؤها بالحجارة والجير . وبينها وبين المهدية مرحلتان ، ولها عامل عليها للسلطان بذاته .

البكري

. . . ومنه الى مدينة سفاقس ، وهي مدينة على البحر مسورة ولها اسواق كثيرة ومساجد وجامع . وسورها صخر وطوب ولها حمامات وفنادق وبواد عظيمة وقصور جمة وحصون ورباطات على البحر ، منها محرس بطوية (2) وهو أشرفها وفيها منار مفرط الارتفاع يرقى اليه في مائة وست وستين درجة ، ومحرس جبلة ، ومحرس الريحانه ومحرس مقدمان ومحرس اللوزه .

---

(1) شيدت صفاقص في حوالي سنة 275 هـ (849 م) وأعيد بناؤها في القرن العاشر الميلادي .

(2) بطوية : قبيل من البربر ، موطنه في الريف المغربي ولكن فروعا منه توجد في مختلف أنحاء المغرب .

وسفاقس في وسط ألذ غَابَة للزيتون . ومن زينتها يمتاز أهل مصر وأهل المغرب وصقلية والروم . وربما بيع الزيت منها أربعين ربعا قرطبية بمثقال واحد . وهي محط السفن . فاذا اجزر الماء بقيت السفن في الحماة . واذا مد رجعت السفن . يقصدها التجار من الافاق بالاموال الجزيلة لا بتياع المتاع والزيت . وعَمَل أهلها في القصارة والكمادة (1) كعمل أهل الاسكندرية واكثر وأجود . ويقابل سفاقس في البحر ، جزيرة تسمى قرقنه ، بينها وبين سفاقس في ذلك البحر الميت القصير القعر نحو عشرة أميال .

وجزيرة قرقنه المذكورة . فيها آثار بنيان ومواجل للماء ، ويدخل فيها أهل سفاقس درابهم ومراشيهم لانها خصبة .

الادريسي

ثم نرجع الان الى ذكر سفاقس ، فنقول ان منها الى طرف الرملة أميال . ومن طرف الرملة راجعا في جهة الجنوب ، وهو أول الجون ، الى قصر المجوس أميال .

ومدينة سفاقس ، مدينة قديمة عامرة لها اسواق كثيرة وعمارة شاملة ، وعليها سور من حجارة وأبواب عليها صفائح حديد منيعة ، وعلى اسوارها محارس نفيسة للرباط . واسواقها متحركة . وشرب أهلها من المواجل . ويجلب اليها من مدينة قابس نفيس الفواكه وعجيب انواعها ما يكفيها ويربى كثرة ورخص قيمه . ويصاد بها من السمك ما يعظم خطره ويكبر قدره . واكثر صيدهم بالزروب المنصوبة لهم في الماء الميت بضروب حيل . وجل غلاتها الزيتون والزيت وبها منه ما ليس يوجد بغيرها مثله ، وبها مرسى حسن ميت الماء ، وبالجملة ، انها من اعز البلاد . وأهلها لهم نخوة ، وفي أنفسهم عزة . وافتتحها الملك المعظم رجار في عام 543 هـ . من سنى الهجرة . وهي الآن معمورة وليست مثلما كانت من العمارة والاسواق والمتاجر في الزمن القديم . ومن سفاقس الى مدينة المهدية مرحلتان .

ياقوت

سفاقس ، مدينة من نواحي افريقية جل غلاتها الزيتون . وهي على ضفة الساحل ، بينها وبين المهدية ثلاثة أيام ، وبين سوسة يومان ، وبين قابس ثلاثة أيام . وهي على البحر ذات اسوار .

---

(1) قصر الثوب . دقه وبضه ، والقصار : محور الثياب ومبضها (فارسية معربة) . وكمد القصار الثوب : دقه .

وبها اسواق كثيرة ومساجد وجامع . وسورها صخر وآجر . وفيها حمامات وفنادق وقرى كثيرة وقصور جمة ورباطات ومنائر يرقى اليها في مائة وستين درجة في محرس يقال له بطريَّه . وهي في وسط غابة الزيتون ومن زيتها يمتاز اكثر أهل المغرب وكان يحمل الى مصر وصقلية والروم ويكون فيها رخيصا جدا . يقصدها التجــار من الافاق بالاموال لا بتياع الزيت . وعمل أهلها القصارة والكمادة ، مثل أهل الاسكندرية وأجود . والطريق من سفاقس الى القيروان ثلاثة أيام ، ومنها الى المهدية يومان . ينسب اليها ابو حفص عمر بن محمد بن ابراهيم البكري السفاقسي المتكلم . لقيه السلفي وانشده . وقال : كان من أهل الادب . وله بالكلام انس تام . انتقل الى مصر واقام بها الى ان توفي في شهر ربيع الاول سنة 505 ، وكان يعرف بالذهبي . وكان مولعا بالرد على أبي حامد الغزالي ونقض كلامه .

ابن سعيـد

وصفاقس تقع حيث الطول خمس وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة ، والعرض احدى وثلاثون درجة وخمسون دقيقة . وفي شرقيها وجنوبها مع آخر الاقليم الثالث مدينة قابس .

أبـو الفــدا

ومدينة صفاقس شرقي مدينة المهدية جميلة الى الجنوب ، وهي مدينة صغيرة ولها سور ولها آبار يشربون منها . ولها بساتين يسيرة في مستوى من الارض والجبل من جنوبيها . وبينها وبين قفصة نصف مرحلة .

التجــاني

ووصلنا الى صفاقس ظهر افرايت مدينة حاضرة ذات سورين يمشي الراكب بينهماويضرب البحر في الخارج منهما . وكانت بها قبل غابة زيتون ملاصقة لسورها فافسدتها العرب ، فليس بخارجها الآن شجرة قائمة وفواكها مجلوبة اليها من قابس وماؤها شراب لا يساغ وانما يعتمدون في شربهم على مايدخرونه من مياه الامطار ويصطاد بها من السمك انواع تفوت الاحصاء وببحرها يوجد صوف البحر الذي يعمل منه الثياب الرفيعة الملوكية . وربما وجد في بحرها صدف يشتمل على لؤلؤ صغير الحب . ومرساها مرسى حسن ميت الماء يمد به ويجزعنه كل يوم . فإذا

جزر استوت السفن على الحماة ، واذا مدعامت . وفي هذا المدو الجزر يقول بعض المجيدين من شعرائها وهو علي بن حبيب التنوخى (1) :

سقيا لأرض صفاقس ذات المصانع والمصلى
فحمى القيصر إلى الخليـ ـج فقصرها السامي المعلى
بلد يكاد يقول حيـ ـن تزوره أهلا وسهلا
حسب يريد زيادة فإذا رأى الرقباء ولى
لا نوم ، لا نوم ولا قرار حتى أرى قابس والمنارا

وبها جامع حسن ذكر اللبيدى في اخبار الشيخ أبي اسحاق الجبنياني أن على بن سالم جد الشيخ أبي اسحاق هو الذي بناه . وكان سحنون ولاه قضاء صفاقس وهو ولده من الرضاعة أرضعته زوجة أم محمد بن سحنون ، مع محمد . قال : وهو الذي بني أيضا سور صفاقس بالطوب وبالطين وبني المحرس المعروف في القديم بمحرس على وعرف بعد بالمحرس الجديد . وقد شاع في الناس تسمية صفاقس بلعنة الله . وبلغ الامر في ذلك أن بعض الملوك قال لمن راجعه الكلام : الى لعنة الله فأخذ في الارتحال الى صفاقس .

وكانت ولاتها في القديم تتردد عليها من قبل صنهاجة الى أن ولي المعز بن باديس عليها منصور البرغواطي ، وكان من الفرسان المعروفين بالاقدام ، فأراد أن يثور بها وأخذ في محالفة العرب فعاجله ابن عمه حمّو بن مليل وقتله غدرا في الحمام ، وذلك في سنة احدى وخمسين وأربعمائة .

القلقشندي

ومنها صفاقس بفتح الصاد المهملة ، وهي مدينة على ساحل البحر شرقي المهدية واقعة في الاقليم الثالث . قال ابن سعيد ، حيث الطول خمس وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة والعرض احدى وثلاثون درجة وخمسون دقيقة . وقال في تقويم البلدان : هي مدينة صغيرة على مستوى من الارض .

---

(1) ولد على بن حبيب التنوخى في صفاقس ونشابها ثم رحل الى المشرق حيث لقي جماعة من روساء العرب فحظي عندهم واقام بمدينة «لك» . انظر نبذه من شعره وتراجم لشخصيات ادبية وعلمية أخرى في الرحلة (ص 76 - 80)

وجنوبيها جبل يسمى جبل السبع ، يستدير بها سور وشرب أهلها من الابار ، لها بساتين قليلة . ومن بحرها يستخرج الصوف المعروف عند العامة بصوف السمك المتخذ منه الثياب النفيسه . قال ابن سعيد : أنا رأيته كيف يخرج . يغوص الغواصون في البحر فيخرجون كمائم شبيهة بالبصل باعناق ، وفي أعلاها زويره فتنشر في الشمس فتنفتح تلك الكمائم عن وبرٍ فيمشط ويؤخذ صوفه ، فيغزل ويعمل منه طعمة لقيام من الحرير وتنسج منه الثياب .

* * *

قابس (1)

ابن حوقل

وقابس مدينة منها (طرابلس) على ست مراحل الى جهة القيروان . وجادة الطريق ذات مياه جارية واشجار متهدلة وفواكه رخيصة . وبها من البربر الكثير . ولهم من الزروع والضياع ما ليس مثله لمن جاورهم ، الى زيتون وزيت وغلات . وعليها سور يحيط به خندق . ولها أسواق في ربضها وجهاز من الصوف كثير (2) ويعمل بها الحرير الكثير الغزير . وبها جلود تدبغ بالقرض وتعم اكثر المغرب ، فتاتي من طيب الرائحة ونعمة اللمس بمثل حال الاديم الجرشى . وبها صدقات وزكوات وضرائب وجوال على اليهود وسائمة كثيرة . ولها عامل بنفسه . وهي خصبة في اكثر أوقاتها . وأهلها قليلو الدماثه غير محظوظين من الجمال والنظافة . وفيهم سلامة . وفي باديتهم شرٌّ شِمِرٌّ ودِين قَذِرٌ ، وذلك أنهم لا يخلون من الشراية والقول بالوعد والوعيد مع الغيلة لبني السبيل والاعتراض على أموالهم في الكثير والقليل . والويل لمن نام بينهم والحرب على من جاورهم واستجاربهم مخالفين اكثر أيامهم لسلطانهم ، مواربين في الحقوق عليهم . ولم تزل هذه العادة بهم الى أن سار منهم الكثير الى قابس فاحرقوا ربضها وجاصروها واستباحوا أموال

---

(1) راجع غير ماذكر : Basset (R) Un voyage en Tunisie; (Bult. de la Soc. Géogr. de l'East, 1882) ; Guérin, Voyage archéologique dans la Régence de Tunisie ; Zaccone, Notes sur la Régence de Tunis ; Maunoir, Journal de route ; Laffite et servonne, le Golfe de Gabes ;

الحسن بن محمد الوزان ، وصف افريقية ج

ابن فضل الله العمرى ، مساك الابصار (مخطوط محفوظ في مكتبه اكسفوره ، ورقه 128 .

(2) انظر : Sergeant, Textiles ARS Islamica, XV, p. 48 ; Marçais (G) les Arabes en Berberie, p. 27.

تجارها وأهل الدمة منها ، وأمكن الله تعالى منهم فاهلك جميع من رصدها ، ثم سار عليهم زعيم صنهاجه فجعل عشرة منهم في كساء .

المقـدسي

قابس أصغر من طرابلس . لهم واد جرار . وبنيانهم من الحجارة والاجر . كثيرة النخيل والاعناب والتفاح مسورة . باديتها برابر ، ولها ثلاثة أبواب .

البكـري

ومدينة قابس مدينة جليلة مسورة بالصخر الجليل من بنيان الاول . ذات حصن حصين وارباض واسواق وفنادق وجامع سري وحمامات كثيرة ، وقد أحاط بجميعها خندق كبير يجري اليه الماء عند الحاجة ، فيكون أمنع شيء . ولها ثلاثة أبواب وبشرقيها وقبليها أرباض ويسكنها العرب والافارق . وفيها جميع الثمار والموز بها كثير . وهي تتميز عن القيروان باصناف الفواكه . وبها شجر التوت الكثير ، ويقوم من الشجرة الواحدة من الحرير مالا يقوم من خمس شجرات من غيرها . وحريرها أطيب الحرير وأرقه . وليس في عمل افريقية حرير الا في قابس واتصال بساتين ثمارها مقدار اربعة أميال . ومياهها سائحة مطردة يسقى بها جميع اشجارها . وأصل هذا الماء من عين خراره في جبل بين القبلة والغرب منها يصب في بحرها . وبها قصب السكر كثير . وبقابس منار منيف . ويحدو الحادي عند قدومه من مصر الى افريقية فيقول :

لا نـــوم ، لا نـــوم ولا فـــرار
حـتى أرى قـــابـس والـمـنارا

وساحل مدينة قابس مرفأ للسفن من كل مكان . وحوالي قابس قبائل من البربر لواته ولماية ونفوسه ومزاته وزواعة وزوارة وقبائل شتى أهل اخصاص . وكانت ولايتها منذ دخل عبيد الله افريقية تتردد في بني لقمان الكتامي . قال الشاعر :

لولا ابن لقمان حليف الندى   سل على قابس سيف الردى

ويجاورها جزيرة في البحر تعرف بجزيرة رازو ، بينهما مسيرة اكثر من يوم عامرة آهله . وكثيرا ما يمتنع أهلها عن السلاطين . وبين مدينة قابس والبحر ، ثلاثة أميال ومما يذكرون من معايبها ان اكثر دورهم لا مذاهب فيها وانما يتبرزون في الافنيه . ولا يكاد أحد منهم يفرغ من قضاء حاجته الا وقد وقف عليه من يبتدر أخذ ما يكون منه لتدمين البساتين ! وربما اجتمع على

ذلك النفر فيتشاحون فيه ، فيخص به من أراد منهم . وكذلك نساؤهم ، لا يرين في ذلك عليهن حرجا اذا سترت أحداهن وجهها ولم يعلم من هي . ويذكر أهل قابس انها أصح البلاد هواء حتى وجدوا بها طلسما ظنوا أن تحته مالا ، فحفروا موضعه فاخرجوا منه تربه غبراء ، فحدث عندهم الوباء من حينئذ بزعمهم . وأخبر أبو الفضل جعفر بن يوسف الكلبي ، وكان كاتبا لمؤنس (1) صاحب افريقية انهم كانوا في ضيافة ابن وانمو الصنهاجي ، صاحب مدينة قابس ، فاتاه جماعة من أهل البادية بطائر على قدر الحمامة ، غريب اللون والصورة ، ذكروا انهــم لم يروه قبــل ولا عهدوه ، كان فيه من كل لون أجمله . وهو أحمر المنقار طويلـه ، فسال ابن وانمو من احضره من العرب والبربر ، هل رءاه أحد منهم فلم يعرفه احد ولا سماه . فامر ابن وانمو بقص جناحه وارسل في القصر . فلما جن الليل ، جعل في القصر مشعل نار فما هو إلا ان رءاه ذلك الطائر فقصد قصده وأراد الصعود اليه فدفعه الخدام . وجعل يلح في التكرار على المشعل ، فاعلم ابن وانمو بذلك ، فقام وقام من حضر معه . قال جعفر : وكنت فيمن حضر ، فامر ابن وانمو بترك الطائر وشانه ، فسار في أعلى المشعل وهو يتاجج نارا ، فاستوى في وسطه وجعل يتقلى كما يفعل سائر الطير في الشمس . فامر ابن وانمو بزياده الوقود في المشعل من خرق القطران وغير ذلك ، فزاد تأجج النار ، والطائر فيه على حالته لا يكترث ولا يبرح ، ثم وثب من المشعل بعد حين يمشى ، لم يربه ريب . وأخبر قوم من أهل افريقية أنهم سمعوا خبر هذا الطائر بمدينة قابس . والله أعلم بحقيقة ذلك . وعلى مقربة من قابس جزيرة جربة . فيها بساتين كثيرة وزيتون كثير . وأهلها مفسدون في البر والبحر . وهم خوارج . وبينها وبين البر مجاز .

الادريســي

وقابس مدينة جليلة عامرة حفت بها من نواحيها غابات جنات ملتفة وحدائق مصطفة وفواكه عامة رخيصة . وبها من التمر والزروع والضياع ما ليس بغيرها من البلاد . وفيها زيتون وزيت وغلات وعليها سور منيع يحيط به من خارجه خندق ولها أسواق وعمارات وتجارات وبضاعات وكان بها فيما سلف طرز يعمل بها الحرير الحسن . وبها الآن مدابغ للجلود ينجهز

(1) هو مؤنس بن يحيى ، شيخ بني رياح الذين خرجوا من الصعيد في سنة 441هـ (1050م) وغزوا افريقية سنة 443 ، بتوجيه من الفاطميين للانتقام من المعز بن باديس الذي قطع الخطبة لهم . وبعد هذا التاريخ بسنتين احضع مؤنس افريقية لسلطانة .

بها منها . ولها واد ياتيها من غدير كبير وعلى هذا الغدير قصر سجَّة . وبينه وبين قابس ثلاثة اميال . وماء قابس غير طيب لكنه شروب وأهلها يستعينون به . ومدينة قابس بينها وبين البحر ثلاثة اميال من جهة الشمال . ويتصل بآخر غابة اشجارها الى البحر ، رملة ، متصلة مقدار ميل . وهذه الغابة اشجار وجنات وكروم وزيتون كثير ويستعمل منه زيت كثير يتجهز به الى سائر النواحي . وبها ايضا نخل ملتف به من الرطب الذي لا يعدله شيء في نهاية الطيب . وذلك أن اهل قابس يجنونها طرية ثم يودعونها في دنانات . فاذا كان بعد مدة من ذلك خرجت لها عسلية تعلو وجهها بكثير ولا يقدر على التناول منها الا بعد زوال العسل عنها من اعلاها . وليس في جميع البلاد المشهورة بالتمر شيء من التمر يشبهه ولا يحاكيه ولا يطابقه في علوكته وطيب مذاقه . ومرساها في البحر ليس بشيء ، لانه لايستر من ريح ، وانما ترسى القوارب بواديها ، وهو نهر صغير يدخله المد والجزر وترسى فيه المراكب الصغار وليس بكثير السعة . وانما يطلع المد للارساء نحو من رمية سهم . وفي أهلها قلة دمائه ولهم زي ونظافة وفي باديتها عتو وفساد وقطع سبل . ومن مدينة قابس الى مدينة سفاقس نازلا مع البحر 70 ميلا .

ياقــوت

قابس . ان كان عربيا ، فهو من اقبسست فلانا علما ونارا أو قبسنه ، فهو قابس .

مدينة بين طرابلس وسفاقس ثم المهدية على ساحل البحر . فيها نخل وبساتين عربي طرابلس الغرب بينهما ثمانية منازل . وهي ذات مياه جارية من اعمال افريقية في الاقليم الرابع . وعرضها خمس وثلاثون درجة . وكان فتحها مع فتح القيروان ، سنة 27 هـ . على ما يذكر في القيروان . قال البكري : قابس مدينة جليلة (ويمضى ياقوت فيقتبس وصف البكري الذي اوردناه اعلاه حتى النهاية التي تتصل بالطائر الغريب) .

وقد نسب اليها طائفة من أهل العلم ، منهم : محمد بن عبد الله القابسي ، من مشائخ يحي بن عمر ؛ ومحمد بن رجاء القابسى ، حدث عنه أبو زكرياء البحارى وعيسى بن عيسى بن نزار بجير أبو موسى القابسى الفقيه المالكى الحافظ . سمع بالمغرب ابا عبد الله الحسين بن عبد الرحمن الاجدابي وأبا علي الحسن بن حمول التونسي ، وبمكة أبا ذر الهروى ، وببغداد ابا الحسن روح الحرة العتيقى وأبا لقاسم ابن ابي عثمان التنوخى ، وأبا لحسين محمد بن الحسين الحراني ، وابا محمد الجوهرى وأبا بكر بن بشران وأبا الحسن الفزويني وغيرهم ،

وحدث بدمشق ، فروى عنه عبد العزيز الكنانى وأبو بكر بن الخطيب ونصر المقدسي . وكان ثقة ، ومات بمصر سنة 247 هـ .

ابن سعيد

وفي شرقيها (صفاقس) وجنوبها مع آخر الاقليم الثالث ، مدينة قابس التي هي في افريقية كدمشق في الشام . وينزل اليها نهران من الجبل في جنوبها يخترقان غوطتها ، وينبوع جداولها عليها . وقد أختصت من بين بلاد إفريقية بالموز وفيها الرطب الكثير الطيب . وحب عزيز والحناء . وبينها وبين البحر ثلاثة أميال . والمراكب المتوسطة تدخل نهرها . ويمتد منها الجبل الكبير مشرقا ومغربا وهو في جنوبيها ، فيضرب في جهتها بجبل دمر ، وفي جهة قفصة بجبل الاوراس ، وفي جهة القيروان بجبل وسلات وهو خصيب ، بجميع هذه الاماكن تجبى منه أموال السلطة .

أبو الفدا

وقابس في افريقية ، كدمشق في الشام . وينزل اليها نهران من الجبل في جنوبيها يخترقان غوطتها . وقد خصت من بلاد افريقية بالموز وحب العزيز والحناء . وبينها وبين البحر ثلاثة اميال . والمراكب المتوسطة تدخل في نهرها وقابس شرقى سفاقس وجنوبيها . قال في العزيزى عليها سور وخندق . ومنها في سمت الجنوب الى غدامس أربع عشرة مرحلة .

التجاني

. . . فاشرفنا على غابة قابس ووصلنا اليها ضحى ، فراينا بلدا قد استوفى المحاسن واستغرقها ، وأذكر بمنظره الانظر وورقة الاخضر جنة الخلد واستبرقها ، وقد أحدقت غابته من جميع جهاتها . وبهذه الغابة من الجواسق والنخل المتناسق ما يستوقف الطرف ويستوفى الحسن والظرف ويحقق ما قيل من أن قابس جنة الدنيا ، وانها دمشق الصغرى . وهي مدينة بحرية صحراوية فان الصحراء متصلة بها ، والبحر على ثلاثة أميال منها .

وعلى قابس سور صخر جليل من بناء الاول ، ولها أرباض واسعة ، وجل اسواقها في ارباضها ، وقد دار بسورها خندق متسع يجرون الماء اليه اذا خالفوا من نزول عدو عليهم فيكون أمنع شيء لها . ولها واد يسقى بساتينها ومزارعها ويخترق في كثير من مواضع الغابة دورها وشوارعها

واصل هذا الوادي من عين خرارة في جبل بين القبلة والمغرب منها . واكثر جناتها فيما بين المدينة والبحر . وبتلك الجهة الساحة المعروفة بساحة عنبر.

ومن المكاره التي حفت بها جنة قابس ، ما يتعهدها من الوباء وينتاب ساكنها من الامراض وسبب ذلك ، فيما يذكر أهلها كثرة شجرة الدفلى بها ، فيكتسب الماء منها لدى جريه سيمة ومرارة تضر بابدان ساكنيها كثيرا . ولذلك ، لا تجد وجوه كثير من أهلها الا مصغرة . وفي هذا البلد أيضا فساد وتغير سببه كثرة عفوناتها ، وليس في جميع مياهها ما يسلم من ذلك الا العين المعروف بابن الصغير . وأما الثانية ، فالمشهور في اسمها عين سلام بالام مخففة . وهي . انما توجد في عقودهم القديمة عين سنام بالنون . ومما يذكره أهل قابس ، وهومن جنس الخرافات ، ما حكاه البكرى عنهم ، ان مدينتهم كانت سالمة من الوباء الى ان احتفروا فيها موضعا توهموا أن فيه مالا ، فاستخرجوا تربة غبراء ، فحدث الوباء عندهم بسببها من ذلك الزمن .

وقد اشتهر عن أهل قابس ما اشتهر عن بيع فضلاتهم ، وهم يقرون بذلك ويدعون شدة احتياجهم اليها وأن النخيل في بلدهم لا يثمر الا بها . ومن رسالة لأبي المطرف ابن عميره (1) في وصف قابس ، وكان ولي قضاءها في مدة المسنتصر رحمه الله :

بلد غوطى البساتين ، طورى الزيتون والتين . فاما النخل فجمع عظم ، وطلع هضيم ، وسكك مابورة ، ونواعم في الخدور مقصورة ، وإن بقعته لوارفة الظل آمنه الحرم والحل جنة لو نزع ما في صدور أهلها من الغل . وبالجملة ، فهوتام الغرابه مد هام الغابة ، مستاثر بسيد من سادات الصحابه ، ولا عيب بتربته الا وخامة مائها وحميات فلما يعرى من عدوا بها .

وفي فصل من رسالة أخرى له يصف شدة الوباء وما يذكره من كثرة عقاربها :

وهذه البلدة الآن في ضلال من شرخ الشباب ، وظلال من ثمرات النخيل والاعتاب ، فهي بحال يقر نجمالها الاندلسي ويجارى بين خلالها الدبسي ، ولا عيب فيها الا هواء وخامته

---

(1) احمد بن عبد الله بن محمد بن الحسين بن عميرة المخزومى ، أبو المطرف اديب من فحول الادب في المغرب . ولد ونشأ ببلنسبه ، بالاندلس وانتقل الى غرناطة ومات بتونس . ولى القضاء في عدة مدن ، منها مكناسة ومليانة ، وله كتب أحدها بعنوان « فاجعة المرية » والآخر بعنوان « التنبيه على المغالطة والتنويه في الأدب » . ولد سنة 582 وتوفي في سنة 658 هـ (وفي رواية 56) . راجع سيرته في هدية العارفين (96/5) ؛ رجلة التجاني (ص 90 ـ 91 ـ 92) ؛ الاحاطة (60/1) ؛ جذوة الاقتباس (ص 72) ؛ بغية الوعاة (ص 137) ؛ لسان الميزان (203/1) ؛ عنوان الدراية (ترجمة 92 ـ ص 282 (302 طبعة بيروت) ، الحلل السندسية للاميرشكيب أرسلان (209/3) في الاحاطة ـ تحقيق عنان : الحسن بن عميره ، وهوخطأ ، نفح الطيب في عدة أماكن راجع فهرس طبعة احسان عباس .

تخاف وماء غير من خالصه الماء المضاف ، وبيوت المدينة دواجن سيئة الجوار سريعة القطان شاملة بالعذاب ، كامنه بارزة ، هامزة لامزة ، تطرق بالبلية وتقسم شرها بين البروالفاجر بالسوية ، دبت عندنا ليلة إلى من كان يرمق دبيبها ، ويحاول قبل أن تصيبه أن يصيبها ، فأوقعت به لدغا في القدم ، ولقى اشد الالم ، وبات وبتنا معه ليلة اخى ذبيان (1) وتعالى الله ما اطول ما كانت وأهول ما كان (2).

القلقشنــدي

ومنها قابس . وهي مدينة في الاقليم الثالث ، حيث الطول اثنتان وثلاثون درجة وأربعون دقيقة والعرض اثنتان وثلاثون درجة ، على ثلاثة اميال من البحر (ومضى القلقشندى فنقل وصف ابى الفدا والعزيزي الوارد أعلاه) .

*
* *

(1) راجع ثمار القلوب للثعالي (ص 509) باب المضافة (ليلة النابغة) .
(2) صلب هذا الموضوع هووصف أبي المطرف للدغ العقاريب التي اشتهرت بها قابس .

قسطيلية / توزر

ابن حوقل

وقسطيلية مدينة أيضا كبيرة عليها سور حصين ولها نخل كثيره والتمر والقنب بها كثير. وهي مغوثه افريقية بتمورها . وفيها الاترج الكثير الحسن الطيب الزكي . واكثر الفواكه بها على حال معتدلة في الطيبة. وماؤها غير طيب ولا مرىء . تجرى سواقيها خلال أجنتها . ونخلها أكثر منه بغيرها مما يجاورها . وسعر الطعام بها في سائر الاقوات غال لانه يجلب اليها ولا يزرع بها من الشعير ولا القمح الا زرع تافه . وهي من السعة والبيوع والاشربة في الاسواق وكثرة الوارد والصادر عليها ملتمسين للمير والتجارة ، بما لا تدانيها فيه مدينة مما قاربها . وجهاز الصوف في جميع جهاته من الشقة والكسى والحنبل الى سائر ما يعمل منه يحمل منها الى جميع الاقطار.

البكـري

ومن نفزاوه تسير الى بلاد قسطيلية . وبينهما أرض سواخه لا يهتدى للطريق فيها الا بخشب منصوبة وأدلاء تلك الطريق، بنو موليت ، لان هناك ضواعينهم . فان ظل أحد يمينا أو شمالا ، غرق في أرض ديماس تشبه في الرطوبة بالصابون . وقد هلكت فيها العساكر والجماعات ممن دخلها ولم يدرك أمرها . وتصل هذه الارض السواخه الى مدينة غدامس .

وأما بلاد قسطيلية ، فان من مدنها توزر (1) والحمة ونفطة . وتوزر هي أمها . وهي مدينة كبيرة عليها سور مبني بالحجر والطوب ولها جامع محكم البناء وأسواق كثيرة وحولها أرباض واسعة

(1) عرضها الشمالي 34 وطولها الشرقي 8 10ْ ضبطها أبي خلدون بضم التاء وياقوت بفتحها . تقع على الحافة الشمالية=

آهلة . وهي مدينة حصينة لها اربعة ابواب ، كثيرة النخل والبساتين والثمار ، الا أن قصب السكر والموز لا يصلحان بها . وحولها سواد عظيم من النخل . وهي اكثر بلاد افريقية تمرا . ويخرج منها في اكثر الايام الف بعير موقورة تمرا وازيد . شربها من ثلاثة انهار تخرج من رمال كالدرمك رقة وبياضا . يسمى ذلك الموضع بلسانهم : سرش . وانما تنقسم هذه الثلاثة الانهار ، بعد اجتماع مياه تلك الرمال بموضع يسمى وادي الجمال ، يكون قعر النهر هناك نحو مائتي ذراع . ثم ينقسم كل نهر من هذه الانهار الثلاثة على ستت جداول . وتتشعب من تلك الجداول سواقى لا تحصى كثره ، تجري في قنوات مبنية بالحجر على قسمة عدل لا يزيد بعضها على بعض شيئا ، كل ساقية سعة شبرين في ارتفاع يلزم كل من يسقى منها أربعة اقداس مثقال في العام ، وبحساب ذلك في الاكثر والاقل ، وهو أن يعمد الذي تكون له دولة السقي الى قدس في اسفله ثقبة بمقدار ما يسدها ، فيملؤه بالماء ويعلقه ويسقي حائطه أو بستانه من تلك الجداول حتى ينفد ماء القدس ، ثم يملؤه ثانيا . وهم قد علموان سقي اليوم الكامل هو مائة واثنتان وتسعون قدسا . ولا يعلم في بلد مثل أترجها جلالة وحلاوة . وبها الترنجبين (1) والمخيطا والأملج . وجبايه قسطيلية مئتا الف دينار . وأهلها يستطيبون لحوم الكلاب ويسمنونها في بساتينهم ويطعمونها التمر ويأكلونها . وأخبرني من أضاف منم رجلا فاطعمه لحما استطابه واستحسنه ، فسأله عنه فقال له : لحم جرو مسمن !

ولا يعرف وراء قسطيلية عمران ولا حيوان الا الفنك . انما هي رمال واراضون سواخه . وهم يخبرون ان قوما أرادوا معرفة ما وراء بلادهم فاستعدوا وذهبوا في تلك الرمال أياما فلم يروا أثر للعمران وهلك اكثرهم في تلك الرمال .

الادريسي

ومن باغاي الى مدينة قسطيلية 4 مراحل . وهي تسمى توزر ، ولها حصون وبها نخل كثيرا وتمرها كثير يعم بلاد افريقية وبها الاترج الكبير الحسن الطيب . واكثر الفواكه التي بها في حالة

= لشط الجريد ، بينها وبين نفطه عشره فراسخ . راجع غير ماذكر :

Berbugger, Itinéraires archéologiques ; Dollin du Presnel, le Djrid Tunisien (Revue Tunisienne, 1908).

(1) راجع كلمة ترنجبيل (أو ترنجبين) في قاموس دوزي (Sup. au dict. Arabe) (146/1) .والترنجبيل زهرة صفراء ذات رائحة قوية .

معتدلة . وبقولها كثيرة موجودة متناهية في الكثرة والجودة . وماؤها غير طيب وسعر الطعام بها في اكثر الاوقات غال لانه يجلب . وزرع الحنطة والشعير بها قليل ويسير . ويتصل بها ، بين جنوب منها وشرق ، مدينة الحمة وبينهما مرحلة صغيرة . وماء الحمة ليس بطيب لكنه شروب قنع به أهلها . وبها نخل كثير وتمر غزير .

ياقـوت

قسطيلية بالفتح ثم السكون . اكتفى باقتباس فقرة من وصف كل من ابن حوقل والبكرى . ثم أحال الى مادة « توزر » .

وفي مادة توزَر قال :

مدينة في أقصى افريقية من نواحي الزاب الكبير ، اعمال الجريد ، معمورة بينها وبين نفطة عشرة فراسخ : وأرضها سبخة وبها نخل كثير . قال أبو عبيد البكري في كتاب المسالك : أما قسطيلية ، فان من بلادها توزر (ومضى ياقوت فاقتبس وصف البكري المذكور أعلاه حتى نهايته) .

وينسب إلى توزر جماعة منهم : أبو حفص عمر بن أبي أحمد بن عيسون الأنصاري التوزري ، لقيه السفلي بالاسكندرية .

ابن سعيـد

الجزء الثالث . أول ما يلقاك في غربيه من بلاد الجريد ، بلاد قسطيلية . وقاعدتها توزر ، ولها نخل ومحمضات . ونهرها ياتي من فوقها ويسقى بساتينها . وهي وبلادها جزائر في وسط رمال والصحارى تكتنفها وبها الكتان المفضل والنيله والحلفا . وهي تشبه في ذلك ، وفي قلة المطر البلاد المصرية . وموضوعها حيث الطول ست وثلاثون درجة وست دقائق ، والعرض تسع وعشرون درجة وثمان دقائق . وفي شرقها ، بلاد نفزاوه .

أبـو الفـدا

توزر ، بضم المثناة فوق وسكون الواو . قاعدة قسطيلية ولها نخل ومحمضات . قال ابن سعيد : (ثم اقتبس الفقرة المذكوره اعلاه من كتاب الجغرافيا) .

وتوزر هي قاعدة البلاد الجريدية ، وليس في بلاد الجريد غابة اكبر منها ولا اكثر مياها . وأصل مياهها من عيون تنبع في الرمل وتجتمع خارج البلد في واد متسع وتتشعب منه جداول كثيرة ، ويتفرع عن كل واد جدول منها مذانب يقسمونها بينهم على أملاكهم لهم مقاسم من المياه معروفة ، ولهم على قسمها أمناء من ذوى الصلاح فيهم يقسمونها على الساعات من النهار والليل بحساب لهم في ذلك معروف وأمر مقرر مالوف . وعلى ذلك الماء ارحاء كثيرة

وهذا مما شاهدته فيها عيانا ، وكثير من أهلها أنما يسكنون بغابتها ولا مناسبة بين مباني الغابة ومباني داخل المدينة ، فان مباني الغابة اضخم واحسن ، وبداخل البلد جامعان للخطبة وحمام واحد ومتفرجهم بموضع يعرفونه بباب المنشر ، وهو من احسن المتفرجات ، لان مجتمع الماء هناك ، ومنه يتفرع ، كما تقدم . ويجتمع فيه القصارون فينشرون هنالك من الثياب الملونة ، والامتعة الموشيه مايعمه على كبره فيخيل للناظر انه روض تفتحت ازهاره واطردت انهاره ، وليس بتوروا أحسن من هذا الموضع ، وهو خارج عن غابتها . والغابة ملاصقة لسور المدينة ، فهي بذلك تمت حصانتها .

وأهل توزر من بقايا الروم الذين كانوا بافريقية قبل الفتح الاسلامي ، وكذلك اكثر بلاد الجريد لانهم في حين دخول المسلمين اسلموا على اموالهم ، وفيهم قوم من العرب الدين سكنوها بعد الافتتاح ، وفيها ايضا من البربر الذين دخلوها في قديم الزمان عند خروجهم من بلادهم . فان بلاد البربر انما كانت ارض فلسطين وما جاورها .

وقد اشتهر عنهم مااشتهر من بيع فضلاتهم ، وهم يعيرون بذلك كما يعير أهل قابس ، ويعير هؤلاء ايضا باكل لحوم الكلاب ، ولم أرمنهم الا مقرا باكلها مستطيبا للحمها . وقديما ما نصحوني باكل لحوم الكلاب . وليس يوقف ، لوقت بناء توزر على تحقيق لقدم العهد ذلك . وبعض المؤرخين يقولون أن بناءها كان بإثر طوفان نوح عليه السلام . وكان افتتاحها صلحا في أول الاسلام على يد حسان ابن النعمان سنة تسع وسبعين ، وذلك عودة من برقه بالمدد الذي أمده به عبد الملك .

ووقع في تاريخ ينسب الى الامام الحافظ أبى الطاهر السلفي ان افتتاح توزر كان على يد عقبة بن نافع القرشي ، وذلك غريب ، لان ولاية عقبة بن نافع على افريقية كانت سنة ست واربعين . فان صح هذا الذي يذكره ابو الطاهر ، فيكون افتتاحها في زمن معاوية بن أبى سفيان . وعلى القول الاول يكون افتتاحها في زمن عبد الملك . ويحتمل أن تكون فتحت أولا في زمن عقبة ، ثم انتقضت كما انتقضت افريقية فافتتحت ثانيا في زمن حسان . وأما ما يدل على انها افتتحت صلحا ، فبقاء كنائس النصاري بها خرابا الى زماننا هذا لم يتصرف فيها وان المسلمين بنوا بازاء كل كنيسة منها مسجدا .

القلقشنــدي

توزر . قال في تقويم البلدان [ثم اقتبس الفقرات المذكور من وصف أبى الفدا وابن سعيد وقال في الروض المعطار بان أهلها يبيعون ما يتحصل في مراحيضهم من رجيع الناس ، يفلحون به بقولهم وبساتينهم ولكنهم لا يرغبون فيه الا اذا كان جافا ، فيحملهم ذلك على عدم الاستنجاء في مراحيضهم .



* * *

[illegible]

[illegible]

هناك ، [illegible] ، ويجتمع فيه القصارون [illegible] من [illegible]

[illegible] على [illegible] للناظر [illegible]

وليس [illegible] أحسن من هذا الموضع ، وهو خارج عن مائها ، والغابة ملاصقة لسور المدينة [illegible]

وأهل توزر من بقايا الروم الذين كانوا بإفريقية قبل الفتح الإسلامي ، وكذلك [illegible] [illegible] لأنهم حين دخول المسلمين [illegible] على أموالهم . [illegible] قوم من العرب الذين سكنوها بعد الافتتاح ، وفيها أيضا من البربر الذين دخلوها في قديم الزمان عند خروجهم من [illegible] كانت أرض فلسطين وما جاورها .

[illegible] منهم ما اشتهر من بيع فضلاتهم ، وهم يعيرون بذلك كما يعير أهل فاس [illegible] ويعير هؤلاء أيضا بأكل لحوم الكلاب ، وفي أرضهم [illegible] يأكلها [illegible] ما يستحيون بأكل لحوم الكلاب . وليس يوقف [illegible] على تحقيق [illegible] بذلك . وبعض المؤرخين يقولون أن بانيها كان بإثر طوفان نوح عليه السلام . وكان الفتح [illegible] في أول الإسلام على يد حسان ابن النعمان سنة تسع وسبعين ، وذلك [illegible] [illegible] بالعقد الذي [illegible] عبد الملك

البــاب الــرابــع

المــدن الليبيــة

طرابلس (المغرب) (1)

اليعقوبي

طرابلس مدينة قديمة على ساحل البحر ، عامرة آهلة . وأهلها أخلاط من الناس . افتتحها عمر بن العاص سنة 123 في خلافة عمر بن الخطاب ، وكانت آخر ما افتتح من المغرب في خلافة عمر.

ابن حوقل

أما طرابلس ، كانت قديما من عمل افريقية . وسمعت من يقول ان عمل افريقية لما كانت طرابلس مضافة اليها معروف معلوم . وكان منه صبرة ، وهي منزل من طرابلس على يوم ، وبه ضريبة على القوافل وقتنا هذا ، ولم أعرفها قديما ولا سمعت بها على الخارج من

(1) يطلق الاسم طرابلس (Tripolis) على الأقليم التابع للمدن الثلاث ، صبرتة (Leptes) ، وأويا (Oea) ، ولبدة (Sabrata) والاسم القديم (Tripolitania) قد أطلق منذ القرن الثالث عشر الميلادي أيضا على سيرتيكا (Sirtica) التي كانت قابس مركزها الاداري . وأما فتح المسلمين لطرابلس ، فان المؤرخين غير متفقين على تحديد تاريخه . لان رواية تقول انه قديم ووقع في سنة 22هـ ، بينما تذهب رواية أخرى الى أن الفتح يرجع الى سنة 23هـ. وربما وقعت المحاولة الاولى للفتح من مصر ثم تراجع الفاتحون ليعيدوا الكرة في السنة التالية . وعلى كل ، فان طرابلس قد خضعت بعد ذلك للنظم السياسة السائدة في شمال افريقية (العباسيين والاغالبة والعبيديين) ولكنها لم تكن من ضمن الولايات التي شملها حكم بني زيري بعد رحيل الفاطميين عن المغرب . راجع ابن خلدون ، العبر في عدة اماكن من الجزاين السادس والسابع ، ابن الاثير الكامل ، ج . 1 ، ابن أبي دينار ، المؤنس ، أحمد بك المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب .
Fournel, les Berbères ; Amari, Storia dei Musulmani ; Vassallo (A) Storia des Malta ; Manfroni (C) Tripoli ; Feraud, Annales Tripolitaines ; Comont (F), les Antiquités de la tripolitaine au XVIII[e] siecle (Riv. della tripolitania – 1925 – 1926) ; Pietschmann (R), Gerschicte der Phomizier ; Prolist (H), Dies Geographischen Verhaltnisse Syriens und Palastinas nach Vilhelen V. Tyrus ; le Strange, Palestine under the Moslems.

أطرابلس الى القيروان وعلى القادم من القيروان الى طرابلس ، غير ما يقبضه المتولي عمل طرابلس من كل جمل ومحمل وحمل ، وذلك كالذي بلبده . وهي أيضا قرية بينها وبين أطرابلس الى جهة المشرق مرحلتان ، من الضريبة على الجمال والاحمال المحامل والبغال والرقيق والغنم والحمير الى ما عدا ذلك من الأسباب الواردة واخذ الصدقات والخراج واللوازم من ناحية قصري ابن كمو وابن مضكود . والبربر المقيمون هنالك من هوارة وغيرهم . وهي مدينة بيضاء من الصخر الأبيض على ساحل البحر ، خصبة حصينة كبيرة ذات ربض ، صالحة الاسواق . وكان لها في ربضها أسواق كبيرة ، فنقل السلطان بعضها الى داخل السور . وهي ناحية واسعة الكور كثيرة الضياع والبادية . وارتفاعها دون ارتفاع برقة في وقتنا هذا . وبها من الفواكه الطيبة اللذيذة الجيدة القليلة الشبه بالمغرب وغيره : كالخوخ الفرسك والكمثري اللذين لا شبه لهما بمكان . وبها الجهاز الكثير من الصوف المرتفع (1) وطيقان الاكسية الفاخرة الرزق والكحل النفوسية (...) والسود والبيض الثمينة الى مراكب تحط ليلا ونهارا وترد بالتجارة على مر الاوقات والساعات ، صباحا ومساء من بلد الروم وارض المغرب بضروب الأمتعة والمطاعم (2) . وأهلها قوم مرموقون من بين من جاورهم بنظافة الاعراض والثياب والاحوال متميزون بالتجمل في اللباس وحسن الصور والقصد في المعاش ، الى مروءات ظاهرة حسنة ورحمة مستفاضه ونيات جميلة ، الى مراء لا يفترق وعقول مستوية وصحة نية ومعاملة محمودة ومذهب الى طاعة السلطان سديد ، ورباطات كثيرة ومحبة للغريب اثيرة ذائعة . وهم في الخير مذهب من طريق العصبية لا يداينهم أهل بلد ، اذا وردت المراكب ميناهم ، عرضت لهم دائما الريح البحرية فيشتد الموج لانكشافه ويصعب الارساء ، فيبادر أهل البلد بقواربهم ومراسيهم وحبالهم متطوعين ، فيقيد المركب ويرسى به في أسرع وقت بغير كلفة لاحد ولا غرامة حبة ولا جزاء بمثقال .

المقـدسـي

أطرابلس مدينة كبيرة على البحر مسورة بحجارة ، لها باب البحر وباب الشرق وباب الجوف وباب الغرب . شربهم من آبار وماء مطر . كثيرة الفواكه والانجاص والتفاح والالبان والعسل . واسمها كبير.

(1) راجع : Sergeant, Textiles ARS Islamica XV, 44.

(2) راجع : Courtois, remarques sur le commerce (Melanges) G. Marçais II/54)

مدينة أطرابلس . يذكر أن تفسير أطرابلس بالاعجمية الاغريقية : ثلاث مدن . وسماها اليونانيون طربليطة . وذلك بلغتهم أيضا ثلاث مدن . لان طر ، معناه ثلاث ، وبليطه يعنـــي مدينة . ويذكر أن اشفاروس ، قيصر ، هو الذي بناهما . وتسمى أيضا مدينة أطرابلس ، مدينة اياس . وعلى مدينة أطرابلس صور صخر جليل البنيان . وهي على شاطئ البحر ، ومبنى جامعها أحسن مبنى . ولها أسواق حافلة جامعة وحمامات كثيرة فاضلة وباطرابلس مسجد يعرف بمسجد الشعاب مقصود ، وحولها أنباط وفي بربرها من كلامهم بالنبطية (*) ، في قرارات ، وفي شرقيها وغربيها مسيرة ثلاثة أيام الى موضع يعرف ببنى السايري وفي القبلة مسيرة يومين الى حد هوارة وفيها رباطات كثيرة يأوي إليها الصالحون ، أعمرها واشهرها ، مسجد الشعاب . ومرساها مأمون من أكثر الرياح .

ومغداس ، منها الى قصور حسان مرحلة . ومن سرت الى مغمداس مرحلة . ومن قصور حسان الى الراشدة ، وهي بيرشريب ، سماها بهذا الاسم حسان بن النعمان . هذا وانت تتوجه من مصر إلى المغرب . ومغمداس هو صنم قائم على شاطئ البحر ، حوله أصنام (1) وبه قصر بناه الاعرابي ، عامل سرت لبني عبيد الله . وبمغمداس التقا أبو الاحوص عمرو العجلي مـــع أبي الخطاب عبد الاعلى بن السمح القائم بدعوة الاباضية ، فاقتتلوا على البحر ، فانهزم أبو الاحوص العجلي الى مصر . واحتوى أبو الخطاب على معسكره وقتل بشرا كثيرا من أصحابه وانصرف إلى طرابلس ، وذلك سنة اثنتين وأربعين ومائة (2) . ولما قتل زهير بن قيس في برقه استعمل عبد الملك بن مروان ، حسان بن النعمان الغساني (3) على افريقية ، فخرج اليها في

(*) في طبعة دوسلان : وحولها أقباط بربر كلامهم بالقبطية . فضلت هذا الدرس اعتمادا على اقتباس ياقوت ولأنه أكثر احتمالا .

(1) راجع ترجمة البكري لدوسلان ، ص 21 هامش 3 .

(2) راجع بشان هذه الحوادث : ابن عذاري : البيان المغرب (طبعة بيروت 1 / 82 — 83) .

(3) تختلف روايات المؤرخين كثيرا بشان تاريخ هذه الحادثة فبينما يضعها ابن الاثير بين حوادث سنة 74 ، يذكرها ابن عبد الحكم بين حوادث سنة 76 و 77 ، في الوقت الذي يؤرخ لها فيه ابن عذاري في سنة 78 . ويبدو أن سنة 77 ، تاريخ مقبول لهذا التعيين ، حيث ان مقتل زهير البلوي وقع في سنة السابعة (76) .

لا ينقطع واخراج الرخام لا ينقضى .

استعمل عبد الملك بن مروان ، حسان بن النعمان الغساني على افريقية ، فخرج اليها في المحرم سنة ثمان وستين ، فلقى عساكر الكاهنة بارض قابس ، وعلى مقدمتها القائد الذي كان مع كسيلة بن لمزم ، فاقتتلوا قتالا شديدا ، فقتل صاحب خيل حسان بن النعمان وانهزم حسان واصحابه الى المنهل المعروف بقصور حسان بطريق مصر وقتل من اصحابه عدد كثير وأسر منهم نحو ثمانين رجلا فاحسنت الكاهنة اليهم واطلقتهم غير واحد ، وهو يزيد ابن القيسي فوصلوا الى حسان واخبروه بخبر يزيد ، فسر بذلك حسان وكتب الى عبد الملك يعلمه بما نزل به من الكاهنة ويسأله أن يمده بالجيوش ، فكتب اليه عبد الملك أن يقيم بمكانه ، فبني هناك قصرين وهما اليوم خربان .

ومدينة طرابلس كثيرة الثمار والخيرات ولها بساتين جليلة في شرقيها . ويتصل بالمدينة سبخة كبيرة يرفع منها الملح الكثير . وداخل مدينتها بير يعرف ببئر أبي الكتود ، يعيرون به ويحمق من شرب منه ، فيقال للرجل إذا أتى بماء يسلام لا يعتب عليك ، لانك شربت من بيئر أبي الكتود . واعذب أبارها بئر القبة .

وذكر الليث بن سعد ، قال غزا عمرو بن العاص (1) مدينة أطرابلس سنة ثلاث وعشرين ، حتى نزل القبة التي على الشرف من شرقيها فحاصرها شهرا ، لايقدر منهم على شيء ، فخرج رجل من مدلج (2) ذات يوم من معسكر عمرو متصيدا في سبعة نفر فمضوا غربي المدينة ، فاشتد عليهم الحر فاخذوا راجعين على ضفة البحر وكان البحر لاصقا بسور المدينة ولم يكن فما بين المدينة والبحر سور ، وكانت سفن البحر شارعة في مرساها الى بيوتهم ، ففطن المدلجي واصحابه ، فاذا البحر قد غاض ناحية المدينة فدخلوا منه حتى أتوا من ناحية الكنيسة ، فكبروا ، فلم يكن للروم مفزع الا سفنهم وأقبل عمرو بجيشه حتى دخل عليهم فلم يفلت الروم الا بما خف لهم في مراكبهم

---

(1) عمرو بن العاص بن وائل السهمي القرشي ، ابو عبد الله . اسلم في هدنة الحديبية ، وولاه الرسول (ص) امره جيش ، وكان من أمراء الجيوش التي فتحت الشام وولاه عمر بن الخطاب (ض) فلسطين ثم فتح مصر . وقد اتجه إلى برقة فصالح أهلها على الجزية . فلما فرغ من برقة سار إلى طرابلس وحاصرها شهرا ثم استولى عليها بالحيلة . وقد توفي عمرو بن العاص بالقاهرة ودفن بها . راجع ابن الأثير ، الكامل 25/3 — 26 . ابن سعيد المغربي ، المغرب في حلى المغرب 13/1 — 54) تاريخ الاسلام للذهبي (235/2 ـ 240) ، السيوطي ، حسن المحاضرة (578/1 ـ 584)

(2) مدلج بطن من حدان ، من لخم ، من القحطانية كانت ديارهم من دير الحميزة إلى ترعة صول بمصر . راجع البيان والاعراب للمقريزي (، ص 61) . مختصر تاريخ البشر لابي الفداء (113/1) تاج العروس للزبيدى (44/2) .



وغنم عمرو ما كان في المدينة وانما بنى سور مدينة اطرابلس مما يلي البحر هرثمه بن اعين حين ولاية القيروان .

ولمدينة أطرابلس فحص يسمى سوبجين يصاب فيه بعض السنين للحبة مائة حبة . وهم يقولون « فحص سوبجين ، يصاب سنة في سنين » . ومن أطرابلس الى جبل نفوسة مسيرة ثلاثة أيام .

الادريسـي

ومدينة أطرابلس مدينة حصينة عليها سور حجارة . وهي على نحر البحر ، بيضاء حسنـة الشوارع متقنة الاسواق . وبها متاع وامتعة يتجهز بها الى كثير من الجهات . وكانت قبل هذا مفضلة العمارات من جميع جهاتها ، كثيرة شجر التين والزيتون . وبها فواكه جمة ونخل ، الا أن العرب أضرت بها وبما حولها من ذلك ، وأجلت أهلها وأخلت بواديها وغيرت أحوالها وأبادت أشجارها وغورت مياهها واستفتحها الملك رجار في سنة 540 هـ ، فسبى حرمها وأفنى رجالها . وهي الآن له في طاعته ومعدودة في جملة بلاده . وأرض مدينة أطرابلس عديمة المثال في اصابة الزرع ولا يدري أن على معمور الارض مثلها في ذلك . وهذا مشهور معلوم ومن مدينة أطرابلس في جهة الشرق الى مدينة سرت 230 ميلا ، وهي مرحلة ، وذلك أن السائر يخرج من أطرابلس الى المجتنى 30 ميلا .

وعلى مدينة أطرابلس ، جبل مقده ، وبينهما 3 مراحل . ومن مدينة أطرابلس إلى جبـل نفوسة 6 مراحل .

يـاقـوت

أطرابلس ، مدينة في آخر ارض برقة واول أرض افريقية ، وصف امرها ايضا في باب الطاء .

وفي باب الطاء ، قال ياقوت في معجم البلدان : طرابلس ، بفتح أوله وبعد الفاء بـاء موحدة مضمومة ولام أيضا مضمومة وسين مهملة . ويقال [لها] أطرابلس . قال ابن بشير البكري ، طرابلس بالرومية ثلاث وبليطة : مدينة ، وقد ذكر أن اشباروس ، قيصر ، أول من بناها ، وتسمى أيضا مدينة اياس .

ويمضي ياقوت فيقتبس من وصف البكرى الوارد أعلاه حتى قوله : « بنى سورها هرثمة حين ولايته على القيروان » . ثم يقول :

وفي كتاب ابن عبد الحكم (1) : أن عمرو بن العاص نزل على مدينة طرابلس في سنة 23 من الهجرة فملكها عنوة واستولى على ما فيها . قال :

وكان من بسَبْرت متحصنين لما بلغهم (*) محاصرة عمرو طرابلس . واسمها نبارة . وسبرت السوق القديم ، وإنما نقله الى نبارة ، عبد الرحمن بن حبيب سنة 31 . فهذا يدل على أن طرابلس اسم الكورة وأن نبارة قصبتها . وقد ذكرنا ان طرابلس معناه الثلاث مدن . وهذ يدل على أنها ليست مدينة بعينها ، وأنها كورة . وينسب الى طرابلس الغرب ، عمر بن عبد العزيز بن عبيد بن يوسف الطرابلسي المالكي . لقيه السلفى واثنى عليه وهو القائل في كتب الغزالي :

هذب المذهب حبر أحسن الله خلاصة
ببسيط ووسيط ووجيز وخلاصة

وسافر إلى بغداد ومات بها سنة 510 هـ ، وأبو الحسن علي بن عبد الله بن مخلوف الطرابلسي كان له اهتمام بالتاريخ وصنف تاريخا لطرابلس وكان فاضلا في فنون شتى ، أخذ عنه السلفي وسافر إلى الحج فأدركته المنية في مكة في ذي الحجة 566 هـ . وقال أبو الطيب يمدح عبيد الله بن خراسان الطرابلسي :

لو كان فيض يديه ماء غاديه
عز القطا في الفيافي موضع اليبس

(1) عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم بن اعين ، أبو القاسم . أقدم من وصلت الينا مؤلفاته من مؤرخي مصر الاسلامية . وهو ينحدر من اسرة مصرية . كان ابوه رئيسا للطائفة المالكية فخلفه في هذا المكان بعد وفاته . وقد قاست الاسرة كثيرا من الاضطهاد في عهد الواثق لأنها رفضت القول بمبدإ خلق القرآن . وقد توفى ابن عبد الحكم في الفسطاط في سنة 257 هـ . وأهم تصانيفه : فتوح مصر والمغرب (وهو في سبعة ، أجزاء) . وقد نشر ماسي (Henri Massée) الجزء الأول منه مستعينا بالمخطوطات الأربع الموجودة في مكتبة المتحف البريطاني وفي المكتبة الوطنية بباريس وفي مكتبة المعهد العلمي بليدن . وفي سنة 1920 ، نشر شارل طوري (Ch.Torrey) كتاب فتوح مصر في ليدن . وابن عبد الحكم يلتزم في منهجه بالرواية ويعنى عناية خاصة بعظر الصحابة والتابعين . راجع أخباره في : ابن خلكان ، وفيات الأعيان (طبعة وستنفلد) (رقم 322 ، 582) السيوطي ، حسن المحاضرة ، (446/1 ، 553) ابن تغريبردي ، النجوم الزاهرة . Brockelman Gesch der Ar. Litt. 1/148 – 2/692).

(*) في الأصل : فلما بلغهم .

(2) عبد الرحمن بن حبيب ، حفيد عقبة بن نافع . رافق أباه في افريقية . ولما قتل في سنة 112 ، سار عبد الرحمن إلى الأندلس وحاول اقتحامها فلم يفلح ، فعاد الى تونس ودانت له البلاد وغزا صقلية وسردانيا ودوخ المغرب وقد قتله أخواه ، إلياس وعبد الوارث في قصره . راجع سيرته في الاستقصا (52/1) الكامل لابن الأثير (148/5) ، البيان المغرب ، (67/1) .

اكــارم حســـد الارض السمـــاء بــهـــم
وقـصـــرت كـــل مـصـــر عـــلى طـــرابلـــس
أي الملـــوك وهـــم قـصـــدي أحـــاذره ،
وأي قـــرن ، وهـــم سيـــفـــي وتـــرسـي

وقال أحمد بن الحسين بن حيدره يعرف بابن خراسان الطرابلسي :

أحبـابنـا ! غير زهد في محبتكم كـوني بـمصـر وأنتـم بطـرابلس
ان زرتكم ، فالمنايا في زيارتكم وان هجرتكم فالهجر مفترسي
ولست أرجو نجاحا في زيارتكم إلا اذا خاض بحرا من دم فرسي
وأنثـني ورماح الخط قد حطمت في كـل أروع لا وان ولا نكـس
حتى يظل عميد الجيش ينشدنا نظما يضيء كضوء الفجر في الغلس
يفدي بنيك عبيد الله حاسدهم بجبهـه العير يفدي حافر الفرس

وفي باب أطرابلس ، قال صاحب معجم البلدان : أطرابلس مدينة مشهورة على ساحل بحر الشام بين اللاذقية وعكة ، وزعم بعضهم أنها بغير همزة .

ثم مضى فاورد قائمة طويلة من العلماء والاعيان الذين ينتسبون الى أطرابلس .

ابن سعيد

وفي شرقي جربة وجنوبها ، يتقهقر البحر الى الشمال حتى تكون مدينة طرابلس المشهورة ، وعليه حيث الطول ثمان وثلاثون درجة والعرض اثنتان وثلاثون درجة ، وفي شرقيها على مرحلتين ، جبل نفوسه المتصل بجبل دمر وما يتصل به من الجبال الى جبل درن الذي يدخل في البحر المحيط ، وطوله ستة أيام ، وعرضه ثلاثة أيام ، وفيه مدن وعمائر وخلق كثير ومياه وخصب . ومنه تمتار طرابلس بانواع من الخيرات ، حتى الخضر والفواكه . وفيه الزيتون والزيت والزبيب والتمر . ويتصل به جبال الى آن ينقطع في شرقي مدينة لبدة الخراب . وآثار هذه المدينة من الرخام والحجارة الهرقلية تشهد بحالها المتقدم . وهي على البحر حيث الطول تسع وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة ، والعرض مقارب لعرض طرابلس وعلى الجملة ، فاذا فارقت طرابلس لا تلتقى مدينة فيها حمام ولاخباز الى ان تصل الى الاسكندرية .

العبـدري

ثم وصلنا الى مدينة طرابلس . وهي للجهل مأتم وما بها للعلم غرس . آقفرت ظاهراً وباطنا . وذمها الخبير بها سائرا وقاطنا . تلمع لقاصدها لمعان البرق الخلب وترية ظاهرا مشرقا ، والباطن قد قطب . اكتنفها البحر والفقر ! واستولى عليها من عربان البر ونصارى البحر النفاق والكفر ، وتفرقت عنها الفضائل نفرق الحجيج يوم النفير .

لاترى بها شجراً ولاثمرا ، ولا تخوض في أرجائها حوضا ولا نهرا ، ولا تجتلى روضا يحوى نورا ولازهرا ، بل هي اقفر من جوف حمار ، وأهلها سواسية كاسنان الحمار . ليس على ناشئ منهم فضل لذى شيبه ولا لذي الفضل بينهم هيبة . وملابس يلبسها ليلبس بها من ملأ امن العيوب العيبة ، الى بخل لومازج ماء البحر جمد وخالط الهواء سكن في اذار وركد ، وخلق يضيق به متسع الفضاء ونزق يحق له في ذمهم كشف الغطاء ، واذهان أربت في الضيق على الخاتم ، سواء لديها من حارب ومن سالم ، كانهم من ضيق أفهامهم لم يخرجوا بعد الى العالم . فسبحان من خلقهم !

أبـو الفـدا

وأطرابلس هي آخر المدن التي في شرقي القيروان . واذا فارقت اطرابلس مشرقا ، لاتلتقى بمدينة على البحر مبنية بالصخر ، خصبة واسعة الكورة ، حصينة جدا ، وليس بها ماء جار ، بل جباب وعليها سواقي . قال في العزيزى : وهي مرسى للمراكب .

التجـاني

ولما توجهنا الى طرابلس واشرفنا عليها ، كاد بياضها مع شعاع الشمس ، يغشى الابصار ، فعرفت صدق تسميتهم لها بالمدينة البيضاء . وخرج جميع أهلها مظهر للاستبشار ، رافعين اصواتهم بالدعاء ، وتخلى والي البلد إذ ذاك عن سكناه ، وهو قصبة البلد ، فنزلنا بها ورايت آثار الضخامة بادية على هذه القصبة ، غير أن الخراب قد تمكن منها ، وقد باع الولاة اكثرها ، فما حولها تسعتان ، وفي الخارج منها ، المسجد المعروف في القديم بمسجد العشرة ، لان عشرة من اشياخ البلد كانوا يجتمعون فيه للمشورة فيدبرون أمر البلد ، وذلك قبل تملك الموحدين لها . فلما تملكوها ارتفع ذلك الرسم وزال عن المسجد ذلك الاسم .

وكان فيما يقابل هذه القصبة موضع يعرف بالرياض مخصوص بوالي البلد ، واصله من مباني بنى مطروح رؤساء طرابلس في القديم ، ويذكر لما كان من حسنه وثماره وضخامة مبانيه ، وهو الان خراب ، غير ان به آثارا دالة على ما يذكر عنه . وقد اقطع هذا الموضع في هذا الوقت لبعض العرب فغبر عن حاله وابتنى في موضعه دارا .

ودخلت حمام البلد ، وهو المجاور للقصبة فرأيت حماما صغير الساحة ، الا انه قد بلغ من الحسن غايته وتجاوز من الظرف نهايته ، وكان هذا الحمام من منافع القصبة ، فبيع من جملة ما بيع منها ، وهو الآن محبس على بعض المساجد ، وبالبلد حمامان آخران غيره الا أنهما في الحسن دونه ، ورايت شوارعها ، فلم أرا اكثر منها نظافة ، ولا أحسن اتساعا واستقامة ، وذلك ان اكثرها تخترق المدينة طولا وعرضا من أولها الى آخرها على هيئة شطرنجية . فالماشي يمشي مشى الرخ خلالها ، ورأيت بسورها من الاعتناء وحسن البناء ما لم أره لمدينة سواها وسبب ذلك أن لاهلها حظا من مجباها يصرفونه في رم سواها وما تحتاج اليه من مهم أمورها ، فهم لا يزالون ابدا يجددون البناء فيه ويتداركون تلاشية بتلافيه . ورايتهم قد شرعوا في حفر خندق متسع يرومون ان يصلوه بالبحر من كلا جانبي البلد ، وابتداء حفره من الركن الذي بالقبله والمشرق ، وعارضهم في حفره هناك موضع يعرفونه بالرملة وهو حقق رمل متسع لاصق الاجانب السور ، ولا يزالون ابدا يتكلفون نقله من ذلك الموضع . فاذا اجهدوا جهدهم في حمله ورميه في البحر اعادته الرياح كما كان ، لاتقدمه عن موضعه ولاتوخره ، واختصاص ذلك الموضع لذلك الكثيب من الرمل من اعجب الاشياء وهو على الضد من موضع رايته بظاهر توزر ، خال من الرمل ، مع ان ما حوله من البقاع قد ارتفعت كثائبها لما تسفى الرياح من الرمال عليها . واخبرني ابو العباس احمد بن محمد بن يملول ان ذلك الموضع أيضا من عجائب بلدهم ، وانهم لا يزالون يرصدونه فلم يروا قط رملا عليه وان الرياح ربما اشتد هبوبها ، فبرون الرمال تتفرق عنه يمينا وشمالا .

وكان افتتاح طرابلس في القديم على يد عمرو بن العاص رحمه الله ورضي عنه ، بعــد افتتاحه لمصر والاسكندرية ، وذلك سنة اثنتين وعشرين ، سار اليها في جيشه ، فنزل على شرقها من جهة الشرق وأقام عليها شهرا لايقدر منهم على شيء ، وقد كانوا استعانوا بقبيل من البربر يعرفون بنفوسة ، دخلوا معهم في دين النصرانية . . .

(واستولى عمرو) على المدينة فهدم سورها وارتحل عنها ، ثم جدد بناء سورها من جهــة البر على يد عبد الرحمن بن حبيب المتقلب على افريقية في آخر دولة بني أمية سنة اثنتين وثلاثين ومائة .

وأطرابلس .. مدينة شرقي تونس على البحر واقعة في الاقليم الثالث . قال ابن سعيد (اقتباس الطول والعرض) . قال في تقويم البلدان : (اقتباس وصف أبي الفدا وما ذكره صاحب العزيزي)

*
* *

سـرت (1)

ابن حـوقـل

وسرت مدينة ذات سور صالح كالمنيع من طين وطابية وبها قبائل من البربر ، ولهم مزارع في نفس البر تقصد نواحيها إذا أمطرت وتنتج مراعيها . ولهامن وجوه الاموال والغلات والصدقات في سائمه الإبل والغنم مايزيد على حال أجدابية وماها في وقتنا هذا وبها نخيل تجني أرطابها وليس بها من القسب (2) والتمر ماتذكر خاله ، لأن نخيلهم بقدر كفايتهم . ولهم أعناب وفواكه واسعارهم صالحة على مر الأوقات . والمتولى صداقائهم وجبايتهم وخراجهم وما يجب على القوافل المجتازة بهم صاحب صلاتهم . واليه جميع مجاري أمر البلد االنظر فيه وفيها ورد اليه وصدر في استيفاء ضرائبه ولوازمه ، واعتبار السجلات والمناشر بمواجب ما على الأمتعة وتصفحها ، خوف الحيلة الواقعة دون الأداء عنه بافريقية . ودخلها أوفر من دخل أجد ابيه لما ذكرت . وهي على غلوة سهم عن البحر في مستوى من رمل . وترد المراكب أيضا عليها بالمتاع ، وتصدر عنها بشيء منه ، كالشب السرتي ، فانه بها عزيز كثير ، وبالصوف أيضا (3) ولحوم المعز أغذى فيها من الضان وأنفع وتقوم لحوم الضأن فيها مقام المعز بغيرها لأنها غير ملائمة لأهلها وللسافرة والمجتازين من أجل مراعيها . وشرب أهلها من ماء المطر المختزن في المواجل . عدد البربر فيها اوفر

---

(1) راجع غير ما ذكر : Courtois, remarques sur le commerce. (Mélanges G. Marçais, II) Agostini (De), le Popolazioni dell Tripolitania ; Fantoli (A), Guida dell Tripolitania.

(2) في لسان العرب : القسب : التمر اليابس يتفتت في الفم صلب النواة .

(3) انظـر : Sergeant, textile ARS Islamica, XI, 44

وأغزر وأكثر منه بما جاورها . وللبربر حاضرة بنفس قصبة سرت وبينهم خلاف على مر الأوقات وحروب . وربما ثارت بعض الأحايين قريبة ولا تدوم وعاملهم قائم بنفسه من تحت يد سلطانهم الأعظم .

البكــري

ومنها (ودان) يخرج الى مدينة سرت . وبينها وبين زويلة مسيرة اثنى عشر يوما ،وبينها وبين ودان مثل ذلك . ومدينة سرت مدينة كبيرة على سيف البحر عليها سور طوب وبها جامع وحمام واسواق . ولها ثلاثة ابواب قبلي وجوفي وباب صغير الى البحر . ليس حولها ارباض ولهم نخل و بساتين وأبار عذبة وجباب كثيرة . ذبائحم المعز ولحومها عذبة طيبة . وأهل سرت من أحسن عباد الله خلقا وأسوئهم معاملة لا يبتعون إلا بسعرقد أتفق جميعهم عليه وربما نزل المركب بساحلهم موسوقا بالزيت وهم أحوج الناس اليه فيعمدون الى الزقاق الفارغة فينفخونها ثم يصفونها في حوانيتهم واقنيتهم ليرى أهل المركب ان الزيت عندهم كثير بائر. فلوأقام أهل المركب ما شاء الله أن يقيموا ما باعوا منهم إلا على حكمتهم . ولهم كلام يتراطنون به ليس بعربي ولا عجمي ولا بربري ولا قبطي ولا يعرفه غيرهم . وهم على خلاف أهل اطرابلس . فان أهل اطرابلس أحسن خلق الله معاشرة واجودهم معاملة وأبرهم بغريب .

الادريســي

ومن مدينة اطرابلس في جهة الشرق الى مدينة سرت 230 ميلا ، وهي مرحلة . وبين مدينة سرت والبحر ميلان . وعليها سورترات ، وما استدار بها رمل وبها بقايا نخيل ، ولا زيتون بافسادها وليس بها من العشب ما بأوجله ولا من التمر ما بودان . وكان نخيلهم فيما سلف فوق بها . وبها كثير من شجر التوت وبقايا من شجر التين كثير . غير أن العرب تأتي على أكثر ذلـك الكفاف لهم . وكانت لهم أعناب وفواكه إلا أنها قد تلفت في وقتنا هذا ولم يبق بها شيء الا ما كان في بطون الاودية ورؤس الجبال ومياهها من المطر في المواجل . وآبارها قليلة وعليها قبائل من البربر .

ياقــوت

سرت ، بضم أوله وسكون ثانية : مدينة على ساحل البحر الرومي بين برقة وطرابلس

الغرب ، لاباس بها . وفي سمنها من ناحية الحبوب في البر ، أجدابية ، ومنها يقصد الى اطرابلس الغرب . قال أبو الحسن علي بن المفضل المقدسي الحافظ من أصحاب السفلى : أنشدني أبو بكر عتيق بن القاسم السرتي لنفسه :

أقول لعيني دائما ولدمعها
لسان بسر الحب في الخد ناطق

اجدك ما ينفك لي منك ضائر
بسري واش أو لحيني رامق

فلولاك لما أعرف العشق أولا
ولولاه لم يعرف بأني عاشق

ابن سعيد

وفي شمال زويلة ، مدينة سرت ، وهي من القواعد القديمة المذكورة في الكتب وعلى السنة المارة . وقد خربها العرب ولم يبق بها الا قصور سكنها اتباعهم وكذلك جهاتها ، فيها على الطريق قصور نجران العرب الذين يحرثون حولها . وموضوع هذه المدينة حيث الطول ثلاث وأربعون درجة ونصف ، والعرض ثلاثون درجة . وهي على ساحل الزقاق . وفي غربها جون ردقية الذي يقال له جون رديق ، لادقيق . وفيما بين سرت واجدابية يدخل البحر الى الشمال في الاقليم الرابع .

أبو الفدا

قال ابن سعيد : وسرت من القواعد القديمة (الخ . الاقتباس المذكور أعلاه) . والطريق من هذه الجهة على الفيوم الى مصر أقرب منها على الساحل . وفي الصحاري بين سرت والساحل ، عمل المعز الفاطمي صهاريج لما عزم على غزو مصر .

* * *

ودان

اليعقوبي

ودان ، بلد يؤتي من مفازه ، وهو مما يضاف الى عمل سرت ، وبه قوم من عرب اليمن واكثرهم من مزاته وهم الغالبون عليه . واكثر ما يحمل منه التمر ، فان به أصنافا من التمور ، وإنما يتولاه رجل من أهله وليس له خراج .

ابن حوقل

ومنها (أوجله) الى جزيرة ودان ، طريق قصد في الرمال . وودان ناحية ومدينة في جنوب مدينة سرت وكانت مضمومة اليها . وهي جزيرة لا تقصر في خص التمور وكثرتها وجودتها عن أوجله ، وإن كانت أوجله أوسع خسوبا وأفسح ناحية . فتمور ودان الرطبة العذبة وارطابهم أغزر .

البكري

ومن مدينة هل الى مدينة ودان يوم ، ولها قلعة حصينة وللمدينة دروب . وهي مدينتان فيها قبيلتان من العرب سهميون وحضرميون . فتسمي مدينة السهميين دلباس ، ومدينة الحضرميين مدينة بوصى . وجامعها واحد بين الموضعين . وبين القبيلتين تنازع وتنافس قد آل ذلك بهم مرارا الى الحرب والقتال . وعندهم فقهاء وقراء وشعراء . وأكثر معيشتهم من التمر . ولهم زرع يسير يسقونه بالنضخ . ومن مدينة ودان الى مدينة تاجرفت مسيرة ثلاثة أيام . وكان عمرو بن العاص قد بعث

الى ودان بسر بن أرطاة (1) وهو محاصر أطرابلس ، فافتتحها ، وذلك في سنة ثلاث وعشرين
وقال ابن عبد الحكم ثم أنهم نقضوا عهدهم ومنعوا ما كان بسر بن ارطاة فرض عليهم .
فخرج عقبة بن نافع الفهري الى المغرب بعد معاوية بن حديج ، وذلك سنة أربعين ومعه بسر
بن ارطـاة .

الادريسي

وودان جزائر نخل متصلة وعمارات كثيرة ، وودان هذه ناحية في جنوب صرت . وهما
قصران بينهما مقدار رمية سهم . والقصر الذي يلي الساحل خال والذي مع البرية مسكون ولها
آبار كثيرة ويزرعون بها الذرة وبغربيها غابات وحولهما شجر التوت كثير . وشجرتين ذاهب ونخل
كثير وتمور لينة حلوة ، وان كانت تمور أوجله أكثر ، فتمور ودان أطيب . ومنه يدخل الى بلاد
السودان وغيرها .

ياقوت

ودان ثلاثة مواضع ، أحدها بين مكة والمدينة ، قرية جامعة . . .
وودان أيضا جبل طويل بين فيد والجبلين . وودان أيضا مدينة بافريقية افتتحها عقبة بن
عامر (2) في سنة 46 ، أيام معاوية . وينسب إليها أبو الحسن علي بن أبي اسحاق الوداني ،
صاحب الديوان بصقلية له ادب وشعر ذكره ابن القطاع وانشد له :

من يـشتري مـني النهـار بـليلـة
لا فـرق بين نجـومها وصحـابي

(1) يسر بن أرطاه ، أو أبن أرطاة القريشي ، أبوعبد الرحمن . قائد إسلامي عظيم . ولد بمكة وروى عن النبي (ص) . وقد كان من كبار الشخصيات التي اعتمد عليها معاويةخ. شهد فتح مصر وولى على البصرة في سنة 41 ، ثم على البحرين وغزا الروم حتى بلغ القسطنطينية في سنة 50 . والبكري ، وياقوت ، هما الكاتبان الوحيدان فيا أعرف ـ اللذان يذكران غزو بسر لودان . راجع : ابن حجر العسقلاني ، الاصابة (152/1) ؛ الذهبي ، ميزان الاعتدال (144/1) ومعجم البلدان (الاقتباس أسفله) .

(2) عقبة بن عامر بن عبس بن مالك الجهني ، صحابي شهد موقعه صفين في جنب معاوية وحضر مع معاوية غزو مصر ، ومات بمصر سنة 58 هـ . راجع : جمهرة الأنساب لابن حزم ص 416 ؛ ابن الأثير ، الكامل 520/3 ؛ ابن حجر ، الاصابة رقم 5603 .

دارت علـى فـلك السمـاء ونحن قد

درنـا علـى فـلك مـن الاداب

دان الصبـاح ولا أتـى وكـانـه

شيب أطـل مـن سـواد شبـاب

ويمضي يا قوت فيقتبس ما ذكره البكري مما أوردناه اعلاه ثم يقول :

والطريق من طرابلس الى ودان يسير في بلاد هواره نحو الجنوب في بيوت من شعر. وهناك قريات ومنازل الى قصر ابن ميمون من عمل طرابلس ، ثم تسير ثلاثة أيام الى صنم من حجارة مبني على ربوة يسمى كرزة ، ومن حواليه من قبائل البربر يقربون له القرابين ويستسقون به الى اليوم . ومنه الى ودان ثلاثة أيام . وكان عمرو بن العاص بعث الى وادان بسر بن أررطاة ، وهو محاصر لطرابلس فافتتحها سنة 23 هـ . ثم نقضوا عهدهم ومنعوا ما كان قد فرضه بسر عليهم ، فخرج عقبة بن نافع بعد معاوية بن حديج إلى المغرب في سنة 46 هـ . بسر بن أرطاة شريك بن صحيم حتى نزل بغدامس من سرت فخلف عقبة جيشه هناك واستخلف عليهم زهير بن قيس البلوى (1) ثم سار بنفسه في أربعمائة فارس وأربعمائة بعير بثمانمائة قربة ماء حتى قدم ودان فافتتحها وأخذ ملكها فجدع أنفه ، فقال : لم فعلت هذا وقد عاهدت المسلمين ؟ قال : أدبا لك إذا مسست أنفك ذكرت فلم تحارب العرب . واستخرج منها ما كان قد فرض عليه ، وهو ثلاثمائة وستون راسا .

ابن سعيد

وفي شرقيها ودان ، وهي جزائر نخل ومياه أولها حيث الطول احدى وأربعون درجة ، والعرض سبع وعشرون درجة وخمسون دقيقة . واليها كان يلجأ المار [في الطريق] الطويلة المضنية . وفي شرقيها بلاد فزان ، وهي أيضا جزائر نخل ومياه وعمائر أكثر من ودان . والجميع الان في طاعة ملك الكانم .

*
* *

(1) من القادة الأمراء . شهد فتح مصر وولاه عبد العزيز بن مروان على برقه سنة 69 ، بعد إقامة في القيروان توجه إلى برقه لمقاتلة الروم الذين قاموا بغزوها بأسطول . وهناك استشهد في سنة 76 هـ راجع : ابن الأثير ، الكامل (43/4 ،) ابن تغريبردى ، النجوم الزاهرة (159/1) ، السلاوي ، الاستقصا (38/1) ، ابن عذارى ، البيان المغرب (31/1)

زويلة

اليعقوبي

ووراء ذلك بلد زويلة مما يلي القبلة . وهم قوم مسلمون أباضية كلهم يحجون إلى بيت الله الحرام ، وأكثرم رواده ويخرجون الرقيق من السودان من الميريين والزغاويين وغيرهم من أجناس السودان ، لقربهم منهم ويسبونهم . وبلغني أن ملوك السودان يبيعون السودان من غير شيء ولاحرب . ومن الزويلة الجلود الزويلية . وهي أرض نخل ومزدرع ذرة وغيرها . وبها أخلاط من خراسان ومن البصرة والكوفة .

البكري

الزويلة .. مدينة غير مسورة في وسط الصحراء وهي أول حد بلاد السودان وبها جامع وحمام يجتمع بها الرفاق من كل جهة منها ، ومنها يفترق قاصدهم وتتشعب طرقهم . وبها نخيل وبساط للزرع يسقى بالابل (*) ولما فتح عمرو بن العاص برقة ، بعث عقبة بن نافع حتى بلغ زويلة ، وصارما بين برقة وزويلة للمسلمين . وبزويلة قبر دعبل بن علي الخزاعي (1) الشاعر . قال بكر بن حماد :

(*) كذا في الأصل والمرجح : يسمى بالأبار .

(1) شاعر هجاء ، أصله من الكوفة . وكان ممن هجاهم من خلفاء بني العباس ، الرشيد والمأمون والواثق راجع : ابن خلكان ، وفيات الأعيان (266/2 — 270) ؛ ابن تغريبردي ، النجوم الزاهرة (190/2) .

الموت غادر دعبلا بزويلة
وبارض برقة أحمد بن خصيب

وبين زويلة ومدينة أجدابية أربعة عشر يوما . ولاهل زويلة حكمة في احتراس بلدهم ، وذلك ان الذي عليه نوبة الاحتراس منهم يعمد إلى دابة فيشد عليها حزمة حطب كبيرة من جرايد النخل تنال سعفها الارض ثم يدور بها حول المدينة . فاذا أصبح من الغد ركب ذلك المحترس ومن يتبعه على جمال السروج وداروا بالمدينة . فان رأوا أثرا خارجا من المدينة اتبعوه حتى يدركوه أينما توجه لصا كان أو عبدا أو أمة أو بعيرا . وزويلة من أطرابلس بين المغرب والقبلة. ويجلب من زويلة الرقيق الى ناحية افريقية وما هنالك ، ومبايعاتهم بثياب حمر قصار . وبين زويلة وبلاد كانم أربعون مرحلة ، ووراء صحراء بلاد زويلة لا يكاد أحد يصل اليهم . وهم سودان مشركون ويزعمون ان هنالك قوم من بني أمية صاروا اليها عند محنتهم بالعباسيين . وهم على زي العرب واحوالها . وبين مدينة زويلة ومدينة سبهى مسيرة خمسة أيام .

الادريسي

ومدينة زويلة ابن خطاب في صحراء . وهي مدينة صغيرة وبها أسواق . ومنها يدخل الى جمل من بلاد السودان . وشرب أهلها من آبار عذبة ولها نخيل كثير ، وتمرها حسن . والمسافرون ياتونها بامتعة من جهازها وجمل من أمور يحتاج اليها . والعرب تجول في أرضها وتضر باهلها قدر الطاقة . وكل هذه الاراضين التي ذكرناها ملك بايدي العرب . فمن قصر العطش الى قافز ، هي لناصرة (1) وعميرة (2) وهما قبيلتان من العرب . ومن قافز إلى طلميثة إلى لّكّ ، وهي لقبيلة من البربر متعربين يقال لهم مزانة وزيبانة وفزارة . وهم يركبون الخيول ويعتقلون الرماح الطوال ويحمون تلك الأراضي عن العرب أن تدوس ديارهم . ولهم عزة ونخوة وجلادة .

ياقوت

زويلة ، بفتح أوله وكسر ثانية ، بلدان : أحدهما زويلة السودان ، مقابل أجدابية ، في اليربين بلاد السودان وافريقية . قال البكري : زويلة مدينة غير مسورة (الخ . الاقتباس المذكور أعلاه) .

(1) ناصرة عشيرة كانت محالفة لبني سليم بن منصور .
(2) عميرة بن الدعام (؟) بطن من دومان بن بكيل من القحطانية .

وزويلة المهدية . وهي مدينة بافريقية بناها المهدي عبيد الله ، جد هؤلاء الذين كانـــوا بمصر ، الى جانب المهدية .

ابـن سـعيـد

وفي شرقيها بلاد فزان ، وهي أيضا جزائر نخل ومياه لها مدن وعمائر أكثر من ودان . وقاعدة فزان زويلة ، حيث الطول ثلاث وأربعون درجة والعرض سبع وعشرون درجة وأربعون دقيقة .

فـــــزّان (1)

أبـو الفـدا

زويلة ، بفتح الزين المعجمة وكسر الواو . وعن ابن سعيد : زويلة قاعدة بلاد فزان (الخ . الاقتباس أعلاه) ومن المشترك : زويلة في قبلة افريقية ، قال وزويلة ايضا مدينة محدثة كالربض للمهدية جعلها المهدي أول الخلفاء العلويين مسكنا لرعيته وسكن هووجنده المهدية . قال في العزيزي : ومدينة زويلة مدينة كثيرة النخيل وزرع أهلها يسقى من الابار .

القـزويـنـي

زويلة مدينة بافريقية غير مسورة في حدود السودان ولاهلها خاصية عجيبة في معرفة آثار

(1) راجع عن فـزّان :

Masson (P) Histoire des établissements et du commerce ; Barth (H) Reisen und Entdeckungne in Nord und central Africa, T.I; Duveyrier (H) les touareg du Nord ; Nachtigal (G), Sahara unb Sudan ; scarin (E), l'oasis del Fezzan ; Despois (I), mission scientifique du fezzan ; Lethielleux, le Fezzan, ses jardins et ses palmiers (dans IBLA, 1948) ; Richter (L), Inslen der Sahara durch dies Oasien libyens ; varnier (B), Histoire d'un pays saharien (dans l'orient N° 14, 1960) ; Hornemann, Tagebuch sein reisen von cairo Nach Marzuk ; Lyon, A Narative of travels in North Africa; Richardson, travels in the great desert of sahara ; subtil (E), Histoire d'Abd ei Gelil ; Beurmann, Reise von Bengasi nach Murzuk ; Rohlfs, land und leute von Fezzan ; Monteil, de St. Louis à Tripoli ;Boisboissel (Y De), une des clefs de l'Afrique : le Fezzan (Mer et autremer, 2e trim, 1957) ; Documents Algeriens, le Fezzan , 1948 ; Despois (T), impressions du Fezzan (Revue d'Alger, 1944); Brunschvig (R) un texte arabe du IXe siecle interessant le Fezzan ; Camps (G), du Nouveau sur l'Archéologie du Fezzan (Travaux de l'Institut de Recherches saharennes, 1955) ; Vernier (B), Histoire d'un pays saharien (le Fezzan oriental, 2e trim. 1960).

القدم ، ليس لغيرهم تلك الخاصية ، حتى يعرفون اثر قدم الغريب والبلدي والرجل والمرأة واللص والعبد الآبق والامة . والذي يتولى احتراس المدينة يعمد إلى دابة يشد عليها حزمة من جرائد النخل ، بحيث ينال سعفه الارض ثم يدور به حول المدينة . فاذا أصبح ركب ودار حول المدينة . فان رأى أثرا خارجا تبعه حتى ادركه اينما اتجه

وقد بنى عبيد الله المهدى ، جدّ خلفاء مصر ، الى جانب زويلة مدينة اخرى سماها المهدية ، بينهما غلوة سهم . كان يسكن هو وأهله بالمهدية ، وأسكن العامة في زويلة (*) وكانت دكاكينهم وأموالهم بالمهدية ، وبزويلة مساكنهم . فكانوا يدخلون بالنهار زويلة للمعيشة ، ويخرجون بالليل الى اهاليهم ، فقيل للمهدي : إن رعيتك في هذا في عناء فقال : لكن أنا في راحة ، لأني بالليل افرق بينهم وبين أموالهم ، وبالنهار افرق بينهم وبين اهاليهم ، فئامن غائلتهم بالليل والنهار .

* * *

(*) اختلط الأمر على القزويني فخلط بين زويلة قاعدة فزان وزويلة التي كانت ربطا للمهدية .

أوجلـــة (1)

ابن حـوقــل

وجزيرة اوجلة منها على أيام بين غربها وجنوبها . وهي ناحية ذات نخيل عظيمة وغلات من التمر جسيمة . ويليها وقتنا هذا رجل من ناحية صاحب برقة ، ولم يكن ارتفاعها ومالها الداخل على خزانة السلطان في جملة مال برقة . فلما ضمت الى برقة غزر مالها وكثر وزادت الحال في ذلك .

البكـــري

ثم تمشي أربعة أيام الى مدينة أوجلة ، وهي مدينة عامرة كثيرة النخل . وأوجلة اسم الناحية ، اسم المدينة أرزاقية . وأوجلة قرى كثيرة فيها نخل وشجر كثير وفواكه . وبمدينتها مساجد واسواق ، ثم أربعة أيام الى مدينة تاجرفت .

الادريســي

ومن أجدابية الى أوجلة مراحل . ومدينة أوجلة مدينة صغيرة متحضرة فيها قوم ساكنون كثير والتجارة وذلك قدر احتياجهم واحتياج العرب ، وهي في ناحية البرية يطيف بها نخل وغلات **لاهلها ، ومنها يدخل الى كثير من أرض السودان نحو بلاد كوار وبلاد كوكو . وهي في رصيف**

---

(1) راجع غير ما ذكر Pacho, Relation d'un voyage dans la Marmarique et le cyrénaique et les Oasis d'Awbjila ; Ency de l'Islam (Gyver). وأنظر مقاله اوجله

طريق والوارد عليها والصادر كثير . وأرض أوجلة وبرقة أرض واحدة ، ومياهها قليلة وشرب أهلها من المواجل . ومن أوجلة الى مدينة زالة مراحل غربا وهي مدينة صغيرة ذات سوق عامرة وبها اخلاط من البربر من هوارة وتجاري وفي أهلها حماية ومروءة .

ياقــوت

أوجلة ، مدينة في جنوبي برقة نحو المغرب ضاربة الى البر. قال البكري : (الاقتباس المذكور أعلاه) .

ابـن سعيــد

وعلى جنوبي الطريق الى الاسكندرية أوجلة . وهي جزيرة في تلك الرمال وعمارة في تلك الصحاري فيها ماء ونخل [وهي] تحت خفارة هيت (1) حيث الطول خمسة وأربعون درجة واثنتان وخمسون دقيقة . وفي سمتها مدينةسانترية .

* * *

(1) بطن من سُليم بن منصور ، من العدنانية وهم بنو هيت بن بهثه بن سليم ، ديارهم عند العقبة الصغيرة التي تأتي بعد الاسكندرية راجع العبر 72/6 — 73 ؛ البيان والاعراب للمقريزي ، ص 67 .

برقـــة (1)

اليعقــوبي

مدينة برقة في مرج واسع وتربة حمراء شديدة الحمرة وهي مدينة عليا عليها سور وأبواب حديد وخندق . أمر ببناء السور المتوكل على الله . وشرب أهلها من ماء الامطار يأتي من الجبل في أودية الى برك عظام عملها الخلفاء والامراء لشرب أهل مدينة برقة . وحوالي المدينة أرباض لها يسكنها الجند وغير الجند . وفي دور المدينة والارباض أخلاط من الناس . وأكثر من بها جند قدماء قد صار لهم الاولاد والاعقاب . وبين مدينة برقة وبين ساحل البحر المالح ستة أميال . ولبرقة جبلان أحدهما يقال له الشرقي .

ابـن حــوقــل

فاما برقة فمدينة وسطة ليست بالكبيرة الفخمة ولا بالصغيرة الزرية . ولها كور عامرة وغامرة . وهي في بقعة فسيحة تكون مسيرتها يوما وكسرا في مثله . ويحيط بالبقعة من جميع جهاتها . وأرضها حمراء خلوقية التربة . وثياب أهلها أبدا محمرة . ويعرف أهلها بالفسطاط من بين سكان المغرب بحمر ثيابهم وتغيرهم . ويطوف بها من كل جانب منها باديتها يسكنها الطوائف من

---

(1) يطلق اسم برقه في العربية على الأرض ذات الأحجار المختلفة الألوان. وبرقه تشمل ، على وجه التقريب ، الولاية التابعة لبنغازي حاليا . وقد اشتهرت أرض برقه بالخصب في العصور القديمة راجع :

Della cella, viaggio di Tripoli di Barbaria alle frontiere dell Egitto Fatto nel 1871 ; Pacho. voyage dans la Marmarique et la cyrénaique ; Beechey, Expedition to explore the North cost of Africa ; Barth, Travels in North Africa ; Hamilton, wandrings in North Africa ; Minutilli la Tripolitania ; Playfair, Bibliography of the barbary states.

البربر . وهي برية بحرية جبلية . ووجوه أموالها جمة . وهي أول منبر ينزله القادم من مصر الى القيروان . وبها من التجاروكثرة الغرباء في كل وقت مالا ينقطع طلابا لما فيها من التجارة ، وعابرين عليها مغربين ومشرقين . وذلك أنها تنفرد في التجارة بالقطران الذي ليس في كثير من النواحي كهو ، والجلود المجلوبة للدباغة في مصر ، والتمور الواصلة إليها من جزيرة أوجلة . ولها أسواق حادة حارة من بيوع الصوف والفلفل والعسل والشمع والزيت أوضروب المتاجر الصادرة من المشرق والواردة من المغرب . وشرب أهلها من ماء المطر بمواجن يدخر بها واسعارها باكثر الاوقات فائضة بالرخص في جميع الاغدية .

المقــدسي

برقة قصبة جليلة عامرة نفيسة كثيرة الفواكهوالخيرات والاعسال مع يسار . وهي في ثغر قد أحاطت [به] تربة حمراء . شربهم من آباروما يحوونه من أمطار في جباب . وهي على جادة مصر. يحسنون الى الغرباء . أهل خيروصلاح وأقل انقلابا من غيرهم .

البكــري

برقة واسمها بالرومية الاغريقية بنطابلس ، وتفسيرة خمس مدن (1) وصار اليها عمرو بن العاص حتى صالح أهلها على ثلاثة عشر الفا يؤدونها اليه جزية ، على ان يبيعوا من أحبوا من أبنائهم في جزيرتهم . قال الليث ابن سعد (2) : كتب عمروبن العاص على لواته (3) في شرطه عليهم «أن تبيعوا ابناءكم فيما عليكم من الجزية» . وسمع عمرو يقول على المنبر لاهل انطابلس عهد يوفي لهم به . ومدينة برقة في صحراء حمراء التربة والمباني ، فتحمر لذلك ثياب سكانها والمتصرفين فيها . وعلى ستة أميال منها الجبل . وهي دائمة الرخاء كثيرة الخير تصلح بها السائمة وتنمى على مراعيها . واكثر ذبائح أهل مصر منها. ويحمل منها إلى مصر العسل والصوف والقطران ،

(1) أهم هذه المدن هي المعروفة في القدم بأسماء : Barca, Cyrène, Apollonius, Berenica

(2) هو الليث بن سعد الفهري ، أبو الحارث : إمام مصر في عصره في الحديث والفقه . وصفه الإمام الشافعي بأنه أفقه من مالك (...) . ولللّيث بن سعد عدد كبير من المؤلفات راجع : ابن خلكان ، وفيات الأعيان 127/4 ابن حجر ، تهذيب التهذيب 459/8 ؛ المقريزي م تذكرة الحفاظ 207/1 ؛ القلقشندي ، صبح الأعشى 399/3 ؛ ابن تغريبردي ، النجوم الزاهرة82/2 ؛ شمس الدين الذهبي ، ميزان الاعتدال 361/2 .

(3) قبيلة بربرية كان جزء منها يقطن برقه . وهذه القبيلة هي التي يتحدث عنها بروكوب (Procope) lebathia ويتردد اسمها كثير في كباب العبر .

وهو يعمل بها بقرية من قراها يقال لها مقة فوق جبل وعر لا يرقى اليها فارس على حال . وهي كثيرة الثمار من الجوز والاترج والسفرجل وأصناف الفواكه . ويتصل بها شعراء عريضة من شجر العرعر . وبمدينة برقة قبر رويفع (1) ، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم . وحول مدينة برقة قبائل من لواته ومن الافارق . وفي الطريق من برقة إلى افريقية وادي مسوس ، فيه قباب خربة وجباب يقال ان عددها ثلاثمائة وستون ، وبها بساتين . وفي هذا الوادي التربة التي يغلى [يجلب ؟] منها العسل .

الادريسي

فاما مدينة برقة ، فمدينة متوسطة المقدار ، ليست بكبيرة القطر ولا بصغيرة ، غير أنها في هذا الوقت عامرها قليل واسواقها كاسدة . وكانت فيما سلف على غير هذه الصفة . وهي أول منبر ينزله القادم من مصر الى القيروان . ولها كور عامرة بالعرب . وهي في بقعة فسيحة يكون مسيرة يوما وكسرا في مثله . ويحيط بهذه البقعة جبل ، وأرض حمراء خلوقية التراب . وثياب مسيرها يوما وكسرا في مثله . ويحيط بهذه البقعة جبل ، وأرضا حمراء خلوقية التراب . وثياب أهلها ابدا أحمر ، وبذلك يعرف أهلها في سائر البلاد المحيطة بها . والصادرة عنها والواردة اليها كثير في الاحايين لانها بعيدة عن البلاد المجاورة المقاومة لها في جميع حالاتها . وهي برية بحرية . وكان لها من الغلات في سائر الزمان القطن المنسوب اليها الذي لا يجانسه صنف من أصناف القطن . وكان بها والى الآن ، ديار لدبغ الجلود البقرية والتمور الواصلة اليها من أوجلة ، وهي الآن يتجهر منها المراكب والمسافرون الواصلون اليها من الاسكندرية وأرض مصر بالصوف والعسل والزيت . وتخرج منها التربة المنسوبة اليها فينتفع فيها الناس ويتعالجون بها مع الزيت للجرب والحكة وداء الحية . وهي تربة غبراء وإذا القيت في النار ، فاحت لها رائحة كرائحة الكبريت فضيعة الدخان كريهة الطعم . ومن برقة الى مدينة أوجلة في البرية مراحل . وكذلك من برقة الى اجدابية مراحل ، وهي من الاميال 152 ميل . ومن برقة الى الاسكندرية 21 مرحلة وهي من الاميال 550 ميل . والارض التي بينها يقال لها أرض برنيق .

---

(1) رويفع بن ثابت الأنصاري المدني . نزل بمصر وأمره معاوية على طرابلس في سنة 46 هـ ، فغزا افريقية وتوفي ببرقه . وقبره مشهور في الجبل الأخضر راجع الدباغ ، معالم الايمان (101/1) ؛ أحمد بك الطرابلسي ، المنهل العذب (21/1)

ياقـوت

برقة ، بفتح أوله والتسكين ، اسم صقع كبير يشتمل على مدن وقرى بين الاسكندرية وافريقية . واسم مدينتها أنطابلس . وتفسيره الخمس مدن . قال بطليموس : طول مدينـة برقة ثلاث وستون درجة ، وعرضها ثلاث وثلاثون درجة وعشر دقائق . وقال صاحب الزيج : طولها ثلاث وأربعون درجة ، وعرضها ثلاث وثلاثون درجة . وارض برقة أرض خلوقية بحيث ثياب أهلها أبدا محمرة لذلك . ويحيط بها البربر من كل جانب . وفي برقة فواكه كثيرة وخيرات واسعة مثل جوز ولوز واترج وسفرجل . وفي مدينة برقة قبر رويفع ، صاحب النبي صلى الله عليه وسلم . وأهلها يشربون من ماء السماء يجري في أودية ويفيض الى برك بناها لهم الملوك ، ولها آبار . ولها ساحل يقال له أجيه وهي مدينة بها سوق ومنبر وعدة محارس على ستة أميال مـن برقة ، وساحل آخر يقال له طلموية . وبين برقة والاسكندرية شهر .

قال أحمد بن محمد الهمداني : من الفسطاط الى برقة مئتان وعشرون فرسخا . وهي مما افتتح صلحا . صالحهم عليها عمرو بن العاص والزم أهلها من الجزية ثلاثة عشر ألف دينار وأن يبيعوا اولادهم (الخ . ما ذكره البكري) .

وقد نسب الى برقة جماعة من أهل العلم ، منهم : أحمد بن عبد الله بن عبد الرحيم بن سعيد بن زرعة الزهري البرقي ، أبو بكر مولى ابن زهرة ، حدث بالمغازي عن عبد الملك بن هشام. وكان ثقة ثبتاً وله تاريخ ، وأخوه محمد وعبد الرحيم بنا عبد الله رووا جميعا كتاب السيرة عن ابن هشام ، قاله ابن ماكولا . وذكر ابن يونس احمد بن عبد الله في البرقيين ، وذكر محمد في المصريين .

ابـن سعيـد

وكانت البلاد تعرف بانطابلس ، فسمتها العرب برقة لما رأتها [فيها من] كثرة الحجارة المختلطة بالرمل . ومرسى طبرق قل ان يكون له نظير على البحر فما للرياح عليها من سبيل كانه حوض منقور في حجر .

وفي الشرق ، مدينة برقة التي كانت قاعدة البلاد البرقية فخربها العرب ويقال لها اليـوم مدينة المرج . وبينها وبين طلمية عشرة أميال .

وخصب برقة الذي فيه الاشجار والخيرات ، هو في الدخلة التي في جنوبها ومسافته نحو عشرة مراحل من غرب الى شرق . ومن حماه عرب هيت فله الصولة . ومن جبالها ينزل نهر درنة وينصب في البحر المالح . ولم أر في جميع بلاد برقة نهرا غيره . وفي جنوبه الصحراء المقفرة .

*
* *

اجدابية (1)

ابن حوقل

واليها مدينة أجدابية على صحصاح من حجر في مستواه بناؤه بالطين والأجر وبعضها بالحجارة ولها جامع نظيف . ويطيف بها من أحياء البربر خلق كثير ولها زرع بالبخس وليس بها ولا ببرقة ماء جار. وبها نخيل حسب كفايتهم وبمقدار حاجتهم وواليها القائم عليها من وجوه الأموال وصدقات بربرها وخراج زروعهم وتعشير خضرهم وبساتينهم ، هو اميرها وصاحب صلاتها . وله من وراء مايقبضه للسلطان لوازم على القوافل الصادرة والواردة من بلاد السودان . وهي أيضا قريبة من البحر المغربي ، فترد عليها المراكب بالمتاع والجهاز وتصدر عنها بضروب من التجارة . واكثر ما يخرج منها الأكسية المقارية وشقق الصوف الغريبة الأمر. وشرب اهلها من ماء السماء .

المقدسي

اجدابية عامرة . بنيانهم من حجارة على البحر وشربهم من الأمطار. وسرت كذلك ولهم بوادي وشعارى .

البكري

ومدينة اجدابية ، مدينة كبيرة في صحراء ، أرضها صفا وأبارها منقورة في الصفا . طيبة

(1) يوجد موقعان يحملان هذا الإسم ، أحدهما غير بعيد من العقبة الكبيرة ، والثاني في الجنوب الغربي على مقربة من سُرت . وهذا الموقع هو الذي يصفه الكتّاب في الصفحات التالية .

الماء . وبها عين ماء عذب ولها بساتين لطاف ونخل يسير وليس بها من الاشجار الا الاراك وبها جامع حسن البناء ، بناه أبو القاسم ابن عبيد الله له صومعة مثمنة بديعة العمل وحمامات وفنادق كثيرة واسواق حافلة مقصودة . وأهلها ذوو يسار أكثرهم اقباط وبها نبذ من صرحاء لواته . ولها مرسى على البحر يعرف بالماحور لها ثلاثة قصور بينه وبينها ثمانية عشر ميلا . وليس لمباني اجدابية سقوف خشب ، إنما هي أقباء طوب لكثرة رياحها ودوام هبوبها . وهي رخيـة الاسعار كثيرة التمر ياتيها من مدينة أوجلة أصناف التمور .

الادريســي

ومدينة أجدابية في صحصاح من حجر مستو كان لها سور فيما سلف ، وأما الان فلم يبق منها إلا قصران في الصحراء والبحر منها على 4 أميال وليس بها ولا حولها شيء من النبات . وأهلها الغالب عليهم يهود ومسلمون تجار . ويطوف بها من أحياء البربر خلق كثير وليس باجدابية ولا ببرقة ماء جار ، وإنما مياههم من المواجل والسواقي التي يزرعون عليها قليل الحنطة والاكثر الشعير وخروب القطاني والحبوب . ومن أجدابية الى أوجلة مراحل .

ياقــوت

أجدابية ... بلد بين برقة وطرابلس الغرب بينه وبين زويلة نحو شهر سيرا ، على ما قاله ابن حوقل . وقال أبو عبيد البكري : أجدابية مدينة كبيرة (الخ . الاقتباس الوارد) .

وقال غيره أجدابية مدينة كثيرة النخل والتمور ، وبين غربيها وجنوبها مدينة أوجلة . وهي من أعمالها . وهي أكثر بلاد المغرب نخلا وأجودها تمرا . وأجدابية في الاقليم الرابع وعرضهـا سبع وثلاثون درجة . وهي من فتوح عمرو بن العاص . فتحها مع برقة صلحا على خمسة آلاف دينار وأسلم كثير من بربرها . ينسب اليها ابو اسحاق ابراهيم بن اسماعيل بن أحمد بن عبد الله الطرابلسي (1) يعرف بابن الاجدبي . كان أديبا فاضلا له تصانيف حسنة منها كفاية المحتفظ ، وهو مختصر في اللغة مشهور ، مستعمل جيد ، وكتاب الانوار وغير ذلك .

*
* *

(1) هو ابراهيم بن إسحاق بن أحمد بن اسماعيل اللواتي الأجدي (توفي في نحو 470 هـ) باحث لغوي له ، إلى جانب الكتابين اللذين يذكرهما ياقوت هنا ، مختصر في علم الأنساب . راجع أحمد بك ، المنهل العذب 1/154 ـ 156 ، ياقوت ، ارشاد الأديب 1/47 .

الملحـــــــق
وصـــف كتـــاب الاستبصـــار
لمـــؤلـــف مجهـــول
للمــــدن المغــــربيـــة

ســـرت :

ومدينة سرت مدينة كبيرة قديمة على ساحل البحر وأهلها أخس الناس خلقا وأسوأهم معاملة ، لا يبيعون ولا يبتاعون إلا بسعر إتفقوا عليه ، وربما نزل المركب بساحلهم موسوقا بالزيت وهم أحوج الناس إليه فيعمدون الى الزقاق الفارغة فينفخونها ويصففونها في حوانيتهم ليرى أهل المركب أنّ الزيت عندهم كثير بائر فلو أقام أهل المركب ما شاء الله أن يقيموا ، ماباعوا منهم إلا على حكمهم وهم يعرفون بعبيد قرله ويغضبون لذلك .

مدينة اطرابلس :

فأول مدن افريقية على الساحل مدينة اطرابلس وهي مدينة كبيرة أزلية على ساحل البحر ، والبحر يضرب في سورها من حجر جليل من صنعة الأولين ، وقيل أن تفسير اطرابلس 3 مدن وقيل مدينة أياس وبها سوق حافل وحمامات كثيرة وبساتين في شرقها ، وهي كثيرة الفواكه جمة الخيرات وأكثر أهلها تجار يسافرون برا وبحرا ولهم سمح في تجاراتهم ، وهم أحسن الناس معاملة ضد أهل سرت ، وداخل سورهم بئر يعرف ببئر أبي الكنود ، يقال أنه من شرب منه يحمق ، فهم يعيرون به ، يقال للرجل منهم اذا أتى بما يلام عليه لا عتب عليك ، لأنك شربت من بئر أبي الكنود .

مـدينـة قـابـس :

مدينة قابس تعد أيضا من بلاد الجريد ، بينها وبين طرابلس 8 أيام ، وهي مدينة كبيرة قديمة أزلية وعليها سور صخر جليل من بناء الأول ، ولها حصن حصين وأرباض واسعة ، وفيها فنادق وحمامات وقد أحاط بجميعها خندق كبير يجرون الماء فيه اذا خافوا من نزول عدو اليهم فيكون أمنع شيء ولها واد يسقي بساتينها واراضيها ومزارعها ، واصل هذا الوادي من عين خرارة في جبل بين القبلة والمغرب وهو يصب في البحر وبين مدينة قابس وبين البحر 3 أميال وجنانها أكثر الى البحر وهي كثيرة الثمار والموز بها كثير وليس بافريقية الموز الا فيها ، وفيها شجر التوت كثير ويربي بها الحرير ، وحريرها أطيب الحرير وأرقّه وليس يعمل بافريقية حرير إلا بها ، وهي مدينة فخيرة بحرية صحراوية والصحراء منها قريبة ، فيقال انهما أجتمع في مائدة رجل 3 أشياء متضادة المواضع الا في مائدة من يسكن قابس بجتمع فيها

الحوت الطري ولحم الغزال الطري والرطب الجني ، فهي حاضرة هذا الاقليم وقطبه وروحه وقلبه ومركز دائرته التي عليها يدور محيطه وبالاستناد اليه يتمهد رحبه والله يعصمنا بعزته .

ذكر مدينة القيروان وكيفية وضعها سنة 47 من الهجرة

ولى معاوية بن أبي‌سفيان عقبة بن نافع القريشي على افريقية فافتحها في 10 الآف من المسلمين ووضع السيف وأفنى من بها من النصارى ، ثم قال إني أرى افريقية اذا ادخلها إمام تحرموا بالاسلام فإذا أخرج عنها رجع كل من أجاب منهم عن دين الله ، فهل لكم يامعشر المسلمين أن تتخذوا مدينة تكون لكم عز الأبد ؟ فأجابه الناس واتفقوا على أن يكون أهلها مرابطين فيها ، وقالوا نقربها من البحر ليتم الجهاد والرباط ، فقال لهم عقبة نخاف من ملك القسطنطينية فاتفق رأيهم على موضعها فقال : قربوها من السبخة ، فان أكثر دوابكم الابل تكون ابلكم على بابها ، في مراعيها آمنة من البر ، فدعا ما كان في الغيضة من الوحوش والهوام وقال : اخرجوا باذن الله فخرج كل ما كان فيها حتى لم يبق من الحيوانات شيء ، وهم ينظرون اليها ، وقال ابن الرقيق في تاريخه : فبقيت القيروان 40 سنة لم يوفيها خشاش ولا هوام .

وتنازعوا في قبلة الجامع فبات عقبة مهموما فرأى في المنام قائلا يقول له خذ اللواء بيدك ، فحيث ما سمعت التكبير فامش فاذا أنقطع التكبير فاركز اللواء ، فانه موضع قبلتكم ، ففعل عقبة ذلك فهو موضع القبلة وهو محراب جامع القيروان ، الى اليوم .

وقد هدم حسان بن النعمان جامع القيروان حاشا المحراب فإنه تركه ، ويقال انه هدم وبني 3 مرات ، كل وال يلي القيروان يريد أن يكون الجامع من بنيانه ، وكانوا يتركون منه المحراب تبركا ببنـاء عقبـة رحمه الله ، ويقال أنه لما أراد معد بن اسماعيل بن عبيد الله تحريف قبلة مسجد القيروان ، وذلك سنة 345 هجرية بلغة (أن) أهل القيروان يقولون إن الله عز وجل يمنعه بدعاء عقبة بن نافع الفاضل في وقت تأسيسه الجامع ، فلما وصل ذلك إلى معد غضب وأمر بنبش قبر عقبة بن نافع وأحراق رمته بالنار وكان قبره بظاهر مدينة تهودا ، حيث استشهد رحمه الله وبعث معد لذلك 500 من بين فارس وراجل ، قبل فلما دنوا من قبره وحاولوا ما أمرهم به ، هبت عليهم ريح عاصفة ولاحت بروق خاطفة ، ووقعت رعود قاصفة كادت تهلكهم ، فاضربوا ولم يعرضوا له فخافوا عقوبة معد فتاهو في صحاري أفريقية حتى سمعوا أنه هلك فحينئذ أتوا إلى أوطانهم معتبرين مستبصرين وبازاء جامع القيروان الساريتان الحمروان الموشاة بالصفرة اللتان لم ير الراءون أحسن منها ولا مثلهما ، كانت في كنيسة من كنائس الروم فنقلها الى جامع القيروان حسان بن النعمان وهما مقابلتان المحراب ، عليهما القبة المتصلة بالمحراب وبخارج مدينة القيروان 15 ماجلا للماء ، هي سقايات لأهل القيروان منها ما بني في أيام هشام بن عبد الملك بن مروان وفي أيام غيره من الخلفاء وأعظمها شأنا وأفخمها منصبا الماجل الذي بناه أحمد بن الأغلب بباب تونس من القيروان ، وهو متناهي الكبر ، وفي وسطه صومعة مثمنة وفي أعلاها قبة مفتحة على

أبواب ، فاذا أوقف الرامي على صفته ورمى بأشد ما يمكن من القسي لا يدرك الصومعة التي في وسطه وكان ذلك الماجل قصر عظيم فيه من البناء العجيب والغرف المشرفة على ذلك الماجل كل شيء غريب ويمر في هذا الماجل ماجل لطيف متصل به يقع فيه ماء الوادي اذا جرى ، فتنكسر فيه حدة حريانه ثم يدخل الماجل الكبير ، وهذا الوادي الذي يدخل الماجل إنما هو واد شتوي يجري في أيام الشتاء ، فاذا أمتلأ هذا الماجل وغيره من المواجل شرب منه أهل القيروان ومواشيهم ، ويرفع ماء هذا الماجل الى أيام الصيف ، فيكون ماؤه باردا عذبا صافيا لكثرة الماء فيه وكان عبيد الله الشيعة يقول رأيت بافريقية شيئين ما رأيت مثلهما بالمشرق الحفير الذي بباب تونس من القيروان يعني هذا الماجل الكبير ، والقصر الذي برقادة المعروف بقصر البحر .

مدينة صبرة :

وهي متصلة بالقيروان ، وهي مدينة كبيرة بناها اسماعيل وسماها المنصورة وكانت لها جبايات كثيرة ، يقال أنه كان يدخل أحد أبوابها كل يوم 26 ألف درهم ، والله أعلم بالصواب .

مدينة رقادة :

وهي من القيروان على 4 أميال وهي مدينة كبيرة دورها 24040 ذراع ، كانت أكثر بلاد أفريقية بساتين وفواكه ، وليس بافريقية أعدل هواء من رقادة ، ولا أرقى نسما ولا أطيب تربة ، يقال أن من دخلها لم يزل يضحك مستبشرا مسرورا من غير سبب ، وذكر أن واحدا من ملوك بني الأغلب ، كان قد أصابه أرق شديد وشرد عنه النوم أياما فعالجه إسحاق المتطبب وهو الذي ينسب اليه الاطرفيل ، فأمر الملك بالخروج والتنزه والمشي قيل فلما وصل الى موضع رقادة نام فسميت رقادة من يومئذ ، وأتخذت موضع فرجة ومنتزها للملوك ، ويقال أن الملك الذي بني مدينة رقادة هو ابراهيم بن أحمد بن (محمد) بن الأغلب (261 ـ 289 هـ) فجعلها دار مملكته ومسكنه ، قيل ومنع بيع النبيذ بالقيروان وأباحه بمدينة رقادة بسبب جنده وعبيده ، فقال في ذلك بعض الشعراء .

ياسيد الناس وإبن سيدهم	ومن إليه القلوب منقداه
ما حرم الشرب في مدينتنا	وهو حلال بأرض رقاده

وفيها بويع عبيد الله الشيعي ، ذكره ابن الجزار في تاريخه .

مدينة سفاقس :

هي مدينة أزلية عليها غابة كبيرة من الزيتون وزيتها أطيب ، من كل الا الشرقي ومن الناس من يفصله عليه ، ومنها يمتار أهل افريقية ، الزيت وتحمله المراكب إلى بلاد الروم وعليه معول أهل صقلية وايطالية وانكبروده وقلورية وجميع سواحل الأرض الكبيرة لكثرته وطيبه وقد كانوا ملكوا هذه الجهات الساحلية الى أن أخرجهم منها أمير المؤمنين سنة 555 هـ .

مدينة المهدية :

وهي مدينة عظيمة بناها عبيد الله الشيعي إذ قام عليه أبو عبد الله الداعي وهو الذي أقامه ونصره ودخل عليه سجلماسه وأخرجه من سجن مدرار ، ثم استحال عليه وأراد خلعه وأعانه على ذلك أشياخ كتامة وكان يقول للناس إنه هو يهودي وضعته مكان العلوي الفاطمي حتى يأتي وأبحث عنه حتى أجده ، فإنه صاحب هذا الأمر ، وقد آن وقته وخبرهما مشهور ، وبين المهدية والقيروان 60 ميلا ، والبحر قد أحاط بمدينة القيروان من جميع جهاتها إلا من الجانب الغربي وفيه بابها ، ولها ربض كبير يسمى زويلة ، وفيه الأسواق وللمهدية أسواق مبنية بالصخر الجليل ، ولها بابان من حديد لا خشب فيهما زنة كل واحد منهما 1000 قنطار وطوله 30 شبرا وفيها صور الحيوان ، وهي من أعجب ما عمل في الاسلام وفي المهدية 360 ماجلا ، لماء المطر ، سوى ما جرى إليها من القناة التي جلبها اليها عبيدالله من قرية مشانس وهي على مقربة من المهدية وللمهدية مرسى للمراكب من عجائب العالم فإنه منقور في حجر صلد يسع 30 مركبا ، وكان على المرسى برجان بينهما سلسلة حديد من أغرب ما عمل . واذا أرادوا أن تدخل سفينة أو مركب أرسل حراس البحر السلسلة حتى تدخل السفينة ثم مدوها كما كانت وذلك تحصينا لئلا تطرقها مراكب الروم من صقلية وغيرها كما كان في أيام الحسن الذي دخلها الروم عليه وذلك مشهور في جميع الأقطار .

مدينة جلولا :

مدينة قديمة أزلية لها حصن وعين سرة في وسطها وهي كثيرة البساتين والأشجار ، غزيرة الفواكه والثمار والأزهار والرياحين بها كثير جدا ، وأكثر رياحينها الياسمين وبطيب عسلها يضرب المثل لكثرة ياسمينها وحرش نحلها له وأكثر فواكه القيروان تجلب اليها من جلولة .

مدينة سوسة :

مدينة أزلية قديمة فيها آثار للأول ، وهي على ساحل البحر وفيها بنيان عظيم يسمى الملعب وهو من أغرب البنيان فيها أقباء معقودة بحجر النشيف الذي يطفو فوق الماء المجلوب من بركان صقلية وداخل سور المدينة هيكل عظيم يسميه البحريون ، القنطاس ، وهو أول ما يرون من البحر اذا قصدوا من صقليه وغيرها . وسوسة في سند عال ترى دورها من بحر صقلية وهي مخصوصة بكثير من الأمتعة وجودة الثياب الرقاق وقصارتها . وجميع أشغال الثياب الرفيعة من طرزها وكمدها لا يصنع في بلد مثل صنعته بهذه المدينة والثياب السوسية معلومة لا يوجد لها نظير ، لها بياض رائق وبصيص لا يوجد في غيرها ومنها تجلت الثياب الرفيعة ، مثل عمائم المعمور وغيرها تساوي منها العمامة 100 دينار وأزيد يحمله التجار الى جميع البلاد شرقا وغربا ، ويباع الغزل بها زنة المثقال بمثقالين . ولحم سوسة من أطيب لحوم افريقية ، لطيب مراعيها ، وبالقرب منها محرس المنستير الذي جاء في الأثر وهو حصن عالي البناء متقن العمل ،

وفيه جماعة من الصالحين الذين سمحوا أنفسهم فيه منفردين عن الأهل والعشائر ، وأهل تلك البلاد يخرجون إليهم الصدقات وبقربه نحو 5 محارس متقنة البناء معمورة بالصالحين .

مدينة تونس :

مدينة عظيمة بينها وبين القيروان مسيرة 3 أيام وبينها وبين البحر نحو أربعة أيام وبينها وبين قرطاجة نحو 10 أميال ومرساها واحد يسمي رادس ويقال أن بحر رادس خرق الخضر عم السفينة ، وكان الملك المذكور في القرآن الذي كان يأخذ كل سفينة غصبا ، ملك قرطاجنة ، وكان يسمي الجلندا ، وبين المرسى وتونس بحيرة يقول أهل تونس أنها كانت من نحو 100 سنة أرضا لهم كثيرة الجنات والمياه والزرع طيبة الفواكه ، فغلب عليها ماء البحر وهم يعرفون موضع ضياعهم فيها الى الآن ، ومدينة تونس مدينة قديمة البناء لها سور عظيم ويدور بها حفير يقال أن دورها 24 ألف ذراع ، وبها جامع متقن البناء مليح الصنعة مطل على البحر وهو من عجائب الدنيا ، ومدينة تونس في سفح جبل وبها مبان عجيبة ، وأكثر عضادات أبواب دورهم رخام أبيض لوحان قائمان وثالث معترض مكان العتبة ، ومن الأمثال بافريقية : دور تونس أبوابها رخام وداخلها سخام وهي دار علم وفقه وأهلها موصوفون بالقيام على الولاة ، يعد لأهل القيام على أمر اسم نحو الـ 20 مرة لأنها أكثر البلاد باغة وغوغاء وأن سلامتها من شقى مايورقه لمن براهين هذا الأمر العالي ، وما ذلك إلا لسعادة سيدنا ومولانا أمير المؤمنين أيده الله .

وبالقرب من تونس بنحو 15 أميال نهر كبير يسمي مجردة وهو الطريق الى المغرب ويقال أن من شرب من مائه قسي قلبه ، فأكثر الناس يتجنبون شربه ومدينة تونس أشرف مدن افريقية وأطيبها ثمرا وأنفسها فاكهة فمن ذلك اللوز الفريك ، يفرك بعضه بعضا دون أن تمسه يد لرقة قشرته ، وكذلك الرمان والأترج والسفرجل والتين وجميع الفواكه لا يوجد لها نظير ، وفيها من أجناس الحوت البحري ما لا يحصي بكثرة ، وكان اسمها في القديم ترشيش وإنما سميت تونس في أيام الإسلام ، وذلك أن المسلمين إذ فتحوا افريقية على الروم كانوا يضربون على بلادها وكان بقرب ترشيش هذه صومعة راهب فكانت سريا المسلمين تنزل بازاء تلك الصومعة وتانس بصوت الراهب، فيقولون هذه الصومعة تونس ، فلزمها هذا الإسم فسميت تونس .

مدينة قرطاجنة :

بينها وبين تونس 15 أميال ومرساها واحد وهي من المدن المشهورة فيها من الآثار وعجائب البنيان ما ليس في بلد شرقا ولا غربا وقيل لو دخلها انسان ومشي فيها عمره يتأمل آثارها لرأي فيها كل يوم أعجوبة لم يرها من قبل فيقال أن ملكها كان ملكا عظيما جبارا وكان ملك أكثر الأرض وكان يسمى أنبيل ، فدخل بلاد الروم وقتل ملوكها وأخذ بلادهم ، وبعث لقرطاجنة من خواتم الملوك الذين قتل ، 3 أمداد ويقال أنه نازل مدينة روما الكبرى التي هي دار مملكة الروم فلما حاصرها وضيّق



على ملكها وأفسد أقطارها أرسل ملك روما قائدا من قواده ، فحشر من كان ببلاده من الروم والجيوش وأمرهم بالوصول إلى بلاد افريقية ونزلوا على قرطاجنة ولم يـر فيها من يعاونهم فأرسلوا إلى ملكهم أنبيل يعلمونه بما حل ببلادهم من البلاء من أهل رومة ويسألونه الاسراع لإغاثتهم ، قال فعجب من ذلك ملك قرطاجنة ، وقال أردت قطع رسم الرومانيين من الدنيا ، وأظن إله السماء أراد غير ذلك ثم رجع الى بلاده مسرعا فزحف إليه شبيون قائد صاحب رومة فهزمه مرارا عديدة حتى قتله واستأصل عسكره ودخل قرطاجنة فهدمها وأحرقها وخرب المسلمون بقيتها ، وذلك مشهورا وليس يسكن منها الآن الا قصر واحد يسمى بالمعلقة ، وبناؤه من أغرب ما يكون البناء مفرط العظم والعلوا قباء معقودة بعضها فوق بعض طبقات كثيرة وهو مطل على البحر وهو حصن عظيم .

وبقرطاجنة دار الملعب ويسميه أهل تلك البلاد بالطياطر هو كله أقباء معقودة على سواري رخام وعليها مثلها نحو أربع مرات وقد أحاطت بالدار ، والدار دائرة من أغرب ما يكون من البناء ولها أبواب كثيرة وقد صور على كل منها صورة نوع من الحيوان وقد صور في الحيطان صور جميع الصناع بأيديهم الآتهم وفي هذه الدار من الرخام مالو اجمع أهل افريقية على نقله ما قدروا عليه لكثرته وكان فيها قصران يعرفان بالأختين ليس فيهما حجر سوى الرخام ورخام الواحدة لا يشبه رخام الثاني ، ويوجد فيها لوح رخام طوله 30 شبرا وعرضه 15 شبرا ويقال أنه وجد في غربيها بيت من لوح واحد والناس ينقلون من رخام هذين القصرين لحسنه على قدم الزمان ، وما فرغ إلى الآن وبهذين القصرين ماء مجلوب من ناحية الجوف لا يعرف منبعه وكانت عليه نواعير وسواقي تسقى بساتينهم وكان بها قصر عظيم مطل على البحر يسمى قومس وهو من أعجب ما فيها لأنه مبني على سوارى رخام مفرطة الكبر والعظم يجلس على رأس السارية 12 رجلا بينهم سفرة طعام أو شراب وهي مشطبة ، كالثلج بياضا يكون دور السارية منها 30 شبرا في علو مفرط وعليها سوارى أخرى معترضة وقد بني القصر على أقباء معقودة بعضها فوق بعض بأغرب صناعة وأحكم بناء فكان هذا القصر حصنا وإنما هدم من عهد قريب وذلك أنه تحصن فيه قوم من القطاع فكانوا يقطعون بتلك الجهات ويلجأون إليه فخرج إليهم أهل تونس وقتلوهم وهدموا القصر وبقربه موضع فيه أقباء ودهاليز تحت الأرض يهاب الدخول فيها ، وفيها جثث الموتى على حالها فإذا مست تلاشت لقدمها .

وداخل ميناء المدينة تدخله مراكب بقلوعها وفيها مواجل كثيرة للماء وبعضها تسمى مواجل الشياطين بسبب (أن) من يقرب منها يسمع فيها دويا والناس يتقايسون في الدخول فيها فمن جسر على الدخول فيها علم أنه جريء قوي القلب وقد دخلتها بالنهار مع أصحاب لي فرأيت منظرا هائلا ، من تكلم فيها بأدني كلمة يسمع لها دوي عظيم ، وأغرب ما رأيت فيها الماء باق إلى الآن ، وليس يدخلها ماء المطر ، وذلك لإحكام سطوحها ، وهي 18 صهريجا ، منفوذة بعضها إلى بعض في ارتفاع نحو 200 ذراع ، في عرض كبير وفيها من الماء نحو 16 قيام ، ولا يعلم من أين يدخل ذلك الماء .

ومن عجائب الدنيا بنيان القناة التي كان يأتي الماء المجلوب من عين جفان إلى مدينة قرطاجة على مسيرة خمسة أيام وهي قناة عظيمة كان يأتي عليها ماء كثير بـ 5 أرجاء أو أكثر وعرض القناة نحو 8 أشبار ، وأرتفاع مائها نحو القامة ونصف تغيب مرة نحت الأرض في المواضع المرتفعة وإذا جازت على المواضع المنخفضة تكون على قناطر فوقها قناطر حتى تساوي السحاب علوا ، وهي من أغرب بنيان الأرض ، وفي وسط المدينة صهريج كبير حوله في وقتنا هذا نحو 170 ساقية سوى ما تهدم منها وكان يقع فيها الماء المجلوب في هذه القناة ويخرج من هذا الصهريج إلى بعض تلك المواجل ورأيت في بعض أرجل تلك القناطر كتابة في حجر قيل أنها ترجمت فوجدت هذا من عمل أهل سمرقند .

مدينة بنزرت :

على البحر بينها وبين تونس نحو يومين وفيها آثار للاول وصخر قديم ولها نهر كبير يصب في البحر ، وفيه حوت كثير وبالقرب منها بحيرة تنسب الى بنزرت يدخل اليها ماء البحر وهي ملحة ، وفيها من أنواع الحوت ما لا يحصى ، يصطاد فيها من كل شهر من الشهور الأعجمية نوع من الحوت لا يوجد (فيها) ذلك النوع إلى الشهر بعينه من العام القابل ولها غلة عظيمة فان منها يحمل الحوت إلى جميع بلاد افريقية . وأكثر حوت تونس إنما هو من بنزرت وأجناس هذا الحوت وأنواعه تتبصر وتبقى أعواما صحيحة الجرم لذيذة الطعم وأكثر ما يتمكن من صيد الحوت ما بين البحر وهذه البحيرة وذلك أن الحوت يتوالد في البحر ويخرج منه صغير كالذر ، فيتربى في هذه البحيرة ثم يرجع في وقت سفادة وولادته إلى البحر ، فيصطادك في البحر الذي بينهما ومنه يصطاد بالنقازة كما يصطاد الحمام وهذه النقازة هي أنثى الحوت المعروف بالبوري فيأتي التاجر إلى الصياد فيتفق معه على عدد معلوم فيخرج النقازة ويرسلها وقد ربط خيطا في خرص وثيق في شفتها فتسير في البحر ويتبعها في زورقها وشبكته وتدور عليها الذكور . فيطرح عليهم شبكته ويخرج ماقدر له ويعيد أبدا حتى يستوفي أربه وعلى مقربة من هذه البحيرة إلى جهة البر بحيرتان إحداهما حلوة والأخرى ملحة من غير أن يدخلها ماء البحر تنصب كل واحدة منها بالأخرى ستة أشهر على التوالي لا يتغير لواحدة منهما طعم فلا الحلوة تصير ملحة ولا الملحة تصير حلوة .

مدينة طبرقة :

مدينة قديمة فيها آثار كثيرة للاول وهي على نهر كبير بقرب البحر تدخل (منه السفن الى باب المدينة) .

مرسى الخرز :

وبالقرب منها (طبرقة) مرسى الخرز وهي مدينة قديمة قد أحاط بها البحر من كل جهة إلا مسلك لطيف وربما قطعه البحر في زمن الشتاء وعليها سور قديم وبها كانت تنشأ المراكب

لغزو بلاد الروم وفيها يخرج المرجان ومنها يحمل الى بلاد الدنيا وهناك قوم لهم مراكب وزوارق ليس لهم حرفة الا إخراج المرجان من قعر البحر وهو نبات مشجر له أغصان وصورة إخراجه من البحر (أن) لهم خشبا قد صلب بعضها على بعض ويلقون عليها جرات الكتان أو القنب يثقلونها بمراسم ويلقونها في البحر ويمشون بالزوارق فبنجر ذلك الكتان على قعر البحر فينكسر المرجان ويتعلق بالكتان فيتفقدونه ويأخذون ما تعلق منه ويقال أن المرجان إذا كان في قعر البحر إنما هو رطب لين فإذا مسه الهواء أشتد وتخرج منه في ذلك البحر كل سنة من القناطير وهو أنفس مرجان الدنيا وهو أنفق شيء بالهند والصين ويكون ببحر الزقاق ساحل قرية بليونش من قرى سبته وهو مثل هذا في الطيب أو أجل ويكون في بحر الأندلس ويكون في بعض جزائر البحر الأخضر وهذا أنفذها .

مدينة بونة :

مدينة قديمة من بناء الأول وفيها آثار كثيرة وهي على ربوة مشرفة على فحوصها وقراها ، وهي من أنزه البلاد وأكثرها لبنا ولحما وعسلا وحوتا والبحر يضرب في سورها وفيها بئر على ضفةِ البحر منقوره في حجر صلد ماؤه أعذب ماء وانفقه ومنها يشرب أكثر أهلها لعذوبة مائها وبقرب هذه المدينة ماء سائح يسقى بساتينها وأرضها وموضع جناتها متنزه حسن مشرف على البحر ويطل على مدينة بونة جبل زغوغ وهو كثير الثلج والبرد ومن العجائب أن فيه مسجدا قديما لا ينزل عليه شيء من ذلك الثلج فإن عم الثلج الجبل كله رأيت المسجد في وسطه كأنه شامة ويعزبي مدينةبونه بركة في دورها نحو 15 أميال وفيها سمك كثير جليل وفيها طائر يعرف بالكيكل بالخواص وهو يعيش على وجه الماء ويفرخ فان أحس بحيوان أو إنسان يروم أخذه رفع عشه بفراخه برجليه حتى يصيره في وسط البركة حيث يأمن وهو طائر حسن وهو الذي يسمى في مصر بالخواص ويتخذ بمصر من جلده ثياب للينها وجمالها وتباع بأثمنة الغالية ، ومرسى مدينة بونة يسمى مرسى مدينة الازقاق ، وهو من المراسي المشهورة وبونة في جون من البحر يسمى جون الأزقاق وهو صعب وفيه عطب مركب القيطاني ومركب الفخرى ومراكب كثيرة .

مدينة القل :

مدينة قديمة فيها آثار كثيرة للأول من الروم وهي على ضفة البحر وهي مرسى مدينة القسطنطينية ، وهي كثيرة الفواكه والخيرات والعنب فيها كثير ، وفيها تفاح جليل ولها نظرة وجباية عظيمة وهي برية بحرية .

مدينة جيجل :

مدينة قديمة على البحر كان لها سور قديم يضرب البحر فيه وهي على نظر كبير وهي كثيرة العنب والتفاح والفواكه ، ومنها تحمل الفواكه والعنب والرُّب الى مدينة بجاية . وعلى هذه المدينة جبل كتامة ويسمى جبل زلدوي ، وهو كثير الخصب فيه قبائل كثيرة من البربر ، وفيه كانت دعوة أبي عبد الله

الداعي ، وبين جيجل وبجاية على ساحل البحر موضع يسمى المنصورية ، عليه جبل عظيم . البرمنه حافة مثل الحائط ، فيها ثقب في غلظ حجر الربع الموزون به ، ينبعث منه ماء في كل وقت من الأوقات المعهودة بالصلوات الخمس يسمع قبل انبعاثه دوي كدوي الرحى الفارغة . ينبعث الماء هكذا ليلاً ونهاراً .

مدينة بجاية :

هي مدينة عظيمة على ضفة البحر والبحر يضرب في سورها . وهي محدثة من بناء ملوك صنهاجة ، أصحاب قلعة إبن أبي اطويل وتعرف بقلعة حماد اليوم ، وكان سبب بناءها أن العرب لما دخلوا افريقية ، وأفسدوا القيروان وأكثر مدن افريقية ، هرب منهم صاحب القيروان الصنهاجي وتحصن بمدينة المهدية وكان بن عمه ، صاحب القلعة ، المتصور بن حماد أشد شوكة من صاحب القيروان وأكثر جيشا فخرج لنصرة إبن عمه وجيش جيشا كبيراً فلقيته العرب بجملتها بفحص سبيبه على مقربة من القيروان فكان منهم يوم عظيم حتى هزم المنصور وقتل أخوه وأكثر صنهاجة . بناها المنصور وسماها المنصورية (كذا والاصح الناصرية). وأنتقل ملكهم من القلعة الى بجاية واتخذها دار مملكتهم وبينها وبين قلعة بني حماد مسيرة أربعة أيام .

وهي مدينة عظيمة ما بين جبال شامخة أحاطت بها في 3 جهات : وفي الشرق والغرب والجنوب . ولها طريق إلى جهة المغرب يسمى بالمضيق على ضفة النهر المسمى بالوادي الكبير وطريق القبلة إلى قلعة بني حماد على عقاب وأوعار ، وكذلك طريقها إلى الشرق وليس لها طريق سهلة إلا من جهة الغرب فلم يكن للعرب إليها سبيل ، ولا كان يدخل (إليها) ، من العرب إلا من كان يبعث إليه الملك لمصانعته لبلاد القلعة وغيرها فيدخلها أفراد وفرسان دون عسكر ، فبقي صاحب القلعة في ملك شامخ وعز باذخ يضاهي في ملكه صاحب مصر . فان بجاية على نظر كبير وفائد عظيم . وبجاية معلقة من جبل . وقد دخل في البحر يسمى أميسون ، وعليها سور عظيم والبحر يضرب فيه ولها داران لصناعة المراكب وإنشاء السفن . ومنها تغزى بلاد الروم ، فإنها ليس بينها وبين صقلية سوى 3 مجار ، وهي مرسى عظيمة تحط فيه سفن الروم [و] من الشام وغيرها من أقصى بلاد الروم وسفن المسلمين من الاسكندرية . بطرف بلاد مصر وبلاد اليمن والهند والصين وغيرها . ومدينة بجاية كثيرة الفواكه والثمار وجميع الخيرات وهي مشرقة نزيهة ، ومطلة على البحر ، وعلى فحص قد أحاطت به جبال ، دوره نحوه 10 أميال تسقيه أنهار وعيون وفيه أكثر بساتينهم ولها نهر كبير يقرب منها بنحو الميلين ، أودونهما ، وعليه كثير من جناته . وقد صنعت عليه نواعير تسقى من أنهر ، وله منتزه عظيم . وفي بجاية موضع يعرف باللؤلؤة ، وهو أنف من الجبل قد خرج في البحر متصل بالمدينة فيه قصور من بناء ملوك صنهاجة لم ير الراءون أحسن منها بناء ولا أنزه موضعا . فيها طاقات مشرفة على البحر عليها شبابيك الحديد والأبواب المخرمة المحنية والمجالس المقرصة المبنية حيطانها بالرخام الأبيض من أعلاها إلى أسفلها ، قد نقشت أحسن نقش

وأنزلت بالذهب واللازورد وقد كتبت فيها الكتابات المحسنة وصورت فيها الصور الحسنة فجاءت من أحسن القصور وأتمها منتزها وجمالا .

وهذا الجبل أميسون الذي فيه بجاية ، جبل عظيم عال قد ذهب في الجو ، وقد خرج في البحر وفيه مياه ساخنة وعيون كثيرة وبساتين وهو كثير القرده ، ويكون فيه الحيوان المشوك المسمى بالدرب .

قال الناظر : لما كانت هذه المدينة على ما وصفت وكانت فيها بقية صنهاجة الموتورين جعلوا يداخلون أمثالهم ممن وترت دنياه وأخراه كاهل ميروقة المنقطعين فيها من أبناء جنسهم فدهم بجاية منهم على بن إسحاق ابن حمو بن غانية المتوفى سنة 580 هـ (1184 م) أول ولاية الخليفة أمير المؤمنين أبي يوسف أيده الله وأعزه ونصره .

مرسى الدجاج :

مدينة ،أزلية على شاطيء البحر ، والبحر يضرب في سورها وهي قديمة البناء ، وفيها آثار عجيبة للاول ، ولها بساتين وجنات ، وبها الطير المسمى بالسماني كثير . من البحر يقابلها جزيرة ميورقة .

جزائر بني مزغناي

مدينة أزلية على ضفة البحر والبحر يضرب في سورها وهي قديمة البناء أزلية فيها اثارية عجيبة تدل على أنها كانت دار مملكة لسابق الأمم وفيها دار ملعب قد فرش صحنه بحجارة ملونة مثل الفسيفساء فيها صور الخيل والحيوان بأحكم صناعة وأبدع عمل . ويتصل بجزائر بني مزغناي فحص كبير يسمى فحص متيجة وهو فحص كبير عظيم كثير الخصب ، والقرى والعمائر ، تشقه الأنهار . وهو مثلها ، قد أحدقت به الجبال مثل الإكليل ، وفي آخر هذا الفحص جبل عليه الطريق وهو وعر المجاز ، يسمى حلق واجر ، ويسميه أهل البلاد باب الغرب ، وليس يدخل إلى الغرب إلا منه وكانت بمدينة بني مزغناي كنيسة عظيمة فيها عجائب من البنيان بقي اليوم منه جدار ، هو قبلة الشريعة للعيدين ، وهو كثير النقوش والصور ومرساها مامون وفيه عين عذبة يقصد إليها أصحاب السفن . ويقابل هذا المرسى من الأندلس مرسى شكلة ، وتليها بجهة الغرب ، مدينة لغانية .

مدينة شرشال :

وهي مدينة كبيرة فيها آثار كبيرة للأول وهي غير مسكونة ، وفيها بنيان عجيب ، يسمى محراب سليمان ، قد علا في الهواء ويقابله من الأندلس مرسى الاقنت .

مدينة تنس :

بينها وبين البحر ميلان وهي مدينة مسورة وداخلها قصبة صعبة المرتقى يتفرد بسكناها عامل تنس لمنعتها وبها جامع وأسواق حفيلة كثير ولها نهر يسمى تامَن ياتيها من جبال القبلة ثم يستدير بها من جهة الشمال والجوف ويصب في البحر وهي كثيرة الزرع رخيصة الأسعار ، منها يحمل الطعام إلى الأندلس

وإلى بلاد افريقية وإلى بلاد المغرب ، لكثرة الزرع عندهم ، ولكنها وبيئة من يدخلها لا يسلم من المرض وكثيرا ما يموت بها الغرباء .

مدينة وهران :

مدينة على ضفة البحر بناها جماعة من الأندلسيين البحريين بسبب المرسى بالاتقان مع قبائل البربر المجاورين لها فسكنوها مع قبائل من البربر يقال لهم بني مسكين نحو 7 أعوام ثم انه زحف اليهم قبائل كثيرة من البربر يطلبون ثارا بينهم وبين بني مسكين ، فأبي من كان فيها من الأندلسيين وكان عندهم جماعة منهم ، فنصبوا الحرب عليهم ، فلما ضيقوا عليهم هرب بنو مسكين في الليل وتغلب البربر المحاصرين لها عليها ، وأخرجوا من كان فيها وأضرموا نارا فخُرِّبت وهران عند ذلك وبقيت سنين خاوية ، ثم تراجع الناس اليها وبنوا فعادت أحسن مما كانت ، وهي مدينة كثيرة البساتين والثمار ولها ماء سائح وأنهار كثيرة وأرجاء وعيون وهي من أعز البلاد ولها نظر كبير ، فيه قرية كبيرة ، فيها آثار قديمة ، وأهلها موصوفون بعظم الخلق وكمال القامة ، والإباء والشدة . قال أبو عبيد البكري أخبرني غير واحد ممن دخل هذه القرية ورأى أهلها أن الرجل الكامل من غيرهم يكون الى منكب الرجل منهم وأنه كان رجل منهم أراد أن يقيم بيتا فاقتطع الف كلخة وحملها على ظهره وسوى منها بيتاً كبيراً وسكنه . ولوهران مرسى كبير مشتى للسفن يكن من الريح لأنه في حوزجبل مطل على وهران مرتفع .

مدينة أرشغول :

مدينة قديمة أزلية فيها آثار كثيرة وهي على نهر تافنا ، وهو نهر كبير تدخل فيه السفن ، والمدينة قريبة من البحر تصل اليها المراكب اللطاف ، وهي ساحل تلمسان بينها وبين تلمسان فحص زيدور لحرث القمح وهو مبارك مشهور البركة .

مدينة أسلى :

وهي في شرق أرشغول بمقربة منها وكانت مدينة قديمة عليها سور من صخر وكانت حصينة ولها نهر يسقي بساتينها وثمارها .

مدينة ندرومة :

من طرف جبل تاجرا وهي مدينة حسنة كثيرة الزرع والفواكه رخيصة الأسعار ولها بسائط خصبية ومزارع كثيرة بينها وبين البحر 10 أميال وبساحلها نهر ماء يسيل وهو نهر كثير الثمار وله مرسى مأمون مقصود ، وعليه رباط حسن فيتبرك به .

مدينة نُكَر :

وهي مدينة كبيرة وبينها وبين البحر نحو 10 أميال ، وهي بين رواب وجبال ، ولها نهران أحدهما يسمى نكر ، وبه سميت ، ومخرجه من بلاد كزناية ، من جبل كوين ، ومن هذا الجبل ينبعث النهر

المعروف بورغة ، وهو نهر كبير مشهور من أنهار المغرب . ومدينة نكُر كثيرة البساتين طيبة الفواكه ، لا سيما الكمثري والرمان ، فليس يوجد مثلها في بلدة ، وهي قديمة أزلية افتتحها سعيد بن ادريس بن صالح الحميري ، وهو المعروف بالعبد الصالح ، في أيام الوليد ابن عبد المالك بن مروان وكان دخل أرض المغرب في الافتتاح الأول قبل موسى بن نصير وعلى يديه أسلم البربر المجاورون لهذه المدينة ، وهم صنهاجة وغمارة ، ثم ارتد منهم بشر كثير لما ثقلت عليهم شرائع الإسلام ، ثم تلافاهم الله بهدايته ، ومات سعيد المذكور ودفن بقرية أقطى على شط البحر ، وولي ذلك البلد بنوه ، وكانت لهم حروب كثيرة مع قبائل البربر وكانوا قد تصاهروا مع الحسنيين من بني ادريس ، ملوك المغرب ويجاور مدينة نُكُر جبال غمارة وتحته مراسي كثيرة منها مرسى باديس ، عليه غمارة كثيرة من البربر ، وفيه السعر رخيص ، ومنه تحمل المراكب الطعام .

مدينة تيطوان :

وهي مدينة قديمة كثيرة العيون والفواكه والزرع طيبة الهواء والماء .

مـدينـة سبتـة :

وهي على ضفة البحر ، وهو بحر الزقاق ، والبحر قد أحاط بها شرقا وجوفا ، وقبلة ، وليس لها إلى البر غير طريق واحد من ناحية الغرب شاء أهلها أن يقطعوه لقطعوه . ولها بابان أحدهما محدث ، ولها من جهة البحر أبواب كثيرة . وفي آخر المدينة بشرقها ، جبل كبير في شعراء كثيفة يسمى الميناء ، وقد كان محمد بن أبي عامر أمران يبني بهذا الجبل مدينة وينقل إليها أهل سبتة ، فبني سورها ومات ولم يتم ما أراد . والسور باق الى وقتنا هذا كأنه مبني بالأمس ، وهو يظهر من بر الأندلس لبياضه . ومن غريب ما في ذلك السور أن فيه شقة مستطيلة بأبراجها مبنية بالزيت عوضا من الماء وكان غرضه إتمام عمله على هذا لولا الانفاق الكثير ، فإن البناء بالزيت أصلب وأبقى على مرور الدهور والأزمان فلم يساعده الأجل ، رحمه الله .

ومدينة سبتة مدينة قديمة سكنها الأول ، فيها آثار كثيرة وكان لها ماء مجلوب من نهر قرية أويات على 3 أميال منها يجري الماء في قناة مع ضفة البحر القبلي ، الذي يعرف ببحر بسول ، وكان يدخل كنيستها التي هي اليوم جامع سبتة ، وأمر الخليفة أمير المؤمنين يعقوب (رضه) سنة 580 بجلب الماء اليها من قرية بليونش المذكورة على ستة أميال من سبتة ، في قناة تحت الأرض ، حسب ما جلبه الأوائل في قرية قرطاجنة وغيرها ، وشرع (في) العمل وعرضت أمور اجبرت التربص إلى حين يأذن الله بذلك .

مـدينـة طنجـة :

هي مدينة كبيرة أزلية فيها آثار كثيرة للأول وقصور واقباء وغيرها ، وكان فيها ماء مجلوب في قنـــاة

كبيرة وبخارجها ماء طيب يسمونه برقال ، حمل شناعة الحمق ، فهم يعيرون بشربه ، فيقال لمن تهافت منهم ، شربت ماء برقال ، لا جناح عليك ! وفيه يقول الشاعر :

بطنجة عين ماء وسط رمل
لذيذ ماؤه كالسلسبيل
خفيف وزنه عذب ولكن
يطير بشاربه الف ميل .

وكان فيها رخام وصخر منجور جليل ، منها كانت القنطرة على بحر الزقاق الى ساحل الأندلس التي لم يكن في العالم مثلها . وكانت تمر عليها القوافل والعساكر من ساحل طنجة إلى ساحل الأندلس فلما كان قبل فتح المسلمين للأندلس بنحو 200 سنة طغى ماء البحر وخرج من البحر المحيط الى بحر الزقاق ، فغرقت هذه القنطرة وغيرها من المواضع المجاورة لها ويذكر أن طولها كان 12 ميلا وسعة المجاز اليوم في موضعها 30 ميلا ونحوها ، فتبدو هذه القنطرة للمراكب فيتحفظون منها . ويقال ، أنها تنكشف في آخر الزمان ويجوز عليها الناس ، والله أعلم بغيبه .

وقيل أن طنجة آخر حدود افريقية في المغرب ، والمسافة ما بين طنجة والقيروان 1000 ميل وهي طنجة البيضاء المذكورة في التواريخ . وقيل أن عمل طنجة على مسيرة شهر في مثله ، وأن ملوك المغرب من الروم وغيرهم من الأمم كانت دار مملكتهم مدينة طنجة ، واذا حفرت خرائب طنجة وجدت فيها أصناف الجوهر ، فيدل ذلك على أنها كانت دار مملكة لأمم سالفة .

مدينة أصيلا :

كانت مدينة كبيرة أزلية عامرة آهلة كثيرة الخير والخصب وكان لها مرسى مقصود وكان سبب خرابها أن المجوس اذا خرجوا من البحر الكبير فأول ما يلقون مدينة أصيلا ، فينزلون بمرساها ويخربون ما قدروا منها ، فيجتمع البربر فيحاربونهم فكانوا معهم على ذلك مع ما كان بين أهل تلك البلاد من الفتن ويقال أن المجوس قصدوا اليهم مرة فأجمع البربر لقتالهم فقالوا لهم ، ما جئنا لقتال وإنما لنا ببلادكم أموال وكنوز فافتحوا عنا حتى نستخرجها ونشاطركم فيها ، فرضي البربر بذلك واعتزلوا عن الموضع الذي ذكروا لهم ، فحفر المجوس موضعا من تلك المواضيع التي زعموا فوجدوا على الخبء مطامير من الدخن ، فاستخرجوه فلما نظر البربر من بعيد الى صفرة الدخن ظنوه تبرا ، فبدروا اليهم ونقضوا عهدهم وهرب المجوس الى مراكبهم فلما أصاب البربر الدخن ندموا فرغبوا الى المجوس أن يرجعوا الى استخراج المال ، فأبوا فقالوا : قد رأينا منكم نقض العهد فلا نأمنكم أبدا .

مدينة تشمش :

وهي مدينة قديمة أزلية فيها آثار للأول وهي على نظر واسع كثير الخصب والزرع والضرع ، وهي تشبه بلاد الأندلس ويقربها بحيرة كبيرة تسمى امسنا ، يصب فيها البحر 7 أعوام وتصب هي في البحر

7 أعْوام وينقطع البحر عنها فتظهر فيها جزائر بينها جدران ، يتصيد فيها أنواع السمك وبين البحر والبحيرة مسجد مقصود .

مـديـنــة سَــــلاَ :

اسمها بالعجمي شله ، وهي مدينة أزلية فيها آثار للأول وهي معروفة بضفة الوادي متصلة بالعمارة التي أحدثها الخليفة الامام أمير المؤمنين وآباؤه الكرام ، وقد كان اتخذ أرباب البلد العرشيون واولياؤهم مدينة بالعدوة الشرقية ، وهي المعروفة الآن بسلا ، فيها ديارهم بحومة الجامع ولم يبق منهم سوى المنار ، وأما السقف فكله تهدم واحتمى الغرباء في بنائه في سنة 574 وأمر أمير الخليفة أبويعقوب (رضه) ببناء مدينة كبيرة متصلة بالقصبة التي أحدثها الامام أمير المؤمنين وفي هذه القصبة جامع وقصور وصهاريج الماء أمام الجامع ، وهو مجلوب من نحو 20 ميلا . وفي هذه المدينة المحدثة قيصارية عظيمة وحمامات وفنادق وديار كثيرة ومياه مطردة وسقايات ومنافع أعدت لورود المحلات عليها اذ (أن) وضعها على المجاز والمعبر الى حضرة مراكش كلأها الله . وعلى هذا المعبر قنطرة مركبة على 23 معدية مدت عليها أوصال الخشب وصلبت عليها الألواح ، والفرش الوثيق الذي لا يؤثر فيه الحافز تجوز عليها العساكر والمسافرون وحولها يتصيد أنواع السمك ، الشابل يمد البحر فترتفع القنطرة ويتغطى الجسر فتعوم عليه المراكب وترسو دونه الأجفان الكبار ، وقلما تسلم عند دخولها وخروجها لصعوبة المدخل ، وهو مشهور عند أهل صنعة أهل البحر ، ويقابله من مراسي الأندلس وادي شلب ، وبينهما في البحر يوم وليلة . وهذه المدينة قد شرفها هذا الأمر العزيز وكرمها بما أحدثه فيها من المباني الرفيعة والمنارة البديعة وما هي وقت مرور المحلات عليها إلا من عجائب منتزهات الدنيا ، لا سيما في الأعوام الخصبة والفصول المتعدلة ، وناهيك من ساحل طوله نحو الميلين وعرضه نحو الميل مملوء من البشر والزوارق في الوادي بركابها والمنارة المطلة وعلاقات الثمار وعقد الزيتون وجدر الكومات وقبب الجلوس للسادات ايدهم الله ظاهرة وقبلة الجامع وأكثر منارة ذلك الحصن المشرف ظاهرة من المدينة وما هي في أوقاتها الا أملح من ديار مصر وما يحكي عن دجلة والفرات فانا لله على الفناء والممات .

مـديـنــة بـرقــة :

مدينة كبيرة أزلية قديمة ، فيها آثار كثيرة للأول وهي في صحراء حمراء التربة والمباني فتحمر لذلك ثياب ساكنيها والمتصرفين فيها وعلى ستة أميال منها جبل كثير الخصب والفواكه والمياه السائحة . وأرض برقة كثيرة الخصب تصلح السائمة في مراعيها وأكثر ذبائح أهل مصر والأسكندرين من غنم برقة لعظم خلقها وكثرة شحمها ولذة لحمها واسمها باللغة الاغريقية بنطابلس تفسيره 5 مدن . ويذكر أن في تلك الخرائب التي ببرقة والآثار القديمة دار منقورة في حجر صلد عليها باب من حجر صلد كذلك من أغرب ما يكون في الدنيا : لا تدخل الذرة بين العصادة والباب ، ولابين العتبة والباب ، ولا يفتح الباب الا للداخل ولا يقدر لأحد على الخروج منه الا أن يدخل عليه آخر . ويقال أنه كان

مفتوحا لا قفل له . وأخبرني بعض من دخل ذلك الطريق أن رجلا دخل فيه ليرى الدار فرأى دارا منقورة في حجر صلد وفيها من عظام الناس كثير فهاله كذلك فأراد الخروج فوجد الباب قد أنغلق ولم يقدر على فتحه وأيقن بالهلكة حتى طلبه بعض أصحابه ، فجاء الى ذلك الباب فسمع صوته يستغيث بفتح الباب ففتحه وخرج الرجل وفي تلك الآثار عجائب لمن يتأملها .

مـدينة اجـدابيـة :

مدينة كبيرة في صحراء صفا وآبارها منقورة في ذلك الصفا طيبة الهواء والماء وبها عين ثرة عذبة ، ولها بساتين ونخل يسير ، وبها جامع حسن البناء ، بناه الشيعي ، وله صومعة مثمنة بديعة العمل وبها حمامات وفنادق كثيرة ، وأسواق حافلة مقصودة وأهلها ذو ويسار وأكثرهم أقباط وبها نبذ من صحراء لواته وليس لمبانيها سقوف من خشب ، وإنما هي أقباء من الطوب لكثرة الرياح ، بها ثم كذلك قبائل البربر والعرب الى جبل نفوسة ، وطوله من المشرق الى المغرب 6 أيام ، وبينه وبين القيروان ستة أيام ، وفيه مدن كثيرة وفي هذا الجبل مواضع كثيرة فيها آثار قديمة للأول عجيبة غرائب لمن تأملها ووصل عمرو بن العاص رحمه الله ، الى جبل نفوسة وافتتحه وكان أهله نصارى . وفي وسط هذا الجبل مدينة جادو (وهي) مدينة كبيرة لها أسواق حافلة وأكثر أهلها يهود ، وهي أم قرى جبل نفوسة .

مـدينـة غـدامـس :

مدينة لطيفة قديمة أزلية واليها ينسب الجلد الغدامسي وبها دوامس وكهوف كانت سجونا للملكة الكاهنة التي كانت بافريقية وهذه الكهوف من بناء الأولين ، فيها غرائب من البناء والأزاج المعقودة تحت الأرض مايحار الناظر إليها اذا تأملها تنبيء أنها آثار ملوك سالفة وأمم دارسة وأن تلك الأرض لم تكن صحراء وإنما كانت خصيبة عامرة . وأكثر طعامهم التمر . والكماة تعظم بتلك البلاد حتى تتخذ فيها اليرابيع والأرانب أحجار ، ومن غدامس يدخل الى تادمكة وغيرها من بلاد السودان .

مـدينـة زويلـة :

مدينة كبيرة قديمة أزلية ، في الصحراء تقرب من بلاد كانم وهي من السودان وقد أسلموا بعد 500 من الهجرة ، وهي مجتمع الرفاق واليها يجلب الرقيق ، ومنها يخرج الى بلاد افريقية وغيرها من البلاد ولما فتح عمرو بن العاص برقة وجبل نفوسة بعث عقبة بن نافع حتى بلغ زويلة وافتتحها وصار ما بين برقة وزويلة للمسلمين وبلد زويلة كثير النخل والثمار وبقربها قصر واجان وهو قصر عظيم على رأس جبل في طرف المغارة .

مـدينـة قفصـة :

وهي مدينة كبيرة أزلية لها سور حصين من صخر جليل بأحكم صناعة يخيل لرائيه ، انه كما فرغ من عمله . ويقال أن الذي بناه شيبان غلام النمرود بن كنعان الجبار ، وكان اسمه منقوشا على باب من أبوابها وكانت لها أربعة أبواب فلم تزل هواء أهلها تضطرب وقلوبهم تتقلب من حين توحيدهم

برعمهم ، سنة 555 ه فثاروا على الموحدين وسفكوا دماءهم وقدموا على أنفسهم رجلا منهم يعرف بعلي بن الرند ، فملكهم الى سنة 76(5) ه . وأخرجه منها الخليفة أبو يعقوب ابن الامام الخليفة ، امير المؤمنين ، وولاه على مدينة سلافمات بها ، فبقي ، أهل قفصة الى سنة 81 (5) ه . فمر عليهم الغازي الشقي الميروقي فأدخلوه البلد وملكوه ، وترك بها جماعة من الاغرار الموالين له ، فحصرهم بها الخليفة أبو يوسف رضى الله عنه فرغبوا في عتق رقابهم فعفا الخليفة عن جرمهم وقتل المارقين الميورقين .

وكان اسم مدينة قفصة الحنيَّة ، لأن فيها بنيانا قديما مثل الحنية وكانت تسمى بها وهي متوسطة بين القيروان ومدينة قابس وفي داخلها عيون كثيرة منهما عينان كبيرتان معينتان ليس لهما نظير في عذوبة مائهما وصفائه وكثرته ، احداهما عند باب الجامع تسمى بالوادي الكبير ، وهي عين عظيمة مبنية بالصخر الجليل من بنيان الأول ، سعتها 40 ذراع في مثلها وفوقها عين أصغر منها تسمى راس العين وبينهما قنطرة من بنيان الأول ولا شك أن ماءهما واحد وماء هذه العين الأو لى أزرق شـديـد الصفـاء يرى قعر العين من أعلاها وفيها الماء نحو 7 قيام . والعين الأخرى تحت قصر قفصة وتسمى بالطرميد عليها بنيان عجيب قديم وبازائها مسجد يعرف بمسجد الحواريين ومنبع هذه العين من حجر صلد من ثقب وسع فم الانسان ، وينبعث منه بقوة عظيمة ، وقد بني له صهريج عليه دكاكين مبنية بالحجارة ، وعليه اقباء ، وقد بني فوقه مسجد عظيم ، فاذا أجتمع ماء هذه العين مع ماء العين الكبيرة عند الجامع جاء منهما نهر كبير تطحن عليه رحاء كثيرة ، ويسقي نصف غابة قفصة ونصف أرضها ومزدرعاتها ، والنصف الثاني من غابة قفصة يسقي من عين عظيمة خارج المدينة تسمى عين المنستير ، وهي عين كبيرة معينة عذبة يخرج منها نهر كبير . وهذه العين من أحسن ماترى العيون ، وهي جانب النهر الكبير المسمى بوادي رايش ، وهو يشق غابة قفصة ويسقي بساتينها ، وهو نهر مشهور . ولأهل قفصة في سقي جناتهم هندسة عظيمة و برشام شديد وتدقيق حساب .

وكذلك ليس بافريقية حريم أجمل من حريم قفصة ، مع ملاحة أخلاقهن ، ورخامة منطقهن . ولمدينة قفصة غابة كبيرة قد أحاطت بها من كل ناحية مثل الاكليل ، في تكسير دائرتها نحو 10 أميال فيها من المنازل التي تعرف بالقرى 18 منزلا وعلى الغابة والمنازل والكل حائط يسمونه « سور الغابة » ، وفي ذلك السور أبواب عظام عليها أبراج مسكونة يسمون تلك الأبواب الدروب وغابة قفصة كثيرة النخيل والزيتون وجميع الفواكه التي ليس في بلد مثلها . فيها تفاح عجيب جليل زكي الرائحة يسمونه السدسي لا يوجد في بلد مثله . وكذلك الرمان والاترج والموز لا يوجد مثلها في بلد . وفيها نوع من التمر يسمى بالكسبي ليس مثله في بلد وهو أكثر تمرهم يكون في التمرة فترة في جرم بيض الدجاج تكاد تنفذها ببصرك لصفاء لونها ورقه بشرته وهم يجعلونه في ازيار .

وقفصة أكثر البلاد فستقا حتى أنني أظن ليس بافريقية فستق الا فيها . ومنها يجلب افريقية وبلاذ المغرب وبلاد الأندلس وبلاد مصر فان الذي يجلب من بلاد الشام صغير الحرم ليس مثل القفصي فان القفصي يكاد أن يكون في جرم اللوز .

ويصنع في قفصة أردية وطياليس وعمائم من صوف في نهاية الرقة نصا هي ثياب الشُّرب ، وتصنع بها أوان من خزف تعرف بالريحية شديدة البياض في نهاية من الرقة ليس يعلم لها نظير في جميع البلاد ويصنع بها زجاج حسن ، وأوان عجيبة ، وأوان مذهبة غريبة ، وهي حاضرة في جميع أمورها ، وأهلها ذوو يسار وفيهم خير كثير ولهم صدقات وهم يعظمون يوم عشراء تعظيما كثيرا .

وكانت مدينة قفصة أعظم بلاد افريقية نظرا : كان حولها نحو 200 قصرا آهلة عامرة فيها الأشجار والنخل والزيتون والفستق وجميع الثمار وتسمى قصور قفصة .

مـدينـة تـوزر :

وهي مدينة قديمة عليها سور مبني بالحجارة والطوب وحولها رباض واسعة ولها أربعة أبواب وعليها غابة كبيرة ، وهي من أكثر بلاد الجريد تمرا ، ومنها تمتاز جميع بلاد افريقية وبلاد الصحراء بالتمر لكثرة بها ورخصه ، ولأنها على طرف الصحراء ، لا يعلم ما وراءها ولا قدر أحد على الدخول في الصحراء التي في قبليها وأهلها من بقايا الروم الذين كانوا (بها) قبل استفتاح المسلمين لها ، وكذلك أهل قسطيلية وبلاد الجريــد .

مـدينـة نفطــة :

ومن بلاد قسطيلية نفطة بينها وبين توزر 20 ميلا وهي مدينة كبيرة قديمة عليها سور من بناء الأول ، ولها غابة كثيرة النخل والبساتين وجميع الفواكه وهي كثيرة الخصب ولها نهر يسقى بساتينها ، وهي قديمة خصبية وأهلها ذوو يسار وهم من بقايا الروم .

ومن بلاد الجريد ، بلاد نفزاوة وهو قطر مثل قسطيلية فيه مدن وقصور وعمائر كثيرة متصلة آهلة وهي كثيرة النخيل والبساتين ، كثيرة الخصب وفي بلاد نفزاوة عين كبيرة تسمى بالبربرية تاورغي وهي من بناء الأول ، وليس ببلاد الجريد عين أعظم منها لا يدرك لها قعر .

مـدينـة بـاجـة :

ومن مدن افريقية المشهورة مدينة باجة وهي مدينة أزلية قديمة فيها ، آثار للأول ولها حصن حصين أزلي مبني بالصخر الجليل متقن البناء . ومدينة باجة على جبل شديد البياض يسمى الشمس ، لبياضه . وهي كثيرة الأنهار والعيون ومن تلك العيون عين كبيرة تسمى عين الشمس وهي تحت سور المدينة وباب المدينة بازاء العين . ومدينة باجة رخيصة الأسعار جدا ، فاذا أخصبت البلاد لم تكن للحنطة بها قيمة وتسمى باجة هري افريقية فان بها تمتاز افريقية جميع البلاد عربها وبربرها لكثرة طعامها ، ورخصه وباسمها سميت باجة الغرب بجزيرة الأندلس ، وباجة افريقية على مقربة من فحص قُلَّ المشهور بكثرة الزرع وأرض هذه الفحص أرض مشققة سوداء يجود فيها البذر ويكون فيه حمص وفول ، فلما يوجد مثله في موضع . ومدينة باجة نظر كبير ، ولها قرى كبيرة عامرة .

مـدينـة مجـاتـة :

وتعرف بمجانة المطاحن لأن بها معدنا لقطع حجارة الارحى ليس على الأرض مثله ، وهي مدينة قديمة أزلية ذات مياه.

مـدينـة مـرمجــانـة :

مدينة مرماجنة كانت مدينة كبيرة قديمة أزلية فيها آثار للأول ولها عيون سائحة وهي على نظر واسع كثير الزرع والخيرات .

مـدينـة تبسـة :

وهي مدينة قديمة أزلية فيها آثار كثيرة للأول عجيبة ما بافريقية ، بعد قرطاجنة ، وأعظم منها . فيها دار ملعب قد تهدم أكثره ، اغرب ما يكون من البناء وفيهاهيكل يظن الرائي أنه كما رفع اليد عنه ما يكاد يعرف الفرق بين أحجاره ، ولو غرست الابرة بين حجرين من أحجاره ما وجدت منفذا وفي داخله أقباء معقودة بعضها فوق البعض ، وبيوت تحت الأرض وازاج كثيرة لها منظر هائل . ويقال أن ذاك الهيكل لاستنزال الروحانيات لأن فيه أثر الدخان ، وفيه صور جميع الحيوانات ، وصور شاذة لا يعلم ما هي وفي وسط المدينة هيكل عظيم مبني على سواري رخام عظام وقد صور خارج حيطان هذا الهيكل من صور جميع الحيوانات بأغرب ما يكون من التصوير ويقال أنها طلاسيم ، وتوجد في خرائبها طلاسم ، ولقد دخلتها فأعطاني إنسان من أهلها طلسما وهو على صورة أسدين من نحاس أحمر عجز الواحد منهما الى عجز الآخر ، قد صورتا بأعجب ما يكون التصوير ، وأخبرني أن بلدهم ، كان لا يدخلها عقرب ، ولو دخل فيها مات ، حتى حفر إنسان أساس داره فوجد قدر نحاس فيها عقارب من نحاس فسبكها ، وصرفها فيما يحتاج فدخلت حينئذ العقارب المدينة وأضرت بالناس فيها . والمسكون اليوم من تبسة إنما هو قصرها ، وعليه سور من الحجر جليل متقن العمل ، كأنما فـرغ منـه بالأمس ، وهو حصن عظيم وفي مدينة تبسة ، قباء تدخلها الرفاق بدوابهم في أيام الشتاء يسع القبو منها الفي دابة ، وأكثر ويقرب تبسا ، واد يعرف بوادي ملان . ولمدينة تبسا بساتين كثيرة وفواكه عجيبة ويجود فيها الجوز حتى يضرب به المثل في افريقية .

مـدنـة بـاغـايـة :

وهي ،مدينة عظيمة جليلة فيها آثار للأول ولها أنهار وعيون ومزارع ومسارح وهي تحت جبل أوراس ، وهذا الجبل يشق بلاد المغرب وافريقية ، فطرفه من البحر الغربي إيغريطوق على البحر المحيط وطرفه الثاني في البحر الشرقي بقرب الأسكندرية ، وهو المسمى بطرف أوثان . وبقرب باغاية قبر مدغوس ، وهو قبر مثل الجبل العظيم مبني بآجر رقيق معقود بالرصاص .

مـدينـة قسنطينـة :

وهي مدينة كبيرة عامرة قديمة أزلية فيها آثار كثيرة للأول وكان لها ماء مجلوب يأتيها من بعيدعلى

قناطر تقرب من قناطر قرطاجنة وفيها مواجل عظام مثل الذي بقرطاجنة ومدينة قسنطينة حصينة في نهاية المنعة والحصانة لا يعرف في افريقية أمنع منها ليس لها في المنعة نظير غير مدينة رندة بالأندلس ، فانها تشبها في وضعها والخندق المحيط بها والحافة المحدقة بها شبها كثيرا . ولكن قسنطينة أعظم وأكبر وأعلى على جبل عظيم من حجر صلد وقد شق الله ذلك الجبل فكان فيه خندق عظيم يدور بالمدينة من 3 جوانب ونهرها الكبير يدخل على ذلك الخندق ويدور بالمدينة فيسمع لجريانه في ذلك الخندق دوي عظيم هائل وصوت مفزع لمن يقرب منه ، وقد عقد الأولون على هذا الخندق قنطرة عظيمة بل هي ثلاث على بعض ، وهي بالجو قربت من أعلى الخندق وعليها الدخول الى باب المدينة ، وهي متصلة بالباب ، وقد بني على طرف القنطرة مما يلي باب المدينة ، بيت على اقباء يسميه أهل المدينة « العبور» لأنه معلق في جو السماء فاذا كنت في وسط هذه القنطرة تعبر الى الضفة الثانية تظن أنك تطير في الهواء ، وترى على النهر الكبير في قعر الخندق البعيد المهوى مثل الجدول الصغير . هذه المدينة من عجائب العالم قد دخلتها مرارا وتأملت آثارها ودخلت مواضع كثيرة فيها آثار للأول فتأملتها وكان في ذلك غرض . وهي على نظر واسع وقرى كثيرة عامرة آهلة وهي كثيرة الخصب والزرع ولها بساتين كثيرة الفواكه ولكنها شديدة البرد والثلج كثيرة الرياح .

مدينة ميلة :

مدينة أزلية فيها آثار للأول تدل على انها كانت مدينة كبيرة وهي الآن عامرة آهلة كثيرة الخصب رخيصة السعر على نظر واسع وقرى عامرة . وميلة كثيرة الأسواق والمتاجر عليها سور صخر جليل من بناء الأولين وفي وسط المدينة عين خرارة عذبة من بناء الأوائل لها سرب كبير يدخل فيه فلا يوجد له آخر ولا يعلم من يأتي ذلك الماء ، ويقال أنه مجلوب من جبل بالقرب منها يسمى تامروت ، وتعرف هذه العين بعين أبي السباع وبالقرب من ميلة جبل العنصل يسمى اليوم جبل بني زَلدْوى وهم قبائل كثيرة من البربر سكنوا بذلك الجبل لهم خلاف كثير على الولاة بسبب منعة جبلهم . وفيه مدن وعمائر وقرى كثيرة وهو أخصب جبال افريقية ، فيه جميع الفواكه من التفاح الجليل والسفرجل الذي لا يوجد مثله في بلد والأعناب الكثيرة .

قلعة بني حماد :

مدينة قلعة بني حماد (أبي طويل) وهي مدينة عظيمة قديمة أزلية على نظر عظيم ، كثيرة الزرع ، وجميع الخيرات . وهي في جبل عظيم . وهي خصبة منيعة لا تمكن بقتال ، وكانت دار مملكة بني حماد من صنهاجة وهم كانوا ملوك افريقية (بعد بني عبيد) ، فلما رحلوا الى مصر ولوا على افريقية (بلجين) ، بن زيري بن مناد الصنهاجي فكان كذلك على طاعتهم الى أن مات ، فولي بعده ابنه باديس ثم ولي بعده ابنه المعز وهو الذي خلع طاعة الشيعة وقتلهم بافريقية قتلا ذريعا .

ولبني حماد بالقلعة مباني عظيمة وقصور منيعة متقنة البناء عالية السناء منها قصر يسمى بدار البحر ، وقد وضع في وسطه صهريج عظيم تلعب فيه الزوارق بدخله ماء كثير من ماء مجلوب على

بعد ، وهذا القصر مشرف على نهر كبير ، وفيه من الرخام والسواري ما يقصر عنه الوصف وفيه قصور غير هذا ومبان عجيبة وفيها آثار عجيبة ويقال أن حماد بن مناد (كذا) صاحب القلعة التي تنسب إليه كان له دهاء وفطنة وتجربة في الحروب وكانت له فراسة حسنة وذكاء .

وتصنع بمدينة قلعة حماد اكسية ليس لها مثيل في الجودة والرقة الا الوجدية التي تصنع بوجده . يساوي كساء العيد من عمل القلعة 30 دينار .

مـدينة أشيـر :

بناها زيري بن مناد الصنهاجي وتعرف باشير زيري وكانت مدينة قديمة فيهاآثار عجيبة وإنما بني زيري سورها وحصنها وعمرها ، وليس في تلك الأقطار أحسن منها وهي بين جبال شامخة محيطة بها ، وداخل المدينة عينان لا يبلغ لهما غور ولا يدرك لهما قعر من بناء الأول ، وبالقرب من المدينة المشرق وبمدينة الرسول وغيرها بالسيماني . وببسكرة أيضا جنس من التمر يعرف بالليارى وهو أبيض أملس وكان صاحب القيروان يأمر بالمنع من بيعه وبعث ما هناك منه إليه ، لطيبه وحسنه . ويشق غابة بسكرة نهر كبير ينحدر من جبل أوراس يسقى بساتينها ونخلها وهو نحو 6 أميال في غابة متصلة بالمدينة ، يشق غابتها وقراها . وبسكرة دار فقه وعلم فيها كثير العلماء . ومن قرى بسكرة قرية تسمى ملشون ، ومنها كان أبو عبد الله الملشوني وكان عالما فقيها يحمل عنه العلم .

مدينة بادس :

مدينة كبيرة لها حصنان وأرباض واسعة وبسائط كثيرة ومزارع جليلة يزرعون فيها الشعير مرتين في السنة على مياه سائحه ونخل كثير ، وجميع الفواكه والثمار . وهي مدينة قديمة فيها آثار للأولين ولها مياه وعيون كثيرة ، وبالقرب منها قيطون بياصة وهو أول بلاد سماطة ومنه تفترق الطرق الى بلاد السودان والى القيروان ، وإلى بلاد الجريد ، وطرابلس وغيرها ، وقيطون بياصة قرية كبيرة كثيرة النخل فيها تجتمع الرفاق .

مدينة تلمسان :

مدينة عظيمة قديمة فيها آثار كثيرة أزلية تنبىء أنها كانت دار مملكة سالفة ، وهي في سفح جبل أكثر شجره الجوز وكان لها ماء مجلوب من عمل الأوائل من عيون تسمى بوريط بينها وبين المدينـة ستة أميال ، ولها نهر كبير يسمى سطفسيف وكانت تلمسان دار مملكة زناتة ، وحواليها قبائل كثيرة من زناتة وغيرهم من البربر . وهي كثيرة الخصب رخيصة الأسعار كثيرة الخيرات والنعم ولها قرى كثيرة وعمائر متصلة ومدن كثيرة ترجع الى نظرها . وفي الجنوب من مدينة تلمسان قلعة منيعة كثيرة الثمار غزيرة المياه والأنهار ويتصل بها جبل تاروناية ، وهو جبل كبير معمور فيه القرى الكثيرة والعمائر المتصلة . ومدينة تلمسان مدينة علم وخير ولم تزل دار العلماء والمحدثين .

مدينة وجده :

مدينة كبيرة مسورة قديمة أزلية كثيرة البساتين والجنات والمزروعات كثيرة المياه والعيون ، طيبة الهواء ، جيدة التربة ، يمتاز أهلها من غيرهم بنظارة ألوانهم وتنعم أجسامهم ومراعيها أنجع المراعي وأصلحها للماشية ، يذكر أنه يوجد في الشاة من شياههم مائتي أوقية شحما ويصنعون من صوفها أكسية ليس لها نظير في الجودة مثل العبيدي ، يساوي الكساء الجيد منها خمسين دينارا وأزيد ، وعلى مدينة وجدة طريق المار والصادر من بلاد المشرق الى بلاد المغرب وسجلماسة وغيرها .

مدينة تاهرت :

وهي مدينة مشهورة قديمة كبيرة عليها سور صنخرولها قصبة منيعة على سوقها تسمى المعصومة . ومدينة تاهرت في سفح جبل يسمي قرقل ، وهي على نهر كبير يأتيها من ناحية الغرب يسمي منية ولها نهر اخر يجري من عيون تجتمع يسمي نانس (منه) تشرب أرضها وبساتينها . وكان لها بساتين بنيان عظيم يعرف بمحراب سليمان لم ير بنيان أعظم منه ولا أحكم فيه من الرخام والأعمدة والنقوش ما يقصر عنه الوصف .

مدينة مليانه :

قريبة من مدينة أشير وهي مدينة كبيرة من بنيان الرومجددها زيري بن مناد أيضا وفيها آثار قديمة للأول وهي مدينة خصيبة في جبل يسمى زكار ، وشعراء هذا الجبل كلها ريحان ولمدينة مليانة مياه سائحة وأنهار وبسابين ، فيها جميع الفواكه ، وهي من أخصب بلاد افريقية وأرخصها أسعارا . ومدينة مليانة مشرفة على فحوص واسعة وقرى كثيرة عامرة ومزارع واسعة وحولها قبائل كثيرة من البربر ويشق تلك الفحوص نهر شلف ، وهو نهر كبير مشهور .

مدينة المسيلة :

أقرب بقلعة حماد من بلاد الزاب ، وهي في بسيط من الأرض على نهر كبير يسمى بسهر ، ومنبعه من مدينة الغدير ، وقد ذكرناه . ومدينة المسيلة أحدثها أبو القاسم اسماعيل بن عبيد الله الشيعي منذ سنة 313 ، وكان المتولي لبنائها علي بن حمدون ابن سماك المعروف بابن الأندلسي فلم يــزل بها أميرا حتى مات في فتنة أبي ، يزيد ، وبقي ابنه جعفر أميرا فيها ، وولي على بلاد الزاب كلها ، وهذا جعفر ممدوح ابن هاني الأندلسي ، الشاعر المشهور ، له فيه مدائح كثيرة حسان . ومدينة المسيلة كثيرة النخل والبساتين تشقها جداول المياه العذبة وكانت مدينة عظيمة على نظر كبير وحواليها قبائل كثيرة من البربر من عجيسة وهوارة وبني برزال .

مدينة نقاوس :

مدينة كثيرة الأنهار والثمار والمزارع كثيرة شجر الجوز منها يحمل الجوز إلى قلعة حماد وإلى بجاية وإلى أكثر البلاد : .

مـدينـة طبنـة :

وهي مدينة كبيرة قديمة عليها سور من طوب ولها حصن قديم عليه سور من صخر جليل ضخم متقن البناء من عمل الأوائل ولها أرباض واسعة وهي مما أفتتح موسى بن نصير حين دخل بلاد افريقية والمغرب والأندلس ، فبلغ سبيها 20 ألف رأس . ويشق مدينة طبنة جداول الماء العذب ولها بساتين كثيرة النخل والثمار ولها نهر يشق غابتها وقد بني له صهريج كبير يقع فيه ، وتسقى منه جميع بساتينها وأرضها ، ولم يسكن من القيروان إلى سجلماسة مدينة أكبر منها .

مدينة بسكـرة :

مدينة كبيرة وحواليها حصون كثيرة وقرى عامرة وهي قاعدتها ، ولها غابة كبيرة كثيرة النخل والزيتون . وجميع الثمار ببسكرة النخل لكثرته بها وأكثر تمرها من الجنس المعروف بالكسبا ، وهو المعروف ببلاد

كثيرة فيها جميع الثمار ، وفيها سفرجل يفوق سفرجل جميع البلاد حسناوطعماورائحته ، وبلد تاهرت شديدة البرد والغيوم والثلج .

وقرب مدينة قلعة هوارة وهي قلعة منيعةفي جبل خصيب فيه بساتين وثمار وأشجار ومزارع وأعناب وتحتها فحص طوله 40 ميلا يشقه نهر سيرات . ونهر سيرات نهر مشهور ويقع في البحر عند مدينة أزواوا وهي مدينة رومانية قديمة .

مدينة فاس :

هي أعظم مدينة سن مصر الى آخر بلاد المغرب . ومدينة فاس مدينتان كبيرتان مفترقتان ، يشق بينهما نهر كبير يسمى بوادي فاس ويدور حولها سور عظيم ، وبين المدينتين قناطر كثيرة وتطرد فيها جداول ماء لاتحصى تخترق كلتي المدينتين تسمى بالسواني لابد لكل دار من ديار المدينة منها ، وفيها عيون كثيرة لا تحصى عددا وفيها أرحية الماء نحو 360 رحى ، وهي في المزيد ، وربما وصلت 400 . والنهر الذي يخترق مدينة فاس ينبعث من عين عظيمة لها منظر عجيب فيها نحو 60 فوارة في دائرة يجتمع منها هذا النهر الكبير بينها وبين المدينة نحو 15 أميال في بسيط من الأرض يكاد لا يتبين جري الماء فيه لاستواء أرضه . ومدينة فاس محدثة أسست عدوة الأندلس في سنة 192 هـ . (808 م) وعدوة القرويين في سنة 193 هـ (809 م) في ولاية ادريس بن ادريس الفاطمي ، ومن ذريته بفاس الى اليوم ونحن في سنة 587 (1191) .

ومدينة فاس اليوم في نهاية العمارة والصلاح ، وقد بنيت أكثر جناتها الملاصقة لها دورا ، وأضيفت اليها وفيها 3 جوامع للخطبة ، منهما جامع عدوة الأندلس وهو جامع كبير متقن البناء يقـال أن ابن عامر زاد فيه ، وجامع القرويين ، جامع كبير أكبر من جامع الأندلس ، وزيد في هـذه المدة في هـذا الجامع باب كبير مشرف جميل المنظر ، ومن جهة الجوف سقاية متقنة البناء ملاصقة لها ماؤها من إلوادي وجلب

لها ماء عين هو في أيام الحر في نهاية البرودة ، وفي أيام البرد فيه بعض الحرارة وكذلك صنعت في جوف جامع القرويين سقاية متقنة البناء ومياه جارية مع عتبة الباب الجوفي ، وفوارة في بيلة مرتفعة نصف قامة داخل الصحن ، وزيد فيها من جهة الغرب باب كبير مرتفع البناء عالي السناء ، يسمى باب النجارين ، كل ذلك في حدود سنة 578 ، فكملت منافع هذا الجامع المكرم وشرفت حومته بما شرفه الله تعالى به ، وكذلك بقصبة السلطان جامع شريف معظم فيه الخطبة واحدثها فيها ، الأمير العزيز ادام الله اعتلاءه لأن القصبة منحازة عن البلد فوجب أن يكون فيها جامع وفي كل عدوة شريعة لخطبة العيدين .

ومدينة فاس كثيرة الخصب والرخاء ، كثيرة البساتين ، والمزدرعات والفواكه وجميع والثمار ، ولها أقطار واسعة متصلة العمائر وعدوة القرويين من هذه المدينة أكثرها بساتين وأشجاراً ومياه وعيون من عدوة الأندلس وكلتاهما خصبة عظيمة جليلة الخطر ويقال أن رجال عدوة الأندلس أشجع من رجال عدوة القرويين ونساؤهم أجمل من نساء القرويين ورجال عدوة القرويين أجمل من رجال عدوة الأندلس ويقال أن بعدوة الأندلس تفاحاً حلواً يعرف بالاطرابسي جليلاً حسن الطعم والرائحة ، يصلح بها ولا يصلح بعدوة القرويين ، اترج جليل يجود بها ولا يجود بعدوة الأندلس ، وكذلك سميد عدوة الأندلس أطيب من سميد عدوة القرويين . وهذه المدينة قصبة بلاد المغرب ، بل وبلاد المشرق والأندلس لاسيما في عهد الأمير العزيز أيد الله دوامه ، ومنها يتجهز الى بلاد السودان وإلى بلاد المشرق ، ومنها يحمل النحاس الأصفر إلى جميع الآفاق .

قال الناظر هذه المدينة العظيمة لما كانت على هذا الوضع المتقدم وفاضت عليها بركة الواضع لها وهو ادريس بن ادريس العلوي الفاطمي ، رضه ترتب على هذا اتساع مكاسب أهلها ورغد عيشهم وكثرة تنعمهم بجمال المدينة وعظم حماماتها وكثرتها فعطفت نفوس أربابها وشمخت أنوفهم وكبرت هممهم وكان فيها من الملثمين رجال عظماء عقلاً فضلاً بادروا الى مخاطبة الخليفة أمير المؤمنين رضه وتساعدوا مع الوالي المتصرف بها فأدخلوا الموحدين أعزهم الله يوم الاثنين في العشر الأول من ذي الحجة سنة 540 (23 مايو 1145 م) .

وموضع وادي فاس بوادي سبو على 3 أميال من المدينة وهذا الوادي نهر عظيم من أعظم أنهار بلاد المغرب ، ومنبعه من جبل في بلاد بني وارتين ، ورأس العين في بئر غامضة يهاب الدخول فيها وهي دهسة عظيمة لا يدرك قعرها .

ويتصيد في هذا الوادي الشابل الكثير ويطلع إلى رأس العين أو قريبا منه ويدخل في هذا الوادي الشابل الكثير ويطلع إلى رأس العين أو قريبا منه ويدخل في هذا الوادي الحوت الكثير ويتصيد في في بعض الأحيان البوري الكبير وذكر الثقات أنه بيع واحد بـ 13 درهما ورطل كبير منه بدرهم ونصف ، ويصل إلى المدينة الحوت الكبير المسمى عندهم بالقرب يحمله الحمار وأخبرني الثقة أنه عاين لبيسا تصيد زينته 65 رطلا وأخبرني الثقاب أنه كان بمدينة فاس ومكناس الحوت الذي يسمى بالشولي وهو

ألذُّ ما يوجد من أنواع السمك تصنع منه الألوان بأصناف البقل فلا تشم له رائحة ولو كان هذا النهر يخرج في البقاع كانت البلاد التي يسقيها أشرف البلاد وأخصبها .

مدينة مكناس :

وهي أربع مدن وقرى كثيرة متصلة المدن والحصون ، المدن منها تاقرارت وتفسيره المحلة ، وهي محدثة البناء ومشرفة على بطاح وبقاع مملؤة بالثمار وأكثرها الزيتون فسميت به وهذه المدينة عليها سور كبير وأبراج عظيمة وهي مدينة جليلة فيها أسواق حفيلة وأحدث فيها الأمير العالي ، أيد الله دوامه بحائر عظيمة في نهاية من الاتساع وجلب لها ماء نهر وأمر بغرسها زيتونا وكروما ، فزيتها أكثر زيت في جميع المغرب وبعده الزيت النظر الكبير المسمى ببني بسيل ومغيله وجهاتها وفيها اليوم تسع خطب في الحصن القديم خطبة وفي المدينة المسماة السوق القديم خطبة ، وفي أولاد عطوش خطبة ، وفي أولاد برانوس خطبة ، وفى بني موسى خطبة ، وفي بني زياد وفي بني ورزيعه وفي بني مروان ونحن في سنة 587 (1191) وهي من البلاد العتيقة المجيدة لو كان بها خدمة لعلاتها فان أرضها كريمة طيبة المزارع كثيرة المياه .

وهي من أعز بلاد المغرب لها أنظار واسعة وقرى عامرة وعمائر متصلة تشقها الأنهار والمياه السائحة والعيون الكثيرة وتطحن عليها الأرحية وتحم بها الحمامات الا أن في صبيانها دعارة وسفاهة .

مـدينـــة سجلمـاســة :

مدينة عظيمة من أعظم مدن المغرب وهي على طرف الصحراء ولا يعرف في قبليها ولا غربيها عمران بينها وبين غانة صحراء مسيرة شهرين في رمال وجبال غير عامرة قليلة الماء يسكنها ، قوم من مسوفة رحالون لا يستقر بهم مكان ليس لهم مدن ولا عمارة يأوون إلى وادي درعه وبينه وبين سجلماسة 5 أيام ، ومدينة سجلماسة محدثة بنيت في سنة 140 (757 ـ 758)أسسها مدرار بن عبد الله ، وكان رجلا من أهل الحديث يقال أنه لقي بافريقية عكرمة مولي ابن عباس وسمع منه ، وكان صاحب ماشية ، كثيرا ما ينتج بسجلماسة وكان الموضع سوقا يجتمع فيه بربر تلك النواحي فاجتمع إلى مدرار قوم من الصرفية فلما بلغو 40 رجلا ، قدموا على أنفسهم مدرار وشرعوا في بناء سجلماسة فبنوها ثم سورها أبو المنصور بن أبي القاسم ابن مدرار ولم يشركه في الانفاق في بنائه أحد ، انفق مدى ألف مد طعاما .

وذكر آخرون أن رجلا حدادا اسمه مدرار كان من ربضية قرطبة خرج من الأندلس عند وقعه الربض فنزل بقرب سجلماسة ، وموضع سجلماسة إذ ذاك سوق البربر في تلك النواحي ، فأنشأ بها مدرار خيمة وسكنها ، فبنى الناس حوله فكان ذلك أصل عمارتها وكان رجلا أسود وأولاده قد هجروا بـــذلــك .

ولمدينة سجلماسة 12 بابا ، ولها بساتين وهي كثيرة النخل والأعناب وجميع الفواكه وزبيب ، عنبها المعرش الذي لا تناوله الشمل لا يزبب الا فى الظل ويسمى الطلي وما أصابته منه زبب في الشمس وهي على نهرين من عنصر واحد في موضع يسمى اكلف ، وتمده عيون كثيرة ولهم مزارع كثيرة يسقونها

من النهر في حياض البساتين ، وتزرع أرض سجلماسه عاماً ويحصد من ذلك أربعة 3 اعوام لأنه بلد مفرط الحر شديد القيظ فاذا يبس الزرع تناثر عند الحصاد وأرضهم مشققة فيقع ما يتناثر من الحب في الشقاق فاذاكان العام الثاني أخرجوا النهر على عاداتهم ، لأن المطر قليل فيها ، وحرثوا بلا بذر وكذلك العام الثالث . قمحهم رقيق الحب يسع مد النبي صلعم من قمحهم 75 الف حبة ، وهم يأكلون الزرع اذا أخرج شطأه وهو عندهم مستطرف وذلك لغلبة الجدب عندهم ومن العجيب بمدينة سجلماسة أنها ليس بها كلاب لأنهم يسمنونهم ويأكلونها ، كما يصنع أهل الجريد ، قسطيلية وغيرها والبناؤون عندهم يهود لا يتجاوزون هذه الصناعة .

قال الناظر كان هذا في الزمان المتقدم واما الآن فهم تجار أهل هذه البلاد كلها وأغنياؤها ، وخاصة بمدينة فاس ، فاني عاينت منهم من يقال أن عنده المال الممدود .

مدينة أودغست :

هي مدينة عظيمة آهلة فيها أمم لا تحصى ، ولها بساتين كثيرة ويزرعون فيها القمح بالحفر بالفؤوس ويسقونه بالدلاء وكذلك يسقون بساتينهم . وانما يأكل عندهم القمح الملوك وأهل اليسار منهم ، وسائر أهلها يأكلون الذرة والمقاتي تجود عندهم كثيرا والبقر والغنم عندهم أكثر شيء وأرخصه ، تشترى في أودغست 10 أكباش بدينار وأكثر من ذلك ، وهم أرباب نعم جزيلة وأموال جليلة ولهم أسواق عامرة حافلة الدهر كله لا يكاد الانسان فيها يسمع صوت جليسة لكثرة غوغاء الناس وتجارتهم انما هي بالتبروليس بالفضة وبمدينة، اودغست مياه حسنة ومنازل رفيعة وأهلها تجار أخلاط من جميع الأمصار ، وقد أستوطنوها لكثرة خيرها ونفاق أسواقها وتجارتها وحريم أودغست لا يوجد مثله في بلد يجلب منها جوار حسان بيض الألوان مائسات القدود ، لطاف صخام الأرداف ، واسعات الأكتاف ضيقات الفروج ، المستمتع باحداهن كأنما يستمتع ببكر أبدا ، من غير أن يتكسر لاحداهن ثدي طول عمرها .

أخبرني ثقة من التجار أنه رأى بمدينة أودغست امرأة راقدة على جنبها وكذلك يفعلن اكثر أحوالهن اشفاقا من الجلوس على اردافهن وراى ابنا لها طفلا يلعب حولها وهو يدخل تحت خصرها ويخرج من الجهة الأخرى من غير أن تتجافى له وذلك لعظم ردفها ورقة خصرها ويجلب،منها سودانيات طباخات محسنات تباع الواحدة منهن بـ 100 دينار كبار ، وأزيد ، يحسن عمل الاطعمة ولاسيما الحلاوات مثل الجوزينقاب واللوزينجات والقاهريات والقنافات والقطائف والمشهوات ، وأصناف الحلاوات ولا يوجد أحذق بصنعها منهن ، ومنها تجلب الدرق الحصيفة الجياد ، فان اللمط بأرض أودغست كثيرا جدا يجلب أيضا منها العنبر لقربها من البحر المحيط ويجلب منها الذهب الخالص ، خيوطا مفتولة . ذهب أودغست أجود ذهب الأرض وأصحه وكان صاحب أودغست في سنة 350 هـ رجلا من صنهاجة وكانت له جيوش كثيرة فدان له أزيد من 20 ملكا من ملوك السودان كلهم يؤدون له الجزية ، وكان عمله مسيرة سهر في مثلها في عمارة متصلة وكان يعتد في أزيد من 100,000 نجيب فان الخيل في تلك البلاد قليلة فيقال أنه غزا ملكا من ملوك السودان يقال له أوغام ، فدخل بلده وأجرقها ، وقتل

جنده . والملك في قصره ينظر إليه . فلما رأى ماحل ببلده هال عليه الموت فخرج ورمى بنفسه في الأرض والقى بنفسه عليها حتى قتل . فلما عاين نساؤه ذلك ترديدن في الآبار وقتلن أنفسهن بضروب من القتل أسفا على ملكهن وأنفة أن يملكهن البيصان وبين مدينة أودغست وسجلماسة نحو 50 مرحلة . ومنها إلى غانة نحو 20 .

مدينـــة درعـــة :

إنما تعرف درعة بواديها فانه كبير يجري من المشرق إلى المغرب . ومنبعه من جبل درن . وعليه عمارة متصلة نحو 7 أيام وفيها أسواق حافلة كثيرة . فيها في يوم الجمعة أسواق في مواضع كثيرة متقاربة . وربما كان سوقان في يوم واحد في المواضع النائية . وكذلك في سائر البلاد . وعليه الخانات الكبيرة . فيها جميع الفواكه من النخل والزيتون وغيرها . والحناء بدرعة كثيرة ومنها تجلب الى جميع البلاد لطيبها وله مزية في البيع على سواها وشجرة الحناء . بها شجرة كبيرة يحتمل أن يرقى فيها الراقي . وبوادي درعة شجرة التاكوت وهو شجر يشبه الطرفاء . وبه يدبغ الجلد الغدامسي . وتوجد بوادي درعة حجارة تسمى تمصاغيت . تحك باليد فتلين الى أن تأتي في قوام الكتان فيصنع منها القيود للدواب وتغزل وينسج منها مناديل لاتؤثر فيها النار مثل الصندل . وقد صنع منها بعض ملوك زناتة كساء عنده من أعظم الذخائر . ذكر البكري . أنه أخبره ثقة أنه رأى تاجراً جلب منه منديلا لبعض ملوك الروم وأخبره أنه منديل كان لبعض الحواريين وجعله في النار أمام الملك . فلم تؤثر فيه شيئا . فوصله ذلك الملك عليه بصلة كان فيها غناه الى آخر الزمان . ويقال أن ذلك الملك بعثه الى ملك الروم الأعظم . وأخبره بخبره ووضعوه في الكنيسة العظمى . وبعث به بصلة سنية وأمره أن يتوج بتاج بعثه اليه ورفعه على من سواه .

مـــدينـــة أغمـــات :

وأغمات هما مدينتان . أغمات وريكة والأخرى أغمات هيلانه وبينهما 8 أميال . وباغمات وريكه . يسكن الأعيان وبها ينزل التجار على القديم لأنها كانت دار التجهز للصحراء وبها نهر جريه من القبلة الى الجوف يشق المدينة بعضه . وعليه أرحاء . وحوله بساتين كبيرة . وهو بلد متسع كثير الرخاء والخصب الا أنه وخيم الهواء ألوان أهله مصفرة والعقارب القتالة فيه كثيرة . وبينه وبين البحر مسيرة أربعة أيام وأقرب المراسي إليه مرسى حوز هرنتاته من بلد رجواجه . وهو من آخر مراسي سواحل المغرب مما يقرب من البحر المحيط تنزل اليه السفن ولا يخرج منه الا برياح عاصفة في زمن الشتاء عند تكدر الهواء واغبرار الجو . فحينئذ تصدق هناك الرياح فان اصطحبهم الريح سلموا والا قذفهم . البحر . وبين أغمات ومدينة نفيس مرحلة .

مـدينـة مـراكـش :

هي اليوم حاضرة بلاد المغرب ودار مملكتها وهي مدينة عظيمة في بسيط من الأرض أسسها يوسف

بن تاشفين سنة 459 (1067م) ، أول ما بني فيها دار الأمامة وهي الآن معلومة بها ، ثم اختط سورها ولده سنة 514 (1120) الخليفة أمير المؤمنين رضه يوم السبت بعد صلاة الظهر 18 من شوال وفتحها سنة 541 هـ وعلى ثلاثة أميال منها واد تنسيفت منبعه من بلد دمنات يصب فيه وادي وريكه ووادي نفيس وأودية كثيرة ومصبة في الساحل رباط جوز ويدخله الشابل الكثير الطيب وهي مدينة طيبة التربة كانها عطاء من حجر على حجر ، عذب ماؤها قريب من قامة أوقامتين ، وبساتينها تسقي من آبار متصل بعضها ببعض حتي تخرج على وجه الأرض وبينها وبين درن نحو 20 ميلاوهي كثيرة الزرع والضرع تحرثها دكالة ، وحولها من البساتين والجنات التي يسمونها البحائر لعظمها ما لا يحصي كثرة وانما بناها واضعها يملك منها جبل درن لكثرة من يعمره ، وكان خروج هذه الشرذمة الصحراوية لقتال برغواطة الكفار المرتدين عن ديانة الإسلام .

ومدينة مراكش اليوم من أعظم مدن الدنيا بهجة وجمالا بما زاد فيها الخليفة الإمام وخليفته أمير المؤمنين أبو يعقوب وخليفتهما أبو ياسف رضهم . فان الخليفة الامام بني فيها جامعا عظيما ثم زاد فيه مثله أو أكثر في قلته كان قصرا ورفع بينهما المنار العظم الذي يشيد في الإسلام مثله ، واكمله ابنه وخليفته أبويعقوب (رضه) وجلب الخليفة الامام المياه من أودية الدرن ، وغرس بحيرة عظيمة بغربي المدينة قبل نفيس ، دورها 6 أميال ، وبني فيها وخارجها صهرجين عظيمين ، كنا في تلك الايام نعوم فيهما ، فلا يكاد القوي منا يقطع الصهريج الا بمشقة ، وكنا نتفاخر بذلك ، واحدث الخليفة بعد ابنه أبو يعقوب (رضه) ، بحائر مثلها في العرش ، بل أجمل وجلب اليها المياه وأخذها في صهاريج أعظم من المتقدمة وزاد في قبلة المدينة حصنا أنفذه الآن ابنه الامام الخليفة أبو يوسف رضة ، وزاد عليه مدينة أخرى تقارب الاولى في دورها ، وكانت بحائر عظيمة فبناها قصورا وجامعا وأسواقا وفنادق وجلب التجار إلى قيسارية عظيمة لم يبق في مدن الأرض أعظم منها وأمر بمعارتها أول سنة 585 هـ .

ومدينة مراكش أكثر بلاد المغرب جنات وبساتين وأعناباوفواكه وجميع الثمار وكانت قبل ذلك يطير الطير حولها فيسقط من العطش والرمضاء وأكثر شجرها الزيتون ، وفي مراكش اليوم من الزيتون والزيت ما يستغني به عن غيرها من البلاد وتمير بلادا كثيرة وكان زيتها قبل اليوم دهن الهرجان ، لأنه بتلك البلاد كثير جدا ، وزيتون مراكش أكثر من زيتون مكناسة وزيتها أرخص وربما أطيب .

* * *

مصلحات الجغرافيين العرب

البريد : الرسول وارساله . هي أيضا مسافة اختلف في تقديرها بين اثني عشر ميلا وستة أميال .

الفرسخ : فارسي معرب اختلف فيه أيضا فقيل ثلاثة أميال وقيل ستة .

الميل : ثلاثة آلاف ذراع عند الجغرافيين ، والميل عند اللغويين ، مدى البصر ومنتهاه .

الذراع : أربع وعشرون إصبعا .

الاصبع : ست حبات شعير مصفوفة بطول بعضها إلى بعض .

الاقليم : أحد الاشرطة السبعة التي تنقسم اليها المساحة التي تمتد بين خط الاستواء والقطب الشمالي ، والاقليم كلمة يونانية معربة .

الكورة : كل صُقع يشتمل على عدة قرى ولابد لتلك القرى من قصبة أو مدينة تجمع اسمها الكورة .

الاستان : لفظ معناه الكورة . ومنه كلمات مثل شهرستان وخوزستان وطبرستان . والاستان ينقسم الى الرساتيق . والرستاق ينقسم الى عدة طسوج . وينقسم الطسوج إلى عدة قرى .

الرستاق : كل موضع فيه مزارع وقرى . واللفظ لا يطلق على المدن الكبيرة ، وهو عند الفرس مرادف للسواد عند العراقيين .

الطسوج : أصغر من الكورة والرستاق والاستان . أكثر ما تستعمل الكلمة في سواد العراق . وقد قسم سواد العراق الى ستين طسوجا .

الجند : كلمة تستعمل في تقسيم الشام الاداري . ينقسم الشام الى خمسة اجناد ، وهي : جند قنسرين وجند فلسطين وجند حمص وجند دمشق وجند الاردن . والجند عبارة عن مجموعة من الكور .

السكة : الطريق المسكوكة التي تمر فيها القوافل من بلد الى أخر .

المصر : البد المعروف . والمصران : الكوفة والبصرة . والمصر الحدبين الشيئين .

الطول : اختلف الجغرافيون العرب في منطلق خطوط الطول . فهي تبدأ عند بعضهم عند شواطئ المحيط الاطلسي ، وعند البعض الاخر في نهاية الجزر الخالدات (جزر الكناري) ، ومن هنا الاختلاف في تحديد أطوال بعض الاماكن .

العرض : عرض البلد مقابل لطوله ، وهو يمثل البعد عن خط الاستواء نحو الشمال .

الدرجة : الدرجة عند العرب هي قدر ما تقطعه الشمس في يوم وليلة . وتنقسم الدرجة الى ستين دقيقة ، والدقيقة الى ستين ثانية والثانية الى ستين ثالثة .

جوف : (في كثير من الأحيان عند الجغرافيين العرب) : شمال . جوفي : شمالي .

جـون : خليج (golfe) ، وقد استعمل المقري «تجون البحر» بمعنى شكل جون .

حـطٌ : وإقلاع (موضع) : المكان الذي ترسو وتقلع عنده السفن .

داموس : (ج . دواميس) : قبـو .

دهقان : (دهقنـة) : حاذق ـ لبق ـ حسن التخلص .

سقلاطون : قماش من الحرير موشى بالذهب ومنه أخذت الكلمة الفرنسية (Siglaton) .

سماط : أسواق ذات سماطات أي ذات دكاكين مصطفة .

طاروس : (على طاروس الريح الشرقية): عند هبوبها .

عتـابي : نوع من القماش مصنوع من الحرير والقطن ، أخذ اسمه من الحي الذي كان يصنع فيه في بغـداد .

فلفـل : (مفلفل الشعر) : شديد الجعودة مثل رؤوس الجبش .

قـصير : (ج . أقاصير) : مكان غير عميق من البحر .

يرذن تيزواو : (بربرية) : نوع من القمح .

قائمة الكتب المقتبس منها والمراجع المحال إليها في الهوامش

أبو المطرف أحمد بن عمير المخزومي،لمحمد الشريف المغربي طبع الرباط ، 1966 .

اتعاظ الحنفاء باخبار الأئمة الفاطميين والخلفاء ، للمقريزي ، طبع مصر 1367 .

آثار البلاد واخبار العباد للقزويني ، دار صادر ، بيروت ، 1969 .

الاحاطة في اخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب ، طبع مصر ، 1955 .

أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم للمقدسي ، ليدن ، 1909 .

أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض للمقري (4 أجزاء) ، طبع منها 3 في مصر سنة 1358 .

الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الأباضية لسليمان الباروني ، مطبعة الأزهار البيرونية .

إرشاد الاديب (معجم الأدباء) لياقوت ، طبع مرغليوث (7 أجزاء) القاهرة ، 1907 — 1925 .

الاستقصا في أخبار المغرب الأقصى لأحمد الناصري السلاوي ، القاهرة ، 1312 .

الاصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني ، القاهرة ، 1323 .

أعمال الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلام ، للسان الدين بن الخطيب ، الرباط ، 1353 .

الانيس المطرب بروض القرطاس لابن أبي زرع ، فاس ، 1303 .

ايضاح المكنون ، لاسماعيل باشا البابانى البغدادي ، استنبول ، 1945 — 1947 .

ب

البداية والنهاية في التاريخ لابن كثير (14 جزاء) مصر ، 1351 — 1358 .

بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ، ليحيى بن خلدون تحقيق الفردبل ، الجزائر . 1903 . طبعة جديدة ، تحقيق الأستاذ حاجيات ، طبع المكتبة الوطنية ، الجزائر . 1980 .

بغية الوعاة . لجلال الدين السيواطي ، 1326 .
بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس لابن عميرة الضبيبي ، مدريد ، 1884 .
البيان المغرب لابن عذاري (4 أجزاء) ليدن ، 1948 (وكذلك طبعة بيروت (جزءان) . 1950) .

ت

تاج العروس للزبيدي (10 مجلدات) ط مصر 1306 — 1307 .
تاريخ علماء الاندلس لابن الفرضي (جزءان) ، ط مدريد 1890 .
تاريخ غزوات العرب في أوربا لشكيب ارسلان ، بيروت ، 1966 .
تاريخ مدينة فاس لمؤلف مجهول ، بالرمو، 1875 .
تاريخ اليعقوبي (أحمد بن أسحاق بن واضح) — جزءان — بيروت 1196 .
تاريخ ابن عساكر (5 أجزاء) دمشق ، 1339 — 1332 .
تراجم أغلبية (مستخرجة من مدارك القاضي عياض تحقيق محمد الطالبي) تونس 1968 .
تراجم أغلبية (مستخرجة من مدارك القاضي عياض) تونس 1968 .
تعريف الخلف برجال السلف للحفناوي (مجلدان) الجزائر 1906 .
تقويم البلدان لاسماعيل أبي الفداء باريس 1840 .
التعريف بابن خلدون لمحمد بن تاويت الطنجي ، مصر 1951 .
تهذيب التهذيب لابن العسقلاني (12 جزءا) حيدراباد 1300 —1308 .

ث

ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ، للثعالي ، مصر 1326 .

ج

جذوة الاقتباس ، لابن الفرضي ، طبع حجر ، فاس 1309 .
جمهرة انساب العرب لابن حزم ، القاهرة 1962 .

ح

حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ، لجلال الدين السيوطي ، مصر 1299 .
الحلل السندسية في الاخبار التونسية لمحمد بن الوزير ، تونس 1287 .
الحلل السندسية في الأخبار والاثار الاندلسية لشكيب ارسلان (3 مجلدات) مصر ، 1355 — 1358 .
الحلة السيراء ، لابن الابار ، مصر 1963 .

خ

خريطة المغرب الاركيولوجية ، لأحمد المكناسي ، تطوان 1961 .

الخلاصة النقية في أمراء تونس وافريقية لمحمد الباجي ، تونس 1323 .

د

الدرر البهية لادريس بن أحمد ، طبع فاس 1314 .

الدر النفيس لأحمد الحلبي ، فاس 1324 .

الدرر السنية لمحمد علي السنوسي الخطابي ، طبع مصر 1349 .

دول الاسلام للذهبي (مجلدان) ، حيدراباد 1337 .

الديباج في معرفة أعيان المذهب المالكي لابن فرحون ، مصر 1351 .

ر

رحلة التجاني ، تونس 1958 .

رحلة العبدري تحقيق ابن جدّو ، الجزائر .

ز

زهرة الآس ، لأبي الحسن الجزنائي ، الجزائر 1341 .

س

السير ، في رجال الأباضية ، لأحمد بن سعيد الشماخي ، طبع حجر ، الجزائر (؟) .

ش

شجرة النور الزكية لمحمد بن خلفون ، مصر 1349

شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي .

ص

صبح الاعشى للفلقشندي (14 مجلدا) ، مصر 1331 — 1338 .

الصلة لابن بشكوال ، طبع مدريد 1882 .

صفة الأندلس (مأخوذة من الروض المعطار) تحقيق ليفي بروفنسال للحميري ، القاهرة 1937 .

صورة الارض لابن حوقل ، ليدن 1938

ض

الضوء اللامع للسخاوي (12 مجلدا) ، مصر 1353 .

ط

طبقات الشافعية الكبرى ، لتاج الدين السبكي ، مصر 1324 .

طبقات علماء افريقية وتونس ، لأبي العرب ، تونس 1968 .

طبقات المدلسين المسمى « تعريف أهل التقديس بمراتب الموصوفين بالتدليس » لابن حجر العسقلاني ، مصر 1322 .

ع

العبر وديوان المبتدأ والخبر لعبد الرحمن بن خلدون ، بولاق ، 1284 .

عنوان الدراية فيمن عرف من علماء بجاية للغبريني ، بيروت 1969 .

ف

فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ، القاهرة 1299 .

ك

كتاب الاستبصار لمؤلف مجهول ، طبع الاسكندرية ، 1958 .

كتاب البلدان لليعقوبي ، تكملة المجلد السابع من المكتبة الجغرافية العربية «الاعلاق النفيسة » ، ليدن 1891 .

كتاب القضاة بقرطبة للخشني (أبوعبد الله) القروي ، مدريد .

كشف الظنون في أسماء الكتب والفنون لحاجي خليفة (طبعة المثنى بالاوفسيت) عن طبعة ليبسيك ، وهي في ستة أجزاء (مع الذيل الذي هو هدية العارفين في جزأين) . 1914 .

كتاب الوفيات ، لابن قنفذ القسنطيني ، بيروت 1971 .

ل

لسان العرب لابن منظور ، دار لسان العرب ، بيروت .

لسان الميزان لابن حجر العسقلاني (6 أجزاء) ، حيدراباد 1300 — 1308 .

م

مختصر كتاب البلدان للهمذاني (ابن الفقيه) ، ليدن 1891 .

مرآة الجنان لليافعي (4 أجزاء) ، حيدراباد 1337 — 1339 .

مراصد الأطلال لعبد المؤمن بن عبد الحق (3 أجزاء) ، ليدن 1852 — 1854 .

مروج الذهب ومعادن الجوهر ، للمسعودي (مرفق بترجمة فرنسية) باريس 1861 .

المسالك والممالك لابن خرداذبه ، ليدن 1882 .

معالم الايمان في معرفة أهل القيروان للدباغ (4 أجزاء) ، تونس .

المعجب في تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشي مصر 1949

معجم البلدان لياقوت (طبعة بيروت منقولة عن طبعة وستنفلد) في خمسة أجزاء . وطبعة ليدن نشرت في سنة 1866 — 1873 .

معجم ما استعجم للبكري ، غوتا 1876 .

معجم ما استعجم للبكري تحقيق وستنفلد ، غوتا 1876 ، 4 أجزاء .

وكذلك طبعة مصطفى السقاء ، القاهرة ، 1949 ، في مجلدين .

معجم المطبوعات العربية ليوسف سركس ، مصر 1928 ، في جزأين .

المغرب في ذكر افريقية والمغرب للبكري ، باريس 1911 .

المغرب وأرض افريقية والمغرب للشريف الادريسي (مقتبس من كتاب نزهة المشتاق) ، ليدن 1864 .

المغرب في حلي المغرب لابن سعيد المغربي تحقيق شوقي ضيف (جزدان) ، مصر 1964 .

المقتبس في أخبار الأندلس لأبي حيان القرطبي ، ثلاثة اقسام ـ بيروت ومدريد

المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب لأحمد بك ، الاستانة 1317 .

المؤنس في أخبار القيروان وتونس لابن أبي دينار ، تونس 1321 .

ن

النبوغ المغربي في الأدب العربي لعبد الله كنون (جزءان) تطوان 1357 .

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لابن تغريبردي (12 جزءا) طبع دار الكتب المصرية 1348 — 1375 .

نزهة الهادى لليفراني ، باريس 1889 .

نفح الطيب للمقري (8 أجزاء) بيروت 1961 .

نكت الهميان لصلاح الدين الصفدي ، مصر 1329 .

و

وفيات الاعيان لابن خلكان ، بيروت 1968 .

الولاة والقضاة لمحمد بن يوسف الكندي ، بيروت 1908 .

ياقوت

بعدما نقل وصف البكري لمدينة تنس كما هو دون أية اضافة ، مضى ياقوت فنقل ما ذكره أبو الربيع سليما الملتاني (أو الملياني) :

مدينة تنس خربها الماء وهدمها في حدود نيف وعشرين وستمائة . وقد تراجع اليها بعض أهلها ودخلها في تلك المدة ، وهم ساكنون بين الخراب . وقد نسبوا الى تنس ابراهيم ابن عبد الرحمن التنسي (1) دخل الاندلس وسكن مدينة الزهراء وسمع من أبي وهب بن مسرة الحجازي وأبي علي القالبي . وكان في جامع الزهراء يفتي . ومات في صدر شوال سنة 307 .

وقال سعيد بن واشكل التيهرتي في علته التي مات منها بتنس :

نأى النوم عني واضمحلت عرى الصبر
واصبحت عن دار الاحبة في أسر

وأصبحت عن تيهرت في دار معزل
وأسلمني مرّ القضاء من القدر

الى تنس دار النحوس فانها
يساق اليها كل منتقض العمر

هو الدهر والسياق والماء حاكم
وطالعها المنحوس صمصمة الدهر

بلاد بها البرغوث يحمل راجلا
ويأوي اليها الذئب في زمر الحشر

ويزحف فيها العام في كل ساعة
بجيش من السودان تغلب بالوتر

ترى أهلها صرعى ذوي أم ملدم
يروحون في سكر ويغدون في سكر

وقال غيره

---

(1) فقيه ولد في تنس وانتقل إلى الأندلس حيث مارس الفتوى في جامع الزهراء . راجع : بغية الملتمس لابن عمير الضبيّ ص 204 — 205 ؛ الأزهار الرياضية لسليمان الباروني (51/2 — 52) .

أيهـا السائـل عـن أرض تنـس
مقعـد اللـوم المصفـى والـدرس

بلـدة لا ينـزل القطـر بهـا
للنـدى فـي أهلهـا حـرق درس

فصحـاء النطـق فـي لا أبـدا
وهـم فـي نعـم بكـم خـرس

فمتـى تلمـم بهـا جاهلهـا
يرتحـل بهـا قبـل الغلـس

وماؤهـا مـن قبـح ما خصـت بـه
نحـس يجـري علـى تـرب نجـس

فمتـى تلعـن بـلا دا مـرة
فاجعـل اللعنـة دأبـا لتنـس

القزويني

تنس مدينة بافريقية حصينة ولها قهندز صعب المرتقى . ينفرد بها العمال لحصانتها ، خوفا من الرعية . هواؤها وبيء وماؤها رديء . وماؤهم من واد يدر حول المدينة واليه مياه حشوشهم وشربهم منه ، والحمى لا تفارق أهلها في أكثر الاوقات .

وبها ذئب كثير يأكل أهلها ، وبرغوث كثير . وهم في عـذاب مـن الذئـب والبراغيـث !

قال بعض من دخلها وفارقهـا :

لا سقـى الله بلـدة كنـت فيها ! البـراغيـث كلـهم أكلـوني
قـرصـوني حـتـى تـنمر جلـدي لو خلـعت الثياب لم تعرفـوني
إن صعدت السطـوح لم يتركوني وأراهـم عـلى الـدرج يسبقـوني

ابن سعيد

أول ما يلقاك منه [الجزء الثاني من الاقليم الرابع] مدينة تنس . وهي مشهورة بكثرة

القمح ، ومنها يحمل في المراكب الى سواحل الاندلس وغيرها . وهي الآنَ قاعدة مغراوة ، من زناته ، وموضوعها حيث الطول ثمان عشرة درجة واثنتا عشرة دقيقة ، والعرض ثلاث وثلاثون درجة وعشرون دقيقة . ولها نهر يأتيها من جنوبها وينصب في البحر بشرقيها . وبينها وبين البحر ميلان . وفي شرقيها مستغانم ، وهي من فرض مغراوة وبينهما ستون ميلا .

*
* *

أشـــير (1)

ابن حوقل

أشير مدينة محصنة يسكنها آل زيري بن مناد ولها سور حصين وأسواق وعيون تطـرد وأجنة ومزارع وأقليم حسن القدر. ومن أشير الى تامزكيد وبها عين.

البكري

ذكر الطريق التي تؤدي من تنس الى أشير. ثم وصف هذه المدينة بعد أن ذكر الابيات التي رواها محمد بن يوسف لعبد الملك بن عيشون.

---

(1) لا تزال أطلال مدينة أشير باقية إلى اليوم عند الكاف الأخضر في مساحة تبلغ نحو 95 فدانا. والموقع يسمى في الوقت الحاضر «يشير»، وقد كان بناء مدينة أشير في الفترة ما بين عام 324 هـ (935 م) وعام 334 هـ (946 م)، نتيجة مباشرة لاتساع نفوذ صنهاجة في ولاية تيتري وللصلة الوثيقة التي قامت بين أسرة مناد وإبنه زيري بالفاطميين في القيروان. ومدينة أشير، عبارة عن ثلاث مدن منفصلة، كانت الغربية منها، وهي البقايا المعروفة الآن باسم «عين يوسف»، تسمى «منزه بنت السلطان». وأما المدينتان الشرقيتان، فهما «أشير» و«بنية».
وقد كان الكاتب الفرنسي بيربروجه Berbrugger، هو أول من تعرّف على مدينة أشير التاريخية في خرائب الكاف الأخضر، في سنة 1852. وفي سنة 1922، قام جورج مارسي G. Marçais بزيارة خرائب أشير وبكتابة دراسة قيمة عنها نشرتها المجلة الإفريقية في نفس السنة.
راجع: مقالتي، بنوزيري بين أشير والقروان، مجلة الثقافة عدد يونيو 1974؛ وكتابي، دولة بني حماد، وملوك القلعة وبجاية؛ وإبن الأثير، الكامل 8؛ وإبن زرع، روض القرطاس؛ وإبن الخطيب، أعمال الأعلام ج 3؛ وإبن خلدون، العبر، ج 6؛ وإبن عذارى، البيان المغرب؛ والسلاوي الاستقصا؛ والنويري، نص مقتبس من نهاية الأرب؛ المؤنس في أخبار أفريقية وتونس؛ —
Gsel (St.), Atlas Archéologique de l'Algérie; Gautier, les Siecles Obseure; Julien (Ch.A.); Histoire de l'Afrique du Nord, T.II; Pelissier, Mémoire Hist., et Géogr.; Rodet, Notice sur les Ruins de Menzeh Bint El-Sultan, Yachir, R.A., 1908.



تمهيد

ان المدينة بوصفها القطب الدائر لحركة الانتاج والتوزيع والتبادل الثقافي والاقتصادى ، وملتقى للتيارات الفكرية والسياسية والاجتماعية ، هي الخلية الحية الاساسية في حضارة كل مجتمع بشري في الماضي والحاضر . وكذلك كانت الارياف (ولاتزال) تابعة للمدن التي تخدمها بمدها بالمنتجات التي تحتاج إليها وباستهلاك منتجتها ، وبتزويدها بالخراج ومختلف أنواع الضرائب . وهي لاتكتسي أهمية ما الا بوصفها خلفية للمدينة التي تدور في فلكها . وهذا الوصف يصدق بصفة خاصة ، على المدن في الحضارة الاسلامية .

والمدن المغربية المعروفة لدينا ، هي المدن التي بنيت في العصر الاسلامي أو التي أحياها المسلمون . وبالتالي فان التعريف الذي يقدمه الجغرافيون العرب لهذه المدن لا يكاد يتجاوز هذا الاطار .

والنصوص التي نضعها بين يدى القارئ في هذا الكتاب ، تلقي كل الضوء الممكن على حياة المدينة المغربية عبر نحو ستة قرون . فهي تصور الحركات السياسية وتنقلات السكان والانتاج الزراعي والصناعي والاثار ، وتعكس بعض التيارات الادبية والفكرية الى حد ما .

وبالطبع ، سنجد اختلافا في الروايات والاقوال والاوصاف بين الجغرافيين الذين نعرض نصوصهم . وهذا مرجعه الى اختلاف المصادر التي ينقل عنها كل منهم ، ولكنه يرجع بصفة خاصة ، الى التغيرات التي تطرأ على المدينة بين الفترات التي تفصل بين كاتب وكاتب ، بسبب الغزو والقحط والقلاقل الاجتماعية والسياسية الخ .

وكذلك تصور لنا هذه النصوص — مثلا — مدينة المهدية في أحوال مختلفة : فهي مدينة مزدهرة في بداية عهدها . وفي مرحلة تالية تتدهور حالتها بفعل حصار أبي يزيد صاحب الحمار لها ، حصارا طويلا ، وانتقال الخليفة الفاطمي منها . ولكن المهدية سوف تسترجع مكانتها وتزدهر من جديد في أواخر عهد الزيريين ، قبل أن تبدأ في الانحطاط مرة أخرى ، حينما هرب منها آخر ملولهم ، الحسن بن علي الصنهاجي وتركها للنورمان في سنة 543 (1148م) .

واذا قال لنا ابن حوقل ، أن مصر كانت تموَّن بالزيت من سفاقس ، فان هذه حقيقة اقتصادية شائعة في عصره . ولكن ذكر البكري لهذه الحقيقة يدلنا على أن سفاقس قد تمكنت من المحافظة على ثروتها من الزيتون خلال الفترة التي تفصل بين الكاتبين . ولكن البكرى يضيف ملاحظة أخرى تؤكد لنا أن سفاقس قد نَمَّت حقولها من الزيتون بصفة معتبرة ، حيث أن المدينة أصبحت تصدر الزيت الى بلدان أخرى غير مصر ، وخصوصا ، الى صقلية والمغرب وبلاد الروم .

ولكن الشريف الادريسي الذي كان يكتب في النصف الثاني من القرن السادس الهجري والذي يؤكد ما قاله أسلافه أن «جل غلاّتها الزيتون» ، لايذكر ، مع ذلك شيئا عن صادرات سفاقس من الزيتون الى صقلية (حيث كان الكاتب الروجري يعيش)»أو الى غيرها من البلاد . والدرس الذي نستخلصه من هذه المقارنة العابرة ، هو أن ثروة سفاقس من الزيتون قد تقلصت وأصبحت لاتتجاوز سدّ حاجة الاستهلاك المحلي .

وهذه الحقيقة لاتدعو الى الدهشة والاستغراب ، اذا عرفنا أن نشاط القرصنة كان قويا في البحر الابيض المتوسط في عهد الادريسي ، وأن الغزو الهلالي الذي قطع طرق القوافل الى الشرق والغرب قد أعمل معاول الهدم والتخريب للحياة الاقتصادية والعمرانية في المدن والارياف معا . وليس من شك ، في أن غابات الزيتون المحيطة بسفاقس كانت من بين ضحايا معاول العربان .

على أن الطريف أن رواية ياقوت الذي جاء بعد الادريسي بنحو قرنين من الزمن ، ستلقي ضوءًا خاصا على ثروة الزيتون التي حبت بها الطبيعة سفاقس ، وتدلنا على أن غاباتها قد انتعشت بعدما تمكن المغرب من هضم تلك العناصر المخربة . فان هذا الكاتب يؤكد أن «أكثر أهل المغرب يمتارون من زيتها (سفاقس) » . ولكن ياقوت لايشير الى ان سفاقس تصدِّر زيتها في اتجاه آخر غير المغرب ، وهذا الصمت ليس مرجعة الاهمال أو النسيان ، فان ياقوت يذكرنا بأن سفاقس كانت في الماضي تصدر الزيت الى مصر وصقلية وبلاد الروم وأن سعر الزيت فيها كان رخيصا جدا .

ومما تقدم ، نستنتج أن زراعة الزيتون في سفاقس قد استعادت بعض أهميتها في عهد ياقوت وأصبح انتاجها يفي بحاجتها ، مع فائض يصدَّر الى بلدان المغرب . ولكن المدينة كانت في هذا العهد قد فقِدت أسواقها في مصر وصقلية وبلاد الروم .

على أن الغريب هو أن القلقشندي المصري الذي عاش في أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع الهجري، والذي نعرف اقتباساته الكثيرة من البكرى والادريسي (مما يدل على اطلاعه على ما كتباه عن سفاقس) . لايذكر شيئا عن ثروة سفاقس من الزيتون ولايشير الى تصدير المدينة للزيت الى مصر أو غيرها من البلاد . فهل نستنتج من ذلك ان انتاج سفاقس من الزيتون لم تعد له أهمية تستحق الذكر؟

مما يؤكد هذا الاستنتاج أن الجغرافيين الذين جاءوا بعد القلقشندي (وفي مقدمتهم ابن سعيد المغربي وأبو الفدا والتجاني) لايذكرون شيئا عن انتاج سفاقس أو تصديرها للزيت .

ومثال آخر للتغيرات التي تطرأ على حالة مدينة من المدن في الانتاج الذي يشكل دعامة دورها الحضاري وازدهارها الاقتصادي ، هو انتاج قابس للتوت في عهد البكري . فان هذا الكاتب يشيد بانتاجها الوفير من التوت وبانتاجها الرفيع من الحرير .

ولكن الادريسي يذكر اشتهار قابس بصناعة الحرير في صيغة الماضي ويقول : «كان بها فيما سلف طرز يعمل به الحرير الحسن» .

وفي نفس الوقت ، نجد أن البكري لايذكر شيئا عن مدابغ قابس ، بينما يتحدث الادريسي عن صناعة الدباغة في قابس في صيغة تدل على أن هذه الصناعة قد استقرت وتدعمت في المدينة ، بحيث أن البلد كان يسد حاجته المحلية من الجلد وينتج فائضا للتصدير الى الخارج .

وبعبارة أخرى فان قابس قد تحولت في غضون الفترة التي تفصل بين هذين الكاتبين من بلدة تعنى بتربية دودة القز وتنتج الحرير الرفيع ، الى بلدة تمثل تربية المواشي ثروتها الاساسية وتشكل صناعة الجلد فيها محورا النشاطها الصناعي .

تلك أمثلة للمنهجية التي يمكننا ان تدرس بها بطريقة مفيدة هذه النصوص التي أضعها بين يدى الباحثين ، بحيث نستطيع ان نعمق فهمنا للمضمون الحضارى لتاريخنا وأن نخرج قليلا عن الطرق المسلوكة لدى المؤرخين والتي تضع أمامنا سجلات مملة للمعارك والانتصارات العسكرية ولسير القادة العسكريين والامراء والملوك .

لقد آن الاوان لأن نبحث الآن ، مستعينين بالمعلومات القليلة التي وصلتنا في هذا المجال ، عن دور الشعوب وعن نشاط الرجل العادي في الريف في الانتاج الزراعي ، وعن نشاط رجل الشارع في المدن في التجارة والصناعة وغير ذلك من الوان النشاط اليومي . صحيح أن هذا النشاط الاقتصادي مجهود رتيب ويخلو من اللمعان والاشياء المثيرة للخيال ، ولكن مما لايحتاج الى التاكيد ، هو أن نشاط رجل الشارع ، الفلاح والصانع والتاجر ، يمثل الدعامة الاساسية ، بل والوحيدة ، لترف قصور الملوك والمادة التي تتكون منها عظمتهم ومجدهم العسكري .

والمعلومات التي تساعدنا على تكوين صورة لحياة الشعوب ليست هي تلك المعلومات التي يقدمها الينا مؤرخو القصور الملكية أو حتى المؤرخون المعروفون ، وانما هي التي نستقيها من مشاهدات السياح والرحالين ومن الجغرافيين العرب الذين عنوا بوصف البلاد وتحدثوا عن أدوار الشعوب التاريخية في معركة الانتاج اليومي الرتيب ، بعيدا عن قعقعة السلاح وخارج هالات المجد التي تحيط بالعظماء الذين هم كسالى في معظم الحالات !

ان اللذة التي أشعر بها عند تقديم هذه النصوص للباحثين تنسيني ما تكبدته من المشقة في جمعها والسهر المتواصل لتحقيقها ولترتيبها بطريقة منهجية مفيده ولشرح ماقد يعتورها من الغموض والتعليق عليها. وحسبي انني مقتنع بان العمل الذي قام به بعض الباحثين وسدوا به ثغرات في تاريخ مناطق معينة، مثل أمارى بالنسبة الى تاريخ صقلية، هو من نوع هذا العمل، وانه هو الآخر، سيسد ثغرة في تاريخ المغرب الاسلامي. ومن ثم فان همي الوحيد الآن، هو أن يحسن استغلال هذه النصوص، بحيث لا تعتبر مجرد روايات للمتعة والتسلية.

الجزائر في 27 مارس 1983

اسماعيل العربي

المقدمة

تمتد جزيرة المغرب في مضلع شبه مربع من الارض المرتفعة ويحيط بها البحر الابيض من الشمال،والمحيط الاطلسي من الغرب ، والصحراء الكبرى من الجنوب . وهذا المربع غير متساوى الاضلاع ، حيث أن المسافة التي تفصل بين رأس بونة ورأس اسبرتل ، هي 1,550 كيلومتر ، بينما تبلغ المسافة بين رأس نون وقابس 2,200 كيلومترا ، والمسافة بين رأس نون ورأس اسبرتل ، هي 1,000 كيلومترا ، وبين قابس ورأس بونة 400 كيلومترا . وتبلغ مجموع مساحة الارض التي يضمها هذا المضلع 930000 كيلو متر مربع .

واذا استثنينا المناطق الغربية من المغرب ، والمناطق الشرقية من تونس ، حيث تمتد مساحات من الاراضي الواطئة المنبسطة ، فان الاراضي المغربية كلها تقريبا من الهضاب والمرتفعات التي تحيط بها جبال مختلفة الاوضاع والارتفاع ، وترتبط كلها بسلسلة جبال الاطلس العظيم .

والجزائر ، هي أكبر البلدان الاربعة حظا في ارتفاع الارض . فان متوسط ارتفاع مستوى الارضى في تونس يبلغ 300 مترا ، وفي المغرب الاقصى 800 مترا (وهذا هو متوسط ارتفاع الارض على مستوى البحر في مجموع بلاد المغرب) ، بينما يبلغ متوسط ارتفاع الاراضي الجزائرية 900 متراً .

ولكن هذا لايعني أن الجبال الجزائرية في مجموعها أعلى جبال المغرب ، حيث أن أعلى قمم الجبال في هذا البلد (جبل شلية باوراس) لايزيد ارتفاعها عن 2,328 مترا ، بينما يبلغ ارتفاع جبل طوبكال بالمغرب 4165 مترا . والجبل في مجموع بلاد المغرب ، يكون عادة ، محاطا بهضاب وسهول متدرجة الارتفاع .

وهذا التكوين الطبيعي لبلاد المغرب ، يفسرلنا ظاهرة توزيع المدن بدون تساو بين مختلف المناطق . وهو ، بدون شك ، ذو تأثير كبير على مصير الانسان ورخائه ونموه الاجتماعي وتطوره

الحضاري عبر القرون ـ ذلك التطور الذي يرتكز خصوصا ، على المدن ومراكز العمران ـ ومن ثم على تكييف صلاته مع العالم الخارجي وتفاعله مع مختلف الشعوب التي جاءت الى هذه البلاد للتجارة أو للاستعمار أو لنشر المبادئي والايديولوجية .

وقصة المدن المغربية تبدأ بظهور قرطجنة التي شيدت في سنة 813 ق . م . والتي كانت مركزا للاشعاع الحضاري للفنيقيين الذين استقروا في هذه الديار منذ القرن الثاني عشر قبل الميلاد ، ولكنه اذا كانت قرطجنة أعظم المدن المغربية في العصور القديمة ، فهي ، بالتاكيد ليست أقدم مدن المغرب . فان اوتيك وبنزرت وبونه وطرابلس ، كانت ابعد توغلا منها في القدم ، ولو أننا لا نعرف عن ماضيها شيئا يذكر . بل ان قرطجنة نفسها لا نعرف عنها الا ما ذكره المؤرخون الرومان (وهو يتصل بتدميرها اكثر مما يتصل بحياتها) وعن الحروب البونيقية التي خاضت غمارها هذه المدينة العتيدة بشجاعة وتحمّلت أوزارها وانتهى الامر بتخريبها في سنة 146 ق . م

وكثير من المدن المغربية القديمة (غير قرطجنة) ستنبعث من رمادها وتستانف الحياة في القرون التالية ، بفضل مواقعها على البحر ومراكزها عند ملتقى خطوط المواصلات والتجارة البرية ، وأيضا ، بفضل القصص والاساطير التي تروي ماضيها وتتناقلها الاجيال عبر العصور .

وهذه الاساطير كان كثير منها لا يزال منتشرا في البلاد عندما جاء العرب الى المغرب ، وقد ردد الجغرافيون العرب صداها في كتبهم ، كما قدموا لنا وصفا لبقايا آثارها ، سنتعرف عليه في الصفحات التاليـــة .

على أن تاريخ المدن المغربية الحي انما يبدأ بالفتح الا سلامي وبارتباط الصلة بين هذه البلاد وبين مراكز الحضارة الاسلامية في الشام ، ثم في العراق . فان الجيوش العربية التي حملت معها الرسالة الاسلامية قد فتحت أمامها ، أيضا ، طرقا للتبادل الاقتصادي ولانتقال العلماء والادباء والفنانين ولتحويل الخبرات التقنية الضرورية لبناء المدن ولاقامة دعائم العمران فيهـــا .

وملف « المدن المغربية » الذي نستخلصه مما سجله الجغرافيون العرب والذي يعكس لنا صورة صادقة لنشاط مراكز العمران في المغرب ولنموها واتساعها أو لاندثارها خلال نيف وسبعة قرون ، هو أيضا ملخص تاريخ المغرب في أزهى عصوره ، وأكثرها ازدهارا .

وفي هذه المقدمة التي نمهد بها للاقتباسات التي تصف المدن المغربية ، نقترح أن نقدم

نصوصا لبعض الجغرافيين العرب الذين تحدثوا عن الموضوع ، تمثل نظرتهم الاجمالية الى المغرب من الناحية الجغرافية (الامتداد والحدود الخ .) والعمرانية والاثنوغرافيه ، ثم نردف ذلك بمحاولة لتحديد أصالة المساهمة التي قدمها كل جغرافي للتعريف بالمغرب وقيمة هذه المساهمة . وبذلك سيتمكن القارئ من السير على هدى عند تصفحه لهذه النصوص ، عارفا مسبقا بشخصية الكاتب الذي ننقل عنه،ومكانته العلمية وبرأي الذين تناولوا آثاره بالدرس من المحدثين .

والطريقة التي سلكناها لعرض آراء الجغرافيين ووصفهم الاجمالي للمغرب ، ترتكز حول ثلاث كلمات أساسية ، وهي (المغرب) و (افريقية) و (البربر) . وسنعرض هذه النصوص التي اقتبسناها من طبعات نادرة لكتب الجغرافيين العرب ، طبقا لنفس الترتيب الذي سرنا عليه في تقديم النصوص التي تتصل بالمدن ، أي الترتيب الزمني للمؤلفين .

التعريف بالمغرب

لم يتعرض أحمد بن يعقوب (ت 284 هـ) الذي هو مؤخ أكثر مما يعتبر جغرافيا لوصف امتداد المغرب ولا لذكر حدوده . ولكنه استهل وصفه الذي يبتدئي من برقة لمدن المغرب ، بفقرة بعنوان « المغرب » أورد فيها ملاحظات ينفرد ببعض تفاصيلها ، عن الطريق التي تمتد بين مصر وبرقة . وفيما يلي ما قاله اليعقوبي (1) :

«فاما من رأى أن يسلك من مصر الى برقة وأقصى المغرب ، نفذ من الفسطاط في الجانب الغربي من النيل حتى يأتي ترنوط ، (2) ثم يصير الى منزل يعرف بالمنى (3) قد أقفر أهله ، ثم إلى الدير الكبير المعروف بأبي مينا (4) ، وفيه الكنيسة الموصوفة العجيبة البناء الكثيرة الرخام (5) ، ثم إلى المنزل المعروف بذات الحمام (6) ، وفيه مسجد جامع ، وهو من عمل كورة

---

(1) كتاب البلدان (ص 342)

(2) وصف البكري ترنوط بأنها « قرية جامعة على النيل ، بها أسواق ومسجد جامع وكنيسة وخراب كثير خربته كتامة ، إذ كانوا هناك مع أبي القاسم بن عبيد الله الشيعي » (قارن البكري ص 2 والادريسي ص 160 وياقوت 27/2) .

(3) راجع ترجمة دوسلان الفرنسية لكتاب البكري (ص 8 ، هامش 2)

(4) درس البكري . وفي اليعقوبي : ببومينا ، وهو تحريف ظاهر .

(5) راجع وصفا مفصلا لهذه الكنيسة في البكري (ص 3) .

(6) يعلل البكري هذه التسمية بقوله « لأن كل من شرب من مائها حم ، إلا من عافاه الله » (نفس المصدر) .

الاسكندرية ، ثم يصير في منازل لبني مدلج في البرية ، بعضها على الساحل ، وبعضها بالقرب من الساحل ، منها المنزل المعروف بالطاحونة ، والمنزل المعروف بالكنائس ، والمنزل المعروف بجب العوسج ، ثم يصير في عمل لوبية ، وهي كورة تجرى مجرى كور الاسكندرية ، منها منزل معن ، ثم المنزل المعروف بقصر الشماس ، ثم خربة القوم ، ثم الرمادة ، وهي أول منازل البربر يسكنها قوم من مزاته وغيرهم من العجم القدم ، وبها قوم من العرب من بلى وجهينه وبني مدلج واخلاط ، ثم يصير الى العقبة (1) ، وهي على ساحل البحر المالح ، صعبة المسلك حزنه خشنة مخوّفة ، فاذا علاها صار الى منزل يعرف بالقصر الابيض ، ثم مغاير رقيم ، ثم قصور الروم ، ثم جب الرمل . وهذه ديار البربر من ماصلة بن الواته واخلاط من الناس ثم يصير الى وادي مخيل ، وهو منزل كالمدينة به المسجد الجامع وبرك الماء واسواق قائمة وحصن حصين فيه اخلاط من الناس واكثرهم من البربر من ماصله وزناره ومصعوبه ومراوه وقطيطة . من وادي مخيل الى مدينة برقة ثلاثة مراحل في ديار البربر .»

وأول تعريف جغرافي للمغرب يصادفنا في أواخر القرن الرابع الهجري يقدمه لنا سائح جغرافي من نصيبين ، وهو ابن حوقل الذي تجول في مختلف اقطار المغرب وسجل لنا ملاحظات هي أهم ما وصل الينا في وصف المغرب منذ الفتح الاسلامي . حتى قيامه بهذه الجولة .

جاء في مقدمة كتاب (صورة الارض) مايلي :

«ثم ذكرت المغرب ورسمته في وجهين ، وبدأت بشكل ما حاز منه أرض مصر الى المهدية والقيروان ، وما في براريها من المدن ، وان قلت ، واعقبتها بباقي صورته من القيروان والمهدية إلى أرض طنجة وأزيلي ، ورسمت على بحره مدنه الساحلية وشكلت طرفه الى جميع أنحائها وكيفتها مغربة ومشرقة في سائر جهاتها » (2)

ثم يتعرض ابن حوقل للتعريف بمدلول كلمة « المغرب » عامة فيقول :

«وأما المغرب فبعضه ممتد على بحر المغرب في غربيه . ولهذا البحر جانبان : شرقي وغربي ، وهما جميعا عامران .

---

(1) جبل يبلغ ارتفاعه حوالي 900 قدما ، يبدأ عند البحر مباشرة ويتجه نحو الجنوب الشرقي (قارن جغرافية إبن سعيد ص 147 ، هامش 158 والبكري ص 8) . والعقبة إسم لعدة أماكن فصَّل ياقوت في تعريفها (معجم البلدان 134/4) .

(2) طبعة دوخوية ، ص 16 .

«فاما الغربي ، فمن مصر وبرقة وافريقية وناحية تنس الى سبتة وطنجة فللعرب خاصة ، وأزيلى ، وما في أضعاف هذا الاقليم :

«وأما الشرقي ، فهو بلد الروم من حدود الثغور الشامية الى القسطنطينية الى نواحي رومية وقلورية (1) والانكبردية (2) والافرنجة وجليقة ، ثم باقي ذلك الى آخره للعرب في يد أصحاب الاندلس » (3).

ويمضي ابن حوقل في تحديد تخوم المغرب العربي ، فيرسمها كما يلي :

«وحده من مصر الاسكندرية على النيل وأرض الصعيد حتى يمضي على ظهر الواحات الى برية تنتهي الى أرض النوبة ، آخذاً الى البحر المحيط وممتدا الى حقيقة الغرب بنواحي أرض غانه وارض أودغست ، ثم يستمر عاطفا الى الشمال ، مارا على بلاد برغواطه وماسه الى فوهة بحر الروم الذي يأخذ من البحر المحيط بين أرض طنجة وأرض الأندلس وراجعا . حده من ارض طنجة على البحر الى نواحي تنس وتونس والمهدية من أرض افريقية مقبلا على أرض طرابلس وبرقة والاسكندرية » : (4).

وقد عنى ابن حوقل في تعريفه بالمغرب أيضا ، بحكم مهنة التجارة التي كان يمارسها ، بالناحية الاقتصادية ، فقدم لنا ، الى جانب الوصف التفصيلي الذي سجله عن كل بلدة على انفراد ، فقرة عن تخصص المغرب في الانتاج والتصدير الى المشرق . وفي ذلك يقول :

« فأما ما يجهز من المغرب الى المشرق : المولدات الحسان كالتي استولدهن بنو العباس وغيرهم واكابر رجالهم وولدن غير سلطان عظيم ، كسلاَّمة البربرية ، أم أبي جعفر هارون الرشيد والواثق ابن المعتصم ، وقتول أم أبي منصور محمد القاهر بن المعتضد ، وغير من ذكرت من ملوك المشرق وامرائه ، والغلمان الروقة الروم ، والعنبر ، والحرير والاكسية الصوفية الرفيعة والدنية الى جانب الصوف وما يعمل منه ، والانطاع والحديد والرصاص والزئبق والخدم المجلوبون من بلاد السودان ، والخدم المجلوبون من أرض الصقالبة على (طريق) الاندلس .

---

(1) Calabre

(2) La Lombardie

(3) راجع خريطة إبن حوقل المرفقة بكتابه .

(4) نفس المصدر ، ص 64 .

ولهم الخيل النفيسة من البراذين والبغال الفره والابل والغنم ، وما لديهم من ماشية البقر وجميع الحيوان الرخيص . فأما أسعارهم ، على تنائي مدنهم وديارهم ، فعلى غاية الرخص في الاطعمة والاغدية والاشربة واللحمان والادهان . ولهم من جيد الفواكه والتمور والارطاب وسائر الاغذية ، وعندهم من الجمال الكثيرة في براريهم وسكان صحاريهم التي لاتدانيها في الكثرة ابل العرب : »

ويمضي الرحالة ابن حوقل في ذكر ما شهده من العادات والتقاليد في بلاد المغرب وفي صف ما لاحظه من سلوك سكان هذه البلاد فيقول :

«هذا الى طاعتهم لمن ملكهم فثقفهم ونفارهم عمن أهملهم وأغفلهم . وليس في بلدانهم من الفواحش الظاهرة وتعاطي الامور المنكرة ، كالعيدان والطنابير والمعازف والنوائح والقيان والمخنثين والفسق الشنيع ما بكثير من المواضع . وقد يعرف في بعض نواحيهم من التهور الشديد والجنون العتيد وبذل السيف وبدار الطيش ، ويوجد عندهم فيمن رق أدبه وحسن عمله . »

«وفيهم خاصة بغير هذه الصفة ، لم يزالوا تسمو هممهم وتتوق نفوسهم الى ورود المشرق بسعة أخطارهم وفاشي مروآتهم ، فيزدادون ظرفا وأدبا ومحتدا وفروسية ، وعملا في جميع وجوه الفضل وسبل النبل . وكان ممن قدم مصر بهذه الحال قديما ، محمد بن هواشا ، وكانت فيه آلة من الآت الخير ، فاكتنفه السلطان بمصر واستخدمه لبسالته وشجاعته ورياسته ، فتقدم في كل حال من الجميل والخير .» (1)

وتحدث ابن حوقل عن العنصر البربري في المغرب ، فقال :

والبربر السكان ، قبائل لايلحق عددهم ولا يوقف على آخرهم لكثرة بطونهم وتشعب افحاذهم وقبائلهم وتوغلهم في البرارى وتبددهم في الصحاري . وجميعهم من ولد جالوت ، الا اليسير منهم ، وفيهم ملوك ورؤساء ومقدمون في القبائل يطيعونهم ويامرونهم فلا يخالفونهم . والمال فيهم من الماشية كثيرغزير .

ومن المتغربين الموغلين في البراري ، صنهاجة أودغست . وسمعت أبا اسحاق ابراهيم

---

(1) نفس المصدر ص 94 ـ 95 .

بن عبد الله المعروف بفَرَغَ شغله ، وهو صاحب الدَّيْن والصكُّ الذي قدمت ذكره (1) بأودغست يقول : سمعت تنبروتان بن اسفيشر يقول — وكان ملك صنهاجة أجمع — انه يلي أمرهم منذ عشرين سنة ، وانه لايزال في كل سنة يرد عليهم قوم منهم زائرين له لم يعرفهم ولا سمع بهم ولامقلهم . قال : ويكونون نحو ثلاثمائة الف بيت من بين نوالةوخصّ ، وكان الملك في أهل هذا الرجل لهذا القبيل ، منذ لم يزالوا .»

وبهذا الوصف الذي امتزجت فيه دقة العالم العارف بروايات المتقدمين بملاحظات السائح المتيقظ لمميزات وخصائص الشعوب ، وبوصفه الطريف والغني معا للمدن المغربية ولطرق المواصلات والتجارة التي تربط مختلف اجزاء هذه البلدان ، اعتُبِر ابن حوقل ، بحق ، «الخبير الاول» من بين الجغرافيين العرب في شئون المغرب (2)

وينتهي القرن الرابع الهجري بظهور جغرافي كبير ، وهو المقدسي الذي خصص كتابه : « أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم » لوصف مختلف ولايات المملكة الاسلامية التي زار كثيرا منها في الشرق ، ولكنه لا يبدو أن رحلاته تجاوزت جزيرة صقلية الى المغرب الذي كرس له مع ذلك مكانا حسنا في كتابه . وفيما يلي الفقرة التي وصف فيها « أقليم المغرب » ، كما يسميه :

«هذا اقليم كبير سري كثير المدن والقرى ، عجيب الخصائص والرخاء . به ثغور جليلة وحصون كثيرة ورياض نزهة . وبه جزائر عدة ، مثل الاندلس الفاضلة العجيبة وتاهرت وسجلماسة المختارة الفريدة ، واصقلية ، الجزيرة المفيدة : أهلها في جهاد دائم ، ثم الغني فيه سالم . به ، كالبصرة،مدن عدة ، ولهم أيضا في الخير رغبة ، وللسلطان عدل ونظر وحسبه ، متصل بالبحر . خير جار وخير قوم لكل سائر ومار ، قد غاب في الزيتون مدنة ، وبالتين والكرمات أرضه ، يجري خلالها الانهار ، ويملأ غيطانها الاشجار ، الا أنه بعيد الاطراف ، كثير المفاوز ، صعب المسالك ، كثير المهالك ، في زاوية الاسلام موضوع ، وبعضه خلف البحر مقطوع ،فلا فيه راغب ، ولاله ذاهب ، ولاعنه سائل ، ولايفضله قائل . لم يخرج علما

(1) يشير إلى القصة التي رواها والتي تدل على مدى الازدهار الاقتصادي وسعة نطاق العمليات التجارية بأودغست ، وهي أنه رأى صكا في هذه المدينة ، فيه ذكر حق لبعضهم على رجل من التجار ، وهو من أهل سجلماسة بإثنين‌وأربعين ألف دينار ، نفس المصدر (ص 96) .

(2) الأدب الجغرافي العربي لكراتشكوفسكي (204/1) .

مذكورا ، ولازاهدا مشهورا الا القليل . ثقلاء . وان كانوا مستورين ، بخلاء وان كانوا منعمين .»

ويمضي المقدسي فيقول — :

«وهو اقليم جليل كبير طويل ، يوجد فيه اكثر ما يوجد في سائر الاقاليم ، مع الرخص .
كثير النخيل والزيتون ، به مواضع الحر ومعادن البرد ، كثير اليهود ، جيد الهواء والماء .

وأما الحر ، فانك تجده من مصر الى السوس الاقصى ، الا في مواضع ، فان بها جبالا
وبلدانا باردة .

وأما المذهب ، فعلى ثلاثة اقسام : أما الاندلس ، فمذهب مالك وقراءة نافع . وهم
يقولون : لانعرف الا كتاب الله وموطأ الامام مالك . وان ظهروا على حنفي أو شافعي نفوه .
وان عثروا على معتزلي أوشيعي أو نحوهما ، ربما قتلوه . وبسائر المغرب الى مصر ، لايعرفون
الشافعي ، رحمه الله ، وانما هوأبو حنيفة ومالك رحمهماالله !

وكنت يوما أذاكر مع بعضهم مسألة ، فذكرت قول الشافعي رحمه الله ، فقال لى : اسكت.
من هوالشافعي ؟ انما كانا بحرين : ابوحنيفة لاهل المشرق ، ومالك لاهل المغرب :

«ومن برقة ، تحمل ثياب الصوف والاكسية . ومن صقلية الثياب المقصورة الجيدة .
ومن افريقية الزيت والفستق والزعفران واللوز والبرقوق والانطاع والقرب . ومن فاس التمور وجميع
ماذكرنا .

«ومن خصائص الاقليم ، المرجان ، يخرج من جزيرة في البحر اسم مدينتها ، مرسى
الخرز ، يدخل اليها في طريق دقيق ، كالمهدية ، من بحرها يرتفع القرن ، وهو المرجان ،
لامعدن له غيرها . وهي في جبال ، يخوضون الى جمعه في قوارب ومعهم صلبان من خشب
قد لفوا عليها شيئا من الكتان المحلول وربطوا في كل صليب حبلين ياخذهما رجلان فيرميان
بالصليب . ويدبر النواتي القارب ، فيتغلف بالقرن ثم يجذبونه . فمنهم من يخرج من عشرة
آلاف إلى عشرة دراهم ، ثم يجلى في اسواق لهم ويباع جزافاً رخيصا ، لا اشراق له قبل جليه
ولا لون » (1) .

وفي منتصف القرن الرابع الهجرى يقدم لنا جغرافي اندلسي ساهم مساهمة كبيرة في

---

(1) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم (ص 231—239) .

تنمية علم الجغرافيا ، وهو ابو عبيد البكري ، تعريفا لحدود المغرب ، ولكن في سياق الحديث عن افريقية . والشيء الذي يلفت النظر في تحديد البكرى لتخوم المغرب ، هوأنها لاتبدأ عند ضفة النيل الغربية أو عند الاسكندرية ، طبقا للنظرية التي تعزي الى البيروني والتي سار عليها معظم الجغرافيين العرب ، وانما هي تبدأ عند برقة ، أو في القسم الشرقي من جون سرت الكبير (1) . وفي هذا الصدد يقول البكرى (2) - :

«وحد افريقية طولها من برقة شرقا الى طنجة الخضراء غربا . واسم طنجة موريطانية ، وعرضها من البحر الى الرمال التي هي أول بلاد السودان ، وهي جبال ورمال عظيمة متصلة من المغرب الى الشرق وفيه يصاد الفنك الجيد » (3) .

واذا تجاوزنا القرن السادس الهجري ، وهو القرن الذي عاش فيه الادريسي الذي لايقدم مساهمة تذكر بشأن تحديد تخوم المغرب ، فسنلتقي بجغرافي كبير عني بهذه المسألة ، وهو ياقوت الحموي . وميزة يقوت الاساسية ، هي أنه يفرق بين مصطلحين (افريقية) و (المغرب) ويحاول أن يحدد لكل منهما تخوما .

فبصدد الحديث عن افريقية يقول ياقوت :

«افريقية اسم لبلاد واسعة ومملكة كبيرة قباله جزيرة صقلية ، وينتهى آخرها قباله جزيرة الاندلس . والجزيرتان في شمالها . وحد افريقية من طرابلس الغرب ، من جهة برقة والاسكندرية الى بجاية ، وقيل الى مليانة ، فتكون مسافة طولها نحوشهرين ونصف » (4)

وفي رسمه لتخوم المغرب يقول - :

«بلاد واسعة ووعثاء شاسعة . قال بعضهم : حدها من مدينة مليانة ، وهي آخر حدود

---

(1) وهو غير جون سرت الصغير الذي هو جون قابس .

(2) ص 21

(3) الفنك نوع صغير من الثعالب لا يتجاوز حجمه حجم القط . وهويعيش في المناطق الحارة من أفريقية ، وخصوصا في المناطق التي تمتد من الحبسة حتى دارفور وحتى جنوب وهران . وقد كان العرب يلبسون فراء الفنك . قارن ما ذكره صاحب لسان العرب (1137/2) ودوزي R. Dozy في Sup. Au Dic. Ar. (2/293) .

(4) المعجم (228/1) .

افريقية الى آخر جبال السوس التي وراءها البحر المحيط ، وتدخل فيه جزيرة الاندلس ، وان كانت الى الشمال اقرب ماهي . وطول هذا في البر مسيرة شهرين» (1)

ولما تعرض ياقوت في مادة آسيا من معجمه الكبير ، لتقسيم العالم الى مشرق ومغرب ، قال :

«وأصل هذه القسمة من أهل مصر ، وعليه بقيت عادتهم الى الآن . فانهم يسمون ماعن ايمانهم ، اذا استقبلوا الجنوب مغربا ، وعن شمالهم مشرقا ، وهوكذلك بالاضافة اليهم ، الا انهم رفعوا الاضافة وأطلقوا الاسمين ، فصار المشرق لذلك أضعاف المغرب . ولما اخترق بحر الروم قسم المغرب بالطول ، سموا جنوبي القسمين لوبية ، وشماليها اوربى . وأما المشرق فتركوه على حاله قسما واحدا من أجل أنه لم يقسمه شيء كما قسم البحر المغرب » (2)

وفي مادة البربر . تحدث عن امتداد بلادهم ، وحدد للمغرب نفس الامتداد الذي رسمه البكرى (وياقوت ينقل كثيرا عن البكرى) ، فقال :

«البربر اسم يشمل قبائل كثيرة في البلاد المغرب أولها برقة ، ثم الى آخر المغرب و (بداية) البحر المحيط ، وفي الجنوب الى بلاد السودان . وهم أمم وقبائل لاتحصى ، ينسب كل موضع الى القبيلة التي تنزله ، ويقال لمجموعهم بلاد البربر ، وقد اختلف في أصل نسبهم ، فاكثر البربر تزعم أن أصلهم من العرب ، وهو بهتان منهم وكذب . »

وبعد ما يستعرض مختلف الاقوال المعروفة التي يوردها المؤرخون والجغرافيون العرب عن نسب البربر وأصلهم ، يمضي فيقول :

«والاكثر والاشهر في نسبهم أنهم بقية قوم جالوت لما قتله طالوت ، هربوا الى المغرب فتحصنوا في جبالها ، وقاتلوا أهل بلادها ثم صالحوهم على شيء ياخذونه من البربر وأقاموهم في الجبال الحصينة»

وبعد ذلك ، ينقل ياقوت عن أحمد بن يحي بن جابر ، عن عبد الله ابن صالح قوله : «وانما هم (البربر) من الجبارين الذين قاتلهم داوود وطالوت وكانت منازلهم على الدهر

---

(1) نفس المصدر (161/1) .
(2) نفس المصدر (54/1) .

ناحية فلسطين . فلما اخرجوا من أرض فلسطين ، أتوا المغرب ، فتناسلوا به واقاموا في جباله » (1)

على ان ياقوت يأتي بشيء طريف في هذه النسبة يخالف فيه معظم النسابين ، وهو أنه يستثني من الانتساب الى الاصل الفلسطيني ، قبيلة كتامة وقبيلة صنهاجة التي نعرف حرص ملوكها على ربط أصلهم بالعرب ، بحيث وضعت لهم شجرة نسب لهذه الغاية لاصلة لها باية حقيقة معروفة . وشجرة النسب هذه كانت شائعة في عهد ياقوت ولا يستبعد أن يكون قد اطلع عليها . وعلى كل حال ، فان كتامه وصنهاجه في نظر ياقوت : «من بني افريقش بن قيس بن صفي بن سبأ الاصغر ، كانوا معه لما قدم المغرب وبنى افريقية . فلما رجع الى بلاده تخلفوا عنه عمالا على تلك البلاد فبقوا الى الآن وتناسلوا » .

وهكذا ، فان ياقوت ، هو الآخر ، يعتقد في حقيقة أسطورة غزو ملك حميري لايعرفه التاريخ ، لافريقية في جيش ضخم تاركا وراءه «عمالا» من القبيلتين الوحيدتين التين عرفتهما العصور القديمة في هذه البلاد على وجه التحديد (2)

ولكن ياقوت الذي ينقل عن غيره كل ما كتبه عن المغرب وافريقية والبربر تقريبا ، يطالعنا برأي ينفرد به عن غيره وقد يرى البعض فيه تحاملا مجافيا للحقيقة ، يتصل بصفات يزعم أنها من خصائص البربر التي تميزهم عن شعوب العالم الاخرى . فهو يرى أن البربر أجفى خلق الله واكثرهم طيشا . . . وأسرعهم الى الفتنة وأطوعهم لداعي الضلالة وأصغارهم لنمق الجهالة ، ولم تخل جبالهم من الفتن وسفك الدماء قط . ولهم أحوال عجيبة واصطلحات غريبة وقد حسن لهم الشيطان الغوايات وزين لهم الضلالات ، حتى صارت طبائعهم الى الباطل مائلة ، وغرائزهم ضد الحق حائلة ، فكم من ادعى فيهم النبوة ، فقبلوا ، وكم زاعم فيهم أنه المهدى الموعود به فاجابوا داعيه ولمذهبه انتحلوا ؟ وكم ادعى فيهم مذاهب الخوارج ، فالى مذهبه بعد الاسلام انتقلوا ، ثم سفكوا الدماء المحرمة ، واستباحوا الفروج بغير حق ، ونهبوا الاموال واستباحوا الرجال ، لا بشجاعة فيهم معروفة ، ولكن بكثرة العدد وتواتر المدد ، وتحكى عنهم عجائب .

---

(1) نفس المصدر (1/368—369) .

(2) بحثنا موضوع غزو ملك حميري مزعوم للمغرب بتوسع في كتابنا : «دولة بني حماد» ، طبع الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، 1980 ـ ص 9 ـ 40 .

وهذه النعوت والاوصاف التي يلصقها ياقوت ظلما وبهتانا بشعب وقف في جميع حقب تاريخه موقف المدافع عن ارضه ضد الغزاة الاجانب ، تكون اكثر صدقا ودقة لو أطلقها ياقوت على حشود التتر الذين خربوا الحضارة الاسلامية وقد اضطر هو شخصيا الى الهروب أمام زحف جنكيزخان على خوارزم تاركا وراءه كل ما يملكه في الدنيا وراضيا من الغنيمة بالنجاة بنفسه (1)

ولكن تحامل ياقوت على البربر لايقف عند هذا الحد الذي هو كثير ، متى صدر عن عالم مثله ، عود الناس على التحقيق والتدقيق ، بل يتجاوزه ليقذف البربر بتهمة أخرى أقل ماتوصف به أنها بشعة . فقد اتخذ ياقوت من حكايات ردد صداها ابن حوقل بكثير من الحشمة والتحفظ عن كتامة ، ثم نفاها بعد ذلك ، أساسا لتقرير تفصيلي يوصم البربر أجمعين وفي كل مكان ، بخصلة هم أشد الشعوب التي نعرفها استنكارا لها وأبرأ عباد الله منها (2)

بل ان ياقوت ليذهب في بغضه للبربر حدا يدعو الى الدهشة والاستغراب ، فيورد حديثا نبويا يعزوه إلى مالك بن أنس ويزعم أن النبي (صلعم) أمره أن يبيع عبدا له بربريا «ولو بدينار» . ولما تساءل أنس عن سبب ذلك ، أجابه الرسول بانه ينتمي الى أمة بعث الله اليهم نبيا فذبحوه وطبخوه وأكلوا لحمه ! ... (3) وهذا الحديث مزيف ولا أساس له حيث لا يستجيب لاي شرط من شروط صحة رواية الحديث ، ولكنه لو فرض جدلا ، أن حوارا من هذا النوع جرى فعلا ، ألم يكن الاولى بياقوت أن يعيد أصل الغلام البربري الى بربرة (الصومال) الواقعة على شواطئ خليج عدن مقابل اليمن ، وهي بلاد اشتهرت بخيلها وعبيدها منذ عهد امرىء القيس (4) بدلا من ان يوهمنا أنه من بلاد البربر ؟ فان بلاد البربر لم تعرف قط بتصدير العبيد في أي عهد من عهود تاريخها ، قبل الاسلام أو بعده . وهذا التحريف والتزوير من ياقوت لايمكن ان يكون مرجعه الجهل ببلاد البرابر (بربرة) السود ، لان هذا الكاتب يردف مادة (البربر) في معجمه مباشرة بمادة (بربرة) التي يشرح خصائصها (5)

---

(1) قارن ما ذكره ابن حوقل أعلاه عن البربر (ص 10) .

(2) أشار إبن حوقل إلى هذه الخصْلة وقال أن أصل ذلك أن أبا عبد الله الداعي استباحهم به (بذل الأولاد لأضيافهم) ، وهو يعني كتامة . ولكنه أردف يقول : «وليس نرى بكتامة ولا بغيرها شيئا من هذا الأمر ، ولا يجيزونه ولا يستحسنونه» (المصدن المذكور ص 93) .

(3) راجع المعجم ، مادة «البربر» (1/368 — 369) .

(4) راجع تعليقنا على جغرافية ابن سعيد في الهامش رق؛ 8 (ص 211 – 212) .

(5) راجع المعجم ، مادة «بربر» (1/69 – 370) .

على أننا اذا عرفنا أن ياقوت يجهد نفسه لينقل مايثبت أن البربر ليسوا من بني آدم اطلاقا ، زالت دهشتنا واستغرابنا . فان هذا العالم الجليل لا يتورع عن ان ينقل عن الشاعر ابي القاسم النحوى الاندلسي رأيه في البربر الذي ضمنه هذين البيتين الذين يدلآن على عبقرية وموهبة شعرية خاصة في هجو الشعوب :

رأيـــت آدم في نـــومـــي فقلـــت لـــه
أبـــا البـــريـــة إن النـــاس قـــد حكمـــوا
أن البـــربـــر نســـل منـــك ، قـــال أنـــا ؟
حـــواء طـــالقـــة ان كـــان مـــازعمـــوا

والجغرافي الآخر الذي يقدم لنا نظرة عامة عن بلاد البربر (المغرب) ، هوزكرياء بن محمد القزويني ، الكوزموغرافي الذي كان معاصرا لياقوت في أواخر حياته ، ياقوت الذي نقل عنه كثيرا واقتنع ببعض مزاعمه التي تتصل بالعنصر البربري . يقول القزويني في كتابه (آثار البلاد واخبار العباد) ما يلي :

«بلاد البربر واسعة (تمتد) من برقة الى آخر بلاد المغرب و (بداية) البحر المحيط . سكانه أمة عظيمة يقال أنهم من بقية جالوت . [ف] لما قتل هرب قومه الى المغرب في جباله . وهم أجفى خلق الله وأكثرهم بطشا وأسرعهم الى الفتنة . . . وأطوعهم لداعية الضلالة ولهم أحوال عجيبة واصطلاحات غريبة سوَّل لهم الشيطان الغوايات وزين لهم أنواع الضلالات» (1) .

وبعد ذلك يروى القزوينى قصة الغلام والحديث المزعوم والنبي الذي اكله البربر . وهي قصة من الواضح أنه استقاها مثل غيرها من عناصر وصفه من معاصره ، ياقوت ، حيث اننا لم نعثر عليها عند كاتب آخر سواه .

ولما تحدث عن افريقية ، قال القزوينى انها :

«مدينة كثيرة الخيرات طيبة التربة وافرة المزارع والأشجار والنخيل والزيتون . وكانت افريقية من قبل بلاد اكثيرة ، والان صحارى [تمتد] مسافة أربعين يوما بارض المغرب ، بها برابرة ، وهم : مزاته وهوارة وغيرهم ، وماء اكثر بلادها من الصهاريج .

(1) آثار البلاد (ص 163 – 164) .

«وبها معادن الفضة والحديد والنحاس والرصاص والكحل والرخام . ومن عجائبها بحيرة بنزرت . حدثنى الفقيه أبو الربيع الملتانى (1) انه يظهر في كل شهر من السنة فيها نوع من السمك يخالف النوع الذي كان قبله . واذا انتهت السنة يستانف الدور فيرجع النوع الاول (2) . وكذا نهر شلف ، فانه يظهر في كل سنة في زمن الورد صنف من السمك يسمى الشهبوق ، وهو سمك طوله ذراع ولحمه طيب الا أنه كثير الشوك ، ويبقى شهرين ويكثر صيده في هذا الوقت ويرخص ثمنه ، ثم ينقطع الى القابل ، فلا يوجد شيء منه الى السنة القابلة ، أوان الورد» (3) .

وآخر كاتب جغرافي عربـي ، زمنيا ، يقدم لنا نظرة اجمالية للتعريف بالمغرب ولرسم حدوده هو الملك المؤيد اسماعيل أبو الفدا . فقد ذكر في معرض الحديث عن المغرب في تقويم البلدان ما يلي — :

«يحد بلاد المغرب من الشرق ، حدود مصر من ظهر الواحات الى بحر الروم (البحر الابيض) عند العقبة التي على طريق المغرب بين برقة والاسكندرية ، على بحر الروم ، ومن جهة الشمال ، بحر الروم من العقبة المذكورة الى فم الزقاق (4) عند سلا وطنجة ، ومن المغرب البحر المحيط ، من طنجة الى صحراء لمتونة في الجنوب ، ومن الجنوب ، المفاوز الفاصلة بين بلاد السودان وبلاد المغرب . وهذه المفاوز ممتدة غربا بشرق من المحيط الى ظهر الواحات من حيث ابتدأنا .

«وبلاد المغرب ثلاث قطع : الغربية منها وتعرف بالمغرب الاقصى ، وهي من ساحل البحر المحيط الى تلمسان غربا وشرقا ، ومن سبتة الى مراكش ثم الى سجلماسة ، وما في سمتها شمالا وجنوبا :

«والقطعة الثانية ، تعرف بالمغرب الاوسط ، وهي من شرقي وهران عن تلمسان الى آخر حدود مملكة بجاية من الشرق.

«والقطعة الثالثة الشرقية ، افريقية ، وتمتد الى برقة (و) الى حدود ديار مصر . ويقال للبر الذي يعدي من فرضه الى الاندلس برَّ العدوة ، وهو المغرب الاوسط والاقصى . وأما

(1) لم أعثر في كتب التراجم والسير على هذا الاسم ، ولربما كان محرفا عن الملياني كما أورده ياقوت الذي نقل عنه في مادة «تنس» في معجمه (49/2) . انظر كذلك أكرا تشكوفسكي (المصدر المذكور 366/1) الذي يفترض أنه ربما كان ملاحا تجول في سواحل افريقية .

(2) ذاعت قصة هذا الحوت بحيث أن معظم الجغرافيين العرب الذين تعرضوا لوصف بحيرة بنزرت يوردونها . راجع ، على الاخص ، معجم البلدان (499/1 ـ 500) جغرافية ابن سعيد (ص 43) الادريسي المصدر المذكور (ص 114 ـ 115) البكري المصدر المذكور (ص 58) .

(3) آثار البلاد (ص 148) .

(4) مضيق جبل طارق .

الفـــهــــرس